المجلد الحادي عشر الجزء ١ و ٢

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

كانون الثاني — شباط

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

فهرس الجزءين الاول والثاني

« اللذين صدرا من قبل »

صفحة		
١	التقرير السادس (باعمال المجمع العلمي العربي) في سنتي ١٩٢٩ — ١٩٣٠	السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي
١٢	اعضاء المجمع العلمي في سنة ١٩٣٠	
١٦	« « الراحلون منهم	
١٧	المتبرعون للمجمع العلمي	
٢٢	محاضرات المجمع	
٣٥	آراء المفكرين في المجمع العلمي	
٣٧	الجاحظ	السيد شفيق جبري
٤٤	اللغة العربية وخزائنها الادبية (محاضرة)	السيد خليل مطران
٥٥	أدبنا القومي	باحث
٦١	« مطبوعات حديثة » = البيان المُغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب · الديمقراطيون البلجيكيون ·	السيد محمد كرد علي
٦٥	مقاييس اللغة	الشيخ « المغربي »
٧٢	اول عهدي بالجاحظ	السيد شفيق جبري
٧٨	نواحي الجاحظ	« «
٨٤	ادبنا القومي (٢)	باحث
٩٧	واسطة السلوك في سياسة الملوك (كتاب)	السيد محمد سعيد الزاهري
١٠٢	رسالة الكرم (٦)	السيد سليم الجندي
١٠٩	« آراء وافكار » = تأويل كلمات في تاريخ حلب : دمشق، هل يقال فيها دمشقة ؟ من نوادر مخطوطات دار الكتب الظاهرية	الشيخ كامل الغزي والشيخ «المغربي» والشيخ حسني الكسم
١١٩	« مطبوعات حديثة » = معجم اسماء النبات · القبائل الرحالة والنصف رحالة · مختصر في القضاء البدوي · تهافت التهافت لابن رشد · تاريخ سوريا قبل الفتح الاسلامي · كتاب البدع والنهي عنها ·	الامير مصطفى الشهابي والسيد م · ك والشيخ «المغربي»

التقرير السادس

باعمال المجمع العلمي العربي

— في سنتي ١٩٢٩ — ١٩٣٠ —

من السيد محمد كرد علي وزير المعارف ورئيس المجمع العلمي العربي الى صاحب الفخامة الاستاذ الشيخ محمد تاج الدين الحسني رئيس مجلس الوزراء في دولة سورية المعظم ·

غرض المجمع

لم يتحول المجمع العلمي العربي عن الغاية التي أنشئ لتحقيقها منذ ١٩١٩ · وكانت اللغة وكل ما يعيد اليها رونقها ، واحياء آثار السلف والمعاصرين ، أهم ما تمحض له ، مستعيناً على نشر هذه الفكرة بالقاء محاضرات في بهوه ، في موضوعات أدبية وتاريخية وأثرية واقتصادية واجتماعية ، ولهذا الغرض أنشأ مجلته ، فكانت معيار ارتقاء الآداب في هذه الديار ·

ذكرت في تقريري الخامس الذي رفعته الى فخامتكم منذ سنتين ان العشر السنين التي أتت على المجمع ، كانت دور تمرين ، واستقراء واستجماع قوى · وهاتان السنتان الماضيتان كانتا على هذا النحو ايضاً ، اللهم الا ما كان من دخول تعديل في وضع المحاضرات ، وفي نقد المطبوعات الحديثة · ولا يتيسر الآن الاضطلاع بغير ذلك لان المجمع في منزعه العلمي ادعى الى ان يكون من المحافظين المدققين ، منه الى المجددين المتسرعين ، هو مفتون بجمال القديم ، ولن تفوته روعة الحديث ·

نعم يكره المجمع الجمود ، وكذلك يكره العبث بالقديم النافع ، فهو يسير باللغة كما سار المجمع العلمي الباريزي باللغة الفرنسية الا قليلا . يريد ان يحيي كنوزها القديمة ، ويحسن الانتفاع بتراث الاجداد ما أمكن ، فاذا أعوزته المادة اشتق وعرّب . ولا يخرج بحال عن روح هذا اللسان . ولذلك كان منذ بدء عمله ينقد من الكتب والمقالات كل ما يرجم باللغة القهقرى ، ويسلب منها بهاءها ورواءها . ولطالما استهدف لامتعاض بعض من نقد تآليفهم ومطبوعاتهم نقداً علمياً . والمجمع العلمي — وغيرته على الآداب غيرته — يصعب عليه ان يصانع المحسن وغير المحسن ، وهو يعتقد ان مجلته ليست من المجلات التجارية التي قد لاتمحض المتأدبين النصح ثقيةً ومنافاةً . ولذلك تراه قد تجافى ايضاً عن بث دعاية واسعة النطاق لمجلته ، وترك مسألة انتشارها تجري في أعنتها ، لتعرف بطول الزمن ، لا بوسائط لاتتناسب مع شرف العلم وكرامة العلماء .

لم يلتفت المجمع الا الى غرضه الذي اخذ نفسه به ، وأغفل ما ورد عليه من اعتراضات واقتراحات ، لانه يرمي الى انفاذ خطة عينها ، وانفاذ قانون له مسنون ، اذا خرج عن مضمونه ضاعت الفائدة منه ، وادركه العثار . وحبذا اليوم الذي يقل في الشرق القائلون ، ويكثر العاملون ، ويدرك القوم ان لاحياة لأمة بغير التخصص ، وان من رُزق السعادة في ان يؤلف وينفع الناس في الأدب مثلاً ، يستحيل عليه ان يؤلف في الرياضيات ، وان الحائك غير الحداد ، والزارع غير التاجر ، وان أهم الاسباب فيما نال الشرق من انحطاط ، أن عمل الناس فيما لا يعلمون ، وقدروا كفاءتهم اكثر مما تساوي .

تعلمون يا مولاي ان العشر السنين والعشرين والثلاثين ، لاتعدُّ شيئاً يذكر في باب استكمال أسباب الحياة العلمية . وان أمة ضعفت ملكاتها العقلية ، بضعف العلوم والآداب قروناً عديدة ، يتعذر عليها ان تستعيد مكانتها الاولى في بضع سنين ، مها بلغ من ذكاء أبنائها ، وتوفر لهم من أسباب التفوق والانبعاث . وان عاصمة بلاد كم اتغتبط على كل حال بان قام فيها هؤلاء الجماعة من رجال المجمع يعنون باللغة وما اليها ، على حين حاولت أقطار عربية كثيرة إنشاء مثله ، فلم توفق مع الأسف الى اطراد عملها ، فتراجعت وعملها في دور التكوين . وكنا نقول ولا نزال نقول ، ان مصر كانت أحق

بهذا الفضل ، بما تلقف بنوها من العلوم المختلفة ، وبما سبقتنا به من الاخذ بمذاهب الارتقاء ، حتى جاءت فيها طبقة من العلماء والادباء يقل مثيلها في الاقطار العربية الاخرى . وعلى كل فهذا جهد المقل ، ورجاؤنا في المستقبل عظيم ، وشعارنا اذا كان فيامضى السير ولو في الظلام ، فرمزنا في الآتي أن نسير في نور العلم الساطع .

كان تأسيس مدرسة الادب العليا من أهم اماني المجمع ، فوضعت قواعدها الآن بفضل رعايتكم ، وقامت في السنة الماضية على الصورة التي ارتضيتموها ، وبعناية فخامة المسيو بونسو المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في الشام ، الذي ما برح منذ كان رأس الانتداب في بلادنا العزيزة ، يأخذ بيد المجمع العلمي ، ويقدر عمله الضئيل قدره . ولقد ضمنتم للدارسين بمدرسة الادب العليا — واربعة من اعضائه يدرسون الآن في صفوفها — أسباب ارتقاء لغة البلاد ، واللغة الفرنسية اداة تمدننا الحديث . واذا تم هذا فللمجمع أمنية أخرى يعبّد لها الطرق الموصلة منذ سنين ، وهو احياء عدة كتب قديمة في الآداب ، ووضع معجم متوسط يضم اليه ماوضعه جماعته او غيرهم من الألفاظ والمصطلحات العلمية ، وبذلك يتيسر له او لغيره من الحكومات العربية الكبرى ، ان يقوم بعد حين بوضع معلمة عربية (دائرة معارف) ، مستعيناً بمن أنبغت البلاد العربية من الكاتبين والباحثين ، ومسترشداً بمن ضمهم الى جملته من علماء المشرقيات المستعربين في الغرب والشرق .

وقد طبع المجمع الجزء الثامن من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي ، نشره الاستاذ مرجوليوث أستاذ جامعة اكسفورد واحد اعضاء المجمع العلمي ، ونشر محاضرة الدكتور اسعد الحكيم احد اعضائه في مضار المسكرات النفسية والاجتماعية ووزع كثيراً من نسخها مجاناً لتعم فائدتها .

ما تم من أعمال المجمع

وبعد فقد قضى المجمع دور الطفولة ، ودخل اليوم في اول سن الشباب ، او انه انتهى من دور التأسيس ، وبدأ بدور البناء ، وما أصعبه من دور على من يقدّر عظم

التبعات . وقد كان في نية اعضاء المجمع ان يقيموا ، بمناسبة اتمام مجمعهم العقد الاول من حياته ، حفلة رسمية تكون لها صفة المؤتمر العام ، فيشهدها جميع اعضائه في البلاد الاخرى ، ومنهم علماء المشرقيات في الغرب ، ليتباحثوا الأدب واللغة والتاريخ ، على مثال مؤتمر علماء المشرقيات ، ثم رأى تأجيل ذلك ريثما يتمكن من اتخاذ عامة أسباب الفائدة للمؤتمرين ليثمر المؤتمر ثمرة نافعة من كل الوجوه ، بفضل ماسيستمده المجمع من تحامتكم من قوة ، وازمع ان يظل على دؤبه في مزاولة ماتتعاوره ايدي رجاله من الاعمال الادبية ، لعلمه بالنواقص المحسوسة في عمله ، فلا تكون دعوة العلماء من القاصية قليلة الزبدة ، في زمن تقاس فيه الامور بنتائجها .

ولقد أدخل المجمع اصلاحات جمة على داره ، ودار الكتب الظاهرية التي أنيط به لاول امره تعهدها ، فرمّ في البناء ، واخذ الاسباب لاستملاك بعض ما كان داخلاً فيها ، وملتصقاً بها من المباني ، لتفي داره والدار المحاذية لها بغرضه ، من توسيع دائرته ، ولتكون الداران صالحتين لاستيعاب كل مايدخل دار الآثار من المجاميع ، ودار الكتب من الأسفار ، والزيادة فيها مطردة على مايتجلى ذلك من احصائها الاخير . ومن احصاء الكتب التي دخلت المجمع هدية من الطابعين والمؤلفين والجامعات والجمعيات ، يُعلم مقدار الثقة التي أصبحت له في الاندية العلمية في العالم . وهذه الثقة تزيد كلما تضاعفت العناية بتعهده ، واثمر ثمرات دانية القطوف . فقد أوصى مؤخراً المرحوم الشيخ عبد الله الكزبري من الأسر القديمة في دمشق بخزانة كتبه للمجمع ، وعددها ٤٢٣ مجلداً فيها كثير من المخطوطات الجميلة النادرة ، وكان البادئ بمثل هذه المأثرة العلمية العلامة المرحوم رفيق بك العظم احد اعضاء المجمع ، فأوصى بخزانته البالغة نحو الف مجلد للمجمع .

وقد بلغ ماأهدي في الحولين الاخيرين من الكتب ١٠٧٧ مجلداً ما بين مطبوع ومخطوط وما ابتاعه ١٣٤٦ كتاباً مطبوعاً و٦٢ مخطوطاً ، فبلغ عدد المخطوطات السابقة واللاحقة ٣٩٢٥ مخطوطاً والمطبوعات (١٥٨٠٧) اي ان المجموع غدا ١٩٧٣٢ مجلداً مخطوطاً ومطبوعاً . ومنها كتب فرع حلب ، ومنها مجموعة أهداها مؤخراً

جلالة ملك الحجاز ونجد وقدرها ٤٦ مطبوعاً ، واستنسخ المجمع بعض المخطوطات النادرة وابتاع منها ما عرض عليه مصوّراً ايضاً وسيكون له بعد سنين مجموعة نفيسة من النوادر المصورة بالتصوير الشمسي . وبذل المجمع همة في إتمام نواقصه من المطبوعات العربية والفرنسية ولا يزال على دؤوبه في هذا الشأن حتى تصبح مجموعاته كفيلة بغرض كل باحث ومتأدب ، وهو الآن يضع فهرساً مطولاً على أسلوب حديث ، لعشر مجلدات صدرت من مجلته الشهرية ، يستعين بها الباحثون ، فتكون المواد التي خاض عبابها اعضاء المجمع وموازروه في الشرق والغرب قريبة التناول على الباحثين . وتمت المعدات لنشر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية .

وقد خص السيدات بردهة في هذه الدار منعزلة عن غرفة الرجال ، يقيم قيمة عليها لتختلف اليها المتعلمات والدارسات . واذ رأى اقبال الرجال على غرف القراءة ، خصوصاً بعد وضع نظام البكالوريا وافتتاح مدرسة الأدب العليا ، جد ان يمهد السبيل امام الطلاب فيستكثر لهم من المصنفات التي تفيدهم في الفروع التي يحاولون التوسع فيها ، ورأى من جهة ثانية ان بعضهم مولعون بقراءة صحف الاخبار السياسية فقرر ان تحجب عنهم ، وتحفظ مجاميعها في مستودعه ، يرجع اليها عند الضرورة ، فكان من ذلك انكباب الطلاب على كتب العلم والمجلات العلمية والادبية . وجهز غرف دار الكتب باحسن المناضد والمفروشات ليكفل للمطالعين راحتهم . وقرر ان لا تعرض الكتب الحديثة على مناضده الا بعد سنة من نشرها حرصاً على مصلحة الوراقين وترويجاً لما يطبعون ، وكان توسع في إعارة مطبوعاته الى خارج دار الكتب فرأى ان هذه التجربة قد عاقت الكتب عن استفادة بعض الدارسين ، فألغى قراره الاول وجعل الاعارة محصورة بالمطالعين في الخزانة الظاهرية وخزانة المجمع الخاصة فقط .

ولقد بلغ عدد قراء الكتب المخطوطة والمطبوعة في قاعة المطالعة ٢٨٠٠٠ قارئ بمعدل ١٤٠٠ شهرياً ، وعدد القراء المستعيرين خارج دار الكتب مدة ستة اشهر من الكتب المطبوعة ١٨٣٠ ، بمعدل ٢٥٠ في كل شهر ، و بلغ عدد قراء المجلات العلمية في قاعة المطالعة ١٠٤٠٠ بمعدل ٨٠٠ في الشهر . وزار قسم المخطوطات في قبة الملك

الظاهر من السياح الغربيين والشرقيين (٣٥١٠) زوار ، وبلغ عدد استمارات الكتب داخل قاعة المطالعة (١١٥٠٠) استمارة ، وذلك من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ الى آخر شهر تشرين الثاني سنة ٩٣٠ وعدد استمارات المجلات (٥٢٠٠) استمارة . وبلغ ما أعطي من الرخص للقراء ٩٩٥ رخصة مدة سنة واحدة . وقد انصرفت همة المجمع الى تجليد مئات من كتبه ، وهو اليوم يرمّ جميع ما بلي من جلود الكتب المخطوطة ليرجعها الى ما كانت عليه في الجملة .

اعضاء المجمع

بلغ اعضاء المجمع العلمي في آخر السنة الماضية مائة وثلاثة عشر عضواً ، ستة وسبعون منهم في الشرق ، ومنهم ثمانية عشر عضواً في دمشق ، وبلغ عدد اعضائنا في الغرب سبعة وثلاثين عضواً من أمم مختلفة ، لم يراع المجمع في انتخابهم النسبة بين الامم الكبرى والصغرى : فقد تجد له في الدانيمرك مثلاً ثلاثة اعضاء ، وتجد له في بريطانيا العظمى ثلاثة فقط ، والمجمع يستفيد من أكثر اعضائه الا من بلغوا من السن عتيّاً ، فانهم متقاعسون عن خدمته على غير ارادتهم ، ولكن المجمع قصد من ضم امثال هؤلاء الأعلام ، معنى من معاني التنويه بهم على ما قدموه من الأعمال الصالحة في خدمة الآداب العربية .

ولقد كانت السنتان الماضيتان من أفجع سني المجمع العلمي ، فقد توفي سبعة من أعضائه ، ستة من المشارقة وواحد من المغاربة ، وهم العلماء الأعلام. احمد تيمور باشا ، والشيخ مسعود الكواكبي والشيخ عبد الله البستاني والسيد عبد الباسط فتح الله والسيد جبر ضومط والشيخ محمد بن ابي شنب ، والسيد ميشو بللير (رحمة الله عليهم) . خسر المجمع بهم اعضاء عطفوا عليه وأفادوه بارشادهم وعلمهم . وكانت مصيبته عظيمة جداً بالمرحوم احمد تيمور باشا الذي جعل قلمه وعلمه وخزانة كتبه وخزانة ماله ، منذ انشاء المجمع ، مباحاً له ، فآزره في مجلته بقلمه ، وأهداه مئات من الكتب المطبوعة والمصوّرة بالتصوير الشمسي ، ووهبه مجموعة نفيسة جداً من النقود القديمة ، لا تزال في دار الآثار على الدهر

ناطقة بفضله وكرمه . ولما عاتبه رحمه الله احد المصريين على تنازله عن مجموعته من النقود لمدينة دمشق أجابه بلطفه المتناهي : « انني أعطيت مدينة القاهرة خزانة كتبي (نحو ثلاثة عشر الف مجلد نحو نصفها من المخطوطات النادرة) ومدينة دمشق وهي بلدة عربية اسلامية جديرة بان تساعد ايضاً » .

ولو أراد المجمع ايضاً ان يضم اليه جميع من خدموا لغتنا من علماء المشرقيات المستعربين في الغرب فقط ، لاقتضى له ان يدخل في جماعته عشرات من الاعضاء ، وكذلك لو سمت همته الى ادخال كل عالم او اديب نبغ في مصر والشام والعراق فقط لتألف من مجموعهم عشرات ايضاً . وانتخب المجمع العلمي خلال الحولين المنصرمين ثلاثة اعضاء وهم الاساتذة خليل بك مطران ، والسيد خيرالدين الزركلي في القاهرة ، والسيد معروف الارناؤط في دمشق ولكل من هؤلاء الاساتذة مزايا نافعة ، وأعمال في البحث والتأليف تشهد لهم بعلو الكعب في خدمة الادب العربي . ومعلوم ان المجمع يقصد في انتخاب اعضائه صفة خاصة فيهم ، ومزية علمية او أدبية تفردوا بها ، دون النظر الى اعتبارات أخرى ، دينية كانت او سياسية . فالأعضاء أحرار في منازعهم وأفكارهم ، ولا يطلب منهم الا ان يراعوا غرض المجمع فقط ، يوم يكتبون له ويؤلفون ، ويحاضرون ويفيدون ، وهو علمي صرف لايهتم لغير الآداب ونشر الأفكار الصحيحة على ما أثبت ذلك بالبرهان الساطع منذ انشائه .

مالية المجمع

منذ استقل المجمع بموازنته ، وأصبح يتمتع بشخصيته المعنوية ، ويتصرف بشؤونه على ما يرى فيه النفع له ، اخذت اعماله تطرد اطراداً حسناً ، والرجاء معقود ان يكون مستقبله خيراً من ماضيه ، فلا يعوقه غداً ماعاقه بالامس من العوائق التي صدته في بعض السنين عن تحقيق بعض رغباته . وكان جل اعتماد المجمع في اعماله خلال الأعوام الغابرة على ماتمنحه له الحكومة من الاعتماد المالي والهبات المالية التي يقدمها له بعض الغُيُر على الآداب من شاميين ومصريين وعراقيين وغيرهم ، وكانت ولاتزال قليلة بالنسبة لجلالة الموضوعات التي يعانيها ، واكثرها مما يتطلب مالاً كما يتطلب علماً . على ان مقدار

الهبة التي تجود بها نفس كريمة على العلم مهما خفت في الميزان ففيها من معاني العطف وحب التقدم اثر جميل ·

كان مجموع المبلغ المخصص في سنة ١٩٣٠ للرواتب والمكافآت ١٤/١٢٦٦٣٣ ليرة سورية والمخصص للنفقات ١٠٦٦٦ وكانت اعانة الحكومة ١٣٠٠٠ ليرة سورية وللمجمع في المصرف باسمه مبلغ ١١١٧٢٥ ليرة سورية من وفر السنة الماضية · اما الهبات المالية التي أرسلها اليه بعض اهل الأدب والوجاهة في العامين المنصرمين فلا تتجاوز المئة والخمسين ليرة سورية ·

لا جرم انكم تحسبون ان هذا الاعتماد قليل ، اذا نُظر الى ما عند المجمع العلمي من الأعمال في المستقبل القريب ، وان أقصى ما يمكن من الاقتصاد يعمل فيه ؛ وذلك لان المجمع يأبى الآن ان يكلف الحكومة شططاً ، وهو يعرف ان أمامها مشاريع حيوية أخرى ، تتطلب اعتمادات عظيمة في السنين القادمة ، ولا سيما في باب بناء المدارس في المدن والقرى واعمال الري وتعبيد الطرق وبناء دور الحكومة وغيرها · بيد ان هذين البناءين اللذين اورثنا اياهما ملكان عظيمان ابو بكر بن ايوب والظاهر بيبرس البندقداري (رحمهما الله) ، وهما المدرستان العادلية والظاهرية اذا وفتا اليوم ببعض الغرض ؛ فمحال ان تستوعبا غداً اعمال المجمع والدوائر التابعة له ، لان دار الآثار التي يؤويها المجمع في داره تتسع اعمالها سنة عن سنة ، وكذلك دار الكتب الظاهرية · ومن المحتم ان تضطر الدولة بعد حين الى ان تنشئ داراً للمجمع العلمي ، تكون في جوار دار الكتب ، ليسهل على رجاله ان يرجعوا الى مخطوطاتها عند الحاجة ، او ان تنشئ داراً خاصة للآثار فيستأثر المجمع ببنايته وحده ، او تبتاع خان اسعد باشا العظم لتجعل منه متحفاً ·

وطُلب الى المجمع في السنتين الغابرتين ان يتولى ادارة بعض خزائن الكتب التي أنشئت حديثاً ، وذلك مثل المكتبة الخيرية في حماة والمكتبة السكرية ومكتبة الشاغور في دمشق ، والخزانة التنوخية في عبية في لبنان · والغالب ان المجمع يصعب عليه الآن ان يجعل هذه الخزائن تحت حمايته لان ذلك يستدعي نفقات لا تتسع لها موازنته ، ولو اتسعت على ما يجب لبدأ بترميم المدرسة الأشرفية البرانية في سفح قاسيون ، وكانت

ادارة الاوقاف نزلت له عنها ، ليجعل منهـا غرفة قراءة ونادي محاضرات ، فأخره عن المضي في عمله قلة المال الذي يجب تخصيصه لهذا المقصد الخيري . ولذلك اكتفى المجمع باهداء هذه الخزائن مجموعات من الكتب ، سواء أكانت من مطبوعاته او غيرها . ومن جملة ما أهدى من ذلك ، مجموعة من الاسفار لخزانة الكتب التي أنشئت في السويداء حاضرة جبل الدروز بمعرفة السلطة العسكرية وهي سبعون مجلداً . اما انشاء خزانة كتب تسبّل على الناس في كل بلد تحت رعاية المجمع فامر يقتضي له جهد عظيم قد يخرج المجمع عن مقصده الاول .

وبعد فليس في الدول المشمولة بالانتداب عمل تتخطى تأثيراته حدود هذه الدولة مثل هذا المجمع العلمي العربي ، ولذا كان حرياً بحكوماتها وغيرها من الاقطار المجاورة ان تعاونه بماديّاتها ، كما يعاونه بعض افرادها . فخدمة اللغة العربية وآدابهـا ليست مقصورة على هذه الديار وحدها ، وبلادنا بقدر ما ساعدتها حالها ، قامت بالواجب عليها من هذا القبيل ، أفما كان من الواجب على البلاد المجاورة ان تقوم بقسم مما يجب عليها لخدمة ادب العرب ، والمجمع العلمي العربي سواء أقام في دمشق او صنعاء او القاهرة اوالقيروان ، فان جهوده تعود بالنفع على الناطقين بالضاد ، أفليسوا مكلفين ضمناً ان يقوموا على الأقل ببعض شأنه ، تنشيطاً له على اتمام رغباته . واللغة من اول المرافق التي تعد من المصالح المشتركة .

* * *

دار الآثار

ولا يسعني في هذا المقام الا ان أشير الى اعمال دار الآثار ، لانها وليدة المجمع العلمي وربيبته ، ولا يزال يعطف عليهـا ، وان باعدت بينهما المظاهر الادارية (التقرير الخامس الصفحة الخامسة) وهذا احصاء ما ورد في العهد الاخير على دار الآثار من التحف والعاديات :

	سنة ١٩٣٠ عدد	سنة ١٩٢٩ عدد
الآثار الحجرية	٤٠	٢٦
〃 الخزفية	١٤١	٦٧
〃 المعدنية	٤٩	١٦
〃 القاشانية	٤٨	١٢
〃 الزجاجية	٨	٥
〃 الخشبية	٨٩	٥
النقود	٦٢	٣٥٩
آثار متنوعة	٩٩	٦
	٥٣٦	٤٩٦

فاذا أضيف هذا العدد الى مجموع محتويات دار الآثار بلغ المجموع ٨٥٥٣ قطعة . ولم تدخل في احصاء سنة ١٩٣٠ الآثار التي اكتشفت في المشرفة قرب حمص وصوران وصالحية الفرات ، لانها لم تزل في صناديقها ولم تسجل ، لعدم وجود مكان نعرض فيه ويبلغ عددها ٣٠٠ قطعة تقريباً . و بلغ عدد زائري دار الآثار بدمشق ممن دفعوا رسم الدخول :

سنة ١٩٣٠ عدد	سنة ١٩٢٩ عدد
٣٥٠٠	٣٧٠٠

اما البعثات الاثرية في سورية التي هي مادة داري الآثار في دمشق وحلب فهذه أهمها :

(١) البعثة الفرنسية التي تنقب لحساب جامعة يل الاميركية في صالحية الفرات برئاسة المسيو بيليه

(٢) البعثة الفرنسية ومديرها الكونت دومنيل في المشرفة (حمص) .

(٣) البعثة الفرنسية ومديرها الكونت دومنيل في خان شيخون
(٤) « « في الرصافة
(٥) « « في ارسلان طاش وتل الاحمر
(٦) اعمال كشف تدمر تقوم بها مديرية الآثار القديمة في المفوضية
(٧) حفريات قلعة حلب
(٨) حفريات تسيل في حوران تقوم بها ادارة دار الآثار بدمشق
(٩) حفريات قلعة المضيق تقوم بها بعثة بلجيكية

هذا وقد طبعت ادارة دار الآثار دليلاً لما حوته حتى الآن من العاديات المنوعة وطبعت على نفقتها سجل رقم تدمر تأليف المسيو كانتينو · ونظراً لنمو دار الآثار السريع فقد ضاق البناء بمحتوياته ولذلك قد استملكت ادارته داراً مجاورة لبنائه الحالي ·

وقد خصت حكومة حلب دار سعادة الجنرال بيوت التي كانت أهدته اياها بالمدينة الشهباء اقراراً بفضله على تلك المدينة وعاد فنزل عنها للواهب الاول — خصتها لتجعل دار الآثار و يجعل في الطابق العلوي منها فرع المجمع العلمي العربي هناك · وهكذا كانت الآثار كاللازم والملزوم مع المجمع العلمي · وسينتقل فرعنا في حلب الى هذه الدار ، ورئيسه هناك كرئيس المجمع العلمي في دمشق ، رئيس مجلس الآثار ، وبعض اعضائه اعضاء به ، وفي النية تأسيس متحف في انطاكية عاصمة سورية قديماً ، يجعل فيه ما عثر و يعثر عليه في ارجاء لواء الاسكندرونة ، كما خصت حلب بجميع ما يستخرج في ولايتها من العاديات والتحف ·

هذه أغراض المجمع وعمله ونسأل الله يا أصحاب الفخامة حسن التوفيق لتسيروا بالبلاد في طريق سعادتها بنشر العلوم والآداب ·

دمشق : في ٢ رمضان سنة ١٣٤٩ وفي ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٣١

وزير المعارف
ورئيس المجمع العلمي العربي
محمد كرد علي

اعضاء المجمع العلمي

« في سنة ١٩٣٠ »

الرئيس : السيد محمد كرد علي

« الاعضاء »

	السادة	محل الاقامة
١	الدكتور اسعد الحكيم	دمشق
٢	السيد انيس سلوم	〃
٣	الشيخ محمد بهجة البيطار	〃
٤	السيد جميل العظم	〃
٥	السيد خليل مردم بك	〃
٦	السيد رشيد بقدونس	〃
٧	السيد سليم الجندي	〃
٨	السيد سليم عنحوري	〃
٩	السيد شفيق جبري	〃
١٠	السيد عارف النكدي	〃
١١	الشيخ عبد القادر المبارك	〃
١٢	الشيخ عبد القادر المغربي	〃
١٣	السيد عبد الله رعد	〃
١٤	السيد عز الدين علم الدين التنوخي	〃
١٥	السيد فارس الخوري	〃
١٦	الدكتور مرشد خاطر	〃
١٧	السيد معروف الارناؤط	〃
١٨	الامير مصطفى الشهابي	〃

« الاعضاء »

	السادة	محل الاقامة
١٩	الشيخ ابراهيم منذر	بيروت
٢٠	السيد امين الريحاني	〃
٢١	السيد بولس الخولي	〃
٢٢	الشيخ عبد الرحمن سلام	〃
٢٣	السيد عمر فاخوري	〃
٢٤	الدكتور فيليب حتي	〃
٢٥	الفيكونت فيليب دي طرازي	〃
٢٦	الشيخ مصطفى الغلاييني	〃
٢٧	الدكتور نقولا فياض	〃
٢٨	السيد عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
٢٩	الشيخ احمد رضا	النبطية
٣٠	الشيخ سليمان ظاهر	〃
٣١	السيد جرجي يني	طرابلس الشام
٣٢	الشيخ سليمان احمد	اللاذقية
٣٣	السيد ادوارد مرقص	〃
٣٤	الشيخ محمد زين العابدين	انطاكية
٣٥	الشيخ بدر الدين النعساني	حلب
٣٦	المنسنيور جرجس منش	〃

« الاعضاء »

السادة	محل الاقامة
٣٧ الشيخ راغب الطباخ	حلب
٣٨ الشيخ عبد الحميد الجابري	«
٣٩ السيد عبد الحميد الكيالي	«
٤٠ السيد قسطاكي الحمصي	«
٤١ الشيخ كامل الغزي	«
٤٢ السيد ميخائيل الصقال	«
٤٣ السيد اسعاف النشاشيبي	القدس
٤٤ الشيخ خليل الخالدي	«
٤٥ السيد عبد الله مخلص	حيفا
٤٦ الشيخ سعيد الكرمي	طول كرم
٤٧ الشيخ رضا الشبيبي	النجف الاشرف
٤٨ الدكتور أمين المعلوف	بغداد
٤٩ الاب انستاس الكرملي	«
٥٠ السيد جميل صدقي الزهاوي	«
٥١ السيد كاظم الدجيلي	«
٥٢ السيد معروف الرصافي	«
٥٣ الشيخ احمد الاسكندري	القاهرة
٥٤ السيد احمد امين	«
٥٥ السيد احمد حسن الزيات	«
٥٦ احمد زكي باشا	«
٥٧ احمد شوقي بك	«

السادة	محل الاقامة
٥٨ الدكتور احمد عيسى	القاهرة
٥٩ احمد لطفي السيد بك	«
٦٠ السيد اسعد خليل داغر	«
٦١ حافظ ابراهيم بك	«
٦٢ السيد خير الدين الزركلي	«
٦٣ خليل بك مطران	«
٦٤ الشيخ محمد رشيد رضا	«
٦٥ السيد عباس محمود العقاد	«
٦٦ الشيخ محمد الخضر حسين	«
٦٧ السيد مصطفى صادق الرافعي	طنطا
٦٨ السيد زكي مغامز	الاستانة
٦٩ السيد حسن حسني عبد الوهاب	تونس
٧٠ السيد عبد الحي الكتاني	فاس
٧١ الامير شكيب أرسلان	لوزان
٧٢ السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي	عليكرة (الهند)
٧٣ السيد عبد الحق	حيدرآباد الدكن «
٧٤ السيد عبد الرحمن	دلهي «
٧٥ الشيخ ابو عبدالله الزنجاني	فارس
٧٦ الدكتور سعيد ابو جمرة	برازيل

***

« الاعضاء »

محل الاقامة		السادة
تونس	Marçais	٧٧ السيد مارسيه
الجزائر	Massé	٧٨ « ماسه
فاس	Guy	٧٩ « كي
باريز	Ferrand	٨٠ « فرّان
«	Dussaud	٨١ « دوسو
«	Massignon	٨٢ « ماسينيون
«	Bouvat	٨٣ « بوفا
ايطاليا	Guidi	٨٤ « جويدي
«	Nallino	٨٥ « نلينو
اسبانيا	Asin	٨٦ الاب آسين
البرتقال	Lopès	٨٧ السيد لوبس
سويسرا	Montet	٨٨ « مونته
«	Hess	٨٩ « هيس
هولاندة	Snouck-Hurgronje	٩٠ « سنوك هورغرنيه
«	Houtsma	٩١ « هوتسما
«	Arendonk	٩٢ « ارانددونك
انكلترا	Margoliouth	٩٣ « مرجليوث
«	Bevan	٩٤ « بفن
«	Krinkow	٩٥ « كرنكو
المانيا	Hommel	٩٦ « هومل
«	Sachau	٩٧ « ساخاو
«	Brockelmann	٩٨ « بروكلمن
«	Horovitz	٩٩ « هوروفيتز

« الاعضاء »

السادة		محل الاقامة
١٠٠ السيد هرزفلد	Herzfeld	المانيا
١٠١ « هارتمان	Hartmann	«
١٠٢ « ميتفوخ	Mittwoch	«
١٠٣ « ستر ستين	Zetterstéen	السويد
١٠٤ « اوستروب	Œustrup	الدانمارك
١٠٥ « بول	Buhl	«
١٠٦ « پدرسن	Pedersen	«
١٠٧ « موجيك	Mzik	النمسا
١٠٨ « ماهلر	Mahler	المجر
١٠٩ « كوفالسكي	Kowalski	بولونيا
١١٠ « كراتشقوفسكي	Kratchkovsky	روسيا
١١١ « موزل	Musil	تشكيوسلوفاكيا
١١٢ « ماكدونالد	Macdonald	اميركا
١١٣ « كرسيكو	Karsikko	فنلاندا

اعضاء المجمع الراحلون

١	الشيخ طاهر الجزائري	(دمشق)
٢	السيد نخلة زربق	(القدس)
٣	« اغناطيوس غولدصهير	(بودابست)
٤	« مرتين هارتمان	(برلين)
٥	« رينه باسه	(الجزائر)
٦	احمد كمال باشا	(القاهرة)
٧	السيد مصطفى لطفي المنفلوطي	«
٨	الدكتور يعقوب صروف	«
٩	السيد اوجنيو غريفيني	«
١٠	« رفيق العظم	«
١١	« محمود شكري الالوسي	(بغداد)
١٢	« حسن بيهم	(بيروت)
١٣	الاب لويس شيخو	«
١٤	الدكتور صالح قنباز	(حماة)
١٥	السيد مالنجو	(دمشق)
١٦	« الياس القدسي	«
١٧	« براون	(كمبريدج)
١٨	« كليمان هوار	(باريز)
١٩	الاب جرجس شلحت	(حلب)
٢٠	الحكيم محمد أجمل خان	(الهند)
٢١	الشيخ سليم البخاري	(دمشق)
٢٢	الشيخ محمد بن ابي شنب	(الجزائر)
٢٣	الشيخ عبد الله البستاني	(بيروت)
٢٤	السيد جبر ضومط	«
٢٥	الشيخ مسعود الكواكبي	(دمشق)
٢٦	احمد تيمور باشا	(القاهرة)
٢٧	السيد ميشو بللير	(طنجة)

المتبرعون للمجمع العلمي

« بمال او آثار او كتب مخطوطة او مطبوعة »

« أ »

السيد ابراهيم اطفيش	القاهرة
ابو كامل المعلم	دمشق
السيد ابراهيم زيدان	القاهرة
احمد تيمور باشا	〃
احمد شوقي بك	〃
احمد اغا الخانجي	دمشق
السيد احمد الطويل	〃
الدكتور احمد عيسى بك	القاهرة
السيد احمد امين الديك	〃
الشيخ احمد الاسكندري	〃
〃 احمد فهمي العطار	دمشق
احمد زكي باشا	القاهرة
الشيخ احمد عارف الزين	صيدا
الامير احمد مختار الجزائري	دمشق
الشيخ احمد رضا	النبطية
احمد عزت باشا العابد	دمشق
السيد اديب البهنسي	〃
اديب مصري	القاهرة
ادارة المسرة	جونيه
السيد ارنست هرزفلد	المانيا
〃 اسكندر الخولي البيتجالي	القدس
〃 اسعاف النشاشيبي	〃
〃 اسعد خليل داغر	القاهرة
اكادمية لينچاي الملكية	رومية
السيد الياس انطون الياس	القاهرة
〃 امين الدالاتي	دمشق
〃 امين هندية	القاهرة
〃 امين زيدان	〃
امير البحرين	البحرين

« ب »

السيد براون	كمبريدج
البعثة الفرنسية	دمشق
السيد بدر الدين الشركسي	قنيطرة
〃 بشارة الاصفر	دمشق
〃 بفن	كمبريدج
الشيخ محمد بهجة الاثري	بغداد
السيد بهاء الدين الجابي	دمشق
بلدية دمشق	
بلدية حمص	

« ث »

السيد توفيق شامية	دمشق
الشيخ توفيق المنيني	«

« ج »

جاك بك ثابت	بيروت
جامعة سيام	
جامعة ليون	
جامعة بوردو	
جامعة ستراسبورغ	
الجامعة المصرية	
السيد جرجي رزق الله	بيروت
الامير جعفر الحسني	دمشق
السيد جميل الكواكبي	«
الجمعية الآسياوية	باريز
السيد جيناردي	دمشق

« ح »

السيد حافظ زكية	حمص
الدكتور حبيب قشيشو	دمشق
الدكتور حسن رعد	طرابلس الشام
السيد حسن حسني عبد الوهاب	تونس
« حسام الدين الكزبري	دمشق
« حمدي النصر	«
« حمدي الجلاد	«
« حمدي الكيلاني	«
الشيخ حمدي الحلبي	«

« خ »

الامير خالد الحسني الجزائري	دمشق
السيد خالد الخاني	«
« خالد العظم	«
« خالد معاذ	القاهرة
« خالد يحيى	طرابلس الشام
خزانة كتب الامة	برلين
السيد خورشيد الشركسي	دمشق
« خليل مردم بك	«
« خير الدين الزركلي	القاهرة

« د »

دار الكتب المصرية	
السيد داود صدقي الماردبني	دمشق
« درويش الدهان	«
« ديمتريوس قاضي	«

« ر »

المسيو راجي	«
السيد رسلان البلعوط	«
« رفيق العظم	القاهرة
« رضا الجوخدار	دمشق
« رضا الشربجي	«
« رؤف الايوبي	«

« ز »

السيد زكي مغامز	الاستانة
« زعل الدغيم	خسفين

« س »	
السيد سامي البكري	دمشق
الامير سعيد الحسني الجزائري	〃
الشيخ سعيد الرافعي	القاهرة
الشيخ سليم البخاري	دمشق
السيد سليم عنحوري	〃
السنيور سبرانزا	〃
السيد صالح الاكتع	〃
« ش »	
〃 شفيق الحسيني	حمص
« ص »	
〃 صالح القشطوني	دمشق
الدكتور صالح شورى	〃
السيد صادق العطار	〃
〃 صبحي الطباع	〃
〃 صبري اديب الكاشف	〃
〃 صدقي نور الله	جبلة
〃 صفوح المؤيد	دمشق
« ط »	
الشيخ طاهر الجزائري	〃
الامير طاهر الحسني الجزائري	〃
السيد طلعت حرب	القاهرة
« ع »	
الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	ايران
〃 عبد المعطي السقا	القاهرة
السيد عبد القادر العظم	دمشق
〃 عبد الرحمن اليوسف	〃
الشيخ عبد القادر المغربي	〃
〃 عبد الواسع اليماني	القاهرة
السيد عبد الله الاستاذ	دمشق
الشيخ عبد الله الكزبري	〃
السيد عبد الجواد الحسيني	حمص
〃 عثمان العظم	دمشق
〃 عزت احمد العظم	〃
〃 عزالدين علم الدين التنوخي	〃
جلالة الامام عبدالعزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها	مكة المكرمة
السيد محمد عطاء الله الايوبي	دمشق
البرنس عمر طوسون باشا	القاهرة
السيد عمر الخشاب	〃
عين الملك خان	دمشق
السيد عيسى البابي الحلبي	القاهرة
〃 عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
〃 عبده خير الله	دمشق
« غ »	
〃 غريغوريوس حداد	〃
« ف »	
〃 فارس قمحة	〃
الامير فاعور الفاعور	القنيطرة
السيد فائز العظم	دمشق

السيد فخري آل جميل بغداد
» فخري البارودي دمشق
الشيخ فرج الله زكي الكردي القاهرة
السيدان فريد ونديم الغزي دمشق
السيد فريد العمري »
» فؤاد الفرا »
» فهمي ابيو »
جلالة فيصل الاول ملك العراق بغداد

« ق »

القومندان بورجوا حمص

« ك »

الامير كاظم الحسني الجزائري دمشق
السادة كالمان ليفي الكتبيون باريز

« ل »

لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة

« م »

المار يشال ليوتي باريز
السيد مأمون المؤيد دمشق
مجلس النواب المصري القاهرة
مجلس النواب الفرنسي باريز
المجمع العلمي البلجيكي الملوكي بروكسل
محمد باشا العصيمي دمشق
السيد محب الدين الخطيب القاهرة
الشيخ محمد بهجة البيطار دمشق
السيد محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي فاس

الشيخ محمد الخضري القاهرة
السيد محمد جمال بيروت
» محي الدين رضا القاهرة
» محي الدين الازهري النبطية
الامير محمد نجل الشيخ عيسى آل خليفة شقيق امير البحرين البحرين
السيد محمد ابراهيم الباكر البحرين
» محمد امين الخانجي القاهرة
» محمد بن يحيى الصقلي الدار البيضاء
» محمد عبد الواحد الطوبي القاهرة
» محي الدين الكردي »
» محمد فائز السفرجلاني دمشق
» محمد حاجي قولي حلب
» محمد علي الحلبي دمشق
» محمد الحمصي »
» محمد شفيق السيوفي »
» محمود شغلول »
» محمد خير الجوخدار »
» محمد ابو قورة »
الشيخ محمد رشيد رضا القاهرة
السيد محمد المراوي »
مدرسة اللغات الشرقية باريز
السيدة مريام هاري »
مرعي باشا الملاح حلب
الشيخ مسعود الكواكبي دمشق

الامير مصطفى الشهابي	دمشق
السيد مصطفى البابي	القاهرة
المطبعة الاميركية	بيروت
مكتبة الخانجي	القاهرة
مكتبة سان باولو	البرازيل
المكتبة السلفية	القاهرة
المكتبة التجارية الكبرى	»
السيد ممدوح هنانو	حلب
» منير البرازي	حماة
» منير الدمشقي	القاهرة
» منيف اليوسف	دمشق
السيدان مهدي وعبده مرتضي	»
السيد ميخائيل بخاش	لبنان
» ميخائيل فغالي	بوردو
المسيو ميليا	باريز
الامير ميرزا مصطفى	سلمية
« ن »	
السيد نجيب متري	القاهرة
» نعيم عرابي	دمشق

« هـ »	
المسيو هنري دي جوفنيل	باريز
« و »	
وزارة الاشغال	القاهرة
وزارة الاشغال	باريز
وزارة المالية	دمشق
وزارة الزراعة	»
وزارة الاوقاف	القاهرة
وزارة الزراعة	»
وزارة المعارف والفنون	باريز
وزارة المعارف	القاهرة
« ي »	
السيد يحيى الصواف	دمشق
الدكتور يعقوب صروف	القاهرة
البرنس يوسف كمال	»
السيد يوسف توما البستاني	»
» يوسف ابراهيم	جبلة
» يوسف السبع	دمشق
» يوسف امين شدياق	لبنان

محاضرات المجمع

ما عدا حفلات التكريم وحفلات المراثي التي أقامها المجمع لبعض اعضائه وغيرهم :

—« سنة ١٩٢١ »—

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	«تاريخ القاء المحاضرة»
طرفة ابن العبد (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٧ نيسان سنة ١٩٢١
الحسبة في الاسلام (اجتماع)	السيد محمد كرد علي	١٣ حزيران ١٩٢١
احياء اللغة العربية (ادب)	» متري قندلفت	٢٢ منه
الملاريا وكيفية الوقاية منها (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	١ تموز ١٩٢١
الشعر وتأثيره في الاخلاق (اجتماع وادب)	الشيخ عبد الرحمن سلام	١٤ منه
العلم (اجتماع)	السيد انيس سلوم	١٩ منه
القضاء في الاسلام (ادب وفقه)	» عارف النكدي	٢٤ منه
الجباية في الاسلام (اجتماع	» محمد كرد علي	٣١ منه
أحيحة ابن الجلاح (ادب وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٠ ايلول
الحقوق المدنية في الشرق (قانون)	» سعيد مراد الغزي	١٣ تشرين الاول
العلم بالعمل (اجتماع)	السيد انيس سلوم	٢٤ منه
صناعة الانشاء العربي (ادب)	الشيخ سعيد الكرمي	١ كانون الاول

—« سنة ١٩٢٢ »—

الاخلاق والاجتماع (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المبارك	٦ تشرين الاول
كيف تحقق الآثار التاريخية (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	١٣ منه
طرفة أدب من آداب العرب (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٠ منه
الكتب والمطالعة (اجتماع)	السيد انيس سلوم	٢٧ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
الشعر او حرفة الادب (ادب)	الشيخ عبد الرحمن سلام	٨ تشرين الثاني
اصول الاتحاد (حقوق)	السيد فارس الخوري	١٧ منه
الاخلاق والحقوق الدولية (حقوق)	« فوزي الغزي	٢٣ منه
المرأة في ادوارها التاريخية (تاريخ واجتماع)	الشيخ سعيد مراد الغزي	١ كانون الاول
« « « «	« للسيدات	٤ منه
خلاصة اعمال المجمع منذ نشأته	السيد محمد كرد علي	٧ منه
صفحة من تاريخنا الاجتماعي (اجتماع وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٥ منه
الصناعات الدمشقية القديمة (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٢ منه
مصانع الشام وهندستها «	« محمد كرد علي	٢٩ منه
فن الطب والصيدلة في فرنسا (طب)	الدكتور شارل	٣١ منه
— « سنة ١٩٢٣ » —		
الحركة الدائمة (طبيعيات)	السيد عبد الله رعد	١٢ كانون الثاني
من لا يكرم نفسه لا يكرم (اخلاق)	« انيس سلام	١٩ منه
محاضرة اخلاقية (اخلاق)	الشيخ محيي الدين الخاني للسيدات	٢٧ منه
هواء المدن (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	٥ شباط
تاريخ العلم في الشام (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	٩ منه
القدوة بالصحابيات من خير الاعمال الصالحات (اخلاق)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	١٦ منه
مخطوط تاريخي دمشقي (ادب) «	« للرجال	١٦ منه
الصناعات والواجبات (اقتصاد)	السيدة مسرة ادلبي للسيدات	٠٠
التراسل بحمام الزاجل (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٣ منه
لكل امرئ من دهره ما تعودا (اخلاق)	السيد انيس سلوم	٢ آذار
الصدق في القول والعمل «	الشيخ عبد الله العلمي للسيدات	٢ منه
تأثير الطرق في هواء المدن (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	٩ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
العلم في سورية في القرون الاخيرة (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	١٦ آذار ١٩٢٣
نبأ عجيب من أنباء العرب (ادب وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٤ منه
تاريخ الطب عند العرب (تاريخ)	الدكتور اسعد الحكيم	٣٠ منه
〃 〃 (تتمة)	〃 〃	٦ نيسان
تتمة القضاء في الاسلام (فقه وتاريخ)	السيد عارف النكدي	١٣ منه
خديجة والاسلام	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	〃
الطب العربي (طب وتاريخ)	الدكتور اسعد الحكيم	٢٠ منه
وصف آثار تاريخية في متحفنا الوطني 〃	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢١ منه
اثنا عشر كوكب (ادب 〃)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٢٧ منه
سكان الشام ولغاتهم 〃	السيد محمد كرد علي	٣ أيار
عائشة الباعونية (ادب 〃)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٠ منه
بين العرب والروم في الشام 〃	السيد محمد كرد علي	٢ حزيران
تعزيز اللغة العربية (ادب)	〃 انيس سلوم	٨ منه
آداب المرأة (اخلاق)	الشيخ خالد النقشبندي	٨ منه
حياة شيخ الاسلام ابن تيمية (فقه وتاريخ)	〃 بهجة البيطار	١٥ منه
صفحة من تاريخ بني أمية 〃	السيد محمد كرد علي	٢٢ منه
السيد الفيومي (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٢٣ منه
الالعاب الاولمبية والرياضة البدنية 〃	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٩ منه
فصحاء الاعراب (تاريخ وادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	٦ تموز
الارادة القوية (اخلاق)	السيد انيس سلوم	١٤ منه
آخر عهد الحكم العربي في بلاد الشام (تاريخ)	〃 محمد كرد علي	٣ آب
فصحاء الاعراب (ادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٦ منه
آخر عهد الحكم العربي في بلاد الشام (تتمة)	السيد محمد كرد علي	١٠ منه
سويسرا في افريقية او بلاد النجاشي (تاريخ) 〃	عبد الله رعد	١٧ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
محاسن ماشاهدت في طوافي حول الارض (رحلة واجتماع)	السيد حنا خباز	٢٤ آب
اللغة العربية العامية ومنزلتها من الفصحى (ادب ولغة)	〃 الياس القدسي	٣١ منه
الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع (اخلاق)	〃 سليم عنحوري	٧ ايلول
سائح بصف الشرق (تاريخ وجغرافية)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٤ منه
إعراس الخليفة المأمون ببوران بنت الحسن (ادب)	السيد قسطاكي الحمصي	٢١ منه
الراديوم (فن)	الدكتور فيليب بركات	٢٨ منه
الحرية الشخصية (حقوق)	〃 احسان الشريف	٥ تشرين الاول
اليابان وزلازلها (تاريخ وجغرافية)	السيد اديب التقي	١٢ منه
عمل الذهب بالطريقة الصناعية (فن)	〃 عبد الوهاب القنواتي	٢٦ منه
صيارفة الشام منذ مائة عام (تاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي للرجال	٩ تشرين الثاني
شهداء النساء في نشأة الاسلام 〃	〃 〃 للنساء	٧ كانون الاول

—« سنة ١٩٢٤ »—

آثار شرقي الاردن وموجز من تاريخه وجغرافيته وفي ختام الحفلة قصيدة للسيد حليم دموس	السيد اديب وهبة	٤ كانون الثاني
الزلازل في سورية (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	١١ منه
الاولاد وتربيتهن (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	١١ منه
آثار شرقي الاردن (الجزء الثاني)	السيد اديب وهبة	١٨ منه
الحياة السعيدة (اخلاق)	〃 انيس سلوم للسيدات	١٨ منه
عهد بني ايوب في الشام (تاريخ)	〃 محمد كرد علي	٢٤ منه
درس في التعليم والتأدب (اخلاق وتربية)	الشيخ احمد النويلاتي للسيدات	٢٥ منه
عثرات الاقلام (ادب ولغة)	〃 عبد القادر المغربي	١ شباط

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
البنت في البيت والمدرسة والعالم (اخلاق واجتماع)	السيد عيسى اسكندر المعلوف (للسيدات)	١ منه
في الاخلاق والآداب (ادب)	الشيخ عبدالقادر المغربي (للسيدات)	٧ منه
التعاون والتحاب (اجتماع)	« « « «	١٤ منه
مزايا الشعر الاندلسي (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٢ منه
الحياة الاجتماعية (اخلاق)	« انيس سلوم (للسيدات)	١٥ منه
تتمة محاضرة آثار شرقي الاردن	« أديب وهبة	
دولة المماليك البحرية في الشام (تاريخ)	« محمد كرد علي	١٥ منه
تتمة مزايا الشعر الاندلسي (ادب)	« عيسى اسكندر المعلوف	٢٢ منه
واجبات المرأة في الحياة الاجتماعية (اجتماع واخلاق)	الشيخ احمد النويلاتي (للسيدات)	»
كلمة في تربية الطفل الاولية (تربية)	السيدة مسرة ادلبي	«
الزوجة في البيت والعالم (اخلاق واجتماع)	السيد عيسى اسكندر المعلوف «	٢٩ منه
محاضرة اجتماعية (اجتماع)	« حنا خباز	»
الصحة والتداوي (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي «	٧ آذار
عهد الشراكسة والمماليك ووقائع التتار القدماء في الشام (تاريخ)	السيد محمد كرد علي (للرجال)	»
عهد تيمورلنك في الشام «	« «	١٤ منه
الترتيب (اجتماع)	« انيس سلوم (للسيدات)	»
تسامح الاسلام (اخلاق)	الشيخ احمد النويلاتي «	٢١ منه
كلمة اجتماعية (اجتماع)	كريمة السيد مصباح محرم «	٢١ منه
فنون الشعر الاندلسي كالموشحات والأزجال (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	»

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
عهد المماليك الشراكسة الى ظهور العثمانيين (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	٤ نيسان
الادارة الملكية في الحكومات العربية الاسلامية (حقوق وتاريخ)	« شاكر الحنبلي	١١ منه
كتاب اخبار الحمقى والمغفلين (ادب واخلاق)	للشيخ المغربي	١٩ منه
وفي ختام الحفلة قصيدة »	السيد جميل صدقي الزهاوي	»
عهد الدولة العثمانية في الشام من ٩٢٢هـ الى ١٠٠٠ هـ (تاريخ)	» محمد كرد علي	٢٤ منه
الشجاعة (اخلاق)	» انيس سلوم	٢ أيار
ديون الدولة العامة (مالية)	» فارس الخوري	١٦ منه
كيفية ارضاع الطفل وتربيته الاولية (تربية وصحة)	السيدة مسرة ادلبي (للسيدات)	٢٣ منه
تاريخ بلاد الشام في القرن الحادي عشر (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	»
بشار بن برد (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٣٠ منه
قصيدة في عمل بني أمية (اجتماع)	السيد محمد سليمان الاحمد (بدوي الجبل)	»
الام في البيت والمدرسة (تربية)	» عيسى اسكندر المعلوف (للسيدات)	٣٠ منه
عائشة رضي الله عنها (تاريخ واخلاق)	الشيخ احمد النويلاتي (للسيدات)	٦ حزيران
ذم التقليد و البدع (اخلاق)	كريمة السيد شاكر الحنبلي »	»
صفحة اجتماعية (ادب)	الشيخ عبد القادر المبارك	»
تأثير الشعر الاندلسي في الشعر الغربي (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
تتمة ديون الدول العامة (مالية)	السيد فارس الخوري	١٣ حزيران
تأثير الشعر الاندلسي في الشعر الاوربي (ادب)	» عيسى اسكندر المعلوف	٣٠ منه
حقوق المرأة في الاسلام (اجتماع وفقه)	الشيخ عبد القادر المغربي (للسيدات)	»
الاعتدال (اخلاق)	السيد انيس سلوم	٢٧ منه
الشام في القرن الثاني عشر (تاريخ)	» محمد كرد علي	٣ تشرين الاول
اقدم سكان سورية بشهادة الآثار »	» عيسى اسكندر المعلوف	١٧ منه
الغيبة والنميمة (اخلاق)	الشيخ عبد القادر المغربي (للسيدات)	٢٤ منه
خواطر سائح (اجتماع)	الدكتور محجوب ثابت	٢٧ منه
الاخلاق العامة في تطور الامم (اجتماع وتاريخ)	» اسعد الحكيم	١٤ تشرين الثاني
الاخلاق عند العرب »	الشيخ بهجة البيطار (للسيدات)	»
تبدل الحياة البيتية في الشرق الاقصى (اجتماع)	للسيدة فروسين درويك الاميركية تعريب الآنسة ماري عجمي للسيدات	٢١ منه
الاصطياف في ربوع سورية »	السيد عبد الله رعد	٢٨ منه
خذوا اخلاقهم (اي العرب) من امثالهم (اخلاق وادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٢ كانون الاول
واجبات المرأة في الهيأة الاجتماعية (اجتماع)	السيدة روز شحفة (للسيدات)	١٩ منه
خطاب حفلة المجمع السنوية وفي ختام الحفلة خطاب للسيد انيس سلوم	السيد محمد كرد علي	٢٦ منه
الحبشية والعربية (ادب)	» عبد الله رعد	
موضوع اقتصادي اخلاقي	الشيخ خالد النقشبندي (للسيدات)	

* * *

— « سنة ١٩٢٥ » —

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
الجامعة السورية وكلية الآداب (اجتماع)	الشيخ بهجة البيطار	٩ كانون الثاني
ظاهر العمر واحمد باشا الجزار (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	١٦ منه
حوادث أوائل القرن الثاني عشر »	» »	٢٣ منه
وقائع الجزار »	» »	٣٠ منه
عهد ابراهيم باشا المصري »	» »	٦ شباط
الحالة الاجتماعية في الشام من خروج المصريين الى سنة ١٣٠٠ (تاريخ)	» »	١٣ منه
كيف تطيب الحياة الزوجية (اجتماع)	السيدة مسرة ادلبي (للسيدات)	٢٧ منه
المرأة وواجباتها الوطنية والزوجية »	» سارة خطيب »	١٣ آذار
التجارة القديمة عند الامم (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٠ منه
الفنون الجميلة (تاريخ وادب)	» محمد كرد علي	٣ نيسان
امثال العرب (ادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	٦ منه
اسباب الفقر وعلاجه (اقتصاد واخلاق)	السيد أنيس سلوم	٩ منه
تتمة اسباب الفقر وعلاجه	» »	١٧ منه
مناظرة عالمين في مجلس المأمون (تاريخ وعقائد)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٨ منه
درس اقتصادي (اقتصاد)	السيدة روز شحفة (للسيدات)	٠٠
بلاغة الجاحظ (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٨ أيار
اخلاق المرأة (اخلاق واجتماع)	السيدة مسرة ادلبي (للسيدات)	١٥ منه
الجيوش البرية والبحرية (ادب وتاريخ)	السيد محمد كرد علي	٢٢ منه
موضوع اقتصادي (اقتصاد)	السيدة سارة خطيب (للسيدات)	٢٩ منه
صناعة الانتقاد عند العرب (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٥ حزيران
سياحة الى بغداد (رحلة)	» »	١٩ منه
شعراء الشام في القرن الثالث (ادب)	» خليل مردم بك	٢٤ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب (طب)	الدكتور احمد عيسى	

—« سنة ١٩٢٦ »—

— فترة في المحاضرات بمناسبة الثورة الاخيرة —

سهل بن هارون في عهد الرشيد والمأمون (ادب)	السيد محمد كرد علي	٣ كانون الاول
تاريخ الزراعة في بلاد العالم العربي	الامير مصطفى الشهابي	١٧ منه
اليابان هل يعرفها العرب وبماذا كانوا يسمونها (جغرافية وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٣١ منه

—« سنة ١٩٢٧ »—

جزائر اليابان أهي واق الواق (تاريخ وجغرافية)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٤ كانون الثاني
كلمة عن اناتول فرانس (ادب)	السيد شفيق جبري	٢١ منه
ابو حيان التوحيدي «	« محمد كرد علي	١٨ شباط
الزواج الشرعي (فقه واجتماع)	« محمدعلي ظبيان (للسيدات)	٢٥ منه
« «	« « (للرجال)	
بحث في اسفار التوحيدي (ادب)	« محمد كرد علي	
البلاغة سبيل الوزارة وعمرو بن مسعدة وعصره الزاهي (ادب)	« «	١١ آذار
رحلة الى حلب والشام منذ مئتي عام (تاريخ وادب ونقد)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٨ منه
الكتب والمكاتب في الشام »	السيد محمد كرد علي	
فضل علماء المشرقيات على الحضارة العربية »	»	٢٥ آذار
تركة السلف وتفريط الخلف (تاريخ) »	»	٨ نيسان

« غنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
عمر بن عبد العزيز (تاريخ واجتماع)	السيد عارف النكدي	٢٢ نيسان
تتمة محاضرة عمر بن عبد العزيز	» عارف النكدي	١٣ أيار
موضوع اخلاقي ادبي (ادب)	السيدة خيرية ريس (للسيدات)	٢١ منه
حمانا الله من الجهل (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي »	٢٣ حزيران
درس في الهجرة النبوية (تاريخ واخلاق »	» »	٣ تموز
الطب العربي في الشام (تاريخ)	الدكتور احمد الحكيم	٧ تشرين الاول
السوريون في البرازيل (تاريخ واقتصاد)	السيد موسى كريم	١٩ منه
الاوقاف وماضيها ومستقبلها (اجتماع وتاريخ)	» محمد كرد علي	٢٨ منه
المرأة العراقية (اخلاق)	» جميل بيهم	١١ تشرين الثاني
محاضرة في اللغة (ادب)	الشيخ ابراهيم المنذر	١٨ منه
أديرة الشام وكنائسها (تاريخ وادب)	السيد محمد كرد علي	٢٦ منه
حياة اللغة العربية (ادب)	الدكتور مرشد خاطر	٢ كانون الاول
كيف يستفاد من التاريخ بمناسبة أديار الشام (أدب وتاريخ)	السيد محمد كرد علي	٩ منه
ابن خلدون في المدرسة العادلية الكبرى (تاريخ وادب واجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٦ منه
تتمة ابن خلدون في المدرسة العادلية الكبرى	» »	٢٣ منه

—« سنة ١٩٢٨ »—

بحيرة سانا او معضلة النيل (تاريخ)	السيد عبد الله رعد	١ كانون الثاني
تقرير باعمال المجمع العلمي العربي خلال السنين الثلاث الماضية	» محمد كرد علي	١٣ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
تعاليم العلامة الشيخ طاهر الجزائري وحياته وعبقريته (ادب وتاريخ)	السيد محمد كرد علي	٢٠ كانون الثاني
حياة العلامة الشيخ طاهر الجزائري العلمية وآثاره ومؤلفاته (ادب وتاريخ)	» »	٢٦ منه
أهم ادوائنا الاقتصادية (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٣ شباط
شاعر النيل حافظ ابراهيم وشعره الاجتماعي (ادب)	السيد محمد كرد علي	١٠ منه
حياة الالفاظ »	» شفيق جبري	١٧ منه
دمشق في المرآتين (تاريخ وادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٤ منه
تتمة دمشق في المرآتين	» »	٢ آذار
بين دمشق وطهران (رحلة ووصف الشعوب)	السيد فخري البارودي	٩ منه
تتمة بين دمشق وطهران	» »	١٦ منه
محاضرة طبية في الخصاء (طب وتاريخ)	الدكتور يوسف عرقتنجي	٦ نيسان
مناظرة العلماء في مجالس الخلفاء والامراء (علم وتاريخ وادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٣ منه
امثال العرب مرآة اخلاقهم (لغة وادب) »	»	٢٠ منه
علم الروحانيات الحديث (فلسفة وعلم الروح) »	مأمون الارزنجاني	١١ أيار
مضار الخمور (ادب واجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٢١ حزيران
بين الشرق والغرب (وصف الشعوب)	السيد محمد كرد علي	٢٦ تشرين الاول
الفرق بين التربيتين الشرقية والغربية »	» (للسيدات)	٢ تشرين الثاني
وليمة ابن واسانة (تاريخ وادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	»
تتمة وليمة ابن واسانة »	» »	٩ منه
المرأة في أمثال العرب »	» » (للسيدات)	٩ منه
أهم ادوائنا الاقتصادية (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	١٥ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
جوامعنا ومساجدنا (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	٣٠ تشرين الثاني
مدارسنا القديمة والحديثة «	« «	٧ كانون الاول
عبد الحميد الكاتب (ادب)	« «	١٤ منه
تحليل حياة عبد الحميد الكاتب من رسائله (ادب)	« «	٢١ منه

—« سنة ١٩٢٩ »—

حديث أم زرع (ادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	١١ كانون الثاني
عادات الحضر والبدو (اجتماع)	السيد محمد كرد علي	٢٥ منه
شعوب سورية وآثارها القديمة (تاريخ)	الامير جعفر الحسني	٩ شباط
ماجد من الصناعات الوطنية (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٢٣ منه
الاندلس عبرة وذكرى (تاريخ)	السيد عارف النكدي	٣ آذار
أئمة الاندلس ... «	« «	٢٢ منه
الفتوة والفتيان (تاريخ واجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٩ نيسان
فتيان العصور الوسطى «	« «	٣ أيار
التبغ وحصره واستيفاء رسومه (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٣١ منه
أمم تسود وأمم تبيد (تاريخ)	السيد نقولا حداد	١٠ حزيران
الاسلام والسودان الغربي والاوسط (تاريخ)	السيد عمر كحالة	٢٠ منه
الرازي وعيده الألفي (تاريخ وطب)	الدكتور حريز	٩ تشرين الاول
أسامة بن منقذ (تاريخ)	الشيخ طاهر النعساني	١٧ منه
منافع الخمور ومضارها (صحة واجتماع)	الدكتور اسعد الحكيم	٢٥ منه
الكتب والتأليف في الاسلام (اجتماع وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٨ تشرين الثاني
تربية الطفل (تربية)	السيدة عزيزة الحشيمي (للسيدات)	٢٢ منه
موضوع ادبي (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٤ كانون الاول

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
ملوك الطوائف في الاندلس (تاريخ)	السيد عارف النكدي	٢٣ كانون الاول
—« سنة ١٩٣٠ »—		
الاخبار والاخباريون في الاسلام (ادب وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٤ كانون الثاني
الشعر الخالد والمجد التالد (ادب)	الشيخ عبد القادر المبارك	٧ شباط
رحلة الى دير الزور والجزيرة (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٢١ آذار
مضار المسكرات النفسية والاجتماعية (صحة)	الدكتور اسعد الحكيم	
باب الجابية (تاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٤ نيسان
تتمة باب الجابية 〃	〃 〃	١٩ منه
الولايات المتحدة الاوربية (اجتماع)	السيد عارف النكدي	٢ أيار
القضاء عند عرب البادية 〃	〃 عبد الله رعد	٢٣ منه
المقارنة بين المعري والخيام (ادب)	〃 احمد حامد الصراف	٦ حزيران
الشرع الدولي في الاسلام (تاريخ واجتماع)	السيد نجيب الارمنازي	١٣ منه
حقائق علمية عن المرأة (اجتماع)	〃 عمر كحالة	٢٠ منه
اللغة العربية وذخائرها الادبية قديماً وحديثاً (ادب)	السيد خليل مطران	١٨ ايلول
فورونوف والمجتمع البشري (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	٧ تشرين الاول
أهم موارد الثروة في بلاد الشام (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٢١ تشرين الثاني
تحت القلعة (تاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٥ كانون الاول
تتمة تحت القلعة 〃	〃 〃	٢٦ منه

آراء المفكرين

— في المجمع العلمي —

—«*»—

قال الاستاذ بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا من خطاب له ألقاه في الجامعة السورية : أنشئت في دمشق الى جانب مدارسها العالية مدرستان أجيء على ذكرهما باختصار ، فالأخيرة منهما هي مدرسة الأدب العليا التي ولدت فكرة انشائها في المجمع العلمي العربي هذا الحارس الأمين على تقاليد اللغة ، هذا الوصي العالم الساهر على ابقاء وسائط التعبير الخاصة بالشعب العربي . يقول رئيس المجمع العلمي اللوذعي قولاً بعيد النظر في تقريره الرابع عن أعمال المجمع في السنوات الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين والسابعة والعشرين بعد التسعمائة والالف وكان من أعظم أماني المجمع في السنين الخالية انشاء كلية للآداب ... وذلك كله باحتياج الآداب العربية الى ان تخرج فيها طبقة مختارة تحسن الكتابة والخطابة بلغتها وتسير في التأليف والترجمة وتعاطي الامور العلمية وادارة الاعمال على النظام الغربي وقد قيض لطالب هذه الأمنية ان يحققها بنفسه . فالى رئيس المجمع العلمي هذا العالم العامل والمؤرخ السوري الطائر الصيت يعود الفضل في انشاء مدرسة الادب العليا وهذه المدرسة التي نشأت في أحضان المجمع العلمي وضمت الى الجامعة السورية ، ستلقن طلابها آداب اللغة وتهذيب الانشاء ونقاوة التعبير متبعة خطة المجمع الذي أنشأها ، غير انها ستكون ايضاً أداة للثقافة العقلية العامة ورابطة تربط بها أعمالها بتطور الأخلاق والذوق والفكر البشري لانها لهذه الغاية أنشئت ايضاً ، وقد بدأت هذه المدرسة صغيرة وسترتقي سلم التقدم درجة درجة حتى تستحق اخيراً ان تسمى معهد الادب العالي . ولست أشك ابداً ان هذا المعهد الحديث

المهد ستكون بفضل أساتذتها الذائعي الصيت اللامعين خير خلف لمدارس البصرة والكوفة التي جعلت القواعد العربية درساً من أدق الدروس وأكملها ٠

جاء في مجلة المقتطف : للمجمع العلمي العربي فضل على الناطقين بالضاد لا تزيده الايام الا ذيوعاً ، وقد عودنا اعضاؤه الأفاضل الجد والمثابرة على إحياء الآثار الادبية قديمها وحديثها وبعث الشخصيات العربية البكرة من مرقدها بعد ان جر عليها الزمن ثوب النسيان ٠

وقالت جريدة العهد الجديد من مقالة : أهدى الينا الاستاذ العلامة محمدافندي كرد علي نسخة من التقرير الرابع باعمال المجمع العلمي العربي الذي يرأسه في حاضرة بلاد الشام ، ونحن قبل كل شيء من المعجبين بالفكرة الجليلة التي حملت الحكومة السورية العربية على التفكير بانشاء المجمع المذكور لما يمكن ان يؤديه من الخدم المشكورة لفائدة اللغة وآدابها وتاريخ بلاد الشام قبل كل شيء آخر ٠ واذا كنا لا نطمع بان يكون المجمع المذكور صورة عن المجامع المعروفة في اوربا فلان العناصر القوية التي أساغت العلوم والفنون على أنواعها وهضمتها لا تزال سورية فقيرة بها فقراً يبدو ظاهراً للعيان ويحول دون طمعنا بان يكون مجمعنا قائماً بالغاية التي توجد لها المجامع عادة ، ولكن هذا كله لا يمنعنا عن التهليل لهذا العمل الذي يعدّ نواة صالحة اذا تعهدتها الأيدي بالعناية اللازمة وتوفرت لها العناصر التي تغذيها وتمدها بالوسائل أثمرت ثمرها المرجو ٠ ذلك هو رأينا في المجمع العلمي فنحن ننظر اليه من ناحيته المشرقة النيرة غير ناسين ما يقف في طريقه من عثرات وعراقيل نرجو ان تزول ، واذا نحن قايسنا الأعمال الأولية التي قام بها المجمع والتي تدعو الى الشكر والإعجاب بالمجهود الطيب المبذول لنموه وازدياده ، الفينا انه سائر في الطريق الذي شرع له ، وانه لابد بالغ الغاية المتوخاة من تأسيسه ، واذا شكرنا القائمين بهذا العمل المشكور ، فالشكر عام يتوزعه الاعضاء كل حسب مجهوده واثره فيه ٠

الجاحظ (١)

— تمهيد —

—*—

هل عليّ من حرج وقد قطعنا السنة الاولى واستقبلنا السنة الثانية بأحسن ماتستقبل به دراسة فنّ يروّض العقل و يهذّب العاطفة و يصفّي الذوق ويرقّق الشعور . هل عليّ من حرج ان فكرت في نتائج اول عمل نبت في أفياء مدرستنا هذه قبل ان أشرع في العمل الثاني وهو الكلام على الجاحظ .

لقد فرغت من كتابي (المتنبي) ودفعته الى الجمهور وربما لم يخطر ببالي طبعه وانما طبعته عرضاً على غير عزم فلما أهديته الى طائفة من الاخوان وأهل الفضل في الشام ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والحجاز لم يقع في خلدي أن أتوقع الآثار التي تركها في آفاق الأدباء سواء أكانت هذه الآثار حسنة أم كانت غير حسنة ، اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

ولكني لم أتملص من النظر في هذه الآثار ولست ارى حاجة الى إزعاجكم بالكلام الذي تكلمه الفضلاء على هذا الكتاب وانما أحب ان أشير الى هذا الكلام إشارة لانه يفصح عن روح العصر فقد أجمع الذين عرضوا على التمييز كتابي على انه قد أدخل على الأدب اساليب حديثة .

لا يسعني في مثل هذا المقام الا ان أشكر لهذا الفريق المستنير حسن ظنه وجميل اعتقاده ، فلئن دلت شهادته على مبلغ فضله فلقد دلت على مبلغ كرم أخلاقه .

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

الحاجة الى الأساليب الحديثة في الأدب مشتدة في عصرنا هذا فكأنما الأسماع قد مجّت ماتردّد من سنين طويلة وكأنما القلوب قد لفظت ما تمضغ ·

على اننا لو نظرنا في أدب العرب لتبين لنا ان النفوس في كل عصر من عصور هذا الأدب كانت تتطلع الى الاساليب الجديدة سواء أكانت هذه الأساليب في اللغة نفسها ام في الشعر ام في النقد الادبي ام في الانشاء ام في غير ذلك من مذاهب الفن فاللغة ذاتها لم تكن الا سلسلة تتنقل حلقاتها في كل عصر من العصور من شكل الى شكل وكذلك الشعر والنقد واضرابهما ، وقد يطول بنا الكلام على هذه الأطوار كلها وانما أضرب لكم أمثالاً يسيرة على سبيل التوضيح ·

فلننتقل الى العصر الجاهلي ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء وتامة العنق حتى قال : بعيدة مهوى القرط · وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، يسبق الظلام وامثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل ·

من هذا يتبين لكم ولو على سبيل الايجاز ان العصر الجاهلي لم يخل من المجددين ·

واذا انحدرنا الى صدر الاسلام تحقق عندنا ان النفوس قد تشوّفت الى أسلوب حديث في الشعر غير الأسلوب الذي كان يتبعه شعراء الجاهلية وهذا التشوف بدا لنا عن طور جديد فلما أنشد جرير قول عمر بن ابي ربيعة :

سائلا الربع بالبلي وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا
اين حي حلوك اذ انت محفوف بهم آهل اراك جميلا
قال سازوا فأمعنوا فاستقلوا وبرغمي لو استطعت رحيلا
سئمونا وما سئمنا مقاماً واحبوا دمائة وسهولا

قال : ان هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي · فجرير وامثاله كانوا يريدون ان يسمعوا اشياء لم تتعودها اسماعهم ·

ولم يخل العصر العباسي من المجددين ومن الراغبين في التجديد ، ولما سئل الاصمعي عن بشار ومروان بن ابي حفصة ايهما أشعر ، قال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك فقال : لان مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان

في عصره ، و بشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل ·

فرأي الاصمعي في بشار يشبه رأي جرير في عمر بن ابي ربيعة فالنفوس قد ازداد تطلعها الى نواح جديدة في الشعر ·

وكان ابو العباس الناشي يقول : كان بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي ·

هذه أمثال قليلة يتجلى لكم من ذكرها ميل النفوس في كل عصر من العصور الى التجديد وليست غايتي ان أتكلم على طبيعة هذا التجديد وعلى عوامله وانما الغاية كما قلت لكم ضرب الامثال حتى تعلموا ان عصورنا الادبية لم تخل من طوابع التجديد · فلسنا نعجب من ان يكون روح عصرنا هذا مطبوعاً باشباه هذه الطوابع ·

وكما كان الشعر يتنقل في كل عصر من العصور من طور الى طور فكذلك اللغة فانها لم تثبت على حال من احوالها لا في جاهليتها ولا في اسلاميتها ولا في عباسيتها · فلنضرب مثلاً لذلك ، في الجاهلية اسماء أطلقت على مسميات ثم ماتت هذه الاسماء وولدت بعدها اسماء غيرها عفّت على ماقبلها ، من هذا القبيل ماقاله صاحب الجمهرة (١) :

اسماء الأيام في الجاهلية : السبت شِيار ، والاحد اوّل ، والاثنين أهون وأوهد ، والثلاثاء جُبار ، والاربعاء دُبار ، والخميس مؤنس ، والجُمُعة عَروبة ·

واسماء الشهور في الجاهلية : المؤتمر وهو المحرّم وصفر وهو ناجر وربيع الاول وهو خُوّان وربيع الآخر وهو وُبصان وجمادى الاولى الحنين وجمادى الآخرة رُبّى ورجب الأصم وشعبان عاذِل ورمضان ناتِق وشوال وَعْل وذوالقعدة وَرْنة وذوالحجة بُرَك ·

هذا مثل الاسماء التي عاشت ثم ماتت فلنضرب مثلاً للاسماء التي كانت تدل على معنى خاص في عصر من العصور ثم جاء عصر فنقلها عن معناها الاول الى معنى آخر من هذا القبيل ما قاله ابن فارس في فقه اللغة (٢) :

كانت العرب في جاهليتها على ارث من ارث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم

---

(١) المزهر : الجزء الاول الصفحة ١٠٨ ·

(٢) المزهر : الجزء الاول الصفحة ١٤١ ·

وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالاسلام حالت احوال ونسخت ديانات وابطلت امور ونقلت من اللغـة الفاظ عن مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الاول ، فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وان العرب انما عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط واوصافاً بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمناً ، وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه اسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر ، فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا غير ما اظهروه وكان الاصل من نافقاء اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرُطَبة اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى .

والشواهد على الالفاظ الاسلامية كثيرة فمن شاء التوسع في معرفتها فليرجع الى كتب اللغة .

فأنتم تدركون من هذا ان اللغة سواء أفي الجاهلية ام في الاسلام كانت تنبسط من طور الى طور ، ولو خلصتم الى العصر العباسي لأحطتم علماً بمقادير الألفاظ التي نبتت على جذع اللغة العربية ولم تكن من قبل على هذا الجذع .

اذا عرضنا اللغة في اي عصر من عصورها وجدنا انها يتنازعها حزبان من ابنائها : حزب يحاول ابقاءها على حالتها وحزب يذهب بها مذهباً جديداً .

فالطائفة التي تحرص على ابقاء اللغة في حالة ثابتة دون شيء من التبديل والتغيير تحتج بحجج شتى منها : تعلقها بمذاهب حضارتها وحرصها على تقاليدها واعتناؤها بتلافظ اولادها ورغبتها الغريزية في ان يكون لها لغة مصطفاة ثم اذا تعمقنا في البحث عن الاسباب التي من اجلها يحافظ المحافظون على لغتهم وجدنا ان لكتب الدين تأثيراً عظيماً كالتوراة والقرآن واذا جاوزنا هذه الناحية الى ناحية أبعد تجلت لنا شدة استمساك المحافظين بلغتهم بسبب الكتب الأدبية التي اولعوا بها لجمالها وحسنها فهذه هي اعظم الاسباب التي تدفع المحافظين الى التمسك بمحافظتهم فهم يريدون صفاء اللغة وقد تجمع هذه الاسباب كلها كلمة واحدة وهي ثقافة الفكر .

والحزب الآخر اي الحزب الذي يذهب باللغات مذهباً جديداً فانه يتوسل الى ذلك بثلاث وسائل : اما بقلب اللفظ واما بقلب الصرف والنحو واما بقلب المفردات ، إني

لا أشغلكم بالبحث عن تغيير اللفظ وتغيير الصرف والنحو وانما اذكر لكم قلب المفردات فان الامة تكتسب كل يوم اموراً وافكاراً حديثة وانماطاً في الحس والفهم جديدة فلا بدّ لها من اسماء جديدة لمسميات جديدة ، وهذه الاسماء تؤدي في الاغلب الى انقراض كلمات لان الافكار الحديثة والألفاظ الدالة عليها تعفّي على آثار الألفاظ القديمة [1] .

وعلى ذكر الأسماء الجديدة التي تحتاج اليها الامة لاطلاقها على المسميات الجديدة رأيت ان أعرب لكم مقالاً وقع عليه نظري في جريدة الطان من سنين وهذا هو المقال :

اذا طرحتك النوى مطارحها فكتب لك ان تزور باريز استطعت ان تذوق حلاوة الدنيا وتشعر بنضارة الحياة ، ومن محاسن باريز الفتيات العاملات اللواتي ينصرفن في الصباح الى العمل انصراف النحل الى اجتناء الزهر ثم يفرغن من عملهن فيلهون ولا لهو العنادل على ملتف الأغصان . أطلق الفرنسيون على هذه الفتيات اسم (Midinettes) فالاسم مشتق من كلمة (Midi) ومعناها الظهيرة لانهن ينفلتن في الظهيرة كما تنفلت الطيور من الأقفاص فيخرجن من المخازن والمعامل فيسرحن كما يسرح سرب المها ، فاذا سمعت أحاديثهن على الطريق فكأنك قد سمعت دويّ النحل فتراهن ذاهبات من الاوبرا الى ساحة (الفاندوم) ومن (المادلين) الى (الشانزاليزه) وترى الشوارع والمطاعم والمقاهي والملاهي مكتظة بهن فاذا رأيتهن رأيت الألوان على مختلفها وعرفت كيف تكون الابتسامات على الثغور وكيف تكون التخيلات في الخواطر ، شعر قصير وشباب ناعم وقامة رشيقة وخلقة فتانة ، فهن نضارة باريز وغضارتها ولولاهن لما كان لباريز رونق وبهجة فكلمة (Midinette) العذبة ترد بطبيعتها على شق القلم وطرف اللسان ، ادمجها كبار الكتاب في رواياتهم فتأصلت في اللغة الا انها عرضت يوم الخميس الماضي على قاعة باريز الفتانة اي على الاكادمية الفرنسية وليدة (ريشوليو) وكان لها امل ان تحتفي بها الاكادمية لعذوبتها ونعومة صباها ولكن الاكادمية لم تمهد لها سبيلاً في معجمها فقطبت في وجهها واطرحتها .

وقد أسف صاحب المقال الأسف كله على اطراح هذه الكلمة مبيناً انه ليس من

---

(١) رأي الاستاذ (دارمستتر) صاحب كتاب حياة الألفاظ .

شأن الاكاديمية قلب الالفاظ المصطلح عليها واحتقارها ، وانما مهمتها المحافظة على المصطلحات الكثيرة الدلالة . وقد أضاف الكاتب الى كلامه : ان من الواجب الاقتداء بالرب وموليير في المسامحة والاستئناس بالمصطلحات المستفيضة في طبقات الشعب ثم ختم مقاله بما يلي :

« اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً في كل يوم تفتقر وتنضب وقد كان كتابنا في عصر التجديد لا يجهلون ذلك فكانوا يفتشون عن أسلوب فيه حياة وخفة وله طعم ولون ويقتبسون استعاراتهم عن مصطلحات الصيادين وعن كلام امراء البحر وتعابير اصحاب المطابع فكانوا يجدون انه من الضروري ان ينشأ على الجذع اللغوي القديم طعم على شرط ان يكون هذا الطعم سهلاً دالاً على شيء قد ولده الاصطلاح ، فلم لا نحو نحوهم ؟

هذه حجج المحافظين والمجددين فلننظر في اعمال الحزبين فاذا عمل حزب من الحزبين عمله على حدة وأعرض عن الحزب الآخر فما ذا يحدث .

اذا انحصرت اللغة في ناحية واحدة سكنت حركتها ونضب معينها ولا ريب في ان الشعوب التي ليس لحضارتها تبديل تستطيع ان تحافظ على لغتها على وجه الدهر من دون ان يمس هذه اللغة شيء فاذا كان الفكر ثابتاً لا يتغير فاللفظ الذي يدل على هذا الفكر يثبت ولا يتغير ولكن اذا بلغ الحرص على التقاليد مبلغاً يمنع اللغة عن تتبع مذاهب الافكار والمعاني واستحكم التناقض بين افكار الامة وبين القوالب التي تفرغ فيها هذه الافكار نفدت مادة اللغة فكلّت وهلكت ، واليك مثلاً شهيراً في اللغة اللاتينية المدرسية اي لغة الكتاب الرومانيين وطبقات الناس العالية فان هذه اللغة امتنعت عن تتبع اللغة العامية في نموها وتشددت في المحافظة على أسلوب مقدس ، وفي آخر الامبراطورية هلكت وتركت المجال للغة العامية الحية القوية التي انفجرت من ينابيعها لغات شتى ولهجات مختلفة مستعدة للاستيلاء على الميراث الذي خلفته اللغة الفصحى .

واذا عمل الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً عمله على حدة دون الاستعانة بمذهب المحافظين فان اللغة تقذف يومئذ مقاذف مختلفة فتتحول سريعاً فترة تتعاقب عليها عدة بطون فتصل الى حالة كثيراً ما تختلف عن الحالة السالفة حتى تكاد تكون لغة جديدة وأحياناً تتشعب الى طائفة من اللغات وهذه اللغات تتشعب ايضاً الى ما لا حد

له فقد قيل ان في جملة اللغات المتوحشة بطناً من الناس يشهد لغات تولد ثم تموت لتولد على شكل آخر الا ان هذا التغيير المستمر قد جاوز الحد حتى أصبح مخالفاً لاغراض اللغة وغايتها وأضاع على اللغة قسماً من فائدتها ومنفعتها طالما ان في بعض لغات المتوحشين لا يفهم الشيوخ معاني كلام الأحداث فان في هذا الامر شيئاً غير طبيعي يشبه في علم اللغات عجائب المخلوقات في علم التاريخ الطبيعي . ثم ما هو السبب في هذا التطور الذي لا نهاية له ، ان هو جهل المتوحشين الذين يتكلمون بهذه اللغات وضعف عقولهم لان اللغة تتأبد بالحضارة(١) .

بسطت لكم على سبيل الايجاز امثالاً تستدلون بها على اليسير من أطوار اللغة والشعر ومنها يتضح لكم ان الاسلام جاء بالفاظ لا عهد للجاهلية بها وان الشعر كان يصبغ بصباغ خاص على حسب ما يقتضيه روح العصر فلم يخل عصر من عصورنا من آثار التجديد فان للطبيعة وللاجتماع عوامل لا مندوحة لها عن ان تعمل في الأدب ومادته واذا كان للانتخاب الطبيعي وللتناحر على الحياة آثار في عالم المخلوقات الحية فان عالم الافكار وصورها لا يستطيع ان ينسلخ عن هذه الآثار فلسنا نعجب اذا قلت لكم من ان يكون التجديد انما هو روح العصر فقد وصلت الينا آثار لغات الغرب ووقفنا على هذه الآثار وقابلنا بين اساليب البحث في ادبنا وبين اساليب البحث في ادب الغرب فأدركنا نقصنا وعملنا على تتميم هذا النقص طالما انا قدرنا على الكمال ليس في هذا غضاضة علينا فان أدبنا بفضل الاساليب الحديثة في البحث والتنقيب سينكشف لنا الغطاء عن كثير من محاسنه فنذوق منها ما لم نذق وانما الشأن في مجامع هذه الامور ان نحافظ على روح لغتنا وعلى عبقريتها وأريد بهذه المحافظة ان تكون العربية لغتنا في بحثنا وتنقيبنا دون ان نفسدها العجمة ، أفكان الجاحظ من المولعين بالتجديد ، أفحافظ في صور افكاره على عبقرية اللغة وعلى روحها .

هذا ما نسعى في الوصول الى معرفته في سنتنا هذه .

دمشق : في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٠

---

(١) رأي الاستاذ (دارمستتر) صاحب كتاب حياة الالفاظ .

اللغة العربية وخزائنها الادبية (١)

« قديماً وحديثاً »

أيها السادة

قد شرفني اجلاء هذا الجمع الجليل باد ناء مكاني من مكانهم . واين انا من اولئك الذين تملأ الافق انوارهم وتعمر الشرق آثارهم . اين انا منهم لولا نظرة عطف من معالي رئيسهم البحاثة العلامة الذي بعث في زمنه أشتات مفاخر وطنه ، وقلد العربية قلادة من المنن لاتقوم بثمن ، ولولا حسن استجابة من زملائه الفضلاء لدعائه الكريم في شأن صديقه القديم . فلهم فضل اول بما اولوني من فخر الانتخاب ، أعقبه فضل ثانٍ بما اتاحوا لي اليوم من حظ المثول لدى صفوة من شيوخ تباهي بهم الحاضرة الاموية سائر الحواضر ، ونخبة من فتيان ارى فيهم تباشير صبح جديد لسعادة الدولة السورية ورقيها الحسي والمعنوي الى الغاية التي تجدر ببلوغها أمة عظيمة كهذه الامة الكريمة .

قد سمعتم المعجب والمطرب من ذاك البيان الخلاّب الرائع الذي خصني به صديقي الاستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربي واخذتكم بلا شك في بسطه الجميل قوة فصاحته ، فهل ترك لي ذريعة وانا اتكلم بعده لأكون عندما اقرّ في نفوسكم من حسن الظن بي على انه اذا فاتني فيما ازجيه من البضاعة ان ابلغ ما أراد ابلاغي من عالي رأيكم فلي شفيع لا يخيب في رحابكم ، اني لضيفكم واني لجاركم وانتم خير من اكرم الضيف واعز الجار .

أثيرت في أخريات هذه السنين حركة عمد مثيروها الى احداث ريب في النفوس من جهة صلاح اللغة العربية الفصحى او كفايتها لمجاراة العصر في مقتضياته حتى الادبية

---

(١) محاضرة الاستاذ خليل بك مطران احد اعضاء المجمع العلمي العربي القاها في بهو الجامعة السورية في شهر ايلول سنة ١٩٣٠ بمناسبة انتخابه عضواً مؤازراً في المجمع .

منها • ويقيني انه اذا كان هناك قصور فهو منا وليس منها ، فلذلك بدا لي أن كلمات القيها من على هذا المنبر في اثبات ما اعتقده اعتقاداً راسخاً من صلاح لغتنا او كفايتها للإبانة بسلامة وقوة وجمال عن انواع الاغراض الحديثة وخصوصاً ما يتصل منها بالادب — تكون اخلق بان تسترعي لها اسماعكم • وقد توخيت لهذه الكلمات من طريق موافقتكم عليها — إن فازت بشرف هذه الموافقة — ان تصدر عن ندوتكم هذه درساً يجني منه شبابنا في مختلف الاقطار العربية فائدتين جليلتين : اولاهما ان يعرفوا ما وسائل لغتهم الفصحى وادواتها المتوافرة ومناجم مفاخرها • وثانيتهما ان يتبينوا ما تسومهم الرغبة في معرفتها وإجادتها من المطالعات على ما يحول بينهم وبين استيفائها في الحالة الراهنة من المشاق التي نرجو ان تقل تدريجياً على يد هذا المجمع الجليل وسائر المعاهد الرسمية وغير الرسمية التي تنحو نحوه في الامم الناطقة بالضاد •

لم تخلق اللغة العربية من اصل جامد فيقضى عليها بالجمود ولم ترسم لها من بدء امرها دائرة ضيقة فيحظر على المجتهدين ان يتعدوها وقد نبه على ذلك أئمة من المتقدمين فقالوا ان اللغة تقع متلاحقة متتابعة ، فهي إذن تنمو بنمو حضارة اهلها وتتسع وتتشعب باتساع حاجاتهم وتشعبها • على انّ نفي المشاركة في اصول اللغة اية كانت او في الفروع التي تستنبتها الدهور على تلك الاصول لا يستطاع ، ونفي الأثر الذي تحدثه كل لغة في الاخرى بحكم الجوار او الفتح الحربي او الغلبة السلمية من فكرية واقتصادية لا يستطاع ايضاً • ولكن كل ذلك لا ينبغي ان يغير طابع اللغة ولا ان يعدل ذاتيتها او يمس جوهرها اذا رد الى حدود المقومات التي نفرق بينها وبين سواها كما تختلف الوجوه وتتمايز الشخوص •

تألفت لغتنا العربية في منشئها من لغات تقدمتها ومن مواضعات جمة أعارتها اياها لغات عاصرتها • حسبنا في الدلالة القاطعة عليها ما ورد من الفاظها في أفصح كتاب عربي فهي اي اللغة لم تكن وحياً ولا توقيفاً • كذلك المشاركة في المعاني واتجاهاتها واشتات المذاهب التي يذهبها الكتاب في طرائق ابرازها للناس لتقع مواقعها من نفوسهم تبعاً لاتساع الحضارة وضروب التأنق في العيش وتهيؤ الاذهان حيناً بعد حين لإيثار خطة في الانشاء على خطة أخرى لا سبيل للارتياب فيها وحكمها في لغتنا حكمها في كل لغة عتيدة او عهيدة •

غير ان هذه المشاركة مهما تعددت مآتيها شيء وذاتية اللغة شيء آخر ·
عناصر الجسم مما تشترك فيه الطبيعة كلها ولكنه بها يصح جسماً حياً له قوامه الخاص و بها يعيش عيشة تختلف بفاعيلها عن عيشة كل جسم سواه ·

اذا تقرر هذا فلنسرح الطرف من مشترف عالٍ مارّين بمخلفات الاحقاب مروراً سريعاً لنتبين هل من محل للارتياب في ان اللغة العربية الفصحى تكفي حديثاً كما كفت قديماً لتجاري بأدبها الخاص ادب اية لغة سواها · ولعل أحسن ما يتأتى لنا به حصر هذا البحث وتضييق دائرته على قدر، هو ان يقع التفاهم بيننا على تعريف الاديب ، فمن هو الأديب ؟

هو الذي يحسن التعبير بالاصطلاحات المتواضع عليها في كل لغة عما يوحيه اليه عقله او تجيش به نوازعه واهواؤه او يقع عليها حسه ، مصوغاً في الفاظ فصيحة ، مفرغاً في قالب أصيل خالص ، والسر كل السر في احسانه الابانة ان يملك لغته فيصرفها في الأداء تصريف المتضلع منها المستبحر في فنونها ، البصير بمفرداتها ، الخبير بتراكيبها ، المتشبع بروحانيتها — ولكل لغة روحانيتها — الواسم بوسمها كل مادة يجري بها قلمه وكل سانحة صادرة عنه او طارئة عليه ، المجدد تبعاً لزمانه ومكانه ما تلقاه عن أئمتها وثقاتها في الصورة التي ينوعها كل زمان وكل مكان · المضيف اليها من ابتكاره اوابتداعه طرائف لا تمثل معها صحة طابعها ولا تمس بها جواهرها ولا مقوماتها ·

فيما قدمناه نظرنا الى الاديب ولم نشرك معه الفيلسوف والرياضي والكيماوي فان المقصود في بحثنا انما هو الاديب المحض لا ننفي عنه أن يضرب بسهام في اشتات العلوم ولا ان يلم بكل فرع وفن مما يستكمل به وسائل التفكير ليتسنى له التعبير عن مختلف الاغراض الحادثة مع لزوم الحد الذي يرسمه الادب اللباب ويتأتى معه حسن النسج ولطف اختيار الاساليب لجلاء المدلولات · فان كان الاديب ماعرفنا وكان الميدان الذي يجول فيه لسانه وقلمه ما وصفنا فقد ثبت بالبداهة ان كل لغة مستكملة الوضع واضحة الأعلام قائمة التخوم راسخة القواعد مانعة للشرود والبلبلة صالحة لتكوين الأديب ·

وتكوين الأديب له شرطان : احدهما حصوله على ملكة اللسان وثانيهما وجد انه في لغته من ضروب النماذج مايفتق ذهنه و يعين قريحته على الابتكار ويتيح له مجاراة الفكر

في تحولاته المستمرة ، فني يقيني ان لغتنا العربية الفصحى تكفي كل الكفاية لتكوين الاديب وفي قديمها وحديثها لمن أكب على المطالعة وتوفر على المدارسة مايستطيع به ان يعبر عن ضروب المقاصد مادق منها وماجل ، فان أوجز : فما اجتمع الكثير من المعاني في القليل من الكلام كما اجتمع في مقاطر أقلام الناطقين بالضاد ، وان أسهب : فلينظر كيف جرت الحاجات العذبة من يراع الجهابذة المسهبين جري السلسبيل من الينابيع بلا رنق ولا انفكاك ولا انقطاع واي مطلوب لحسن التشبيه وجمال الاستعارة أدنى الى التناول في لغة منه في لغتنا .

واي لغة قديمة اومولدة فيها بذاتها مافي لغتنا من الغناء بالاشتقاق و بابه فيها أوسع باب لواجيه عن حصافة واستقامة سجية .

غير ان الأديب بالمعنى الأشرف والأمثل ليس الذي يحاكي غيره حكاية الصدى و يجري وراء سابقيه جري التطريس بالاقدام ، بل هو الذي يستعين بما بين يديه على الابداء والخلق . شأنه شأن المصور الذي يتوفر على استكشاف خبايا الفن في المقاييس والملاءمات وسائر ماتوصل به المبرزون من متقدميه الى الاتقان العظيم ثم يجيل ريشته في اللوح ليبرز أنواراً وظلالا ووجوهاً ومناظر على النحو الذي استحبه بتقديره الخاص وآثره بحكم فكره الذاتي ، شأنه كذلك شأن الموسيقي يتقيد بقيود الاصول العامة لصناعته ولكنه يتخير بين آلاف الأجزاء المشتركة في الضروب ما يؤلف منه نغمه الخاص ، نغمه الذي لم يكن فيه ماسخاً صنع غيره أوآخذاً إخذه حذوك النعل بالنعل بل مفنناً مخترعاً .

أتيح لنا في لغتنا العربية مثل أعلى لانظير له فلنتخذه نبراساً لمطالعتنا هذه . العرب في الجاهلية قالوا الشعر فمامتد النفس في جيده الى أطول من المعلقات ، وقالوا النثر فمايوشك المتخلف منه ان يملأ صحائف كراس صغير على الشتات بين المعاني والاغراض فلما أراد الله ان يبدي للعالمين آية من آيات قدرته أنزل كتابه المبين كتاباً عربياً .

وم اتخذ مادته ؟ من أدوات تلك اللغة ، لم يخلق معجماً جديداً ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة . بل أخرج من مأثور ماألفوه واصطلحوا عليه وتفاهموا به تلك المثاني والمثالث التي حيرت الألباب وملأت النفوس بالعجب العجاب . أنزلها من كلامهم واين منها كلامهم . ألزمها حدود لسانهم ومعانيها وراء كل حد . وهذا هو سر الانشاء وسحر الابداء .

أخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية ، لغة استقلت بها فلم تجار ماقبلها وهيهات ان تتشبه بها محاسن الشعر اوعيون النثر في الجاهلية ولم يجارها مابعدها في البلاغة والفصاحة لمكانها من الإعجاز .

ثم جاءت روائع الحديث معقبة من مكان دانٍ على ماهبط به الوحي ، ونور الوحي متحدر اليها كتحدر شعاع الشمس من قمم الجبال الشماء الى رؤوس الهضاب المتطامنة بجانبها فاتصلت به أسباب التأصيل والتفريع ، واتسعت وتشعبت ذرائع التحويل والتوسيع .

لغة جديدة تدفقت اليها جداول الفصاحة القديمة من نواحيها المتعددة فاذا الحوض الذي أفضت اليه بحر عذب يهيء الري والغذاء للحدائق الفيحاء التي ازدهى بها الادب العربي وازدهر في ذلك العصر الكبير وفي سائر ماتلاه من العصور .

من هذه اللغة الجديدة يومئذ استعار الخلفاء الراشدون — وناهيك منهم بالامام علي — جمال بيانهم وجلال تبيينهم . تكلموا بكلام هو من صميم مادة العربية لكنهم جاؤوا بمعان بديعة في صور شائقة غير مسبوقة .

فكانت هنيهة من الدهر سنوات معدودة تم فيها الانقلاب الاول والتحول الأعظم في لغة الضاد . فاذا رجعت الى الكتاب على رأس مخلفاتها تحرته حق حراثته واذا تقفيت بعده خطب الخلفاء الراشدين وأسفارهم متدبراً أساليبها جد التدبر فما تجد من شيء تريد الكتابة فيه الا وله مثال قل او كثر طال او قصر تسترشد به وتهتدي بهديه فيما انت منه بسبيل . وهناك حصل التصرف العجيب في الخلق معان حديثة بالألفاظ القديمة على مااقتضاه التحول الديني والتصور الطارئ في مجالات الحياة . ذلك البيان الذي اجتمعت فيه طرائف اللغة العربية ، وانتفت منه العنجهية والحوشية . ونفحت فيه المفردات والجمل بنفحات قدسية صالحة للمعاش والمعاد . قد أطلع فجراً جديداً على البيان العربي في الحقبة التي تلت ظهور الاسلام الى ماناهز خمسة قرون .

وفي الضوء الساطع الذي أضاء ذلك الفجر به أم الشرق أخرجت القرائح أعاجيبها عقلاً ونقلاً ، فقهاً وسياسة ، وابدت السجايا في مختلف تلك الامم ضروب زيناتها باللهجات الفصحى كما ابرزت الالباب كوامن قواها في استصلاح تلك اللهجات لكل شأن

من الشؤون العامة والخاصة نظماً وترسلاً . فكانت بجملتها وتفصيلها لغة عربية خالصة ولكنها لغة حقيقتها .

تنبهت أذهان العالم الشرقي العربي والعالم الغربي العربي اعيا تنبه للتعبير والتحرير على السنة الجديدة فأوجد النابهون منهم ما لم تسبق به الظنون مما يشتمل عليه الادب من الفنون ذهب كل مذهبه واتى عجباً فجرى السهل الممتنع على قلم عبد الله بن المقفع وصنوه عبد الحميد واندفعت خواطر الجاحظ في كل ما وصل اليه ذهنه من منظور ومحسوس ترسل أشعتها الى أغوار السرائر . ونقل الطبري الى تاريخه ذخائر معرفته باخبار الايام في أسلوب رشيق شائق واستفاض ابوالفرج الاصفهاني في أغانيه بما تقف لديه اكباراً وفوفك تجاه البحر الزاخر وجاء بديع الزمان في ترسله وتمله بما لايزال نسيج وحده . وجمع الحريري من مكنونات اللغة في مقاماته ما لا تحصيه المخيلة . واتى الثعالبي في يتيمة الدهر بما طبق اسمها على مسماها احسن تطبيق . وصاغ ابن خلكان سير الأعيان في قلائد من الجمان . ناهيك باحمد بن ابي طاهر في كتابه المنثور والمنظور . و بالعتبي في مغازي السلطان محمود بن سبكتكين . الى كثير غير اولئك من النوابغ الذين لا تنفسح لتعديد اسمائهم الدقائق المعدودة .

واما في قرض الشعر فهل أذكركم بعد المعلقات المجمهرات والمشوبات والمذهبات والمفضليات والأصمعيات وروائع بشار بن برد ومسلم بن الوليد وابي نواس ومروان بن ابي حفصة وابي الشيص ودعبل . ثم هل أذكر المتنبي في ابتكاره والبحتري في رقته وابا تمام في جزالته والمعري في حكمته وسمو فكره وسماحة فطرته والشريف الرضي في إفاضته المدهشة وابن الرومي ومهياراً في أساليبهما المشتملة على انشاء الابداع من دقائق الوصف مع امتداد النفس وراء ما كان مألوفاً من صناعة السابقين .

بقي ان نشير بكلمة الى ما جاء به اهل الاندلس والمغرب فقد حفظوا البليغ والمأثور من كلام عرب الشرق أحسن حفظ وقوموا ملكاتهم على الاساليب الفصيحة المبينة ولكنهم أدخلوا في صياغتها ومحسناتها ماشاءته طبيعة بلادهم وما آثرته سجايا اهليها . فاذا قرأت منثورهم فكأنه وضاء زاهر رقيق متجاف مواطن الوحشية متساوق اللفظ والمعنى في شوط الجلاء على ماتراه في تصفحك المقدمة لابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفح الطيب

للمقري والإحاطة للسان الدين بن الخطيب وقلائد العقيان ومطمح الانفس للفتح بن خاقان · والمشرق والمغرب لابن سعيد واولاده · واذا قرأت منظومهم فقل ما شئت في عبقرية ابن هانئ الملقب بمتنبي الغرب وطلاوة ابن خفاجة ورقة ابن حمديس وسهولة ابن سهل · والابتكارات واللطائف التي لا تنافسها عقود الدر ولا قطرات الندى ولا نسمات الرياض في الموشحات وتفاريعها وزهرياتها وخمرياتها وفراقياتها بين جد ودعابة ·

اولئك المتقدمون شرقاً وغرباً ممن أوردت اسماءهم او لم اوردها قد أتحفونا بلغة ذات اجهزة وافية ، وآلات متنوعة نهاية التنوع ، ليستخدمها فكر الأديب الاريب في التعبير عن الكليات مهما كبرت ، والجزئيات مهما صغرت ، بأنقى ديباجة وأبدع وشي ، والطف ما يصل به اثر القلب الموحي ، الى أبعد طوايا القلب الذي يتلقى ذلك الوحي مطالعة او سماعاً ·

غير ان مناجم تلك الجواهر ومنابت هاتيك اللآلئ دفينة في بطون أسفار جمة ضخمة ، وهي فيها متباعدة المظنات مفقودة الأعلام مبهمة الصوى لا يبلغنا اليها الا التنقيب عنها واعنات الروية وكد الذهن في تعرف اماكنها واستخراج نفائسها · علة للقصور لم يتلاف الى الآن القوام على اللغة الا بعضها ، ولكن الأديب لا يكون أديباً الا وقد تجشم هذه الشقة وبذل ذلك الجهد وأصبح بالواضع التي يصيب منها سداداً لحاجته ووفاءً بغرضه عليماً بصيراً · ولن يكون على هذا بالاديب التام فما تلك إلا مرحلة بجهاده واجتهاده توصله الى تقويم لسانه وتمحيضه وابعاده عن مزلات الرطانة واللكنة والعجمة وتعرفه كيف يحسن الاقتداء بالسلف ليبدع في غير بدعة تتهدم بها تخوم لغته وتنفصم عرى عروبته ·

هي الاولى من مرحلتين وهي اشقهما مطلباً وابعدهما غاية · اما الثانية فهي الاطلاع على ماحدث في البيان العربي بعد تلك الحقبة الكبرى اي من بدء زمن الانحطاط الطويل الى مستهل البعثة العتيدة الى نهاية ماوصلت اليه في هذه الايام ·

أمر مروراً عاجلاً بحقبة الانحطاط التي لم تخل من مجيدين في النظم ان لم يبلغوا المتقدمين صفاء ديباجة ولا فتق ذهن فقد أسلسوا من مقادة الغريب في الالفاظ والأساليب وأحدثوا طرائق خاصة لتسهيل ما صعب من ضروب التصرف في مختلفات

الأزمنة الاولى الى صورة حال جديدة · وفي مقدمة هؤلاء صفي الدين الحلي وابن النبيه وابن معتوق والابيوردي وابن العفيف التلساني والبهاء زهير وابن الفارض وابن مطروح وابن نباتة · كذلك لم تخل تلك الحقبة من المجيدين في النثر كابن فضل الله العمري في مسالك الابصار والقلقشندي في صبح الاعشى والمقريزي في الخطط وشهاب الدين النويري في نهاية الأرب وابن الاثير الكاتب في الترسل · اما جمهرة الناثرين فكانوا من كتاب الدواوين وفي برهتهم هذه كان الاشتغال بالبديع آية احلال التحليات اللفظية محل المعاني ·

بعد هذه النظرة أفضي بكم الى عصرنا هذا لأتبين معكم بمثل لمح الطائر ما صار اليه اللسان العربي وما يستطيع المتأدب ان يستفيده منه ليستكمل عدة ادبه على النحو الذي يوافق حضارة الزمن ومتباينات مطالبه ·

بدئت البعثة الأدبية في مصر منذ عهد محمد علي وكانت العجمة والركاكة العامية المشبعة بخليط لا وصف له من الرطانات والكلمات المحرفة عن اصل مدلولاتها هي الاداة الغريبة التي يتفاهم بها القوم نطقاً وكتابة ·

بدئت النهضة والازهر مصدرها غير انها كانت مما يمت الى عهد الانحطاط بسبب ولوع اصحابها بتقليد البديعيين ولكنها كانت هبة من سبات الجهل والخمول وحفزة الى غاية من العرفان والنباهة · وفي طليعة ارباب الاقلام يومئذ بمصر الشيخ حسن العطار ، الشيخ حسن قويدر ، محمد سيد احمد باشا ، رفاعة بك ، رجال مدرسة الالسن · ثم أعقبتها على الاثر وقفة لم تجاوز مدتها مدة عباس الاول وسعيد · فلما تولى اسماعيل استأنفت نشاطها واظهر من ظهر في مبادئها الشيخ محمد شهاب الدين شاعراً وناثراً على رأس سلسلة ينتظم الاستقراء فيها اسماء :

عبدالله فكري باشا ، علي مبارك باشا ، السيد علي الدرويش ، ابراهيم بك مرزوق ، محمد قني ، محمود صفوت الساعاتي ، ابي السعود سلامة ، النجاري ، الشيخ احمد عبدالرحيم ، الشيخ علي الليثي ، الشيخ علي ابي النصر ، عبد الخالق الزرقاني ، بين ناثرين وشعراء · بعض هؤلاء أدرك زمن توفيق وفي عهده قويت النهضة بارزة بها اسماء :

شفيق منصور ، عبد الله نديم ، الشيخ حمزة فتح الله ، محمود واصف ، الشيخ احمد مفتاح ، احمد سمير ، حسن حسني الطويراني الخ الخ .

من مخلفات هؤلاء جانب ضاع ولكن جانباً منها ولعله اغلاها قيمة نجا بفضل الله ، على ان الروح التي صدرت عنها تلك الحركة ما عتمت ان أبدت في سماء البيان كوكبين من كواكب الاقدار الكبرى هما محمود سامي باشا البارودي شاعراً ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ناثراً . ثم اخذت سماء ذلك البيان تزدان بالنجم تلو النجم في نظام سأذكر من رجاله لكم الذين استأثرت بهم رحمة الله ، وادع ذكر الاحياء مدّ الله في آجالهم لانكم تعرفونهم . فمن الشعراء :

اسماعيل صبري ، محمد حفني ناصيف . ومن الكتاب عدا الشيخ محمد عبده :

ابراهيم اللقاني ، ابراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي ، الشيخ عبد الكريم سلمان ، مصطفى نجيب ، الشيخ علي يوسف ، قاسم امين ، محمد فتحي زغلول ، الشيخ المهدي ، مصطفى كامل ، الشيخ المنفلوطي ، الشيخ الخضري ، امين الرافعي ، سعد زغلول هذا في مصر .

واما في الشام ولبنان ونهضتها متصلة منذ الساعة الاولى بنهضة مصر وكتب الفريقين متداولة بين البلادين فقد برّز كتّاب وشعراء . اذكر منهم الذين توفاهم الله ولهم بقايا ادبية يرجع اليها وهم :

محمد بن حسين الحلبي العطار ، كمال الدين العمادي الجراعي ، حسن جينه ، بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس مظلوم ، جبرائيل بن يوسف المخلع ، كمال الدين الغزي ، محمد عابدين صاحب الحاشية الشهيرة في الفقه ، عبد الغني الميداني ، الامير عبد القادر الحسني ، محمد نور الترمانيني واخوه احمد ، رزق الله حسون ، امين الجندي ، فرنسيس المراش ، اديب اسحق ، محمود الحمزاوي مفتي دمشق ، الشهاب احمد المنيني ، ابراهيم الحوراني ، ميخائيل مشاقة ، الشيخ طاهر الجزائري ، الشيخ محمد مبارك ، السيد محمد مرتضى ، الشيخ عبد الرزاق البيطار ، الشيخ جمال القاسمي ، السيد عبد الرحمن الكواكبي وشقيقه الشيخ مسعود ، الشيخ بشير الغزي ، رفيق العظم .

واما العراق فبجانب جماعة من السادة الالوسية فتحت سلسلتهم بابي الثناء وتمت الى

عهد قريب بالسيد محمود شكري الالوسي ، يذكر من الشعراء والكتاب الذين انتقلوا الى اكرم جوار :

كاظم ورضا الازريان ، عبد الحميد الاطرقجي ، عمر رمضان ، صالح التميمي ، عبدالغفارالأخرس ، عبدالباقي العمري ، احمد عزت باشا العمري ، السيد حيدرالحلي حسين العشاري ، محمد الغلامي ، احمد الجسابي ، عبدالفتاح الشواف ، حسن الاصم ، حسن البزار ، السيد ابراهيم الطباطبائي ، السيد حسن الداودي ، السيد احمد الفخري واخوه احمد ، السيد محمد سعيد حبوبي الحسيني ، السيد جعفر الحلي .

واما في لبنان فقد برّز من الشعراء والادباء الذين لقوا ربهم : ناصيف اليازجي ونجلاه ابراهيم وخليل ، بطرس كرامة ، ابراهيم الأحدب ، يوسف الاسير ، قاسم ابو الحسن الكستي ، عمر الانسي ، احمد البربير ، عمر اليافي ، احمد فارس الشدياق ، مارون النقاش ، خليل الخوري ، البستانيون بطرس وسليم وسليمان وعبد الله ، نجيب وامين الحداد ، الياس صالح ، امين وشبلي الشميل ، بشاره زلزل ، يعقوب صروف ، اسكندر وداود عمون ، فرح انطون ، اسكندر شاهين ، نعوم لبكي ، جرجس همام ، نصيف المعلوف الخ .

عددت اعلام النهضة الحديثة في الاقطار العربية الثلاثة بلا تدقيق في الترتيب الزمني لما فاتني في رحلتي من وسائل المراجعة واستغفر الله الى ذكرى الذين انساني ضيق الوقت والاسراع في اعداد هذه الكلمات اسماءهم ففاتتني على غير عمد .

ما ذا أسدى الى الادب العربي اولئك الادباء والشعراء ؟ أضافوا الى الذخائر القديمة ذخائر مما اوحت اليهم ايامهم . ألانوا اعواد اللغة من جفاف وآنسوا اوابدها من نفار . عدلوا شيئاً كثيراً من السبك العام للمواضيع في الاسلوب العام للكتابة . ادنوا قطوفاً لم تكن دانية . زادوا على المفردات طائفة بما دعت اليه الحاجات الجديدة . وسهلوا التحصيل وفتحوا ابواباً واسعةً للتفكير .

صنعوا عظيماً ، ولكن ما بقي عمله اعظم .

وهنا كان ولا يزال محل اتهام اللغة بالتقصير في رأي الذين قابلوا بينها وبين سواها فيما يتعلق بالتعبير عن اغراض هذا الزمن وطريقة الاخذ به كأنهم يريدون الطفرة

والطفرة محال . اجل بقي علينا عمل أعظم مما عمل ليتسنى القرب بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ولكن التبعة في التقصير هي علينا وليست على اللغة .

وفي وسع ادبائنا استكمال ما نقص في الاسماء ، وانتهاج النهج الذي يريدونه في تصوير الخيال ، والذهاب في المذاهب التي يؤثرونها لاداء معانيهم مع صحة اللغة وصيانة الاساليب الخالصة . وان تكوين الاديب على اي حال اريد ، ليسور بالمادة التي بين يديه من قديم الكتب العربية وحديثها . على انه مطلب شاق ومرمى بعيد . لكن الصعوبات تسهل والعقبات تذلل لدى مديم النظر ومدمن المطالعة ومصرف الفكر في وسائل الخلق والتجديد .

لقد كان بودي لو اضرب لكم الامثال فانها ادنى متناولاً وابلغ في استيفاء التبيين بيد ان الوقت لا يتسع في هذه المرة فليكن ما ذكرته مقدمة اجمالية موجزة ليستأنف هذا البحث من هو اقدر عليه مني و يسهب فيه بالقدر الذي يربحكم من ثمين الوقت ما اضاعه سابقوكم من المعاصرين في التماس المادة الكافية بين قديم الادب العربي وحديثه للوفاء بكل ما تقتضيه مطالب هذا الزمن من الانواع الشعرية والنثرية المتعددة .

واختم كلامي بالثناء عليكم لحسن استماعكم و بالرغبة الى الله ان يقيض من فتيان الاقطار العربية للغة الفصحى ادباء يحكمون المباني و يبتكرون المعاني . و يخرجون في الاغراض البيانية الحديثة كتباً تنفسح لها صدور الاندية في العالم بجانب اقوم الكتب التي اخرجها ادباء الغرب .

ادبنا القومي

—«»—

نشرت جريدة المساء الغراء من أمهات صحف مصر تسع مقالات ممتعة لاديب كبير وباحث منقب نشرها متنكراً بتوقيع (باحث) فرأينا اقتباسها في هذه المجلة تعميماً لفوائدها الغزيرة ، وعسى ان تصح عزيمة احد الباحثين فينسج على منوالها في وصف أدبنا القومي في الشام :

تقدم اليَّ من لا يسعني الانحراف عن مرضاته بمعالجة هذا الموضوع · ولقد طالما وسوست لي بذلك نفسي ، وفي الحق ان هذا الموضوع يبلغ في بابه من الجلالة والدقة غاياتها · وفي الواقع انني لم أقع الى الآن على من أسبغ القول فيه وتناوله بالدرس من جميع أقطاره · وكان خيراً لو قامت جماعة من اهل العلم والبيان ، وهم بحمد الله في بلادنا كثير ، فتوفروا على درس (أدبنا القومي) وتحليله تحليلاً دقيقاً يردون فيه كل عنصر الى اصله ومنجمه ، ويشيرون في الغاية بالرأي فيه ، والوجه في تهذيبه اذا كان في حاجة الى التهذيب · ويخطون له الخطة التي ينبغي ان يسلكها حتى يبلغ كماله المقسوم ، وبعبارة أوضح حتى يؤدي حاجاتنا في هذا الباب ، ويواتينا بكل مطالبنا باعتبارنا أمة لها كيانها الخاص ولها سائر مشخصاتها الخاصة ، ولكن جمعية من العلماء وأعيان البيان لم تتألف لهذا الغرض الى الآن ولا أحسبها تتألف في يوم قريب ، فأصبح حقاً على الافراد ان ينبعثوا في هذا المطلب مهما أصابوا من عسر ومشقة ، ومهما تقاصرت عزائمهم عن حق الدرس والتحليل ، فلقد قال المتقدمون : (شيءٌ خير من لا شيءٌ) ·

ثم لعلي اذا تقدم لمعالجة هذا الموضوع ان ابعث له غيري ، ادع لمعالجته من هم أوسع به علماً ، وادق له فهماً ، فاذ لم يتم بذلك الغرض كله فسيتم منه صدر محمود فوق انه سينير الى باقيه وجه السبيل ·

على ان اخشى ما اخشاه الجدل ، فان خلقاً منا مع الأسف الكثير ، طبعوا على الجدل لا لشيء الا لحب الجدل . ولو قد راجعت اكثر الموضوعات العلمية والادبية التي طرحت على اهل الذكر عندنا ، بل كلها لرأيتها مدينة للجدل في انطوائها دون الانتهاء الى الرأي فيها . ولهذا فقد عولت على انه اذا نهض لي من يريد مجادلتي فانني لا انصرف عن موالاة بحثي حتى أفرغ منه ان شاء الله فان كان ممن يستحق ان يجادلوا ، بان كان من القاصدين الصادقين في البحث وتحري الحق والنفع فانني أنتبذ معه في الحوار موضعاً آخر حتى لا يعترض مجرى هذا الكلام . وليس معنى هذا انني لا أعدل الى الحق فيما يتبين لي انه الحق ، فما أكتب لأطلب الباطل ، انما أبغي الا يصرفني عن غايتي الشغل بما لا خير فيه من قيل وقال .

وسأحاول ما استطعت ان اجعل رسائلي على الاسلوب العلمي ، فأروض نفسي على الصبر ، وقلمي على الوداعة والاتئاد في البحث والاستقراء ، واستظهار الحقائق مجردة من كل عاطفة ، فللعواطف مواقف غير مباحث العلوم .

— تمهيد —

مما لا يعتريه الشك ان لكل أمة ادباً خاصاً بها ، هو الذي يدعى في العرف الحديث (بالادب القومي) . وذلك بديه لان لكل أمة أصلها وكيفية تكوينها ، ان كانت مكونة من عناصر متعددة ، وجوّها ، ومناظر بلادها ، وما اخذت به من عرف ، وما درجت عليه من اخلاق وعادات وتقاليد الخ . هذا فضلاً عن حظ كل أمة من العلم ، ومبلغها من الثقافة ، ونوع الثقافة التي تنتظم جملة ابنائها .

ومما لا نزاع فيه كذلك ان لكل هذا اثراً قوياً في حياة الامة وطريقة تفكيرها ، وتصورها للاشياء ، وتقديرها لها وحكمها عليها . كما ان لها اثراً قوياً في احساسها بالحسن والقبح وعواطفها في الحب والبغض ، وغير هذا مما يعتلج في النفس من ضروب المشاعر ، وتتعلق به الأخيلة من وجوه الاحلام . فحق بهذا كله ان يكون لكل أمة أسلوب خاص بها لا يشاركها فيه غيرها سواء في وصف الأعيان البارزة ، او في تأدية الافكار والآراء او في تصوير العواطف الباطنة والاحساس الكامنة وآداب المناظرة والادلاء بالحجة وفي ألوان المفاكهات والمنادرات والتعابث بالمضحك من الكلام .

لكل أمة ادب. — بديه ان يكون لكل أمة ادب خاص بها لا يشركها فيه سواها مادامت الغاية الجلى من الأدب تصوير مشاعر النفس ، ونفض مايعتلج فيها من الوان العواطف والإحساس . ولقد عللنا هذا في التمهيد الذي قدمناه بين يدي هذا الكلام بان لكل أمة اصلها او كيفية تكوينها ، وجوّها ، ومناظر بلادها الخ الفروق التي تقوم بين كل أمة وغيرها من الأمم . وقلنا : ان لهذا اثراً قوياً في حياة الامة ، وأسلوب تفكيرها وتصورها للاشياء وتقديرها لها وحكمها عليها . كما ان لها اثراً قوياً في إحساسها بالحسن والقبح ، وعواطفها في الحب والبغض ، وغير هذا مما يعتلج في النفس من ضروب المشاعر ، ويتعلق به الاخيلة من وجوه الأحلام .

وبعد فان لساننا نحن المصريين انما ينمى الى العربية . وان ادبنا في الجملة انما ينتسب الى ادب العرب . يشاركنا في هذا كثير من الامم كأهل الشام والعراق وجزيرة العرب وبلاد المغرب ادناه واقصاه وبعض بلاد السودان وغير هؤلاء . كلنا محسوب في لسانه على العربية ، متعلق في ادبه بادب العرب . ومع هذا فان لكل أمة من هذه الامم ادباً خاصاً عليه طابعه وله كل مشخصاته ومقوماته التي تميزه عن سائر آداب الامم العربية الأخر . وذلك تقدير الطبيعة نفسها لا أثر فيه لسعي انسان وانك لا تقتضي سكان اهل البادية ان يعيشوا عيش اهل الحاضرة وان يفكروا على طريقتهم ويتحاوروا في اسبابهم على أسلوبهم . كذلك لاتقتضي الطبيعة المشاركة في التفكير بين أمة تعتمد في عيشها على الحروب وشن الغارات وبين امة لاتتكئ في عيشها الا على الزراعة والصناعة والتجارة وهي لاتستطيع ان تعالج شأنها الا في ظل الأمن والسلام . وكذلك لاتستطيع ان تسوي في الاحساس بالاشياء ومبلغ الشعور بالمعاني وتحرك العواطف بين قوم يسكنون القحل ويعيشون في المحل ، وبين آخرين حبتهم الطبيعة بالخصب فنمت الزروع وحفلت الضروع ، وزكت الرياض فجادت الثمار ، وضحكت الازهار ، وغنت على الافنان كل ساجعة من الاطيار وهكذا ...

بعد هذا لم يكن من حقنا على الطبيعة ولا على الواقع ان نقدر يوماً ان يكون لنا ولغيرنا وان اشتركنا في اصل اللسان ادب واحد حتى لوكانت بلادهم ادنى البلاد منا ،

وكان لاهليها اوثق الصلات بنا كأهل سوريا مثلاً .

وكيف يتهيأ هذا ونحن نسكن وادياً سهلاً مبسوطاً يشقه نهر عظيم هو كل مادة ساكنيه من انسان وحيوان في التروي وفي سقي الحرث . ثم نحن لنا تاريخنا واصلنا المتصل بقدماء المصريين من جهة و بالعرب الفاتحين ومن سقطوا الى بلادنا في مختلف العصور من جهة أخرى . ثم ان لنا آثارنا وعادياتنا الخاصة بنا . ثم ان لنا طبائعنا الموروثة واخلاقنا المأثورة وعاداتنا المرسومة في كل اسباب الحياة . بينما الطبيعة قد رفعت في سوريا الجبال السامقة تنبثق في صياصيها الينابيع وتنعطف فيها الجداول فتقلدها أبهى الحلي وتكسوها أزهى الحلل . وهنالك غيرذلك من مجالي الطبيعة مالاتقع عليه عيوننا في هذه البلاد ، ثم ان لهؤلاءالقوم كذلك أصلهم وتاريخهم وعاداتهم واخلاقهم وعادياتهم الموروثة عن سلفهم الخ .

فكيف بعد هذا نريد الطبيعة على ان تطبعنا برغم كل هذا الخلاف على غرار واحد في كيفية التصور وأسلوب التفكير والوان التشبيه واستثارة العواطف بحكم مايعتري النفس و يطالعها من وجوه المعاني المختلفة ؟ اللهم اننا بهذا نسأل الطبيعة المستحيل .

ولا يذهب عنك ان الاختلاف في هذه الاسباب يدعو من غير شك الى الاختلاف في كيفية تأليف المعاني اولاً ، ثم في طريقة نظم الكلام و لاطراد باساليبه وتخير صيغه وتحري الفاظه .

ثم اعلم ان كثيراً من مفردات اللغة العربية قد انحرفت في زمن العرب انفسهم عن معانيها الاصلية واستقرت على معان أخر بحكم التجوز وطول الاستعمال حتى اذا اطلقت على معانيها الجديدة اعتبرت حقيقة ، واذا أطلقت على معانيها الاصلية اعتبرت مجازاً . وهذا وحده يدلك على شدة اثر العرف وطول الاستعمال في صرف الالفاظ عن معانيها التي طبعت لها الى معان أخرى بينها وبين تلك نسب قريب او بعيد .

اذا علمت هذا فاعلم كذلك ان الالفاظ كثيراً ما تتكيف وتتشكل في دلالتها على المعاني متأثرة في هذا ببيئة كل قوم وبعرفهم و بسائر اسبابهم . ولقد يكون اللفظ في نفسه جميلاً شريفاً فتراه يسمج في السمع ويخبث بطول التكنية به عن معنى كريه مقبوح ، كما يحلو اللفظ ويخف على السمع بطول اطلاقه لاي سبب على معنى كريه محبوب .

واذا كان لكل أمة رأيها في بابي التكنية والتجوز باللفظ وما اليهما سهل عليك ان تقدر ما يكون بين لغاها في الواقع من الخلاف الشديد برغم انها كلها تنمي الى اصل واحد وتستمد من ينبوع واحد ·

لهذا ترى لكل أمة أسلوبها الخاص في تصوير المعاني وفي نظم الكلام وفي تخير الصيغ وفي انتقاء الالفاظ ، وانها لتختلف اختلافاً شديداً او يسيراً في شعرها وفي منثور كلامها وفي محاضراتها وفي اغانيها ، وفي الوان مفاكهاتها الخ ، حتى انك لتطلق بين يدي السوري أروع النكات المصرية وأبعثها على الضحك فتراه قد حملق فيك عيناه وظل مشدوهاً حائراً لايحس وجه العجب الذي يجر فاك بالضحك من ذلك الكلام ! وان الامر ليجري على العكس كذلك ·

وابلغ من هذا انك ترى الأدب يختلف باختلاف النواحي في الامة الواحدة ، وان كانت هذه الآداب المختلفة تندرج كلها في ادب الامة العام او مايدعى (الادب القومي) ولسنا في هذا نذهب بك بعيداً فان لسكان القاهرة والاسكندرية مثلاً اغانيهم (من مذاهب وادوار وطقاطيق وموالي) واحاجيهم (فوازير) ونكاتهم · ولاهل الصعيد أغانيهم وواواتهم · ولسكان الوجه البحري مواليهم ومطارحاتهم وكل ذلك يختلف بمعانيه والفاظه وطريقة صياغته خضوعاً لحكم البيئة وطوعاً لمطبوع الاخلاق ومأثور العادات · وليؤذن لنا ان نسمي هذا الادب (بالادب المحلي) · وهذه الآداب المحلية على اختلافها بقدر كبير او يسير انما تندرج كلها تحت الأدب المصري العام · وقل مثل هذا في كل بلاد تنطق العربية او تنطق غيرها من اللغات ·

وقبل ان نغادر هذا الموضع يحسن بنا ، ونحن في معرض تحقيق علمي ان نلفتك الى حقيقة واقعة. وهي ان من الفروق التي تعتد بين آدابنا المحلية ان ادب اهل الصعيد على مافيه احياناً من رقة تكاد تشبه السحر ومن سمو معان لعله لم تتعلق بها أخيلة كثيرين من الشعراء ، فان هذا الادب تغلب عليه الفحولة والصلابة وسطوة الكلام حتى فيما يتصل منه بالتعشق والتنفس باحر الوله . اما ادب الوجه البحري فيغلب عليه على الجملة لين اللفظ وفتوره ورخاوة المعاني وتكسر النفس بما يلحقها من الوله على المعشوق والضراعة بكل ما تفعل الصبابة بطلب الوصال · اما ادب الحواضر الكبيرة فمزيج ملفق من هذا وذاك ، على انه

يمتاز احياناً عن الأدبين فضلاً عن براعة النكتة وتجويد الوان التندر بالتفحش في القول والابتذال في اسباب التعشق الى حد ايراد الداعر المهتوك من الكلام ·

وفي هذا المقام يحسن بنا ان ننبه الى خطإ شائع بين كثير من المتأدبين · ذلك انهم يظنون ان الادب محصور في الشعر وفي (النثر الفني) وهو الكلام الذي يجتمع الكاتب لصياغته وتجويد صنعته والتحليق بمعانيه حتى تجري مجرى التخيل ، والتماس الوان المحسنات له في مثل (المقامات) ورسائل المودّات والشفاعات والتهنئة والتعزية والعتاب والاستزارة والاستهداء ونحو ذلك · فان الادب في الواقع أوسع من ذلك القدر وأعم بكثير لانه أداة للترجمة عما يختلج في النفس من المشاعر ، ويعتلج فيها من ألوان العواطف كما انه أداة لتصوير المعاني المختلفة تصويراً يحفز النفس و يبعث فيها العجب ·

وعلى هذا فاننا اذا أدرجنا في أدبنا القومي الشعر والنثر الفني (ولنا بعد في هذا كلام) لحق علينا ان ندرج فيه الزجل والاغاني من (مذاهب وأدوار وموالي بل وطقاطيق) والواوات وغيرها مما يجتمع المصري لنظمه وتنسيقه لانشاده او التغني به ، بل (النكتة) البلدية التي أحسب ان المصري قد تفرد بها من بين سكان العالم ·

هذا كله ينبغي ان يعتد به في حساب الادب القومي وتبيين حدوده والمكابرة في هذا مكابرة في الواقع ومكابرة في حقيقة الادب نفسه ·

بعد هذا كله لم يبق لك بد من التسليم لا بالواقع وحده وهو ان لنا ادباً خاصاً لا يشركنا ولا يجوز ان يشركنا فيه سوانا مهما استوثقت بيننا وبينه الصلات · ومن ذهب الى غير هذا ودعا اليه فهو اما غافل اومحارب لحكم الطبيعة والدعوة اليه على الحالين دعوة الى مسخ التصور وافساد الشعور وقتل العواطف والحيلولة بين ما يجول في النفس وما يجري به اللسان والقضاء على الادب كله قضاء خالداً على وجه الزمان ·

« باحث »

مطبوعات حديثة

البيان المُغرب

— في أخبار ملوك الاندلس والمغرب —

« لابي العباس ابن عذاري المراكشي — الجزء الثالث — اعتني بنشره »

« السيد (إ · لافي بروفنسال) طبع في مطبعة مارسيل ايستاس في مدينة »

« لوفين في بلجيكا سنة ١٩٣٠ ص ٣٦٨ »

نشر العلامة دوزي الهولاندي الجزءين الاول والثاني من كتاب (البيان المغرب في أخبار المغرب) لابن عذاري المراكشي في مدينة ليدن سنة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ وقدم للجزء الاول مقدمة جليلة بالفرنسية في ١٠٧ صفحات ذكر فيها الغرض من نشر كتاب ابن عذاري وتعرض لمواضع نافعة من تاريخ الاندلس ، وكان فيه الثبت المقدم في عصره · وقد اختلطت فيما نشر لابن عذاري قطع من نظم الجمان لابن القطان في الجزء الاول ، وأخرى من تاريخ عريب في الجزء الثاني · اما الجزء الثالث الذي ظفر به الاستاذ بروفنسال في خزانة الاستاذ السيد محمد عبد الحي الكتاني بمدينة فاس فهو في خبر لمتونة والموحدين والحفصيين والنصرية والمرينية الى عام ٦٦٧ ، والغالب ان مانشره هو قطعة صالحة من الجزء الثالث ، لان الحوادث لم تتسلسل الى اكثر من سنة ٤٦٠ هـ اي حوادث أعوام تفرق امر الجماعة وتوالي المتوثبين على الخلافة الأموية في الاندلس · وفي هذه الصحف المنشورة صحائف من المخازي والانحطاط ، او ضعف الوازعين الديني والدنيوي ، لم تسلم معها الاندلس قرونين آخرين الا بقيام دول فتية أتتها من بر العدوة اي من سواحل إفريقية فاستولت عليها ، وقاومت فيها ملوك اسبانيا والبرتقال أعواماً طويلة الى ان تأذن الله بانقراضها الاخير ·

و بالجملة فقد ذكر المؤلف (ص١٥٥) ما كان من تداول الولاة الامراء والثوار من حين الفتح الى خلافة عبد الرحمن الداخل ، ثم تداول الامراء الامويين من بعده الى دولة ابن ابي عامر وابنيه ، وذكر من ولي الخلافة بقرطبة في زمان الفتنة الى سنة ثنتين وعشرين واربعمائة ، وهو حين خلع اهل قرطبة بني أمية اجمعين ، ثم ذكر ما كان من اخبار المتغلبين على بلاد الاندلس عقب هذه الفتنـة المبيرة . وكل ذلك سلاسل من المظالم والحروب الاهلية المؤلمة .

وقد مني هذا الكتاب بنقص بعض الكلمات او السطور او الصفحات في اجزائه الثلاثة . ومع هذا كان في ما انتشر منه فوائد يتلقطها الباحث في تاريخ الاندلس ، بل الباحث في تاريخ الادب ، لان معظم عبارات ابن عذاري ومن نقل عنهم من المؤرخين هي عبارة عن نموذجات راقية في الانشاء الاندلسي ، وبقدر ما بلغت المدنية عند الاندلسيين من الاستفاضة على نحو ما نراها في اكثر ممالك الغرب لعهدنا ، كانت المنازعات قائمة بين القائمين بالامر الى التي ليس بعدها . فقد نقل ابن عذاري في أخبار هذيل احد امرائهم نه كان « أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات وهو اول من بالغ الثمن بالاندلس في شراء القينات اشترى جارية ابن عبد الله المتطبب ، بعد ان أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار فملكها ، وكانت واحدة القيان في وقتها ، لا نظير لها في معناها ، لم ير أخف روحاً منها ، ولا أملح حركة في جميع امورها » . « قال ابن حيان في تاريخه : لم ير في زمانها أخف منهـا روحاً ، ولا أسرع حركة ، ولا ألين اعطافاً ، ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناءً ، ولا أجود كتابة ، ولا أجود خطاً ، ولا أبدع أدباً ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن في كتبها وغنائها ، لمعرفتهـا بالنحو واللغة والعروض ، الى المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح ، وغير ذلك مما يقصر عنـه علماء الزمان . وكانت محسنة في صناعة الثقاف والمجاولة بالترائس ، واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة ، لم يسمع لها في ذلك بنظير ولا مثل ولا عديل . ثم ان الامير هذيل اشترى كثيراً من الجواري الحسنات المشهورات بالتجويد طلبهن في كل جهة ، فكانت ستارته أحسن ستائر ملوك الاندلس ، وكان مع هذه الاوصاف كنفاً للقصاد ، ومنهلاً عذباً معيناً للوراد ، سهل المأخذ لم يزل على احسن حالاته ، الى ان أدركته منيتـه ، فمات

بالسهلة سنة ست وثلاثين واربعمائة فكانت دولته ثلاثاً وثلاثين سنة كلها آمنة هادئة اه . » وأمة تخرج فينة جمعت هذه الصفات من النبوغ ، تعد في أرقى درجات الحضارة ، وأمة تتناغي على هذه الصورة في المنافسة في اقتناء القيان يخل منها كيانها ولو بعد جيل او أجيال .

هذا وللاستاذ الناشر الشكر على هذه التحفة لو خلت من غلطات كثيرة مطبعية وغيرها . اما جودة الطبع والفهارس التي وضعها المحرر ، وهو أستاذ كلية الادب في جامعة الجزائر ومدير معهد المباحث العالية المغربية برباط الفتح في المغرب الاقصى ، فشيء عودنا علماء المشرقيات كلها ، متى أرادوا نشر كتاب من كتب العرب .

محمد كرد علي

الديمقراطيون البلجيكيون

« سنة ١٧٨٩ »

تأليف السيدة سوزان تاسيه ص ٤٧٩ طبع في بروكسل

Suzane Tassier : Les démocrates belges de 1789. Publié par l.Académie royale de Belgique

هذا تاريخ الثورة التي قام بها سنة ١٧٨٩ ، القسم الاعظم من البلجيكيين ليتحرروا من رق النمسا ، وكانت بلادهم صارت اليها بحكم الوراثة ، فاغتنم الوطنيون البلجيكيون الاحوال السياسية في اوربا واميركا ، وكانت الثورات تهز العالم منذ سنة ١٧٧٤ بدأت بالولايات المتحدة الاميركية فخرجت من نير انكلترا ، ثم في فرنسا فأنقذت نفسها من ظلم الملوك ثم في هولاندة . وكانت أفكار الثورة الافرنسية انتشرت في البلجيك بين اكثر الطبقات ، واشتد جوزيف الثاني في حكمه الاستبدادي ، وساعد الثائرين ان أغلقت الحكومة زهاء مئة وخمسين ديراً فانضم بعض رؤساء الدين الى الثائرين الذين ديروا أمرهم وقاموا بزعامة احد المحامين المشهورين واسمه (فونك) وبذل بعض الغيورين مالاً ، واقتنت الامة السلاح ، صنعته في أرضها كما صنعت الخراطيش ، وبدأوا ثورتهم

بثلاثة آلاف شاب دربهم على حمل السلاح احد قدماء قواد البلجيك في ارض مجاورة للبلاد الثائرة ، وثارت الامة كلها في يوم واحد وقبضوا على ضباط النمسا ، وفتحوا السبيل لجندها الى الحرب ، ورشوا بعضهم بالمال فكانت ثورة بلجيكا اشبه بثورة سلبية لم تتمكن معها النمسا من انجاد حاميتها في البلجيك لبعد المواصلات في ذاك العهد . ثم ساعدت فرنسا وانكلترا البلجيكيين على أمانيهم ، لان انكلترا لا تحب ان تكون سواحلها أمام سواحل دولة قوية ، وكذلك فرنسا لاتحب ان تجاور دولة مشاكسة .

استندت مؤلفة هذا الكتاب في تأليفها الى وثائق سياسية يصعب على كل باحث الوصول اليها ولذلك حاز عملها استحسان المجمع العلمي الملوكي في بلجيكا الذي نشكر له هديته النفيسة . م . ك

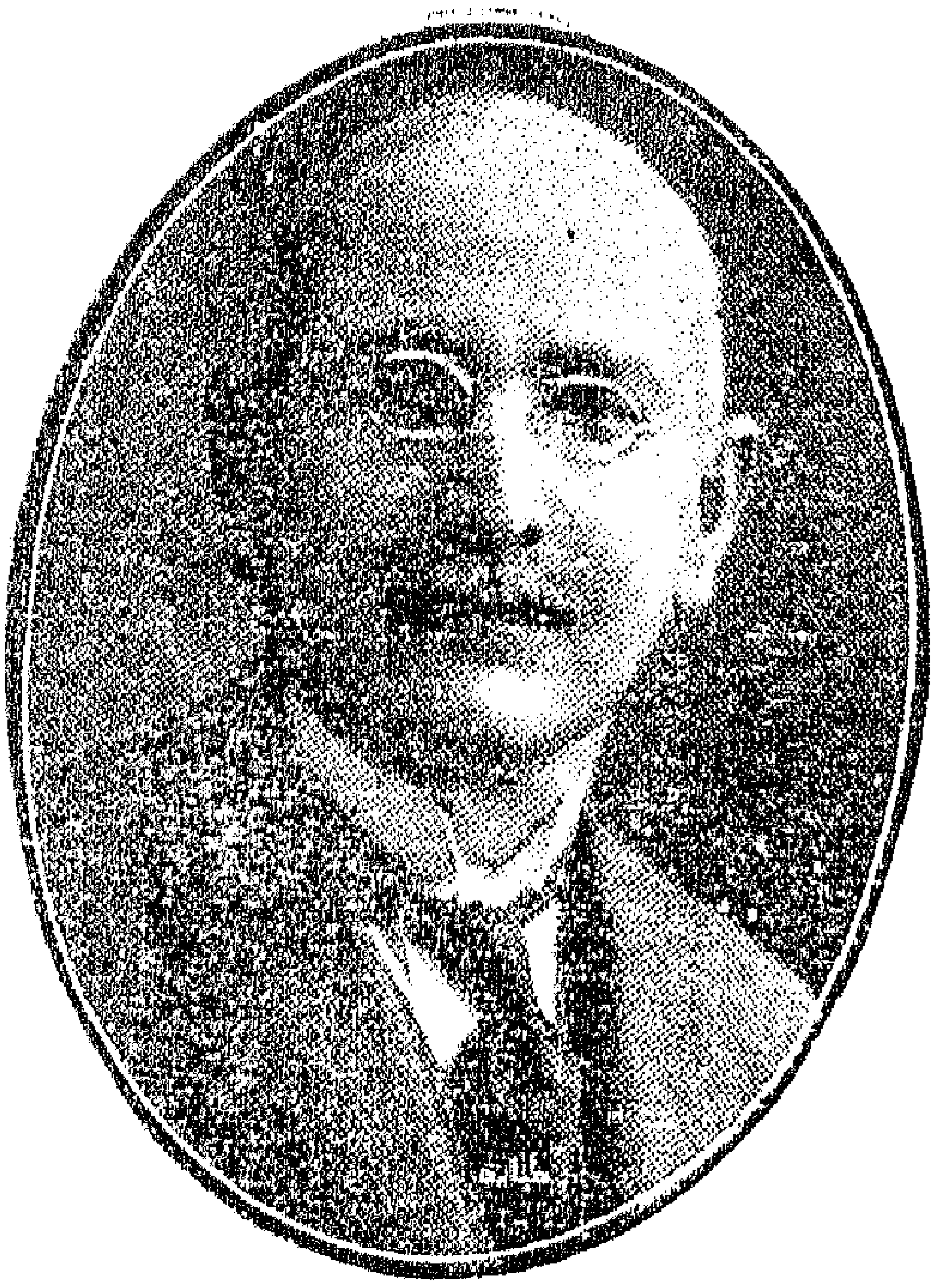

السيد محمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي)

الامير شكيب أرسلان

الشيخ عبد القادر المغربي

الشيخ بدر الدين النعساني

الشيخ ابراهيم منذر

السيد موزيل

السيد كرنكو

الشيخ كامل الغزي

الشيخ رشيد رضا

احمد شوقي بك

السيد جميل صدقي الزهاوي

السيد بفن

السيد فرآن

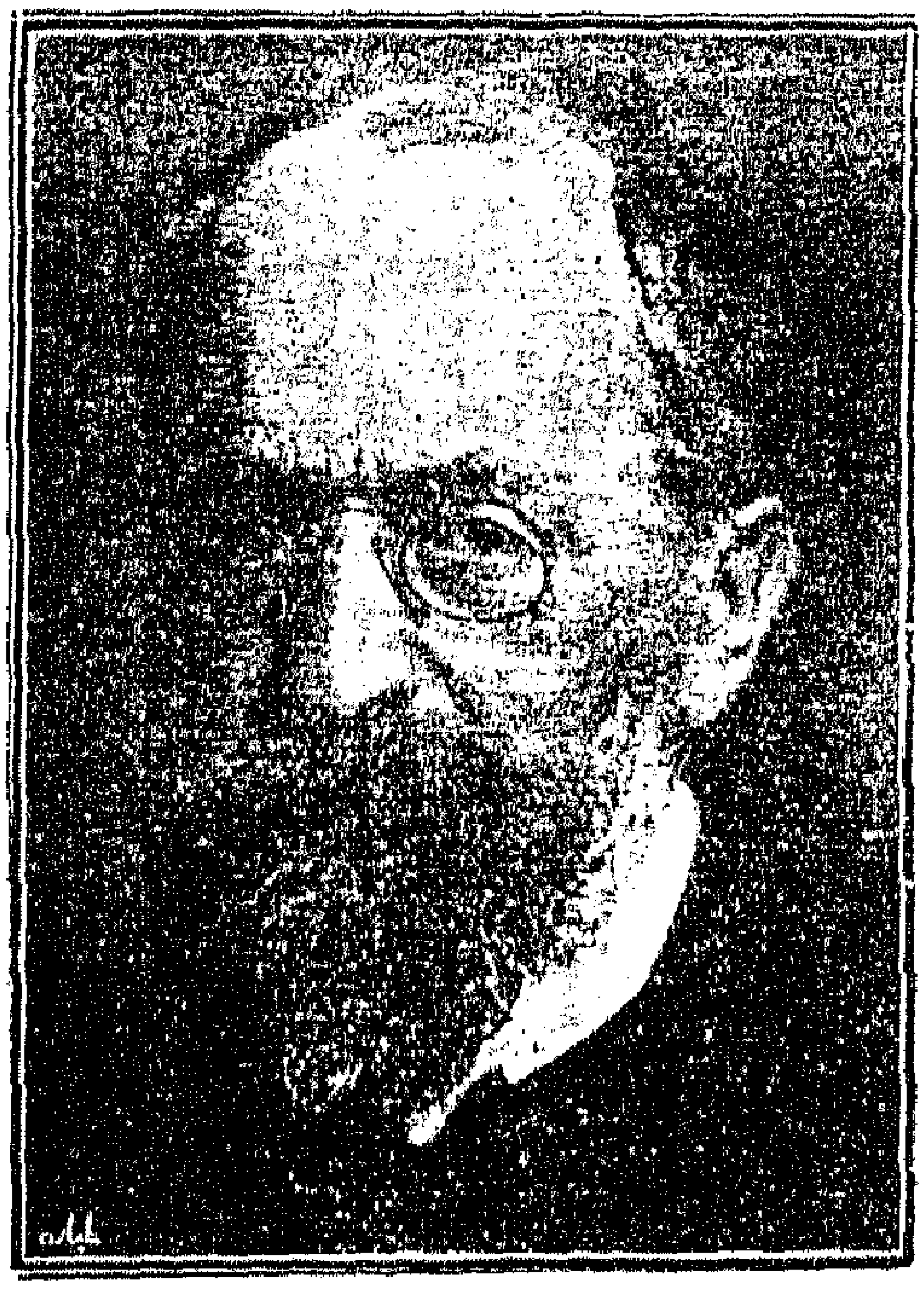

السيد هومل

الاب بلاسيوس

الشيخ احمد الاسكندري

السيد زكي مغامز

الاب انستاس ماري الكرملي

السيد ميخائيل الصقال

السيد فارس الخوري

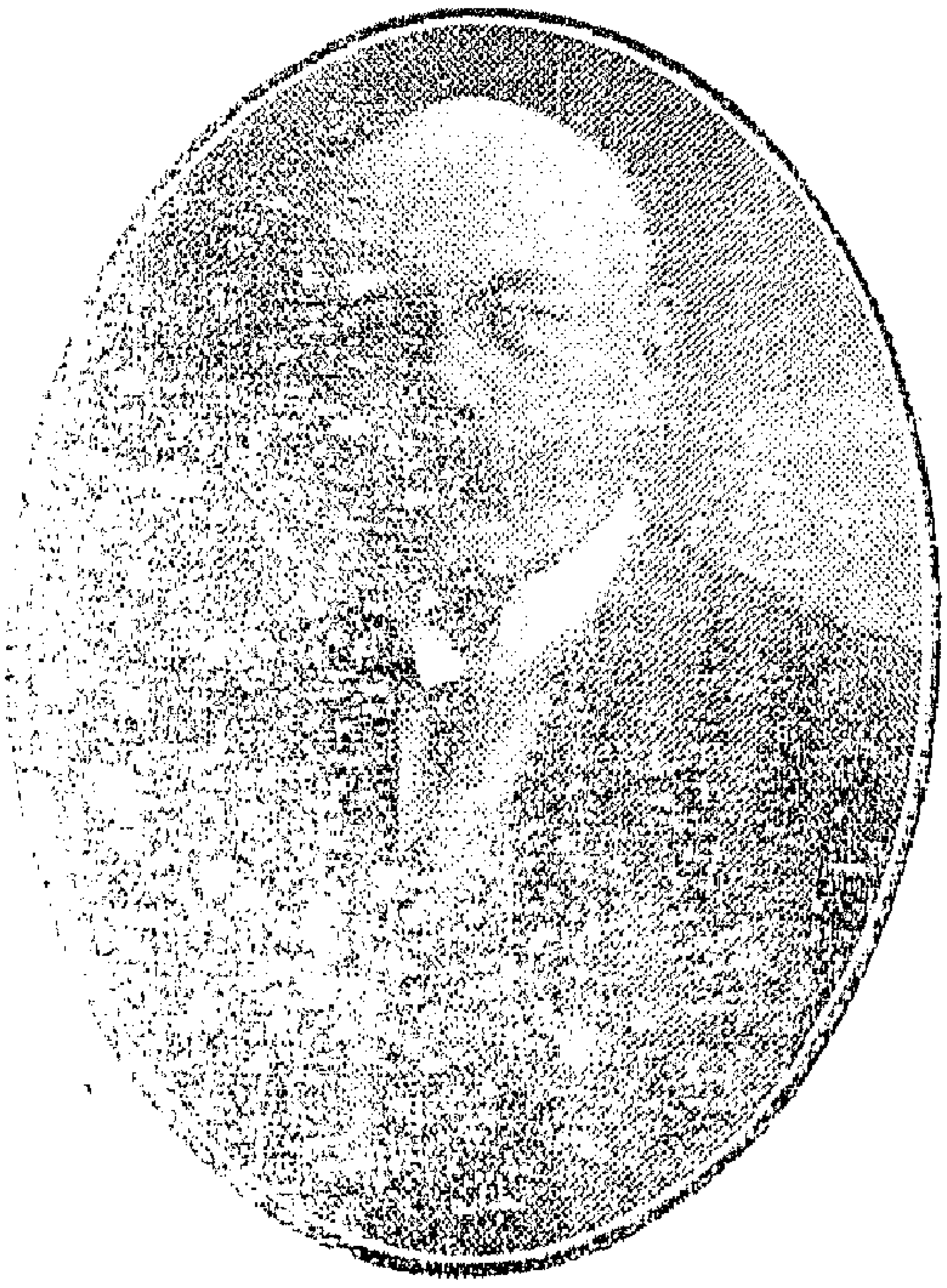

السيد سترسن

السيد كاظم الدجيلي

السيد مرجليوث

الشيخ محمد زين العابدين

الشيخ عبد الحميد الجابري

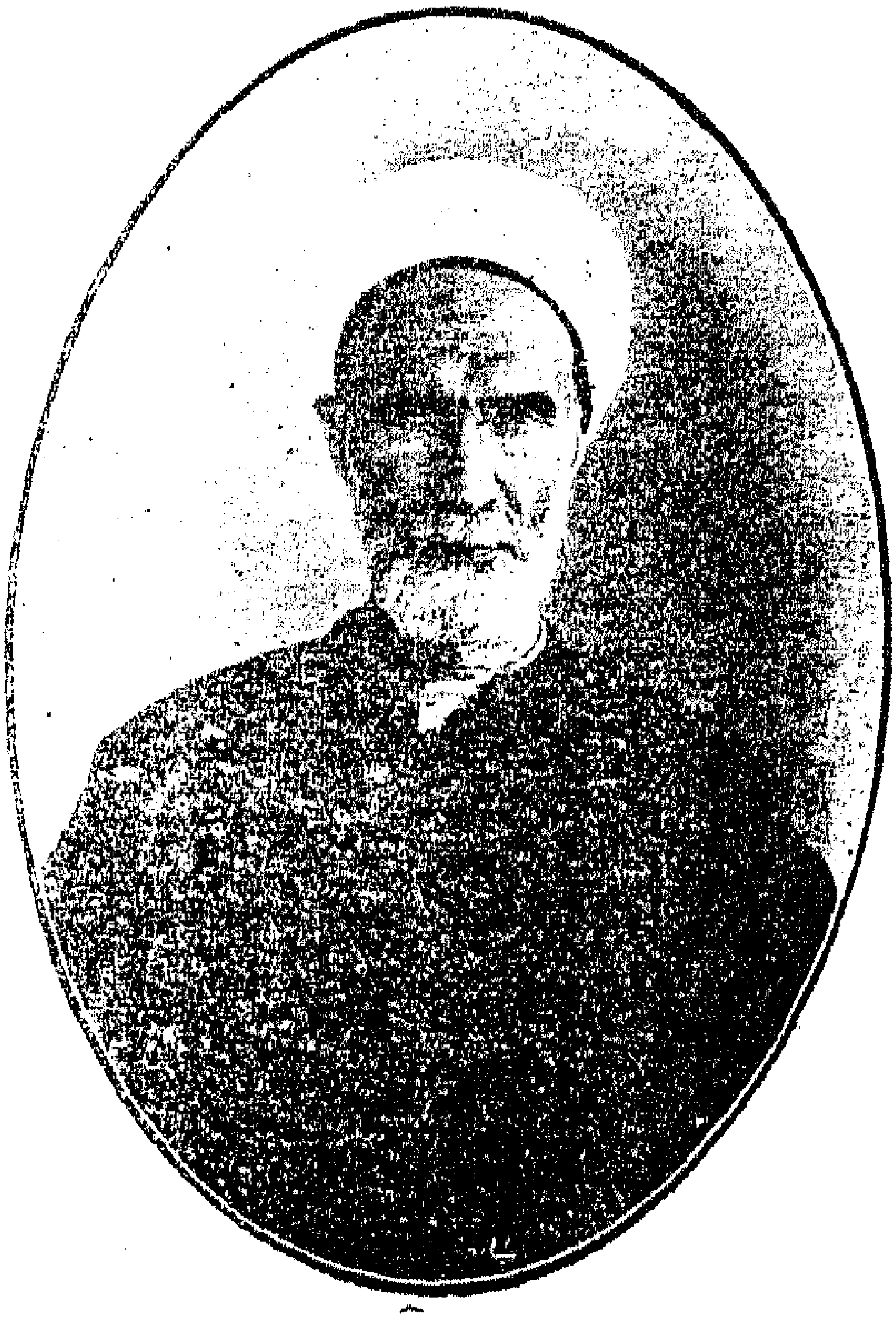

احمدلطفي بك السيد

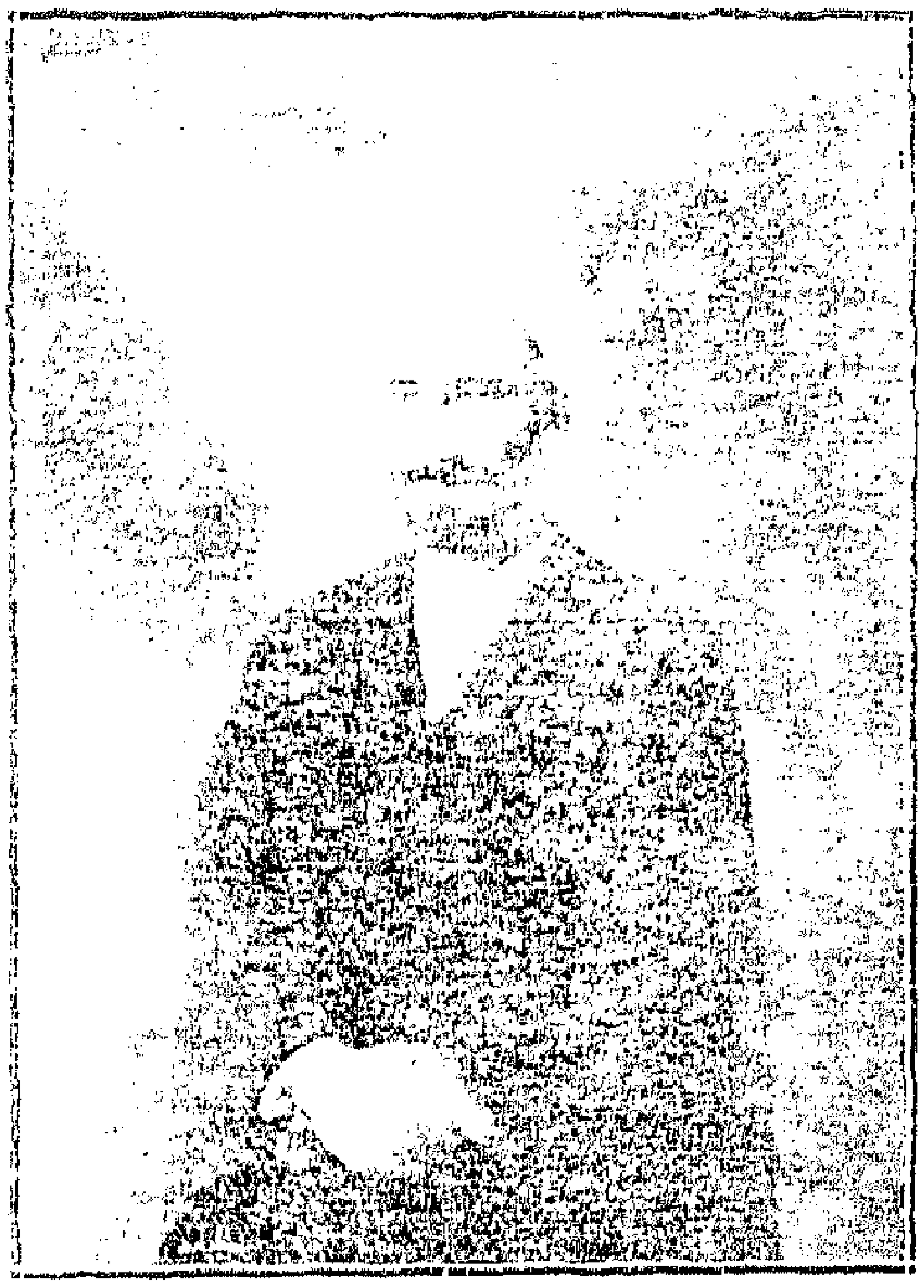

الشيخ رضا الشبيبي

الشيخ احمد رضا

السيد عيسى اسكندر المعلوف

السيد انيس سلوم

السيد سليم الجزائري

الشيخ بهجة البيطار

السيد عارف النكدي

الامير مصطفى الشهابي

السيد جوبيدي

السيد جرجي يني

الفيكونت فليب دي طرازي

السيد ارتور كي

الدكتور سعيد ابو جمرة

السيد معروف الرصافي

السيد اسعاف النشاشيبي

السيد فيليب حتي

السيد كراتشتوفسكي

السيد اسعد خليل داغر

السيد هوتسما

السيد خليل مردم بك

الدكتور اسعد الحكيم

الدكتور امين المعلوف

السيد امين الريحاني

السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي

السيد عبد الله مخلص

السيد رشيد بقدونس

السيد شفيق جبري

السيد احمد امين

الدكتور مرشد خاطر

السيد هارتمان

السيد مصطفى صادق الرافعي

السيد عمر الفاخوري

الدكتور احمد عيسى

السيد احمد حسن الزيات

السيد حسن حسني عبد الوهاب

السيد هوروفيتز

السيد ماشار

السيد بولس الخولي

السيد عبد الله رعد

مقاييس اللغة

« لابن فارس »

—*—

أول من فكر في وضع معجم لغوي على ترتيب يسهل معه تناول كلمات اللغة هو الامام الخليل بن احمد في كتابه الذي سماه (العين) . لكن وجد في نسخ هذا الكتاب تخليط وخلل حمل الناس على الشك في نسبته اليه . حتى قام ابن دريد فوضع كتابه (الجمهرة) فمالوا اليها . وعولوا في الاستفادة عليها . ووجد في علماء اللغة من ينافس ابن دريد في علمه . و ينال منه ومن كتابه . فكانت هذه المنافسة بينهم مغرية لهم على وضع معاجم أخر أتم وأكمل من (الجمهرة) و (العين) . فألفوا (المحكم) و (العباب) و (الجامع) و(البارع) و (المحكم) و (المجمل) و (الصحاح) و (التهذيب) وغيرها . بحيث لم ينته القرن الرابع حتى أرسل بعض الملوك الى الصاحب بن عباد يسأله القدوم عليه . فكتب معتذراً اليه : (أحتاج الى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي) غير ان السيوطي (حوالى الالف للهجرة) ندب هذه الكتب وتأسف على فقدها وقال : (ان الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد) فأين ذهب حمل التسعة والخمسين جملاً ؟ ذهبت بها حروب التتار في مشرق بلاد الاسلام . وحروب الاسبانيول في غربيها . وحروب الصليبيين في وسطها . وها أنا ذا الآن أقرأ كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ فأسمعه يوبخ (بلدوين الثالث) ملك القدس على غدره بأهل أسامة وأولاده الذين أعطاهم الامان في طريقهم من مصر الى دمشق . فلما وصلوا الى عكا أمر الملك بكسر البطسة[1] بالفؤوس وفتش النساء وسلب جميع ما في البطسة ولم يبق لركابها الخمسين نفساً سوى خمسمائة دينار وصلوا بها الى

(١) البطسة نوع من السفن

دمشق . فجمل الملك نور الدين الشهيد يهوّن الأمر على أسامة . ويهنئه بسلامة أولاده ونسائه . فصبر أسامة على خسارة ثلاثين ألف دينار صبر الكرام . ثم قال : (الأماذهب لي من الكتب فانها كانت اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت) .

وكان علماء اللغة ينحون في تصانيفهم مناحي مختلفة مابين مطوّل ومختصر . وعام في انواع اللغة . وخاص بنوع منها .

واكثر تصانيف اللغة تداولاً في الأيدي وأقربها تناولاً من الأذهان كتب المعاجم التي تسرد مفردات اللغة مرتبة ثم تذكر إزاء كل كلمة معناها . اما التصانيف الأخرى التي توضع في فلسفة اللغة او في بيان أسرارها وغوامضها او في نوع خاص من أنواعها ومباحثها كالكتاب الذي ألفه الأصمعي في الأجناس . وكتاب النوادر لابي زيد وكتاب الغريب لابي عبيد القاسم بن سلام وغيرها — فان أمثال هذه الكتب تنحصر فائدتها بعلماء اللغة المتبحرين فيها . المتوفرين على تقصي شواردها . ومن ثم تقل نسخها في الايدي . وتنقطع من الأسواق . ولا يكاد يوجد منها الا نسخ معدودة في دور الكتب العامة او الخاصة ببيوتات العلم .

ومن طرائف الابحاث اللغوية البحث المتعلق بتاريخ اللغة مذ كانت في مهد نشأتها حتى استوت على سوقها وتشعبت فروعها . وينطوي في ذلك شرح خصائصها التي تمتاز بها على سائر اللغات والتنويه بالعلماء الذين توفروا على خدمتها بمختلف المصنفات .

هذا الفن هو الذي أحسن المعاصرون ترتيبه وتبويبه وسموه علم تاريخ آداب اللغة . والكتب التي ألفها علماؤنا فيه قليلة جداً : أشهرها في القديم (فهرست ابن النديم) وأشهرها في الحديث (مزهر السيوطي) .

ومن طريف مباحث اللغة البحث المتعلق بانساب اللغة وتولد كلماتها من أصل واحد . فالاصل الواحد بمثابة الأم والمشتقات المختلفات المعاني بمثابة السلالة فيتألف من المجموع أسرة واحدة هي (الاسرة اللغوية) ومنها تتكون اللغة كما تتكون الامة من أسرها .

هذا البحث من أدق مباحث اللغة . ولا يجيد فيه الا القليلون من علمائها بل لا يجيد فيه الا من تمكن من علمي الصرف والاشتقاق كما يلمح مما قالوه في ترجمة (ابن جني) امام هذا

الفن — فن السلالات اللغوية — قالوا (انه كان في التصريف إماماً لا يشق له غبار) ٠
وابن جني في الواقع ونفس الامر هو ابن بجدة هذا الفن ٠ ولم يجر معه فيه الا ابن فارس أحد أئمة اللغة المشهورين وكانا في عصر واحد — عصر النهضة العربية الزاهر — عصر المتنبئ والصاحب بن عباد — فقد توفي ابن جني سنة ٣٩٣ ﻫ وابن فارس سنة ٣٩٥ﻫ وألف ابن جني في هذا الفن كتابه (الخصائص) كما ألف ابن فارس كتابه (مقاييس اللغة) بيد أن ابن جني بحث في كتابه عن (الاسرة اللغوية) من جهة تولد ألفاظها وتشعب تراكيبها تصريفاً واشتقاقاً ٠ إعراباً وبناء ٠

أما ابن فارس في مقاييسه فقد جعل معاني الكلمات أساساً للبحث في تشعبها وتناسلها وتولد بعضها من بعض ٠

وهذان الامامان في المتقدمين كالمرحوم (احمد فارس الشدياق) في المتأخرين المعاصرين: فقد ألف احمد فارس كتاباً ممتعاً في تكون (الأسر اللغوية) سماه (سر الليال في القلب والإبدال) حذا فيه حذو (احمد بن فارس) في مقاييسه حذو القذة بالقذة ٠ فكانا فارسي هذا الميدان اسماً ولقباً ٠ كما كانا فارسيه تجويداً في الموضوع وتهذيباً ٠

والكتابان (الخصائص) و (سر الليال) طُبعا ٠ وتداولتهما ايدي الفضلاء ٠ أما ثالثهما (مقاييس اللغة) فلم نر له نسخاً مخطوطة دع عنك المطبوعة ٠ وان كان المرحوم (جورجي زيدان) قال لنا في كتابه تاريخ الآداب العربية (انه اليوم يطبع في مصر) لكننا لم نر أثراً لهذه الطبعة فلعلهم هموا ولم يفعلوا ٠

ومؤلف (المقاييس) احمد بن زكريا بن فارس الرازي من أئمة اللغة وكبار مؤلفيها ٠ وكان الصاحب بن عباد يكرمه ويتلمذ له ويقول : « شيخنا ابو الحسين ممن رُزق حسن التصنيف ٠ وقد أمن فيه من التصحيف » ٠

وترجم له ياقوت في معجمه (جزء ٢ ص ٦) وعدد له من المصنفات نحو خمسة وعشرين كتاباً أشهرها (المجمل) الذي قال في اوله « قد ذكرنا الواضح من كلام العرب والصحيح من دون الوحشي المستنكر » وقال في آخره مبيناً السبب في تسميته بالمجمل (قد توخيت فيه الاختصار ٠ واقتصرت على ما صح عندي سماعاً ٠ ومن كتاب صحيح النسب مشهور »

يعني انه لم يودع كتابه من كلمات اللغة الا كلمة سمعها من لغوي ثقة . او اقتبسها من كتاب ثقة .

اما كتابه (مقاييس اللغة) فقد كدنا نشك في ان يكون له لان بعض من كتب سيرته لم يذكر نسبة هذا الكتاب اليه : فابن خلكان مثلاً لم يذكره في جملة مصنفاته . والمرحوم (زيدان) لم يذكره ايضاً في جملتها وانما ذكره في محتويات مكتبة (آل كاشف الغطا) في النجف ولم ينسبه الى مؤلف ما وبعد سطر قال « ان من محتويات تلك المكتبة كتاب المجمل لابن فارس » فهذا يدل على انه كان يجهل مؤلف كتاب المقاييس .

وبينا كنا في حيرة من امر هذا الكتاب اذا نسخة منه مصورة بالفوتوغراف تعرض على مجمعنا العلمي فتجددت لنا الرغبة في زيادة الاستيثاق من امر نسبة هذا الكتاب الى (ابن فارس) فلم نلبث ان ظفرنا بنسبته الصريحة اليه في كتاب (معجم الادباء) لياقوت فقد عدّه في جملة مؤلفاته وقال « انه كتاب جليل لم يصنف مثله » . وزادنا ايماناً بهذه النسبة ما ذكره السيوطي في كتابه (المزهر) « جزء ١ ص ٢٨٦ طبعة الرافعي سنة ١٣٢٥ هـ) مذ تكلم على النحت ونقل فصلاً من كتاب (فقه اللغة) لابن فارس قد ختمه بقوله « وقد ذكرنا ذلك بوجوهه في كتاب مقاييس اللغة » فلم تبق شبهة في امر نسبة الكتاب اليه .

اما مخطوطات (المقاييس) فقد علمنا من الاستاذ (زيدان) ان منه نسخة في مكتبة (آل كاشف الغطاء) وعلمنا من احد الفضلاء ان في ايران ثلاث مخطوطات منه : واحدة في مكتبة الشاه . واخرى في مكتبة نصير الدولة احد وزراء ايران السابقين . والثالثة في طهران في مكتبة مدرسة المروي . والمروي هذا هو احد وزراء (فتح علي شاه) وهي التي اخذت عنها الصورة الفوتوغرافية وعرضت على مجمعنا فلم نتردد في شرائها وتزيين المكتبة بها .

وقد نقبنا عن نسخة خامسة لهذه النسخ الاربع فلم نجد : نقبنا في فهارس مكاتب اوربا ومصر والاستانة فلم نجد شيئاً حتى ان فهرست مكتبة برلين لم يذكر مقاييس اللغة مع انه ذكر طائفة من مصنفات احمد بن فارس .

والنسخة المصورة عن نسخة مكتبة المروي تبلغ (٧٧٩) صفحة . وهي بقطع دون المتوسط وخطها من النسخي الحسن الصغير الحروف وفي الصفحة الواحدة (٢٧) سطراً . وقد ختمها ناسخها بقوله : « قد وقعت الفراغة من كتابة كتاب المقاييس اللغة (كذا) » وتحته ختم جميل الشكل فيه ثلاثة أسطر مكتوبة بخط فارسي انيق هكذا « وقف . محمد حسين علي . مدرسة الفخر الطهران (كذا) » ولم يذكر كاتب النسخة اسمه في آخرها ولا اسم البلد التي كتبت فيها ولا تاريخ كتابتها . ويظهر من نسق الخط وأشكال حروفه ان النسخة كتبت بعد الألف للهجرة . وكنا نتصفح فصولاً منها فنجد أحياناً تحريفاً وتصحيفاً لكنه قليل . يظهر ذلك من النموذجات التي عزمنا على اقتباسها من الكتاب ونشرها تباعاً في مجلة المجمع .

ونبدأ بخطبة المؤلف وقد سلك فيها مسلك الايجاز كما هي عادة المؤلفين الأقدمين فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله . وبه نستعين . وصلى الله على محمد وآله أجمعين . قال احمد أقول وبالله التوفيق . ان للغة العرب مقاييس صحيحة . واصولاً تتفرع منها فروع . وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس . ولا أصل من تلك الأصول . والذي أومأنا اليه باب من العلم جليل . وله خطر عظيم . وقد صدرنا كل فصل بأصله الذي يتفرع منه مسائله حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل . ويكون المجيب عما يسأل عنه مجيباً عن الباب المبسوط بأوجز لفظ وأقربه . وبناء الامر في سائر ماذكرناه على كتب مشهورة عالية تحوي اكثر اللغة : فأعلاها وأشرفها الخ . ثم ذكر المؤلف الكتب التي اعتمد عليها وهي خمسة : (١) كتاب العين للخليل بن احمد . (٢) كتاب غريب الحديث لأبي عبيد (٣) كتاب مصنف الغريب له ايضاً . (٤) كتاب المنطق لابن السكيت . (٥) كتاب الجمهرة لابن دريد . ثم قال : فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع اليها ، حتى اذا وقع الشيء النادر نصصناه الى قائله» . ثم شرع في مباحث كتابه فافتتحه بباب الهمزة وما بعدها ، وقد رأينا ان نقارن بين ما قاله احمد بن فارس في الهمزة والباء ، وما قاله احمد فارس فيهما في كتابه (سر الليال) ليتبين للقارئ وحدة موضوع كتابيهما وتشابه طريقتهما في بحثهما . وهذان هما :

مقاييس اللغة

— لاحمد بن فارس —

باب الهمزة

« في الذي يقال له المضاعف »

إعلم ان للهمزة والباء في المضاعف أصلين احدهما (المرعى) والآخر (القصد) والتهيؤ ، فأما الاول فقول الله عز وجل : (وفاكهة وابّا) قال ابو زيد الانصاري : لم أسمع للابّ ذكراً الا في القرآن . قال الخليل وابن[1] زيد الأب المرعي بوزن فعل وانشد ابن دريد شعر :

(جذمنا قيس ونجد دارنا
ولنا الأبّ به والمكرع)

وأنشد شُبيل بن عزرة لابي داود شعر :

(يرعى بروض الحزن من أبّه
قربانه في عانة تصحب)

اي تحفظ ، يقال صحبك الله اي حفظك قال ابو اسحق الزجاج (الأب) جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية كذى (كذا) روي عن ابن عباس (رضي الله عنه) . فهذا اصل . واما الثاني : فقال الخليل وابن دريد الاب مصدر أبّ فلان الى سيفه اذا رد يده اليه

(١) كذا في الاصل ولعل صوابه ابن دريد او ابو زيد .

سر الليال

— لاحمد فارس —

أب

ذكر المصنف أولاً عبارة صاحب القاموس في معاني مادة (أب) المختلفة ثم أتبعها بقوله :

« قلت : كان يجب عليه ان يجمع معاني الفعل كلها في موضع واحد . وعندي ان اول هذه المعاني أبّ الشيء حركه وهو حكاية صوت ونحوه هب وهف لحركة الريح وخبّ لعدو الفرس وحف لصوت ركضه وقب لصوت ناب الفحل وعب لصوت جرع الماء . وأب للسير أي تهيأ من معنى الحركة ونحوه عبأ المتاع والأمر هيأه . وجاء ايضاً أهب للامر وتأهب اي استعد . ومن هذا المعنى قيل : أبّ هزم بحملة والى وطنه اشتاق وجاء الوب التهيؤ للحملة في الحرب كالوبوبة ونحو أبّ أبّه أمّ أمّه وحم حمه وأمّ أمّته وعمه . و(الأب) للكلأ من معنى القصد . ولك ان تقول انه من معنى الحركة المقرونة بالاشتياق اذ هو عند العرب من اعظم ما يتشوق اليه ولهذا قال تعالى (ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حباً) الى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) وقال ايضاً (وانزلنا من المعصرات ماء

ليستلّه ، الأَب في قول ابن دريد النزاع الى الوطن والأَب في روايتهما التهيؤ للسير وقال الخليل وحده : أبّ هذا الشيءُ اذا تهيأ واستقامت طريقته ابابةً وانشد للاعشى:

(صرمت ولم اصرمكموا وكصارم
أَخ قد طوى كشحًا وأبّ ليذهبا)

وقال هشام بن عتبة في الابابة شعر :

(وأبّ ذو المحضر البادي أبابته
وقوضت نيّة أطنـاب تخييم)

وذكر ناس ان الظباء لا ترد ولا يعرف لها ورد . قالوا : ولذلك قالت العرب في الظباء : ان وجدت فلا عباب وان عدمت فلا أَباب : معناه ان وجدت ما (ماء) لم تعبّ فيه وان لم تجده لم تأبب لطلبه والله أعلم بصحة ذلك . والأَب القصد يقال : أبدتُ أبّه وامت أمّه وحممت حمّه وحردت حرده وصمدت صمده قال الراجز يصف ذئبًا شعر :

(مرّ مدلّ كرشاء الغرب
فأبّ أبّ غنمي وأبّي)

اي قصد قصدها وقصدي اه .

نجاجًا فأنبتنا فيهاحبًا ونباتا) وجاء العمّ بمعنى العشب . وجعل ابن فارس الابّ من معنى التهيأة قال لانه يعد زادًا للشتاء والسفر كما في المصباح . ومن معنى القصد والاشتياق ايضًا جاء الأَباب بمعنى الماء وهو بالفارسية احد شطري اللفظ العربي اعني آب . فاما اطلاقه على السراب فمن تسمية المكروه بما يستحب كقولهم نام اي مات وله نظائر كثيرة ويظهر مما سيذكره المصنف في (عبّ) ان الأُباب ايضًا مصدر أبّ اي تهيـأ ونحو الأُباب بالضم لمعظم السيل والموج العبـاب لمعظم السيل . وماء عباب اي كثير . وان الابابة بالفتح والكسر من معنى القصد والتهيأة اذ كان للقصد معنيان اعني الأُم والاستقامة وهذا من اسرار العربية فتأمله . ومن معنى التهيـأة ابّ يده الى سيفه وهو في ابابه وابب بمعنى صاح حكاية صوت ومثله هبّ بالتيس دعاه الخ .

* * *

هذا وفي الجزء التالي من المجلة ننقل للقاريء من المقاييس نموذجات أخرى توضح غايته وتبين طريقته .

« المغربي »

اول عهدي بالجاحظ(١)

- ٢ -

كان حقاً عليَّ بعد ان فرغت من الكلام على ابي الطيب المتنبي وهو اول شاعر حفظت من شعره في حداثة السن ما يصقل الخيال ويشحذ العاطفة و ينبه الشعور ان ابدأ بالكلام على عبدالله بن المقفع وهو اول كاتب استظهرت من كلامه مايعين على تقويم البيان وصحة التعبير وجودة السبك ، فما استضأت الا بضيائه ولا استرشدت الا برشده ، انه الكاتب الذي صلحت أساليبه لكل دهر ، واظن ان كثيراً من المتأدبين استعانوا بابن المقفع على صناعة الترسل ، على اني لا أرى ان يقتصر المتأدب على كاتب واحد فلا يغرف الا من بحره ، وانما أرى ان ينتقل من كاتب الى كاتب دون شيء من التقيد . فاذا فعل هذا استطاع ان يأخذ عن كل كاتب ما يطيب و يقتبس عنه ما يحسن حتى يصبح صاحب أسلوب ينفرد به .

نعم كان حقاً عليَّ ان ارجع الى الآثار التي ابقاها ابن المقفع في خاطري فابعث هذه الآثار من مراقدها ولكني لا أدري ماالذي حملني على ايثار الكلام على الجاحظ ، افآثرت هذا الكلام لان الجاحظ أبعد مذاهب وأوسع آفاقاً فان الباحث يجد في نواحيه مجال القول ذا سعة ولكن هل يجد لساناً قائلاً واي لسان يحيط بوصف الجاحظ واي بحث يفضي بصاحبه الى تصوير عبقريته بمجامعها ، وكيف كان الامر فقد عولت على ان امضي القول في الجاحظ في سنتنا هذه ، وقبل ان أحاضر بشيء من هذه الناحية رأيت ان استثير الذاكرة حتى اقول لكم : كيف اتصلت بالجاحظ وكيف ذهبت في الولع به كل

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

مذهب. وقد يفتح لكم رجوعي الى الماضي باباً من ابواب الجاحظ. تعرفون منه اليسير من خصائص عبقريته فيستنهضكم هذا اليسير من اليوم لمطالعة فصوله واملاء خواطركم من طرائفها ولطائفها .

من عشر سنين اشتريت كتاب (الكامل) للمبرد وعلى هامشه فصول مختارة من كتب ابي عثمان. قرأت اول هذه الفصول وهو مقتطف من كتابه في الحاسد والمحسود وقد فتنت بهذا الفصل الفتنة كلها حتى وصلت الى قوله :

« وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك » .

فلما وقفني هذا الكلام قلت في نفسي : ما اعلم صاحبه بطبيعة البشر ، ما الصقه بداخلهم ومخارجهم ، ما اكشفه لاغطية قلوبهم يكاد لا يخفى عليه شيء مما تشتمل عليه جوانحهم، انه لشديد التدقيق يقرأ على صفحات الوجوه ما كتب في اعماق الصدور . نعم لما وصلت الى صفات الحاسد وهي : تغير اللون وتخوص العين واخفاء السلام وما شابه ذلك قلت في نفسي : لا يخلو الجاحظ من ان يكون محسوداً في عصره حتى كان يقع نظره على حاسده فيتأمل في وجهه ، ومن منا لا يعرف الحاسد ، ومن منا لم ير تخوص هذه العين وتغير هذا اللون في كل يوم ، لقد قلت في نفسي لا يخلو الجاحظ من ان يكون محسوداً في عصره حتى كان الصيف المنصرم وقد عكفت على مطالعة كتبه ليتهيأ لي الكلام عليه فمن الكتب التي طالعتها : كتاب المحاسن والاضداد والبكم ما جاء في مقدمة هذا الكتاب فلا بأس بان اتلو عليكم هذا الكلام حتى تأنسوا من اليوم بكلام الجاحظ وتألفوا طراز انشائه قال ابو عثمان :

اني ربما الفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والاحكام وسائر فنون الحكمة وانسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاعته واكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة فان امكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي الف له فهو الذي قصدوه وارادوه ، وان كان السيد

المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً واعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب والفوا من اعراضه وحواشيه كتاباً واهدوه الى ملك آخر ومشوا اليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي ... وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه فأترجمه باسم غيري واحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني اولئك القوم باعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ويكتبونه بخطوطهم و يصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه لانه لم يترجم باسمي ولم ينسب الى تأليفي ...

لما قرأت هذه المقدمة سهل عليّ ان ادرك السر في ابداع الجاحظ في وصف الحاسد وفهمت حينئذ ماقاله احد كتاب الفرنجة الكبار : روّض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها ، فالجاحظ ابدع في وصف الحاسد ومعظم هذا الابداع ناشيء عن انه وصف شيئاً كان يشعر به و يعوذ بالله من شره ولم نجد الفرق في التأثير بين الكتّاب مثلاً او بين الشعراء ، اني اعتقد ان هذا الفرق انما مصدره في الأغلب من الأحوال قوة الشعور وضعفه او صدقه وكذبه .

ولكن هل فضلت الكلام على الجاحظ في سنتنا هذه لانه برّز في وصف الحاسد فلو كان الامر كذلك فما اضيق مذاهب الجاحظ ؟

فلنستثر الذاكرة مرة ثانية ، كنت في هذا الصيف أطالع كتاباً فرنسياً اسمه (الطريقة الادبية) تكلم صاحب هذا الكتاب على خطاب خطبه (رنان) في السوربون في ٢٩ آذار سنة ١٨٨٨ قال صاحب الكتاب وهو يعني (رنان) :

لقد بيّن الخطيب ان روح الاسلام الحقيقي انما هو مخالف للعلم وائن نشأ في العالم الاسلامي من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر اصحاب فكر واهل عقول راجحة فهذا سببه ان الاسلام في تلك العصور لم ينبسط سلطانه بعد فان الخلفاء اللامعين الذين كانوا في عصر (الكارولنجيان) لم يتكامل اسلامهم وفلسفة اليونانيين العقلية هي التي اضاءت

على عهدهم وكذلك الامر في الاندلس على زمن ابن رشد فقد كان اليونانيون وحدهم ينبوع العلم فالنهضة لم تكن عربية ولا اسلامية وفي اليوم الذي اشتد فيه الاسلام اي من بعد سنة ١٢٧٥ بوجه التقريب انحطت عقول المسلمين انحطاطاً يؤسف ويحزن ثم ذكر صاحب هذا الكتاب كلاماً لرنان وهذا هو :

« ان الذي يميز العالم الاسلامي انما هو اعتقاد المسلمين ان البحث لا طائل فيه ولا شأن له وانه قد يؤدي الى الكفر ، فعلم الطبيعة يؤدي الى الكفر لان هذا العلم ينازع الله سلطانه ، وعلم التاريخ يؤدي الى الكفر لانه اذا امتد الى العصور التي جاءت قبل الاسلام احيا اضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تؤدي الى النتائج الآتية : اي يصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل فكلمة : والله اعلم انما هي فصل الخطاب في كل مناظرة اسلامية » .

قرأت هذا الكلام وقلت في نفسي أصحيح ان الاسلام حال دون العلم حتى تغلغلت في كتب الجاحظ وقرأت كتاب (الحيوان) من اوله الى آخره فاهتديت فيه الى أساليب في تحقيق صاحبه وتجريبه في امور العلم يحار فيها الانسان فكأن الجاحظ عالم من علماء الحيوان فلا يمر بامر من امور الحيوان سواء أكان هذا الامر صغيراً ام كان كبيراً الا اهتم به ويكفيني في مثل هذا المقام ان اذكر لكم كلمة في التحقيق العلمي وهي تجمع لنا كل مذهبه : ليس يشفيني الا المعاينة ، واظن ان الكلام على هذا التحقيق سيطول فأرجئه الى حينه وهذه ناحية من نواحي الجاحظ الجليلة الشأن فان كلمة مثل هذه الكلمة : ليس يشفيني الا المعاينة انما هي كلمة خالدة في علم الطبيعة وهل علوم الطبيعة الا نتائج المعاينة والتجريب والفرض والمقابلة والتصنيف .

ولم لا أذكر لكم من اليوم أسلوباً من أساليبه في التحقيق حتى تقارنوا بينه وبين علماء الحيوان في عصرنا هذا وحتى تقولوا في انفسكم أفيختلف ابو عثمان عن هؤلاء العلماء . قال وهو يصف الظليم .

باب آخر وهو عندي اعجب من الاول وهو ابتلاعه الجمر حتى ينفذ الى جوفه فيكون جوفه هو العامل في اطفائه ولا يكون الجمر هو العامل في احراقه ، واخبرني ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع اوعيان انه شهد محمد بن

عبد الله يلقي الحجر في النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدامه فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وكنت قلت له ان الجمر سخيف سريع الانطفاء اذا لقي الرطوبات ومتى اطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد والحجر اشد امساكاً لما يتداخله من الحرارة واثقل ثقلاً والزق لزوقاً وابطأ انطفاء فلو احميت الحجارة فأحماها ثم قذف بها اليه فابتلع الاولى فارتبت به فلما ثني وثلث اشتد تعجبي له فقلت له لو احميت اواقي الحديد ما كان منها ربع رطل ونصف رطل ففعل فابتلعه فقلت هذا اعجب من الاول والثاني وقد بقيت علينا واحدة وهو ان ننظر أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة ولم يتركنا بعض السفهاء واصحاب الخرق ان نتعرف ذلك على الايام وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعض ندمائه الى سكين فأحمي ثم القاه اليه فابتلعه فلم يجاوز اعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ثم خر ميتاً فمنعنا بخرقه من استقصاء ما اردنا ·

فيتبين لكم مما رويته ان الذي يشغل بال الجاحظ انما هو الاستقصاء وهل الاستقصاء خارج عن لوازم العلم فالذي يهم العالم انما هو التنقيب عن الحقيقة ·

فقد يكون الجاحظ حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما عصرهم غير عصرنا وادوات تحقيقهم هي غير ادواتنا ولو اطرد العلم في ديارهم لبلغ المبالغ ·

ولكن هل آثرت الكلام على الجاحظ لناحيته العلمية او لناحيته الفلسفية فأين نواحيه الأدبية الخالدة على تراخي الأحقاب وما كان هذا العلم وما كانت هذه الفلسفة لولا ادب ابي عثمان · مازلت اقلب النظر في كتب الجاحظ وانا لا ازداد تقليباً الا ازددت له تهيباً وبه اعجاباً حتى وصلت الى شيء من نواحيه الادبية واعجبها وافتنها انما هي هذه اللغة التي القت اليه طاعتها فصرفها في كل شيء : فاذا كتب في العلم اجرى قلم العلماء واذا كتب في الفلسفة بنى على اصول الفلاسفة واذا كتب في الأدب كتب على اساليب الادباء وعلى مناحيهم وهذه القدرة على اللغة هي التي اوحت اليه مذهبه الأدبي الذي قال فيه : ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين في خطبة او رسالة او في مخاطبة العوام والجار او في مخاطبة اهله وعبده وامته او في حديثه اذا حدث او خبره اذا خبر وكذلك من الخطإ ان يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل ·

فان الرجل الذي يقرر مثل هـذا المذهب الأدبي لا بدّ له من ان يطالب نفسه به ذا كتب والجاحظ قرره وطالب به نفسه .

هذا هو اول عهدي بالجاحظ وهذا هو شيء من الآثار الأولى التي بقيت في البال من قراءة كتبه ولو شئت ان استقصي هذه الآثار لامتد الكلام فما سعة لغته بشيء اذ قسناها الى قدرته على تصوير جلائل الموضوعات وصغائرها فستدركون بعد قراءة كتبه انه لا يتعاظمه شيء من الموضوعات واظن ان القدرة على تصوير صغائر الامور كامور الاكل والشرب واللبس وسائر ما يتعلق بحياتنا الخاصة لا تقل عن القدرة على تصوير اكابر الامور واذا قرأتم غداً كتابه في البخلاء تبينت لكم هذه القدرة على تصوير الدقائق من حياتنا الخاصة وما مرادي في هذه المحاضرة ان أشبع القول في الجاحظ وخصائصه فمثل هذا العمل يستوعب سنتنا كلها وانما غايتي كما قلت لكم ان اصف لكم اول اتصالي بكتبه واول املاء الخاطر من آثاره ولقد فرغت من قراءة هذه الآثار وفي البال خاطر واحد لا انساه وهو اني ما قرأت سطراً من اي كتاب من كتبه الا استوقفتني قراءته وحملتني على التفكير فاذا اردتم ان تحيطوا بشيء من عبقرية لغتنا فبادروا الى كتب الجاحظ التي تعلم العقل اولاً والأدب ثانياً (١) وسأذكر في المحاضرة الآتية نواحيه التي سأمضي القول فيها .

في ٦ كانون الاول سنة ١٩٣٠

---

(١) كلمة ابن العميد .

نواحي الجاحظ

- ٣ -

ذكرت لكم اول عهدي بالجاحظ ووعدتكم ان أفصّل نواحيه التي هيأت الكلام عليها في سنتنا هذه ولمّ لا أشير من اليوم الى اول اثر من الآثار التي أبقتها في نفسي دراسة كتبه فقد جمعت ذهني وتفرغت لإعداد ما أحاضر به فما أعظم حيرة حرتها وما اشدّ دهشة دهشتها بعد النظر في فصول ابي عثمان انه يخرج من باب الى باب ومن شكل الى شكل ، قد حشدت له المعاني من اقطارها وسيقت اليه الأفكار بازمتها يصرّفها كيف يشاء لا يخاف في تصريفها عثرة يعثرها او كبوة يكبوها فالكلام عليه بعيد الغور دقيق المذهب لا يأمن صاحبه مزلة القدم فانا أخاف ان حاولت ان أعرض عليكم جملة طرائفه ان لا اعرض شيئاً فيكون مثلي في ذلك كمثل ابن بطوطة فانه لما وصل من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وصفها فقال(١) : وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ماليس بسواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها ايضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد»

فأنتم تجدون ان ابن بطوطة سها عن وصف الفخم شيء في بعلبك وهو قلعتها ولم يصف في رحلته الا دبس بعلبك واين دبس بعلبك من قلعتها التي تجلت في بنائها عظمة الانسان ولو تفرغ ابن بطوطة لوصفها لوجد مجال القول منبسطاً فليس يخطو

---

(١) رحلة ابن بطوطة — ص ٤٩ — مطبعة التقدم بمصر .

المرء خطوة فيها الا حارت عينه في ظواهر عظمتها ؟ فكأنما ابن بطوطة ادرك حيرته فوقف قلمه ولم يجر هذا القلم الا في ذكر صغائر الامور .

وانا كلما حدثتني نفسي بالكلام على عجائب الجاحظ خطر بالبال في الحال دبس بعلبك فيحار العقل في هذه العجائب ويقف القلم في وصفها فلا يجري الا في التلميح الى نوادر الجاحظ وقد ألهتني هذه النوادر كالهى رحالتنا دبس بعلبك فلما شرعت في إعداد ما أحاضر به تمثلت لي نادرته هذه التي قرأتها في كتاب البخلاء قال ابو عثمان[1] :

صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً فلما صرت قرب منزله وكان منزله اقرب الى مسجد الجامع من منزلي سألني ان ابيت عنده وقال : اين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك وانت في ظلمة وليس معك نار وعندي لبأ لم ير الناس مثله وتمر ناهيك به جودة لا تصلح الا له فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر فلما مددت قال : يا ابا عثمان انه لبأ وغلظة وهو الليل وركوده ثم ليلة مطر ورطوبة وانت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً وما زال الغليل يسرع اليك وانت في الاصل لست بصاحب عشاء فان اكلت اللبأ ولم تبالغ كنت لا آكلاً ولا تاركاً وحرشت طباعك ثم قطعت الاكل اشهى ما كان اليك وان بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بامرك ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً وانما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً : كان وكان ، و لله قد وقعت بين نابي اسد لاني لو لم اجئك به وقد ذكرته لك قلت بخل به وبدا له فيه وان جئت به ولم احذرك منه ولم اذكرك كل ما عليك فيه قلت : لم يشفق علي ولم ينصح ، فقد برئت اليك من الامرين جميعاً وان شئت فأكلة ومونة وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولقد اكلته جميعاً فما هضمه الا الضحك والنشاط والسرور فيما اظن . » —

لقد تمثلت لي هذه النادرة لانها تدل على روح الجاحظ فانه مطبوع على النوادر ، شيخ قد طعن في السن يشكو من الفالج طرفاً ان اكل اللبأ و بالغ بات في اسوإ ليلة وربما كانت اكلة ومونة ومع هذا كله فقد اكل ولم يبال طمعاً في الضحك والنشاط

(١) كتاب البخلاء — ص١٠٣ — مطبعة الجمهور بمصر .

والسرور . تمثلت لي هذه النادرة فقلت في نفسي : أفيصيبني في الكلام على الجاحظ ما اصاب ابن بطوطة في الكلام على بعلبك ، أفأغفل عن خصائص عبقريته فلا تأخذ العين الا طرفاً واحداً من اطراف هذه العبقرية . —

اي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، واي فكر لم يزدحم على ذهنه ، كتب في كل شيء ، في جلائل الامور وصغائرها ، فلو نظرنا في طائفة من رسائله لتبين لنا اختلاف المعاني التي صورها والافكار التي وضحها ، كتب في الأخلاق والفلسفة والدين والتأديب والاجتماع والعلم والطبيعيات والأدب وفلسفة اللغة وما شابه ذلك وليست غايتي ان استوفي الكلام على تصانيفه في محاضرتي هذه وانما غايتي تنبيهكم من اليوم على ازدحام موضوعاته حتى تعلموا الميدان الذي جال فيه كل مجال فأول اثر من آثار دراسة كتبه حيرة يحارها المرء في خصب عبقريته فلا يعرف كيف يبدأ بالكلام على هذه العبقرية ولا كيف يفرغ من هذا الكلام ولا عجب في ذلك فان رجلاً يكتب له ان يعيش قرناً بوجه التقريب ، لم يقع في خلاله بيده كتاب الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، ان رجلاً يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر لايعجب من خصب عقله .

ولكن فلنجتهد في الخروج من حيرتنا هذه ولنبين من اليوم النواحي التي ينبغي لنا ان نعد الكلام عليها .

اول هذه النواحي ترجمة الجاحظ وجملة اخباره من مبدإ حياته الى خاتمة ايامه : أين وطنه ، هل تغنى بهذا الوطن ، في اي سنة ولد ، ومن هم اهله ، وما هو نسبه ، أين حصل في صغره ، ماهي حرفة الجاحظ في مقدمة امره ، هل جمع مالاً ، هل تقلد شيئاً من عمل السلطان ، هل طمع في الخلافة ، هل عاش في نعمة ، هل كان يعنى بداره ، الى اين سافر وما هي آثار اسفاره ، من هم الذين لازمهم من اصحاب الشأن ، كيف كانت خاتمة حياته ، بما ذا أصيب في آخر عمره ، هل اثرت علته في شيء من كتبه ، هل ادت الى شيء من اختلال تأليفه ؟ .

فاذا وقفنا على هذا كله اخذنا باطراف الكلام على تحصيله ، اين قرأ ودرس في صباه ، من هم الاساتذة الذين اخذ عنهم ، هل اقتصر على قراءة كتب في مذاهب واحدة ام انه قرأ كتباً في مذاهب شتى ، حتى طبعت عبقريته بطابع خاص منافي الكتب

التي كان يقرأها ، هل قرأ شيئاً من كتب اليونانيين هل كان يعرف الفارسية ، هل كان لاساتيذه تأثير في تنمية عقله . ما هو رأيه في بعض هؤلاء الاساتيذ .

فاذا تهيأ لنا الكلام على تحصيله شرعنا في الكلام على عصره فنظرنا في الانقلاب الادبي في هذا العصر ، من هم الشعراء الذين ذهبوا في الشعر مذاهب لم يذهبها من يتقدمهم ، ثم نظرنا في الانقلاب الفكري وفي حرية الفكر ثم اشرنا الى كثرة الكتب المترجمة ككتب الهند وكتب اليونانيين ثم نحنا الى الزندقة وكثرة الفرق الاسلامية ، كثرة الأعاجم الذين خالطوا العرب والى اعتقادات الناس وبعض الخرافات كخرافات الباعة والعجائز والاعراب .

وبعد ان يتم لنا الكلام على هذه الامور كلها نتفرغ للكلام على مذهبه ، من هم المعتزلة ما هو الرأي في الثقة بدينه ، هل نجد لنا مطمئناً على معتقده ، هل يميل الى العقل في امور الدين ، كيف يفسر الآيات والاحاديث ، هل يستعمل العقل في هذا التفسير ، ما هو أسلوبه في المناظرات الدينية ، هل يكره الغريب من التأويل ، هل يحمل كلام العرب على ظاهره ، هل يستعمل العلم في امور الدين ، هل يميل الى تأييد العلم بالدين ، ما هي نماذج من مناظراته ومن نقده للاحاديث وللآيات ، هل كان يشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الخاصة واحساس الغريزة .

وكما اننا لانغفل عن الكلام على دينه فكذلك لانغفل عن الكلام على علمه ، هل كان الجاحظ عالماً ، من هو العالم ، ماالفرق بين العالم وغير العالم ، هل كان الجاحظ ينقب عن الحقيقة ماهي اساليبه في التحقيق العلمي ، هل يلجأ الى التجريب والعيان ، هل يستند في العلم الى العقل والى الحس ، هل كان يجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، ما هي نماذج من مجادلاته العلمية ومن نقده العلمي ، ما هي بعض مذاهب علمية ذكرها في كتبه وهي من اجل المذاهب العلمية في عصرنا هذا مثل قانون الارث وتأثير البيئة والتلون بالوان البيئة .

ولا مندوحة لنا بعد النظر في علمه عن النظر في تهكمه ، هل كان مطبوعاً على التهكم ، هل كان يميل الى التهكم من صغره ، هل كان يخالط الذين يميلون الى الهزل ، هل كانت

نوادره في محلها ، هل تهكم على المفسرين ، ماهو الرأي في تهكمه ، افكان يتعمد الاضحاك في بعض الاحيان ، ما هو الرأي في هذا التعمد ، ما هي خصائص هذا التهكم .

واذا فرغنا من الكلام على تهكمه رجع بنـا البحث الى الكلام على مذاهبه الأدبية : ماهو رأيه في الأدب المجرّد ، هل استعمل الأدب المجرد في كتاباته . ماهو رأيه في اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته في باب النوادر ، ماهو رأيه في اللفظ ورأيه في المعنى ، ماهو رأيه في تفضيل اللفظ على المعنى ، ماهو رأيه في تأثير الشعر .

وبعد ان نفرغ من هذه النواحي كلها نخلص الى ناحية أسلوبه في النقد الأدبي : ما هي طبيعة النقد في عصره ، رأيه في نقد الأصمعي وابي عبيدة والأخفش ، ما هو أسلوبه في النقد الادبي ، هل كان نقده مجرداً ... أحسن فلان ... أساء فلان ... هل كان يبين رأيه في بعض الاوقات ... كيف كان رأيه في بشار وابي نواس وامرئ القيس ، ما هو رأيه في زيادة الرواة والتوليد على السن الشعراء وعلماء اللغة ، ماهو رأيه في اولية الشعر الجاهلي .

ثم نشرع بعد هذا كله في الكلام على عبقريته وعلى لغته وفنه .

اما عبقريته فاننا نبحث فيها عن افكاره العامة : ما هي المعاني التي برّز فيها ، ما هي الافكار التي لم يتوسع فيها ، ما هي طبيعة عقله في هذه الافكار والمعاني . الى اي شيء ينفذ هذا العقل ، هل يوفي المعنى حقه ، ماهو وصفه لدقائق الامور ، ماهو وصفه لجلائل الامور ، ما هي نماذج من وصفه .

واما لغته فاننا ننقب فيها عن خصائصها ، ما هي خصائص لغته الادبية ولغته العلمية ولغته الفلسفية ، هل يميل الى اللغة الشعرية في العلم ام انه يميل الى المصطلحات المجردة التي لا الوان لها ، هل يميل الى المجاز ام انه يميل الى الحقيقة ، هل يستعمل لكل معنى اللفظ الذي خلق له ، هل تبعد لغته العلمية في بعض الأحيان عن الموسيقى اللفظية ، هل يستعمل المترادفات الكثيرة لتقرير المعنى في ذهن القارئ ، هل يستعمل اللفظة وضدها تمييزاً للاشياء ، هل في بعض لغته الفاظ غامضة لانها كانت تدل على معان ثم ذهبت المسميات فبقيت لاسماء وحدها .

هذا ما نرمي في التنقيب عنه في دراستنا كتب الجاحظ وقد نزيد في مباحثنا او ننقص منها على قدر مايقتضيه المقام وانما المهم ان ندرس آثار الجاحظ من النواحي التي تصوره لنا تصويراً متكاملاً وأسلوبنا في هذه الدراسة انما هو الاسلوب الذي اتبعناه في دراسة شعر المتنبي فاننا لانتقيد باحد وانما ننظر في كتب الجاحظ فندوّن مايلهمنا اياه هذا النظر المطلق وعلى هذه الصورة نستطيع ان نطبع شعورنا بطابع خاص منسلخ من كل تقليد ·

في ١٣ كانون الاول سنة ١٩٣٠

ادبنا القومي

— ٢ —

مادة الادب المصري ومظاهره : قبل ان نتناول هذا الموضوع يجمل بنا ان نلم إلمامة قصيرة بتاريخ لغة العرب في هذه البلاد . لم يكن المصريون الى الفتح الاسلامي يتكلمون العربية ولم يكن لهم بها عهد ، بل كانوا يتكلمون القبطية ، وكثير منهم كانوا يحذقون اللاتينية ، طوعاً لخضوعهم العصور الطويلة لحكم الرومان ، فلما فتح العرب مصر حملوا اليها لغتهم فيما حملوا . ولم يكد يستقر لهم الامر فيها حتى انحدر اليها ، وخاصة في العهد العباسي ، عدد كبير من العلماء والادباء والكتاب ، وكلما ضعف شأن الدولة العباسية ازداد اقبال هؤلاء على مصر لوفرة خيراتها واقبال غلاتها من جهة ، ولان امراءها حين طمعوا في الاستقلال بها كانوا يدعونهم ليقيموا بعلومهم وآدابهم صدر دولتهم الناشئة . بل لقد انتجع امراءها في فتاء الدولة العباسية كثير من جلة الشعراء طلباً لرفدهم او لغير ذلك كأبي نواس وابي تمام . كما طلبها بعد ذلك ابو الطيب المتنبي في عهد كافور الإخشيدي .

وما كاد الأمر في مصر يستقيم لاحمد بن طولون حتى كان الأدب بلونيه (شعره ونثره الفني) قد خل ابما نحولة وازدهر ايما ازدهار . ولكن لا يفوتك ان ذلك انما كان بين النازحين الى مصر من الأقطار العربية وعلى السنتهم . واذا كانت العربية قد شاعت في ذلك الوقت على السنة المصريين ، فالعربية التي تكفي للترجمة عن حاجات الناس في أسبابهم الدائرة ، لا للأدب الفحل ، والقول الجزل .

على ان العربية ظلت تغزو ألسنة المصريين انفسهم ، وتطبع ملكاتهم بطول الحكم العربي (الدولة الطولونية والإخشيدية) والمستعرب (الدولة الفاطمية والايوبية) وما تخلل هذه العهود حتى نجم من بين التميم في المصريين من حذقوها و برعوا فيها ، ووفوا بما نظموا وما نثروا حقوق البيان . لولا انه في مؤخرات تلك العصور جعل الادب يتجه

الى صرف القول عن كرائم المعاني الى الحرص على تجويد اللفظ ، وزخرفة الكلام وتزيينه بالتماس الوان المحسنات البديعية . وما زال الأدباء يتبارون في هذا ويجتمعون له ويسرفون فيه حتى اهلكوا اوكادوا يهلكون بيان العرب .

ولا احب ان يذهب عنك في هذا المقام ان هذه الألوان من الأدب انما كانت محصورة فيمن يتكلفون الأدب ، اما جمهرة النـاس فكانوا لا يعرفون غير العامية ، وان كانت عامية معظم مادتها مشتق من العربية .

ثم كانت حكم دولتي المماليك ، ولولا عنايتهم كانت بالعلم وقيام الجامع الازهر في مصر يدرس فيه كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم لعفي أثر البيان العربي من هذه البلاد ، على ان الادب في عهدهم قد ازداد ضعفه وفسولة مطالبه ، وعلى ان العامية نفسها قد تداخلها كثير من الصيغ الأعجمية .

ثم جاء الفتح العثماني فزاد اللغة بلاءً على بلائها ، فما برحت تضمر وتهزل وتسفف حتى اقتربت من الفناء لولا الازهر ايضاً ومايدرس فيه من كتاب الله وسنة رسوله ، وان كانت دراسة لم تصل بين النفس وما فيها من بلاغة رائعة ، ولولا دراسة جثث بالية من علوم البلاغة صرف أبلغ الجهد في تدريسها الى فلسفات لفظية ليس بينها وبين حقيقة البلاغة نسب قريب او بعيد ، ولولا انخلقاً شبوا على ان هناك شيئاً يدعى الشعر ، وشيئاً آخر يدعى النثر جلت بهما اخطار من سبقوهم من اهل البيـان ، فتكلفوهما هم كذلك . وانك لترى المثل واضحاً بين يديك في مثل الشيخ عبدالرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف ، فلقد كان ، عالماً وابن عالم ، وكان رجلاً معدوداً عند اهل عصره في خاصة الادباء . وانه ليحتفل للكتابة في أدق الموضوعات واحقها بالتأنق في اختيار اللفظ ، وملاحمة النسج ، والارتفاع بالقول . ولقد يبلغ بعض هذا الا انه قل ان يسلم من السقوط في العامية ، بل والاستعانة باللفظة الأعجمية (تركية وغير تركية) وقل ان يسلم كذلك من تزايل الصيغ وانفكاك العبارات .

ثم كانت الحملة الفرنسية فانصرف الناس عن معالجة الذماء البـاقي من العلم والأدب الى التماس الحيل في مدافعة الظلمة ، والتحرف عن أذاهم ، ولقد علق شيءٌ من لغتهم بحواشي لغة البلاد حتى ان الشيخ الجبرتي نفسه يذكر عن نابليون انه دعا مرة علماء مصر

وخاصة أعيانهـا على أثر انتقاض المصريين على عسكره فقال لهم فيما قال (على رواية الجبرتي) أنتم لستم (بونو) اي قوماً خياراً !!!

ثم كان عصر محمد علي الكبير ، ولمحمد علي في الحياة مطالب جسام لا يس يواتيه بها الا جيش عظيم ، والجيش يحتاج بالضرورة الى اطباء يعالجون المرضى من جنده ويضمدون جراحاتهم اذا هم أصيبوا في ميادين القتـال فكان لابد له من ان يقيم مدرسة للطب ولم يكن في مصر الى ذلك العهد اطباء ، فكان لابد له ايضاً من ان يدعو بالاساتذة الاطباء من الغرب . ولكن كيف الحيلة في ذلك وهم لا يعرفون العربية اذ تلاميذهم في مصر لا يعرفون على التجوز غير العربية ؟

لم يبق الا حل واحد ، هو الذي وفق اليـه المغفور له محمد علي باشا ، وهو ان يقيم بين الاساتيذ وتلاميذهم تراجمة يؤدون الى التلامذة المصريين ما يلقيه عليهم أساتذتهم الغربيون .

وتهيأ لمحمد علي ان يعثر على هؤلاء المترجمين بين الجماعات النازحين الى مصر من السوريين والمغاربة وغيرهم من اهل الملل الشرقيـة المختلفة ، ولم ير رحمه الله بعد ذلك مناصاً من ان يبعث بعوثاً من التلاميذ الى اوربا ليحذقوا لغاتها ويتعلموا علومها فكان من صنيعه هذا ان عقد اول صلة بين مصر ولغات الغرب .

وأنشأ محمد علي بعد ذلك مدارس أخر لتدريس علوم الحياة المختلفة ، وهنـا شعر وشعر من استعان بهم على هذا الاثر ان لابد من احداث حدث حتى توالت لغة المصريين المنقطعين عن العلم الحديث بمطالب العلم الحديث ، فجد رفاعة ولدات رفاعة ، واعتصروا قواميس اللغة ، واعتصروا معها أذهانهم حتى أخرجوا في العربية فنون المصطلحات في الطب والهندسة والفلك والزراعة وفنون الحرب وغيرها ... فعلوا هـذا على قلة الحيلة وضعف الوسيلة ، فذل عملهم معها اضطربوا فيه ومعها تعسفوا ، ومعها افتاتوا على اللغة — على شدة جهد وعلى صدق عزم وعلى تهالك في سبيل العلم .

ثم جاء عصر اسماعيل ، وشاعت العلوم الحديثة في البلاد فاستكرهت اللغة العربيـة جماعة العلماء على مراجعتها واستظهار ما ظل الدهور الطويلة مجفواً من مفرداتها وصيغها ليوافوا بها على قدر الطاقة مطالب تلك العلوم . وتم لهم من هذا قدر محمود . ولم تكن العناية

بالآداب بأقل حظاً من العناية بالعلوم ، فجعل الشعر يجود ، والنثر يرصن وتتسع مطالبه الى ان ظفر البارودي بالشعر حتى رده الى أزكى عهود العصر العباسي ، كما ظفر الشيخ حسين المرصفي والمويلحي والشيخ محمد عبده وغيرهم بالنثر الفني حتى ردوا عليه كثيراً من جمال لفظه ، وتلاحم نسجه ، وسمو أغراضه وتلون مطالبه . وما برحت هذه النهضة في اطرادها حتى اليوم . ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك في هذا المقام ان ادراك الشعر والنثر الفني وتذوقهما ما زالا دائرين بين جماعة الادباء ، وهم بالاضافة الى السواد الأعظم أقل من القليل . اما سائر الناس فادراكهم وذوقهم في واد ، وهذا الضرب من الأدب في واد آخر .

* * *

واذا كان الأدب هو أبلغ مظاهر اللغة أدركت ان الادب العربي بدأ في مصر قوياً ، وظل كذلك دهراً طويلاً ثم لحقه الضعف ومازال يتدلى فيه حتى أشرف على الزوال . ثم انتعش وجعل يقوى حتى بلغ ماتراه في هذه الايام ، على انه في حالتي قوته وضعفه ظل فهمه وتذوقه مقصورين على جمهرة الادباء . اما السواد فلبث غارقاً في العامية في جميع هذه الأطوار حتى ليكاد يكون بينه وبين فصيح العربية تمام الانقطاع . ولعلك محاجي بان العامة وأشباه العامة هم الكثرة الغامرة في كل أمة . ومع ذلك تراهم في الامم الأخرى يدركون بلاغات شعرائهم وفحول كتابهم وكثيراً ما تستريح اليها أذواقهم . فلماذا لم يجر الأمر على هذا في مصر وفي أكثر البلاد العربية الاخرى ؟

ذلك ان الفرق بين صحيح العربية ومرسل العامية في مصر وفي غير مصر أوسع منه في أكثر لغات العالم ان لم يكن في لغات العالم كلها ، حتى اذا علوت بلغتك بين العامة لم يفهموا منك كثيراً ولا قليلاً وكادوا يحسبون لولا مايشيع في كلامك من حروف الجر ونحوها ، ان لسانك انما يجري برطانة اعجمية !

ولقد بلغ من سلطان العامية في هذه البلاد ان خاصة الخاصة من العلماء واهل البيان انما يتخاطبون بها في مجالسهم ، حتى اذا انبعث احدهم لخطبة او لمحاضرة في العلم اوالأدب تكلف العربية تكلفاً ، وقل الا تزلقه العامية بسطوتها حتى في هذا المقام ، مايعصمه منها

شدة حرصه على تحري العربية واحتفاله لها ، اللهم الا ان يكون قد سوى من قبل كلامه وحفظه ثم راح يتلوه عن ظهر قلبه .

الى هنا حق لنا ان نزعم ان ابلغ مظاهر الأدب العربي (الشعر والنثر الفني) لم يتصل بعصر اتصالاً صحيحاً ، وانما اتصل به في كل عصر طائفة ممن يتكلفون الأدب ، وهم بالقياس الى السواد كما أسلفنا اقل من القليل .

واذا تهيأ لجماعة الشعراء والكتاب الفنيين ان يتخذوا من الأدب العربي الصريح أداة للترجمة عما يجول في نفوسهم ، ويختلج في حسهم (ولنا بعد في هذا كلام) وتهيأ لم كذلك من يدرك آثارهم ويتذوق بلاغاتهم من جماعة المتأدبين ، فان للسواد ايضاً شعوراً يعتلج ، وعواطف تترقرق ، فترى هل يكتمها في نفسه و يخنقها بين أضالعه حتى يأذن الله فيصيب حظاً من فصح العربية ليتنفس بها و يجليها على سواء ؟ اللهم ان هذا من غير الميسور ! . فلم يبق إذن غير العامية او شبه العامية مما يتصل اعلاه بادنى الأدب العربي الخالص ، يتوسل بها الى صوغ احساسه ونفض ما يجيش في نفسه من الوان العواطف .

ومن هنا عمد المصريون الى الزجل والى المواليا (وهي قديمة ترجع نشأتها الى عصر الرشيد) والى سائر أسباب الغناء (المذاهب والأدوار والطقاطيق) والى (الواوات) الصعيدية ، والى المقطوعات المنظومة على أقيسة لا صلة لها باوزان الشعر العربي . والى ماتسح به البداهة من ألوان النندر والمفاكهات . والى الاحاجي (الفوازير) ثم الى النكتة البلدية (ايش معنى) وهي مصرية خالصة ولدها مخ الحشاش المصري . واخيراً الى ما يدعى الآن (بالمونولوجات) وبدأت تتسرب الى أذواق المصريين .

والحديث في منشأ كل نوع من هذه الانواع وتطوره على الزمن يحتاج الى بحث طويل عريض ، ولعلنا معالجوه قريباً ان شاء الله .

ولعلك آخذي بانني لم أدرج بين هذه الفروع من الأدب المصري الموشحات الاندلسية وهي شائعة في أغانينا ، حتى ان من آداب الغناء المصري وتقاليده المأثورة الا يبدأ (التخت) الا بموشحة . ذلك ان طائفة المغنين انما هم في الغالب من الجهال ، فيندر ان يطلقوا هذه الموشحات البديعة على حقيقتها ، انما هم ينشدون مثلا : « كني يا سحب تيجان

الربى بالحلي » هكذا : « كلي يا صحبتي جانا الرضي بالحلي » ! . هــذا الى ان أصواتهم تختلط فيها حتى ماتتبين منها غير النبرات الموسيقية ، اما الفاظها فلست تدرك منها شيئاً . لهذا لم تتصل بافهام المصريين ولم تتسلل الى أذواقهم . ولهذا لم ادرجها في جملة آدابهم .

وهنا أحب ان الفتك الى حقيقة واقعة وهي ان العامة وأشباه العامة لم يستأثروا وحدهم بنظم آدابهم المختلفة ، بل ان كثيراً من الخاصة وخاصة الخاصة من الادباء والشعراء قد ساهموهم في هذا ، وأخرجوا البليغ الرائع من ألوان هذا الكلام . و بحسبك ان تعرف ان العالم الكبير الشيخ القوصي ، وان مولانا الشيخ عبدالرحمن قراعة ، وان المرحوم الشيخ النجار كانوا من كبار الزجالين ، ولقد كانت لهم في هذا الباب مطارحات ومناظرات كانت شغل البلد وحديثه دهراً غير قصير ؛ و بحسبك ان تعرف ان لشيخ الشعراء اسماعيل صبري باشــا ، ولامير الشعراء شوقي بك ، ولشــاعر النيل حافظ بك (ادواراً) بديعة لا يزال يتغنى بها المغنون الى الآن . وان مما لأولهم « قدك اميرالاغصان من غير مكابر ، وورد خدك سلطان على الازاهر ، دا الحب كله أشجان ياقلب حاذر الخ » وان لثالثهم دور : « عشنا وشفنا سنين ، ومن عاش يشوف العجب ، شربنــا الضنا والانين ، جعلنا لروحنا سبب الخ » واما ثانيهم فاسمع منه في هذا المطرب والمعجب على لسان عبد الوهاب وغير عبد الوهاب .

ولعلي لا اكون مغالياً اذا باديتك بانهم في هذا كانوا أصدق ترجمة عما يختلج في صدورهم منهم في اكثر أشعارهم ، فضلاً عن انهم أذاقوا الخاصة والعــامة معاً صدراً حلواً من منظوم الكلام .

وليسمح لي وانا في مقام علي كتمان الرأي فيه ضرب من الخيانة والاجرام ، ان اكون حق صريح ، فأزعم ان هؤلاء واولئك كانوا فيما نظموا في هذه الابواب ، أصدق تعبيراً عما يجول في صدورهم ، واقدر على تجلية كل ماتنزى به عواطفهم ، لان العامية وشبه العامية هي لغة البلد التي عاش فيها ثلاثة عشر قرناً فكان من البديه الا تتخلف عن مواتاة المصري بكل مايتحرى أداءه في وجوه المطالب والاغراض . .

ثم مالنا ولهذا ! أليس عندنا الآن من اهل البيان من لا يتملق بعبارهم ، وانهم يتحرون فصيح اللغة ويفرون كل يوم معاجمهــا و يرجمون مأثور البليغ من الصيغ العربية

ليؤدوا بها قولهم ؟ وانك لتراهم مع هذا يعمدون الكلمة العامية اعتماداً ليخرجوا بها للناس معنىً دقيقاً يحبون ان يجلوه كاملاً على جمهرة القارئين اذا لم يكن يعوزهم في الواقع من صحيح العربية ما يؤديه !

* * *

وبعد فأحسب انه لم يبق عندك شك في ان أدبنا القومي وان كان في اصل مادته يرجع الى العربية ، كان ومابرح قائماً على العامية وشبه العامية ، فاذا انت اقتضيتني بيان الفروق بين آثار كل منهما فانظرني الى يوم الاربعاء المقبل ان شاء الله .

* * *

الادب العربي في العصر الحديث : علمت مما سلف عليك ان العربية الصحيحة الجزلة الفصيحة لبثت أدهاراً غير قصيرة في شبه قطيعة مع المصريين ، ولبث الادب العربي الخالص في هذه الفترة كذلك مع متأدبيهم ، الى ان كانت نهضة اللغة والادب في عصر اسماعيل فنجم من نجم من فحول الشعراء ومتقدمي الكتاب في طفرة او ما يشبه الطفرة . وليس معنى هذا ان معاصري البارودي اذذاك بلغوا مبلغه اوتعلقوا بغباره ، ولا ان المتوسطين من معاصري من ذكرنا من جلة الكتاب قد شاكلوهم او جروا في البيان على سننهم ؛ بل لقد ظلت الكثرة الغامرة من هؤلاء وهؤلاء في أسفافها وفسولة معانيها وتزايل الفاظها . ولم يكن الذوق العربي الصحيح قد نضج في نفوس اكثر من يتكلفون الادب ، فكان لهؤلاء كثير من المعجبين بادبهم الحافظين لاشعارهم المترو ين لمرسل بيانهم . ولبثت هذه الحال دهراً حتى تداولت الناس معاجم اللغة ، وشاعت بينهم بفضل الطابع ، دواوين السابقين من الشعراء أمثال ابي نواس وابي تمام والبحتري وأضرابهم ، كما أقبلوا على مراجعة كتب المتقدمين من فحول امراء البيان أمثال ابن المقفع والجاحظ وابي الفرج وغيرهم ، فجعلت الملكات العربية تربو ، والاذواق تنضج ، كما جعلت النفوس تهفو لناصع القول وجزل البيان .

الا انه قد وقع ما لم يكن بد من وقوعه ، ذلك ان متأدبينا قد افترقوا في أساليب البيان بحكم ظروفنا افتراقاً شنيعاً لان منهم من رأى اعلى الامثلة في الادب العربي فيما

روي عن العرب في جاهليتهم ، ومن كانوا يشاكلون جاهليتهم فأكب على مثل المعلقات والمذهبات والملحمات الخ واراجيز مثل رؤبة والعجاج ، وراح يحفظها ويستظهر غريبها ويشاكلها في كل شيء اذا نظم فيتعمد الاتيان بالغريب ، ويركب متون العيس يقطع بها القفار ويهتف بالدمن ويشبب بالديار ويناجي النؤي والاحجار الخ . وطائفة من المتأدبين قد توفروا على قراءة شعر الشعراء من مطلع الاسلام الى غاية الدولة العباسية والدويلات التي انصدعت عنها ونثر من نجموا في هذا العصر . ولا ننس ادب الاندلس وراحوا يشاكلونهم في كل منازع كلامهم ، ومجالي تشبيهاتهم اذا هم نظموا او نثروا . وهناك فئة ثالثة من المتأدبين ظلوا عاكفين على ادبهم الذي ورثوا عن العصر التركي . وفئة رابعة اخذوا حظاً من لغة العرب وحظاً من لغات الافرنج ، وهؤلاء لهم أسلوبهم الخاص بهم وفنون تشبيهاتهم . ونشأت كذلك فئة خامسة تأدبت بادب العرب واستظهرت أجل ما قالوا في جاهليتهم واسلامهم ، وتأدبت في الوقت نفسه بادب كبار شعراء الغرب وجلة كتابه ، فاذا اجتمع هؤلاء للبيان تمثلت لهم صور المعاني الغربية وجلال الصيغ العربية ، فلا يكن لهم بد من ان يستكرهوا هذه على اداء تلك ، وبهذا خرج ايضاً للادب العربي في مصر نوع جديد .

ومن هنا تعرف لماذا اضطرب الادب العربي في مصر في هذا العهد ، وكيف تبلبلت لهجاته وأساليبه ، حتى لو اطل عليه رجل ممن حذقوا هذه اللغة ولم يكن له بمصر عهد لم يصدق ان هذه اللهجات المتباينة تجري كلها في وقت واحد وفي بلد واحد !

على انه مما لا ينبغي ان يفوتنا في هذا المقام ان انتشار المجلات العلمية والادبية وعناية الصحف على اختلاف ألوانها بتجويد اللغة وتحري الصحيح ، وتجريد بعض صفحاتها للآداب والفنون — لقد كان من اثر هذا أن جعلت اللهجات تتقارب رويداً رويداً ، بترديد نظر كل طائفة في أسلوب غيرها ، والتقاطها الجيد المطبوع من صيغها ووجوه تعبيراتها ، وجرياً على السنة الطبيعية سنة بقاء الاصلح .

نعم ، لقد جعلت اللهجات تتقارب ، والاساليب تتشابه ، لولا فروق دقيقة يحسها النقدة من اهل البيان . الا انه مازال هنالك فرقان واضحان : احدهما الفرق بين اصحاب القديم وأنصار التجديد « وتحقيق هذا الموضوع لا يتسع له حديث اليوم فلنرجئه الى يوم

آخر » . والثاني مالا يزال بعض مؤلفي الروايات ومعربيها يسفون فيه من الاتيان بصيغ مبتذلة وتعبيرات مفككة يطلبون بهـا اداء صور وأخيلة افرنجية ، من نحو : يا وصيفة المخدع ، والموت البنفسجي ؛ وان الشيطان ليرتبك في نسيج عنكبوته الخ .

ولعل السبب في ذلك هو التهافت على الصور والمعاني الاجنبية ، وعدم التمكن من صحيح العربية بالقدر الذي يهيئ للمؤلف او المترجم اداء جملة المعنى في صيغة يتقبلها الذوق المطبوع على لغة العرب .

ولعلك معارضي بان شاعراً حتى في ازكى عصور اللغة ، لا يشاكل أسلوبه أسلوب شاعر آخر يعاصره ، وقل مثل هذا في أئمة الكتاب ، حتى ان الناقد البصير ليستطيع ان يميز بين شعر ابي تمام والبحتري ، وبين شعر بشار وحفص بن ابي بردة مثلاً وبين جميل وكثير مثلاً وكل اثنين من هؤلاء عاشا في عصر واحد ؟ وأجيبك ان نعم ! الا انه مهما تنوعت أساليب البلغاء في العصر الواحد فان لكل عصر في بلاغته طابعاً واحداً يجمعها كلها في كنفه ويضمها تحت جناحه ، حتى ان ذلك الناقد الخبير اذا طرحت عليه اثراً من الآثار في الشعر او النثر فلم يهتد الى شخص صاحبه ، فانه مهتدٍ غالباً الى العصر الذي عاش فيه .

الى هنا خرجت لنا نتيجتان : الاولى ان الادب العربي في مصر (على انحصار تذوقه في طائفة المتأدبين) لم يتخذ الى الآن سمتاً واحداً ولم يطبع بعد بطابع معين ، بل انه مازال أمشاجاً من الاساليب واللهجات تسلخ من هنا وتلتقط من هناك وذلك طبيعي بحكم ماحلينا عليك من الاسباب . على ان الزمن وحده كفيل بان يقارب بين هذه الأنواع من الالسنة المختلفة حتى يدرجها كلها في جنس واحد . ويطبعها بطابع واحد . حتى مايبقى بينها غير تلك الفروق الدقيقة التي لا بد منها طوعاً لاختلاف البيئات واختلاف الشخصيات .

والنتيجة الثانية هي ان فصيح العربية لبث الادهار الطوال بمحجزة عن سواد المصريين لم تتصل به مداركهم ، ولا هو اتصل الى هذه الغاية باذواقهم . واذا نحن زعمنا ان شاعراً او ان كاتباً تهيأ له ان يترجم بفصيح العربية عما يجيش في نفسه من مشاعر مصرية ويحسن تجلية كل مايترقرق في نفسه من وجوه الاحساس المختلفة فان احداً لا يستطيع

أن يزعم ان العربية الخالصة استطاعت وخاصة في هذا العصر عصر العلم الحديث وما هجم به علينا من الوان المخترعات ان تؤدي شيئاً من الاسباب الدائرة بين الناس . بل لقد ناءت العامية المشتقة من اصل عربي باداء اكثر مايقع لاعيننا وتسمعه آذاننا في هذا العهد من صنوف المرئيات والمحسوسات في وجوه الاغراض المختلفة وذلك شيء لا يكاد يأخذه حد او يحصره عد ، وهو كل يوم بل كل ساعة في ازدياد وقوة اطراد ، فاضطر الناس خاصتهم وعامتهم الى ان يتخذوا الالفاظ الفرنجية مع تحريف كبير او صغير للتعبير عن هذه الاشياء الجديدة التي لابد لهم في وسائل عيشهم من التعبير عنها ودخلت هذه الالفاظ في العامية وطبعت بطابع اللسان المصري (ولابد مما ليس منه بد) .

والعجب العاجب انه مع كل هذا ومع ادراك جميع العلماء والادباء لمبلغ هذا الخطر على اللغة وكثرة تقاولهم فيه وشدة احتفالهم له ودعوتهم الى التشمير لمعالجته لم يجرد له جهد صادق ولم يبل احد فيه بلاء يستحق اي التفات . ولقد كان كل ما رزقنا في هذا الباب من الأساة المصلحين جماعة ممن لهم حظ كبير او صغير من الاطلاع على اللغة . وهؤلاء قد انصدعوا الى شعبتين : الشعبة الاولى قد القت كل همها وجهدها الى مراجعة كتاب (درة الغواص . في اوهام الخواص) للحريري . وكتاب (لغة الجرائد) لليازجي ونحو ذلك . واخذت نفسها بالارتصاد للشعراء والكتاب البارعين تنقدهم وتزدريهم وتتهمهم بشدة الجهل باللغة وتأخذ احدهم بانه قال : (اثر على الشيء والصحيح اثر فيه) !! وآخر يأخذ ثانياً بانه قال : صحيفة اذ هو يريد صفحة (والصفحة الوجه الواحد والصحيفة الورقة بوجهيها) !! وثالث يعير ثالثاً انه أنث الكأس ما يحوي شيئاً اذ هو لا يؤنث الا اذا كان مملوءاً . . . ونحو هذا من فنون التعقب حتى أخافوا الكتاب والشعراء واسترهبوهم وحبسوا أقلامهم عن الانطلاق في اقطار الاغراض المختلفة خشية ان يتسقطهم هؤلاء النقدة (ان صح هذا التعبير) وملكوهم عن الترجمة عن كثير من المعاني الطريفة لكيلا يتهموا بانهم جاوزوا ما نص عليه الحريري واليازجي ، وتلك لعمر الله من احدى الكبر !

ولقد كان هذا النوع من النقد ضربة موجعة للغة العربية نفسها . ثم نسائلها ايها العلماء اللغويون الذين لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار (شي حد الشتي) الم يقل أئمة العربية ان حروف الجر تتناوب واي مهلكة مع هذا للغة في ان تنوب (في) عن (على)

في مادة التأثير ؟ بل انني لأزعم ان (أثر عليه) أبلغ كثيراً من (اثر فيه) لان حرف (على) ادل على السطوة والتمكن من حرف (في) ولقد يقول الناس : (وجه الشيء الى كذا) اذ يقول امام العربية الجاحظ (وجهه على كذا) . كما يقول الناس : نشزت المرأة عن زوجها) اذ يقول ابوالفرج (نشزت المرأة على زوجها) ! . . . أتريدون بعد هذا ان نصدقكم انتم ونكذب الجاحظ وابا الفرج ؟ انكم إذن حق مغرورين .

ثم أليس في باب التجوز او الاستعارة او ماشئتم مما تعلقتم به من قشور البيان ما يتسع لاساغة المثلين الآخرين ان كنتم في اصل (نقدكم) من الصادقين ؟

وهنا اذكر عن صديقي شاعر النيل نكتة لطيفة تتصل بهذا المقام ، فلقد وقع في بعض قراآته على ان اللغة العربية ذهب نصفها فلم تحتفظ المعاجم الا بنصفها الآخر فهو كلما اخذه آخذ بخطأ لغوي او نحوي او صرفي اجاب من فوره : ما أدراك ان هذا سائغ في نصف اللغة الضائع ؟ ! !

اما الشعبة الثانية فجماعة كما يقول المثل العامي : (حطوا في بطنهم بطيخة صيفي) ! فاستراحوا والحمد لله تعالى على ان لغة العرب قد وسعت كل ما كان وما يكون وماسيكون وما سوف يكون . فان اللغة التي وضعت للجمل وللسيف وللاسد وللخمر وللغزال ولنحوها مئات الاسماء لايمكن ان تعيا بان يكون فيها كل مايدل على كل ماترمينا به اوربا واميركا كل يوم من معان طريفة ومخترعات حديثة ! !

ياسبحان الله ! ألغة كانت هذه ام منجمة تستفصح الغيب وتستكشف ما عسى ان يرمي به القدر من وجوه المعاني حتى بعد الف وثلاثمائة عام وترتصد لكل ما ولده الذهن البشري واستخرجه بمحض التأليف والتوليد او راض الطبيعة على اخراجه بالكد وطول التجربة ، فاذا الالفاظ والصيغ العربية محضرة على الرف لا يصيب من يشاء التعبير بها عن كل هذا الا انيمد اليها يده فيطرحها ، وماهو الا ان تشك الفاظها تلك المعاني وتستوي بها لمدارك الناس في غير عسر ولا عناء .

واعجب من شأن هؤلاء جماعة زعموا انهم متجردون في طلب مجفو اللغة ونلتقط كل مايؤدي كل حدث في العلم والفن والزراعة والصناعة وعلوم الطبيعة الخ الخ . ! أليست لغة العرب قد وسعت بظهر الغيب كل ما كان وما يكون ؟ فيدعو (الشبشب) أكرمك

الله (الكوث) وعلبة الحلى (الجوثة) ثم يروح يمن عليك بانه اخرج لك من لغة العرب كل مايوفي بحاجات العصر الحديث ! وتراه بعد هذا يمشي على الطوار مدلاً متنابها يهزرأسه ويثني عطفيه من فتنة واعجاب ظاناً انه لاشغل للجالسين على حواشي الطريق الا الحديث في اختراعه والاعجاب بفقهه في اللغة واحاطته بمكنون أسرارها .

ولقد يجرؤ الشيخ من هؤلاء على ان يزعم لك ان في العربية مايترجم عن كل قطعة وكل جزء من اجزاء (المرحوم) المنطاد ر ١٠١ ولماذا لايكون في لغتنا كل هذا ؟ اليست الطيارة من اختراع العرب ؟ وان اول من صنعها كان العباس بن فرناس ؟

ياناس ! والله ماقتلنا ولا قتل العلم ولا قتل اللغة معنا الا هذا الغرور .

نعم ! شهد الله ان لغة العرب من أثرى اللغات واغناها وابدعها وابلغها ، على انها لقد ادت واجبها وعبرت عن كل مطالب الحياة يوم كانت الامم العربية مستأثرة بالحضارة او مشاركة على الاقل فيها ، فكيف تريدونها وقد انقبضت عن الحضارة او انقبضت عنها الحضارة القرون الطوال — كيف تريدونها بعد هذا على ان تفتح عينيها على آلاف المستكشفات والمخترعات فتؤدي معانيها في يسر ورخاء ؟ انكم إذن لقوم ظالمون .

***

ولقد زعمت فيما زعمت ان صحيح العربية مازال بمحجزة عن سواد الناس . وذلك انه في اي عصر من العصور لم يبذل اي جهد في تبسيط هذه اللغة العتية المتعاصية في مفرداتها وصيغها وقواعد نحوها وصرفها . حتى تستوي لمدارك السواد كما لم يبذل اي جهد في ترقية مدارك هذا السواد حتى يفهم هذه اللغة او يلمح بلاغاتها لمحاً .

ولقد كان من أبلغ أسباب هذا التعويق ان تواثبت في اثناء هذه النهضة الحديثة طائفتان : احدهما شيعة القديم ، والثانية انصار التجديد . تلك تقول بعدم تخطي لغة العرب المأثورة حتى في كل مايجم من الجديد . وعندنا من أبواب التجوز والاشتقاق واتخاذ المجفو من مفردات العربية مايغنينا ويكفل اداء جميع حاجاتنا . اذ هذه تدعو الى التعريب وهي سنة اتخذها من سبقنا من أئمة العلماء في الدولتين الأموية والعباسية حين هاجمت آداب الفرس وعلوم الرومان والاغريق الامة العربية . ثم ظل هذا الخلاف وظل الى الآن ولا زالت اللغة من تحته تلوى وينقصد من الجهد عرقها بما انقطع من

نفسها في أداء حاجات الناس ، اذ الغرب يزحمها كل يوم بفنون لا حصر لها من المخترعات والمستكشفات ما نصيب نحن الجهال وعامة الخلق ، بل ولا سادتنا اللغويون — لها دلالة من لغة العرب ، لا على طريقة اشياع القديم ولا على طريقة أنصار التجديد[1] !

« باحث »

---

(١) ملاحظة — أستدرك على صديق لي من صفوة الادباء انني لم اذكر (كثيراً) الشاعر فيمن وفدوا على مصر طلباً لرفد امرائها وانني لاكبر هذا الاستدراك وأُقرر انه قد غاب عني ان كثيراً الشاعر الأموي الشهير كان فيمن وفدوا على مصر ولهذا الاستدراك خطره ودلالته على ان خاصة الحكام في مصر قد احتفلوا للغة العربية من عهد الدولة الاموية . واني لاشكره وأُقدر ملاحظته وان كنت لم اذكر من ذكرت من الادباء الذين وفدوا على مصر على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل .

اما ملاحظته الثانية فانني زعمت ان المصريين لم يكن لهم عهد بالعربية قبل الفتح الاسلامي . والواقع انه كان في مصر من قبل هذا من يحذقون العربية وانا اعرف هذا . ولا اجهل على الاقل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب الى المقوقس بالعربية وانه لابد ان يكون هناك في مصر من ترجم كتاب النبي اليه ، ولكن ليس يذهب عن صديقي الاديب ان الحديث انما كان مرسلاً في اول عهد الامة المصرية بالعربية لا عهد افراد اومئات منها بها وفينا الآن آلاف وآلاف يحذقون الفرنسية والانجليزية ولكن لا يستطيع ان يزعم الانسان ان الامة المصرية تتكلم الفرنسية والانكليزية .

واسطة السلوك

« في سياسة الملوك »

هو اسم كتاب نفيس ، لايزال بدوياً مخطوطاً لم يُنشر بعدُ . توجد منه نسخة في مكتبة (الاسكريال) باسبانيا ، ترجمت الى اللغة الاسبانية بقلم الاستاذ كاصبارمدريانو وطبعها (الترجمة الاسبانية) في سنة ١٨٩٩ م . بمدينة سرقسطة الا انه طبع منها نسخاً قليلة ، سرعان ما نفدت واصبحت نادرة لا تكاد توجد .

وكان المظنون ان النسخة الموجودة في (الاسكريال) هي النسخة الوحيدة من هذا الكتاب . غير اني عثرت اخيراً على نسخة مخطوطة أخرى من هذا الكتاب ، في مكتبة صديقي الفاضل الشيخ الحاج عبد القادر قاره جه في تلمسان (الجزائر) وهي نسخة تقع في مائتين وخمس واربعين صفحة (٢٤٥) طول الواحدة منها ٢٨ سنتيمتراً في عرض ٢٠ سنتيمتراً وفي كل صفحة ١٨ سطراً ولاتنقص كلمات كل سطر عن ١٢ كلمة ولا تزيد عن ١٥ كلمة وقد كتبت هذه النسخة بخط مغربي واضح ، وفيها كثير من الخطإ و التحريف ، بسبب ان الناسخ كان يسرع في نسخها ويمعن في هذه السرعة ، فاضطره ذلك ان يهمل بعض الحروف المعجمة وان يعجم بعض الحروف المهملة او ان يكتب الدال راءً او واواً او نحو ذلك ، الا ان ذلك كله لايحول دون قراءتها بسهولة وبلا عناء كبير . ومع ان الكتاب قديم أُلف فيما بين سنة ٧٠ وبين ٨٠ من القرن الثامن الهجري فان هذه النسخة التي أصفها قد فُرِغ من نسخها في يوم السبت ٣ جمادى الاولى سنة ١٢٦١ (الف ومائتين وواحد وستين) . وقد كتب الناسخ اسمه في أسفل الصفحة الاخيرة بشكل مبهم لايكاد يبين ، فلم أقرأ منه غير كلمتين لاأدري اولاهما من أخراهما وهما : حسن بن عمار اوهي عمار تحريف عمر كما ينطقها العامة في تلمسان اليوم . واني الآن أبحث عن النسخة الاصلية التي أخذت منها هذه النسخة ولعلي أجدها قريباً .

اسم الكتاب واسم المؤلف — اما الكتاب فاسمه في هذه النسخة (واسطة السلوك

في سياسة الملوك) وقد ذكره يحيى بن خلدون صاحب (بغية الروّاد في ذكر بني عبدالواد) باسم (نظم السلوك في سياسة الملوك) . واما اسم المؤلف ، فهو السلطان موسى ابو حمّو الثاني أشهر بني زيان ملوك تلمسان في التاريخ . غير ان هذه النسخة التي أصفها لم يُذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض أخبار بني زيان وذكرت معها تواريخها يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانه هو موسى بن حمّو ومافيه من شك . على ان قارئ هذا الكتاب لايلبث ان يقرأ فيه هذه القصيدة التي يقول فيها ناظمها وهو مؤلف الكتاب :

(وانا موسى ابو حمّو أصلح للملك ولا يصلح لي)
(فانا للطفل كوالده واسوق الشيخ على مهل)

وهي قصيدة رائعة ملئت حكمة وحُكما .

موضوع الكتاب — هو سياسة الملوك وتدبير الممالك ، ولعل هذا الكتاب هو من خير ماألف الناس في هذا الموضوع . وضعه موسى ابو حمّو هذا لابنه وهو يعظه ويوصيه ويقص عليه تجاربه واختباراته في السياسة والاجتماع . وقد اودع له في هذا الكتاب كل مايحتاج اليه الملوك (اوالخلفاء) الذين يديرون ممالكهم بانفسهم ، ويديرون فيها كل جليل وحقير . وفي الحق ان هذا كتاب يدل على ان مؤلفه مطلع واسع الاطلاع ، وعالم غزير العلم ومجرب حكيم وسياسي داهية ، كثير الحيل والاخاديع . وهو كتاب يحتاج الى مثله (بالاخص) اولئك الذين يحكمون أممهم وشعوبهم حكماً افرادياً ديموقراطياً . لا بل يحتاج اليه كل حاكم ، طاغية كان ام عادلاً . لا بل يحتاج اليه كل عالم من علماء التاريخ والاجتماع فهو صورة واضحة لنفسية موسى ابي حمّو الثاني الزياني ، ومافي هذه النفسية الملوكية الكبرى من وداعة وتواضع ومافيها من عظمة وجبروت . وهو ايضاً صورة واضحة للمجتمع الاسلامي في الجزائر او في المغرب كله لذلك العهد ، ولما في هذا المجتمع يومئذ من رغبات ومطامح وما فيه من شهوات ومطامع .

وتشعر ، وانت تقرأ هذا الكتاب بان مؤلفه يقتطعه من نفسه اقتطاعاً . وتراه يضع بين يديك آراء ناضجة قوية في السياسة والاجتماع وهي وليدة التجربة والاختبار . ولا تكاد تجد في الكتاب كله رأياً واحداً بني على الفرض والتقدير دون الخبرة والعيان . ومن هنا جاءت قيمة هذا الكتاب ، ومن هنا كان كتاباً علمياً ، وان موضوعه في سياسة الملوك .

وليس عجيباً ان يكون هذا الكتاب مبنياً على الواقع الذي لا ريب فيه ، فقد وضعه صاحبه لابنه وولي عهده واجتهد ان يكون له هذا الكتاب دستوراً قويماً ، يقيه شر مايكون في تدبير الملك وسياسة الامة من اغلاط وعثرات . ولكن اباتاشفين الثاني هذا كان ولداً عاقاً لاخير فيه ، وما كان اهلاً للملك . فقد جازى اباه (اباحمو) جزاء سنمار استبطأ حياة ابيه فتعجل الامر وثار عليه فقتله ، وقتل معه كثيراً من رجال الدولة وعلماء الدين . ثم لم يتمتع بالملك بعد ابيه غير اربع سنوات قضاها بين الفتن والاضطرابات .

أسلوب الكتاب — وأسلوب الكتاب في جملته هو أسلوب القرن الثامن الذي كان يعيش فيه المؤلف . وهو أسلوب كان شائعاً بين الادباء عموماً وأدباء المغرب خصوصاً ، منذ القرن السابع الى ماقبل هذه النهضة الادبية الحاضرة ، ولا يزال كثير من أدباء مراكش (المغرب الأقصى) يكتبون به الى هذا اليوم .

واصحاب هذا الاسلوب في الغالب لايستعملون الكلمة في موضعها ولا يؤدون المعنى باللفظ الذي وضع له (لاحقيقة ولا مجازاً) و يكثرون من الاسجاع الباردة التي يتكلفونها ولو افضى بهم تكلفها الى إضاعة المعنى . وقد لا يزيدون السجعة (الفاصلة) بتمامها لشيء الا ثرثرة وفضولاً . وابو حمو هذا ، كذلك في هذا الكتاب لايجيد القول ولايضع الكلم في مواضعه الا اذا ترك السجع وارسل نفسه على سجيتها وجاء كلامه عفواً ، وحينئذ يكون كلامه « سهلاً ممتنعاً » منسجماً صادقاً لاعيب فيه .

على ان ابا حمو هذا قد وُفق في أسلوب هذا الكتاب الى حد بعيد من التوفيق ، فهو لا يكتفي ببيان الرأي من آرائه التي ولدتها تجاربه واختباراته ، حتى يزيد على ذلك قصة صغيرة او يضرب لك مثلاً من الأمثال يقنعك كل الاقناع من حيث تشعر اومن حيث لاتشعر بصحة الرأي الذي يراه و يذهب اليه .

تبويب الكتاب — وقد جعل المؤلف كتابه هذا ديباجةً واربعة ابواب . فاما الديباجة فقد ذكر فيها السبب الذي حمله على تأليف الكتاب ، فقال فيها : « ... أما بعد ، فانه لما كانت الاولاد ، قطع الأكباد ، وعماد الظهور ، وشفاء الصدور ، وثمار القلوب ، وجلاء الكروب ، ودُرّة كل زين ، وقرّة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء (كذا بالاصل) وورثة الآباء ... وسر الحياة ، وحياة العظام

الرفات . يرغب فيهم الانبياء ، و يعتدّ بهم الاولياء ، قال الله عزّ وجلّ مخبراً عن نبيه زكريا اذ دعاه : « ... فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ، و يرث من آل يعقوب ، واجعله ربِّ رضيا ... » — وجب (وهـذا جواب لما) ان تكون لهم الآباء كالسماء الظليلة ، والشمس المنيرة ، والسحب المُخيلة . يتحفونهم بكل أدب وفضيلة ، و يمنحونهم كل فائدة جليـلة . وخير الآباء للابنـاء من لم تدعه المودّة (يريد العطف الابوي) للتفريط في الحقوق (يعني ما يجب على الاب من تربية الابن وتهـذيبه) ، وخير الابناء للآباء من لم يدعه التقصير الى العقوق . قال صلى الله عليه وسلم : الاولاد من رياحين الجنة . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان محبّاً في ولده سالم :

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والانف سالم

وقال معلّى الطائي :

وانمـا اولادنا بيننـا اكبادنا تمشي على الارض

ان هبت الريح على بعضهم تمتنع العين من الغمض

فرأينا اولى ما يتحف به ولي عهدنا ووارث مجدنا ، والخليفة ان شاء الله من بعدنا ، وصايا حكمية ، وسياسة عملية مما تختص به الملوك ، وتنتظم به امورهم انتظـام السلوك . ولذلك سمينا هـذا الكتاب بواسطة السلوك ، في سياسة الملوك ، ليكون اسمه موافق مسماه ، ولفظه يطابق معناه » . هذه هي الديباجة نقلتهـا لك الا بعض فواصل منها . ومنها تعلم الغرض الذي حمل المؤلف على وضع هذا الكتاب .

واما أربعة الابواب فقد قال عنها المؤلف هكذا : « .. وبوّبناه تبويباً على اربعة ابواب :

الباب الاول في الوصايا والآداب والحكم المرشدة الى الصواب .

الباب الثاني في قواعد الملك وأركانه ، وما يحتاج اليه الملك في قوام سلطانه .

الباب الثالث في الاوصاف التي هي (نظام) الملك وكماله ، وبهجته وجماله .

الباب الرابع في الفراسة ، وهي خاتمة السياسة » . ثم شرع بفصل كل باب الى فصول ، و ينوعه الى انواع .

ولكن هذا التنويع والتفصيل والتبويب ، كل ذلك لاقيمة له في الكتاب ، فالكتاب

كله باب واحد متصل الاطراف شديد الاتصال · او الابواب كلها في قواعد الملك واركانه وفيما ليس للملك منه بد ·

وفي الفصل التالي نعود ان شاء الله الى ذكر النقط المهمة من كل باب ومن كل فصل من ابواب الكتاب وفصوله · حتى يعلم القارئ ان الكتاب كله باب واحد في تدبير الملك لا اعتبار فيه لهذا التقسيم الذي قسمه المؤلف ·

***

وقد عزمت انا وصديقي الاستاذ عبدالقادر محداد على نشر هذا الكتاب متى حصلنا على نسخة بالفوتوغراف من نسخة (الاسكوريال) وقد عملنا اكثر ما يجب عمله في هذا السبيل والله الموفق المستعان ·

تلمسان (الجزائر) : محمد السعيد الزاهري

رسالة الكرم

— ٦ —

« العنقود »

العنقود بالضم والعنقاد بالكسر لغة فيه · ما كثرت عليه حبات العنب قال الشاعر :

اذ لمتي سوداء كالعنقاد   كأنمة كانت على مصاد

والجمع عناقيد · وقد صرح الجماهير بان نونه زائدة ·

الخصلة بالفتح والضم العنقود ·

العِذق بالكسر العنقود من العنب والقنو من النخلة وجمعه أعذاق وعُذوق · وقيل العِذق العنقود اذا اكل ما عليه · والعَذق بالفتح النخلة و كل غصن له شعب · واعذقت النخلة كثرت اعذاقها وفي المخصص واذا اكل ماعلى العنقود فالباقي عِذق وتريك كما يقال في عذق النخلة اذا نفض ماعليه · وفي التاج التريك كامير العنقود اذا اكل ماعليه ونحوه في اللسان ·

القِطف بالكسر العنقود ساعة يقطف واسم الثمار المقطوفة جمعه قطوف وفي المخصص القطف العنب اذا كان غضاً حتى يقطف · وفي الأصمعي القطف العنب اذا ما كان غضاً حتى يقطف اي يدرك · هكذا ضبط بالفتح بالشكل وقد ضبط بالكسر كما رأيت · والقطف بالفتح قطعك العنب وكل شيء تقطعه عن شيء فقد قطفته · وقطف العنب من بابي ضرب وقتل قطفاً · وقطّفه تقطيفاً جناه ·

والقطاف ككتاب وسحاب اوان القطف ووقته · وقال الاصمعي حصاد العنب وقطافه مكسوران ·

وأقطف العنب حان ان يقطف · وأقطف القوم حان قطاف كرومهم وأقطف الكرم دنا قطافه ·

والمقطف كمنبر اصل العنقود · والمنجل الذي يقطف به ·

والمقطف كمقعد مايجنى فيه الثمر جمعه مقاطف .

والقطافة بالضم ككناسة ما يسقط من العنب اذا قطف . وقطافة الشجر ماقطف منه .

ويقال ماش كرمه يموشه موشاً اذا طلب باقي قطوفه . وفي التاج اذا تتبع باقي قطوفه فأخذها .

العِسْقِب والعِسْقِبة بالكسر كلاهما عنيقيد صغير يكون منفرداً يلتصق باصل العنقود الضخم والجمع عساقب . وفي القاموس العسقبة بالكسر عنيقيد منفرد ملتزق باصل العنقود والجمع عِسْقِب وعساقب قال في التاج عِسقِب جنس جمعي كتمر وتمرة لاجمع حقيقي وعساقب جمع حقيقي .

العسكبة كالعسقبة وزناً ومعنىً والكاف لغة في القاف . قال في القاموس ويكون فيه عشر حبات قال في التاج وهذا قيد غريب .

المكتب كمعظم العنقود أكل بعض مافيه وترك بعضه .

العمشوش بالضم العنقود يؤكل[1] ماعليه ويترك بعضه والجمع العماشيش . والعمشوق كالعمشوش وزناً ومعنى .

وقال الاصمعي العمشوش العنقود اذا أخذ ماعليه وفي المخصص اذا اكل مافيه .

وقال ابن شميل اذا اكل ماعليه فهو ثفروق وعمشوش (كلاهما بالضم) وجمع الثفروق ثفاريق .

قال الاصمعي الثفاريق العناقيد الخالية . وقيل الثفروق العنقود يخرط ماعليه فيبقى عليه الحبة والحبتان والثلاث يخطئها الخلب فتلقى للمساكين . وفي المخصص الثفاريق العناقيد الخالية من الحب . وقال ابوعلي هي الثفاريق مالم يكن فيها عنب فاذا كان فيها عنب فهي العناقيد .

وسيأتي ان الثفاريق اقماع الحب .

الربيس كأمير العنقود المكتنز يقال ارتبس العنقود اكتنز . وفي اللسان وعنقود

(١) هكذا في اللسان وفي التاج يؤكل بعض ما عليه .

مرتبس معناه انهضام[1] حبه وتداخل بعضه في بعض ·

الكشمر بالتحريك العنقود اذا أكل ماعليه وألقي ·

ويقال عنقود مُنَبَّن كمعظم اكل بعض ماعليه من العنب ·

الخُصاصة بالضم ما يبقى في الكرم بعد قطافه العنيقيد الصغير ههنا وآخر ههنا والجمع الخُصاص بالضم وهو النبذ القليل · وفي اللسان عن ابي حنيفة الخصاصة والجمع الخصاص كلاهما بالفتح · وقال الاصمعي واذا لم يرو الغصن وخرج حبه ضعيفاً متفرقاً فهو الخصاصة والحصرم ونحوه في المخصص الا انه لم يذكر الحصرم ولم أر من ذكرها غير الاصمعي ·

وقال الاصمعي يسمون العنقود الفِنا (هكذا بالفاء المكسورة) · وفي المخصص ويقال للعنقود قِنْو كما يقال للكباسة ابوحاتم وهو القِنا بالقاف المكسورة · وفي اللسان القنو العذق بما فيه من الرطب · وفيه ايضاً والقِنْو والقِنا الكباسة والقَنا بالفتح لغة فيه ·

الشِجْنة بالكسر الشعبة من العنقود تدرك كلها · وقد أشجن الكرم صار ذا شجنة وتشجن الشجر التف · وفي الاصمعي ويسمون شعبة العنقود الشِجنة ·

والشِجْنة عروق الشجر المشتبكة · والشُجْنة الشعبة من الشيء ·

الشِمْراخ والشُمْرُوخ العثكال[2] الذي عليه البسر واصله في العذق وقد يكون في العنب · وفي التهذيب الشمراخ عسقبة من عذق عنقود · وفي كتاب الاصمعي والشعبة من العنقود الشمراخ منه ولا يسمى شمراخاً ولكنه تفسير منه · وفي المخصص والشعبة من العنقود شمراخ وعسقبة وعسقب وهو كذلك من العذق ·

والتذليل تسوية عناقيد الكرم وتدليتها · ذُلِل الكرم دليت عناقيده وفي المخصص واذا سويت عناقيد الكرم فدليت فذلك التذليل · وفي مفردات الراغب وذللت قطوفها تذليلاً اي سُهِّلت ·

---

(١) اي انضمامه ويؤيده عبارة التاج · ارتبس العنقود اذا اكتنز وذلك اذا تضام حبه وتداخل في بعض ·

(٢) قال في اللسان والعُثكول والعِثكال الشمراخ وهو ماعليه البسر من عيدان الكباسة وهو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم · والاثكال والاثكول لغة في العثكال والعثكول ·

« عجم العنب »

العجم بالتحريك والعجام كغراب النوى نوى التمر والنبق وغيرهما الواحدة عجمة مثل قصب وقصبة . والعامة تقوله عجم بالتسكين وكل ما كان في جوف مأكول كالزبيب وما أشبهه عجم . وقال ابو حنيفة العجمة حبة العنب حتى تنبت .

الفرصد والفرصيد والفرصاد بكسر اولها . عجم العنب وعجم الزبيب .

النواة عجمة التمر والزبيب وغيرهما والجمع نَوًى ونُوِيّ ونِوِيّ وأنواء جمع نَوًى . والنوى يذكر و يؤنث و يكتب بالياء .

وفي كتاب الأصمعي حب العنب النواء (هكذا بالمد ولم أجدها لغيره ولعلها من تحريف النساخ) .

الحبة بالضم عجم العنب وقد تخفف كثبة وقال الاصمعي الحُبَّة الحب الذي في جوف الحبة من العنب . وقال حب كل شيء ثقيل الباء الا حبة العنب والسفرجل والقرع .

« قشر العنب »

الجَذْن قشر العنب الذي فيه الماء .

الدواة بالدال المهملة قشر الحنظلة والعنبة والبطيخة . وهي لغة في الذواة بالذال المعجمة . والجمع ذوًى .

لحاء العنبة قشرها وفي الحديث (فان لم يجد احدكم الا لحاء عنبة او عود شجرة فليمضغه) أراد قشر العنبة استعاره من قشر العود .

النَّطْل القشر الذي على الطعم من العنب .

« اقماع العنب »

القِمَع والقِمْع ما التزق باسفل العنب والتمر ونحوهما والجمع أقماع .

الثُّفْروق بالضم والثاء المثلثة قمع حب العنب وقمع التمر والبسر والجمع ثفاريق وقيل الثفروق ما يلزق به القمع من التمرة وقيل علاقة ما بين النواة والقمع وقد تقدم في (العنقود) ان الثفروق العمشوش .

والذُّفْروق بالذال والتُّفْروق بالتاء المثناة لغة في الثفروق .

وفي اللسان العُنْدُقة ثغرة السرة وقيل العندقة موضع في أسفل البطن عند

السرة كأنها ثغرة النحر في الخلقة ويقال ذلك في العنقود من العنب وفي حمل الاراك والبطم ونحوه ٠

« تلوّن العنب ونضجه »

يقال أَلمص الكرم ٠ لان عنبه واللامص حافظ الكرم زاد الاصمعي ٠ الطائف فيه يأخذ هبرة من ادناه وهبرة من اوسطه وهبرة من آخره ٠

وأَوشم الكرم اذا بدأ يلون او اذا تم نضجه واوشم العنب لان وطاب ٠ وفي المخصص اذا ابتدأ يلون قيل اوشم ثم حلقم وسيأتي في نضج وقال الخطيب الاسكافي فاذا اسود بعض حبوبه قيل اوشم فاذا اسود نصفها قيل شطر[1] فاذا اسودت الحبة الا بعضها مما يلي القمع قيل حلقمت ٠

أومس العنب اذا لان للنضج قيل ومنه قيل للفاجرة مومس ومومسة لانها تلين لمريدها ٠

ايراق العنب يوراق اذا لون فهو موراق ٠ وفي اللسان اوراق يوراق ايريقاقا اذا لون ٠

تشكيل العنب اينع بعضه وشكّل وتشكل اسود واخذ في النضج كذا في اللسان والمخصص وفي القاموس شكّل العنب اينع بعضه واسود واخذ في النضج كتشكل وشكّل ٠ الاصمعي يقال للاسود تشكل بسواد اذا مااسودّ بعضه ٠

وفي اللسان وتمر مجزّع ومجزِّع ومتجزع بلغ الارطاب نصفه وقيل بلغ الارطاب من أسفله الى نصفه وقيل الى ثلثيه ٠ وقيل بلغ بعضه من غير ان يحد وكذلك الرطب والعنب وقد جزع البسر والرطب وغيرهما تجزيعاً فهو مجزّع وقال المعري المجزع بالكسر وقال شمر بالنصب وقال الازهري وسماعي من الهجر بين رطب مجزع بكسر الزاي كما رواه المعري عن ابي عبيد ٠

التمزيج بالجيم في العنب والسنبل ان يلون من خضرة الى صفرة وقد مزّج العنب اصفر بعد خضرة ٠ ومزج الكرم أثمر ٠

---

(١) لم اجدها بهذا المعنى في اللسان ولا في التاج ولعلها مأخوذة من شطر الشيء نصفه او من شطر بناقته اذا صر خلفيها وترك خلفين فليراجع ٠

ويقال مزّح العنب والسنبل تمزيحاً اذا لون ومزح الكرم اذا اثمر · قال في القاموس او الصواب بالجيم اي مزّج قال في التاج وقد أورده الزمخشري وغيره هنا اي في باب الحاء ·

الوَكَب سواد التمر اذا نضج واكثر ما يستعمل في العنب . في المخصص الوَكَب سواد العنب اذا نضج وقد وكّب · وفي التهذيب الوكب سواد اللون من عنب او غير ذلك اذا نضج ·ووكّب العنب توكيباً اخذفيه تلوين السواد واسمه في تلك الحال مُوَكِّب على صيغة اسم الفاعل ·

وقال الازهري · والمعروف في لون العنب والرطب اذا ظهر فيه ادنى سواد التوكيت يقال بسر مُوَكِّت ·

ويقال تموّه العنب اذا جرى فيه الينع وحسن لونه او امتلأ ماء وتهيأ للنضج وكذلك النخل ·

ينع العنب وأينع أدرك ونضج ويقال ينع التمر ينع من بابي منع وضرب ينعاً بفتح الياء وينعاً وينوعاً بضمها فيهما اذا أدرك ونضج فهو يانع مثل يَنِع وأينع يونع ايناعاً فهو مونع و يانع مثله · قال في اللسان وأينع بالالف اكثر استعمالاً · وفي القاموس ينع التمر حان قطافه كأينع · وثمر ينيع كأمير وأينع و يانع واليانع الأحمر من كل شيء · وثمر يانع اذا لون ·

الحجج بفتحتين ادراك العنب ونضجه · وفي الحديث (لا تبع العنب حتى يظهر مججه) اي بلوغه · ويقال مجّج العنب يمجّج اذا طاب وصار حلواً · وفي الحديث (لا يصلح السلف في العنب والزيتون وأشباه ذلك حتى يمجج)·

ويقال رقّ جلد العنب · لطف · وأرقّ العنبُ رق جلده وكثر ماؤه وخص به ابو حنيفة العنب الأبيض كذا في اللسان · وفي القاموس أرقّ العنب تم نضجه خاص بالابيض · وقال الاصمعي[1] اذا رأيت في الحب الماء قلت قد أرق فاذا أدرك قلت أينع · وقال : يقال للعنب الاسود قد أوشم وللعنب الابيض قد أرق وذلك حين يلين

---

(١) نقله في المخصص عن ابي حنيفة ·

بعض الحبر ولم تلن كلها . وقال في موضع آخر : يقال ارق للابيض اذا رق حبه واخذ فيه النضج . وفي المخصص ابو حنيفة ارق أبيض العنب وهو الملاحي والملاَّحي والتشديد قليل وتشكل اسوده ووَكَّت وهو التزبيب .

في المخصص أنى العنب أدرك . وفي اللسان أنى الشيء يأني أنيًا وإنىً وأنىً وهو أنيٌّ حان وادرك . وخصه بعضهم بالنبات . وفي التاج بلغ هذا الشيء اناه بالفتح وبكسر اي غايته او نضجه وادراكه .

نضج العنب والتمر والثمر واللحم من باب سمع ينضَج نُضجًا و نَضجًا أدرك . والاسم النُضج . قال في المخصص اذا ابتدأ يلون قيل أوشم ثم حلقم[1] ثم أينع و ينع يينع ينعًا و يُنوعًا و صلَح صلوحًا ونضج نضجًا ثم احصد وهو الحصاد ثم اقطف وهو القطاف . و يقال أفضخ العنقود اي حان ان ينفضخ و يعتصر ما فيه .

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي

---

(١) في اللسان رطب محلقم ومحلقن وهي الحُلقامة والحُلقانة وهي التي بدأ فيها النضج من قبل قمعها وفيه عن ابي عبيد يقال للبسر اذا بدأ فيه الارطاب من قبل ذنبه مذنّب فاذا بلغ الارطاب نصفه فهو مجزّع فاذا بلغ ثلثيه فهو حاقان ومحلقن وفي التاج وقد حلقم وحلقن وزعم يعقوب انه بدل .

آراء وافكار

—*—

« تأويل كلمات في تاريخ حلب »

في الكتب التاريخية الخصيصة بحلب — اسماء أعلام تمحل مؤلفوها بتأويلها فأفرغوها في قوالب عربية مع انها أعجمية محضة موضوعة على مسمياتها من قبل الامم الاعجمية التي كانت تقطن حلب وما يضاف اليها من الاصقاع قبل الفتح الاسلامي وهي كلمات كثيرة قد تتعذر الإحاطة بها و يصعب تحليلهـا على من لم يكن متضلعاً باللغة السريانية وغيرها من اللغات المتفرعة عن اللغة الآرامية .

وقد اقتصرت منها على خمس كلمات أوردتها كالنموذج لهذا الموضوع فأقول :

— الكلمة الاولى « حلب » —

هذه الكلمة علم على مدينتنا المعروفة ، وقد كثرت الأقاويل في تأويلها فمن قائل انها اسم اول بانٍ لهذه المدينة وهو (حلب بن مهر بن خاب) قلت هـذا الاسم مما لم أره الا في بعض تواريخ حلب ، وقيل ان هذه الكلمة (حلب) جعلت علماً على هذه المدينـة اخذاً من قول العرب (ابراهيم حلب الشهباء) حينما كان مقيماً في تلها قبل ان تبنى عليـه القلعة فكان كل يوم يحلب بقرة له شهباء و يوزع لبنها على العرب المخيمين في جواره ، قلت ربما كان لهذا القول نصيب من الصحة اذا سلمنا بان العرب كانوا يترددون على هذه الاصقاع للامتيار وتسريح السوائم سيف مراعيها الخصيبة او انهم كانوا مقيمين فيها تحت مضاربهم جيراناً لاخوانهم الآراميين ، فقـد صرح هيرودتس واسترابون وغيرهما من قدماء المؤرخين وبعض علماء هذا العصر — ان قبائل عديدة من بلاد العرب او من خليج العجم ارتحلوا الى سورية منذ قديم الايام اهـ . قلت فمن الجائز حينئذ ان يكون هذا الصقع عرف بهذا الاسم اخذاً من فعل الخليل وان كان له اسماء أخر عند غير العرب من

الامم التي كانت تقطن هذا الصقع الا ان صحة هذا التأو يل تبقى موقوفة ر يثما يثبت مجيء الخليل الى هذه الانحاء فلندعه موقوفاً في زوايا الاهمال حتى نظفر باثر يثبت مجيء الخليل اليها ·

وقال بعضهم ان كلة (حلب) محرفة عن هَلَبه وهو اسمها عند العمالقة وهو قول عجزنا عن اثباته · وزعم آخرون انها محرفة عن خَلَبه قال وهو اسمها عند اليونانيين وهو قول عارٍ عن الصحة فقد ثبت ان اليونانيين كانوا يسمونهـا (بَرُوَّا) وهو اسم احدى مدنهم في تراقيا ، سموها بهذا الاسم جرياً على سنتهم في تسمية مايحتلونه من البلاد الاجنبية باسم احدى مدنهم الاصلية · ورأى حضرة المطران فرحات فى قاموسه ان كلة حلب معربة عن (ألبّ) منقولة عن اسم مجددها (البيوس) الشهير من وزراء يوليانوس العاصي ، قلت يعارض هذا الرأي ان (البيوس) وجد بعد المسيح عليه السلام وحلب كانت تسمى بهذا الاسم قبله في عهد بني اسرائيل فان الاستاذ منكه الفرنسي الجغرافي الشهير — سماها بهذا الاسم في خارطة بني اسرائيل عن اطلسه العام التـاريخي · وأطلق كزانفون اليوناني تليـذ سقراط الحكيم كلة حلب على الاصقاع الممتدة من اذنة الى الفرات ·

رأيي في هذه الكلمة — والذي أراه في هذه الكلمة انها سريانية محرفة عن (حلبا) بالألف ومعناها البيضاء حذفت الفها بالاستعمال جرياً على قاعدة المتكلمين بالسريانية من انهم يحذفون أمثال هذه الالف بالتكلم ، وان اتباع حلب بكلمة الشهباء التي معناها البيضاء المصدوعة بالسواد — مما وضعه العرب كالمرادف لكلمة حلب تفسيراً لها ، وان السريانيين كانوا يسمونها بهذا الاسم لما كان يشاهد المقبل عليها من بياض ضواحيهـا التي تكثر فيها سباخ الملح خصوصاً ضواحيها الجنوبية الشرقية التي تبهر الناظر بلمعان سباخها ولاسيما إبان القيظ ولما كان يشاهد للقادم على حلب من بياض مبانيها التي كان معظمها يبني بالحوار الابيض المأخوذ من مغاراتها الواسعة المنتشرة فيها وفي أطرافها كمغارة حارة المعادي وحارة الكلاسة وغيرهما من المغائر التي يطول الشرح بعدّها فكانت مناظر حلب لهذا السبب كمناظر مدينة عينتاب والرُّها وغيرهما من البلدان التي مابرحت عمائرها تبنى بالحوار حتى الآن ·

كانت مباني حلب تبنى كلها من هذه المادة سوى مباني الحصون وبعض مباني المعابد ومنازل الحكام والامراء وذوي الثراء وسبب ذلك كثرة ما تتطلبه المباني الحجرية من

المال الكثير والعناء الشديد في قطع الحجارة وقلعها من مناجمها فان اهل هذه الحرفة قبل ان يستعملوا البارود في نسف الصخور والجنادل على طريقة (اللغم) المعروفة كانوا يحطمون صغارها بالمعاول والصواقير و يحزون كبارها بالحز و يسفنونها بورق الحديد فيصرفون في ذلك أموالاً طائلة و يتكبدون من الضيق والعناء ما لا مزيد عليه ·

— الكلمة الثانية « قويق » —

هذه الكلمة علم على نهر حلب وفيه يقول الشاعر الصنوبري :

قويق على الصفراء ركب جسمه فما لهب القيظ الأليم يوافقه
اذا جد جد الصيف غادر جسمه ضئيلاً ولكن الشتاء يرافقه

قال ابن الشحنة نقلاً عن ابن شداد — يريد الصنوبري بهذا ان اصحاب الامزجة الصفراوية تنحل أجسامهم في الصيف ويوافقهم الشتاء وان قويق يقل ماؤه في الصيف حتى يصير حول المدينة كالساقية ، قال ابن الشحنة وقد فهمت من هذا امراً وراء ماذكره ابن شداد وهو ان قويق تصغير قاق وهو يخالف طبعه الحر فيكون في الصيف غاية في الضعف وفي الشتاء غاية في النشاط اه · هذا ما استنبطه ابن الشحنة من بيتي الصنوبري ، ومراده بالقاق الطائر المعروف بالغراب الأبقع المكني بابن دأية ·

وقال ياقوت في كتابه معجم البلدان لما تكلم على هذا النهر قويق كأنه تصغير قاق وهو صوت الضفدع ولذا قال شاعرهم وأورد البيتين الاخيرين من هذه القطعة وهي :

قويق اذا شم ريح الشتا ء اظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وماثل دجلة ثم الفرا ت بهاءً ولطفاً وحسناً وطيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
اذا ما الضفادع نادينه قويق قويق ابى ان يجيبا
وتمشي الجرادة فيه فلا تكاد قوائمها ان تغيبا

فهذان تأويلان لكلمة قويق ، وهناك تأويل ثالث ربما كان أخف منهما ، وهو ماذكره صاحب سالنامة ولاية حلب المطبوعة سنة ١٣٠٠ فقد زعم ان هذا النهر أضيف الى اسم الذي جره من منبعه الى حلب وهو قويق اغا احد زعماء التركمان في دارة العمق المدفون في تربة سوق الخيل بحلب ، أقول هذا النهر من جملة الانهار الطبيعية الجارية

بطبعها التي لم يجرها احد من منابعها وان المدفون في التربة المذكورة أرغون نائب حلب لا غير وان قويق الذي زعمه صاحب التقويم السنوي عنقاء مغرب لا ذكر له في كتاب ولا سمعنا به من احد .

رأيي بهذه الكلمة — أرى ان كلمة قويق محرفة عن (قَوَقْ) كلمة يطلقها الاتراك على شجر (الحور) وهو شجر ابيض اللحاء يطول باستقامة نحو عشرين متراً او اكثر ومنه نوع تعمل من صمغه الكهرباء .

بيان ذلك ان هذا النهر كان ولم يزل يغرس على أطرافه في أوائله من بلاد عينتاب — شجر الحور فينمو وينجب ويباع منه الكثير في البلاد القريبة من عينتاب فعرف به هذا النهر وأضيف اليه وقيل باللسان التركي (قوق نهرى) ثم نقل الى اللغة العربية فقيل (نهر قوق) ثم حرفت الكلمة الثانية فصار نهر قويق وترجمتها بالعربية (نهر الحور) .

ومما يؤيد ان كلمة قويق تحريف (قوق) التركية انه يوجد في مدينة عينتاب التي هي اول مصدر للينابيع التي يتكوّن منها هذا النهر — مستنقع عظيم معد منذ القدم لغرس شجر الحور معروف حتى الآن باسم (قوقلق) اي مغرسة الحور او (محورة) كان هذا النهر يسمى قديماً (شالوس) ، وقال (دارفيو) : احد قناصل الدولة الفرنسية بحلب في حدود القرن الحادي عشر ه في كتابه الذي سماه (تذكره اسفارى) — كان هذا النهر يسمى (سيغا) او (سيكوبم) وانه كان يسمى قبلاً (بيلوس) اه . وسماه (كزانفون) اليوناني (خالس) . قال وهو نهر صغير فيه أنواع من السمك والسوريون يحسبونها آلهة ولا يسمحون بصيدها لاحد .

والذي يغلب على ظني ان اول مرة أضيف هذا النهر الى كلمة قوق كان في ايام الدولة الطولونية التي هي اول دولة تركية حكمت في حلب بعد الفتح الاسلامي فان هذا الاسم للنهر لم نره في شيء من النظم والنثر أقدم من كلام الشاعر البحتري الذي استغرقت حياته جميع ايام الدولة الطولونية ، فلعل أسماءه القديمة التي ذكرناها نسيت اوهجرها الناس استثقالاً لها فاعتاضوا عنها باسمه الجديد .

— الكلمة الثالثة « بانقوسا » —

هذه الكلمة علم على ناحية في ظاهر مدينة حلب فسيحة الاكناف مترامية الاطراف

كانت قبل القرن السابع للهجرة ذات اشجار ملتفة وادواح محتبكة ، منها يستمد اهل حلب ما يعوزهم من الأخشاب المتنوعة ، وكانت من جهة أخرى تعدّ من جملة متنزهات حلب كما تشير الى ذلك اشعار البحتري والصنوبري وغيرهما من الشعراء وكما يظهر من عبارات المؤرخين حين تكلمهم عن الحروب الناشبة بين سيف الدولة وبين كافور الاخشيدي الذي كان يقطع الاشجار التي اشتهرت حلب بكثرتها قال البحتري :

اقام كل ملث القطر رجاس   على ديار بعلو الشام ادراس
فيها لعلوة مصطاف ومرتبع   من بانقوسا و بابلى وبطياس

وقال الصنوبري :

وللظهر من حلب منزل   ثقاب العيون على تجه
اعد نحو جوشنه نظرة   الى سمته والى برجه
الى بانقوسا وتلك التي   حكت راكبا لاح من لجه
لترتاح نفسك من دوحه   ويمرح طرفك في مرجه

وقال من قصيدة أخرى :

حبذا البا آت باءات   وقويق وربا ها
بانقوساها بهــا   باهى المباهي حين باها

وقال مجد الدين بن اسماعيل الآمدي :

سقى الله وادي بانقوسا من الحيا   سماء يروي تربها ويصيب

تأويل العامة لهذه الكلمة — يزعم العامة من اهل حلب ان هذه الكلمة مركبة من كلمتين احداها (بان) والاخرى (قوسها) اي ظهر قوسها ويحكون في ذلك حكاية طويلة خلاصتها ان حرباً قامت على ساق بين اهل حلب وبين الروم وكثرت القتلى من الحلبيين حتى خاض المتحاربون الدم وان الروم بينما كادوا يحرزون الغلبة على الحلبيين ويفنونهم عن آخرهم اذ ظهرت في أخريات جيش اهل حلب فتاة كانت معروفة عندهم بالفروسية والشجاعة واخذت تلوح للحلبيين بقوسها كأنها تشجعهم فاستبشروا بظهورها وقويت عزائمهم وتنادوا فيما بينهم (بان قوسها ، بان قوسها) وكروا على الروم فهزموهم ومزقوا جموعهم شر ممزق ومن ذلك التاريخ جعلت هذه الكلمة علماً على تلك الناحية .

تأويل اقل قيمة من اقصوصة خرافية ، اما كان من الواجب فيها ذكر تاريخ تلك الواقعة العظيمة وبيان اسم فتاتها الباسلة والاشادة بذكرها كما اشاد الفرنسيون بذكر فتاتهم جاندارك فان مثل هذه الفتاة جديرة بان تخلد ذكرها في صفحات التاريخ .

وهناك تأويل آخر لكلمة بانقوسا اشد بطلاناً من التأويل الاول لان القائل به يزعم انبانقوسا نبي من انبياء الله العظام ، وذلك انه يوجد في جامع بانقوسا الشهير بجانب ضريح يزوره الناس ويتبركون به لانه نقش على سنامه الحجري هذه العبارة :

« يا حضرة نبي الله بانقوس على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام قد اخبر بهذا العلامة الشيخ مرتضى الدين الزبيدي شارح الاحياء والقاموس . قال شيخنا العلامة الشيخ احمد التكمجي نزيل مصر ان الشيخ مرتضى اماه في علم التاريخ » اه .

اقول الشيخ مرتضى هذا هو العلامة محمد الشهير بمرتضى الدين الزبيدي المتوفى في القاهرة سنة ١٠٩٦ وقد تصفحت شرحه على الاحياء من اوله الى آخره فلم أظفر فيه بذكر لنبي الله بانقوسا ، كما انني لا أعرف نبياً بهذا الاسم ولا ادري اين قال الشيخ مرتضى ان بانقوسا اسم نبي ، وانما قال في شرحه على القاموس فيما استدركه على مادة بناقيس بنقوسا جبل في ظاهر حلب ، واستشهد على قوله بابيات البحتري التي اسلفت ذكرها ، فلو كان مرتضى الدين هو القائل بأن بانقوسا نبي من انبياء الله لكان ذكره اياها في هذا المحل اولى من ذكرها في غيره لانه كان يجعلها استدراكاً على صاحب القاموس كما جرت عادته في ذلك .

رأيي في هذه الكلمة - ارى في هذه الكلمة (بانقوسا) انها محرفة عن كلمة سريانية هي (بيت نقوشا) اي بيت الناقوس حذفت من الكلمة الاولى الياء وأبدلت التاء بالالف كما هو قاعدة النقل من السريانية الى العربية كباصفرة و بابنس اي بيت صفرة وبيت بنس وقلبت الشين سيناً كما قلبت في قنشرين فصارت (بانقوسا) وربما استدل بهذا على ان جبل هذه الناحية في ايام سكنى الكلدانيين في حلب كان موضع الناقوس .

ومما يؤيد ان المراد من هذه الكلمة ماذكرته انه يوجد من القديم في حارة من حارات حلب اسمها الشرعسوس — حوض يعرف باسم قسطل (بنقوس) فهل كان الداعي لتسمية هذا الحوض بهذا الاسم ظهور فتاة باسلة ام هل مدفون في جواره نبي الله بانقوس حتى

سمي بهذا الاسم ، كلا بل هو لم يضف الى بنقوس الا لأن في جواره معبداً قديماً نصرانياً علق عليه الناقوس ·

الكلمة الرابعة « المعرة » — هذه الكلمة علم على مدينة معرة النعمان : قال ياقوت في كتابه معجم البلدان لما تكلم على هذه البلدة « المعرة تأتي بمعان مختلفة وهي الشدة وكوكب في السماء دون المجرة وتلون الوجه من الغضب والمعرة في الآية معناها جناية كجناية العر وهو الجرب » اه ·

قلت لايخفى ان هذه البلدة لايوجد لها صفة تؤهلها لان يطبق عليها احد هذه المعاني ولذا ارى ان كلمة معرة سريانية الاصل محرفة عن (مَعَرْتا) فتصرف بها العرب كما تصرفوا بغيرها من الكلمات الاعجمية وان معنى هذه الكلمة المغارة سميت بذلك لوجود عدة مغارات فيها كانت معدة لاحراز ماء المطر ، وهكذا يقال في معارة (معرة) مصرين البلدة المعروفة ومعنى مصرين في السريانية (الامطار) يدل على صحة ماأراه وجود عدد عظيم من المغائر في هذه البلدة ايضاً ·

خاتمة — كل رأي ابديته في هذه المقالة ينبغي حمله على الأركان فلست اصر عليه اذا قام البرهان على خلافه اذ لا ضالة لي أنشدها سوى بيان الحقيقة ، والله يهدي الى سواء السبيل ·

كامل الغزي

عضو المجمع العلمي

—((**))—

دمشق

هل يقال فيها دمشقة ؟

« بين سيف الدولة وابن خالويه »

—*—

عقد ابن عساكر في تاريخه الكبير فصلاً ضمنه البحث (في اشتقاق تسمية دمشق وأماكن من نواحيها) وقد أحببنا ان ننقل منه النبذة التالية التي افتتح بها الفصل قال :

ودفع الي ابو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي ببغداد كتاب اشتقاق اسماء البلدان لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا اللغوي وعليه خطه فوجدت فيه :

واما دمشق فيقال انها من دَمْشَق وناقة دَمْشَق اي سريعة قال :

وصاحبي ذاتُ هِبابٍ دَمْشَقُ كأنها بعد الكلال زورق[1]

و يقال : دمشق الضرب دمشقة اذا ضرب ضرباً سريعاً خفيفاً .

أخبرنا ابوغالب احمد بن الحسن بن احمد البنا أنبأنا ابوعلي محمد بن الحسين بن الفرا . أنبأ ابو القاسم اسماعيل بن سعيد بن سويد المعدل قال : قال ابو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري أنبأنا :

«دمشق» فعلٌ من قول العرب ناقة دَمْشَق للخطو : اذا كانت خفيفة الخطو .

وذكر ابو عبد الله الحسين بن خالويه النحوي فيما قرأته بخط ابي محمد عبد الله بن الخطابي الشاعر :

---

(١) أراد الشاعر بصاحبه ناقته والهباب مصدر هبَّ السائر من انسان ودابة نشط وأسرع . فهو يصف ناقته بالدمشقة والعجلة في السير يقال دَمْشَقَ الامر اذا أتاه بالعجلة . و يفهم من التاج ان دمشق سميت من هذا لان الآمرين ببنائها كانوا يقولو. (دمشقوها) اي ابنوها بالعجلة .

كتب اليَّ سيف الدولة — لا شَكَت[1] عشرُه ، ولا شلَّت يده — يسأل عن «دمشق» : هل يقال فيها «دِمَشْقَة» ام لا ؟

فقلت :

« (دمشق) اسم هذه المدينة ، ليست عربية فيما ذكر ابن دريد ، بل هي معرّبة . »
« ولا يقال الا بغير هاء ، فأما (الدمشقة) السرعة : دمشق يدمشق دمشقة ودمشاقاً »
« اذا أسرع ، وكل سريع دمشق ، أطال الله بقاء سيدنا [2] .... »

فأعاد الرقعة وقد وقّع عليها :

« مرَّ بنا في كتاب : قال عبد الرحمن بن سهيل الجمحي ، وهو بعسكر يزيد ابن ابي سفيان عند حصارهم دمشق : »

(أبلغ ابا سفيان عنا بأننا على خير حال كان جيشٌ يكونها)
(وانا على بابي دِمَشْقَة نرتمي وقد حان من بابي دمشقة حينها)

وفي الرقعة ايضاً :

« ان الناقة السريعة يقال لها (دمشق) والمرأة السريعة اليد في العمل » .

فكتبتُ تحته :

« [3] .... ولا سيما اذا قصد بدمشق الى مدينة ، فزاد هاء ، تأكيداً »
« للتأنيث ، كما ان عقرباً مؤنثاً بغير علامة التأنيث ، والمعبّر بان ذكرها فقالوا : عقربة »
« تأكيداً ، فكذلك دمشق ودمشقة ، وذكر يونس وغيره : أُنثاة وعجوزة وفرسة[4] . »
« كل ذلك تأكيداً ، وقرأ ابن مسعود (تسع وتسعون نعجةً[5] أنثى) » .

---

(١) اي لا مرضت انامله العشر . (٢) في موضع هذه النقط من الاصل جملة محرفة هذه صورتها (بد السند وزيرام خنور بكونه فيها) .

(٣) في موضع هذه النقط من الاصل جملة محرفة ايضاً هذه صورتها (هذا حاين الشاعر يحتمل له) . (٤) يعني ان كلمات (أنثى وعجوز وفرس) مؤنثات بغير تاء لكنهم يلحقون بها التاء أحياناً لتأكيد التأنيث . (٥) يعني بزيادة كلمة «أنثى» على القراءة المشهورة مع ان كلمة «نعجة» يفهم منها الأنوثة من دون كلمة «أنثى» لكنها ألحقت بها في هذه القراءة لتأكيد التأنيث .

فبعث يستحضرني · فلما مثلت بين يديه · قلت :

« أيها الامير : رب علم كنتَ سببه · وقد استنفدناه « دمشقة » · الا انه في »
« النحو كما ذكرت · والعرب تزيد المذكر بياناً · كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : »
« (ابن لبون ذكر) وتزيد المؤنث تأكيداً مثل (نعجة أنثى) » ·

وذكر كلاماً غيره :

سمعت ابا بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الفرضي ببغداد · وكان اسيراً · وبقي ببلاد الروم مدة · ثم ان رجلاً من حكماء الروم قال له : انما سميت «دمشق» بالرومية · وان اصل اسمها « ذومسكس » اي مسك مضاعف لطيبها · لأن « ذو » للتصغير و « مسكس » هو المسك · ثم عربت فقيل (« دمشق » والله تعالى اعلم) اه ·

« المغربي »

من نوادر مخطوطات
« دار الكتب الظاهرية »
— ٤ —

(المنتظم في تاريخ الامم) : تأليف ابي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو تاريخ مفصل منذ بدء الخليقة الى زمن البعثة النبوية ، ثم منها الى خلافة المستضيء العباسي على ترتيب السنين . وفيه نبذ من الفوائد الحديثية وتراجم الملوك والاعيان . والموجود منه المجلد الخامس : من وقعة اليرموك الى خلافة علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وحوادث سنة ست وثلاثين هجرية . وقد كتب سنة ٦٥٩ هـ بقلم نسخ . (رقم ٦٢ : التاريخ)

(أخبار الاذكياء) : تأليف يوسف بن حسن بن عبدالهادي من علماء صالحية دمشق في القرن التاسع . نسخة بخط مؤلفها سنة ٨٩٤ هـ . (رقم ٦٣ التاريخ)

(الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة) : تأليف نجم الدين محمد بن بدر الدين الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ هـ وهو معجم فيه تراجم رجال عصره من علماء وأدباء وله ذيل للمؤلف نفسه سماه (لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر) نسخة كتبت بقلم عادي سنة ١١٦١ هـ . (رقم ٤١ التاريخ)

(الإغراب في أحكام الكلاب) : تأليف يوسف بن حسن بن عبد الهادي . قال مؤلفه بعد البسملة والحمدلة « وبعد فهذه نبذة يسيرة في أحكام الكلاب سميتها (الاغراب في أحكام الكلاب) » . نسخة بخط المؤلف تعسر قراءتها . كتبها سنة ٨٩٤ هـ . (رقم ١٥ : الآداب)

(اسماء الضعفاء من رجال الحديث) : لابي الفرج عبد الرحمن بن ابي الحسن علي

ابن محمد الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو كتاب في من نسب الى الكذب . ووضع الحديث ، ومن غلب على حديثه الوهم ، ومن يتهم في بعض حديثه ، مرتب على حروف المعجم ، الموجود منه نسخة تبتدئ من حرف الألف الى الغين ، وكتب في هذه النسخة انها بخط محيي الدين النووي في ١٨٤ صفحة متوسطة . (رقم ٣٦٣ الحديث)

(اللطائف من دقائق المعارف في علوم الحفاظ الأعارف) : تأليف ابي موسى محمد بن ابي بكر عمر بن ابي عيسى الاصبهاني المولود باصبهان سنة ٥٠١ هـ المتوفى سنة ٥٨١ هـ اولها (الحمد لله حمد الشاكرين الخ) أورد فيه أنواعاً لطافاً من علم الحديث لا يهتدي الى مثلها الا النحرير من الحفاظ : مثل رواية الفاروق عن الصديق : ورواية الصديق عنه . نسخة في ثمانية أجزاء عدد صفحاتها ١٦٠ كتبت بقلم عادي سنة ٧٠١هـ (رقم ٣٥٦ الحديث)

(شرح عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد) : تأليف ابي العباس احمد بن محمد جُبارة المرادي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وهو مجلد في ٣٥٨ صفحة بقطع الوسط بخط محمد عبد المولى الحنبلي البصلي ، كتبها سنة ٦٩٨ هـ في مدينة بعلبك ، وقد قوبلت على نسخة المؤلف . (رقم ١٧ : قراآت)

حسني الكسم

مطبوعات حديثة

—«»—

معجم اسماء النبات

« تأليف الدكتور احمد عيسى بك عضو المجمع العلمي العربي بدمشق »
« واللجنة العليا لدار الكتب الملكية في القاهرة والمعهد العلمي المصري ، طبع »
« بالمطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ۱۹۳۰ م في نحو ۳۰۰ صفحة من القطع »
« الكبير »

اذا كانت قيمة الكتب بالجهود التي تبذل في تصنيفها فهذا المعجم يعد كتاب السنة بل كتاب اكثر من سنة . فان ذكر بضعة آلاف من اسماء النبات بالعربية مع مقابلها باللاتينية ومقابل عدد منها بالفرنسية والانكليزية امر يحتاج الى علم واسع بالنباتات والى بذل جهود عظيمة لتحري الصحيح من الألفاظ العربية التي وردت في كتب الأجانب النباتية ككتاب بوست وشوينفورث وفورسكال وغيرهم . ولقد تصفحت المعجم وفتشت عن كثير من الألفاظ فيه فألفيته أجود ماوضع في هذا الصدد حتى الآن وأتمه ، والفيت المؤلف الفاضل راجع جميع ما يمكن الوصول اليه من المآخذ العربية والأعجمية ودوّن مافيها بدقة تامة على شكل يسهل معه مراجعة الألفاظ في اي لغة كانت من اللغات الاربع وهي اللاتينية والعربية والفرنسية والانكليزية . اما الطبع فهو ممتع جداً ولله درّ القائمين باعمال المطبعة الاميرية المصرية على مايتحفوننا به بين حين وآخر .

وقد رأيت من المفيد ان ألفت نظر العلامة صاحب المعجم الى ما يلي وهو :

اولاً — لم أجد في المعجم كثيراً من الأزهار والرياحين واشجار التزيين وهي عدد عظيم مثل (Passiflora Cœrulea) وهو نبات معرش معروف يسمونه في دمشق نبات الساعة لانهم يشبهون زهرته بالساعة و (Dahlia) وقد عربوه في دمشق بلفظة

أضاليا وأزهاره في الخريف مشهورة وشجر (Cazuarina) وهو خيطي الورق سريع النبات عرب بحرف كزورينا الى عشرات غيرها · وقد يكون عذر المؤلف في اهمال هذه النباتات كون معظمها تعد نباتات اجنبية نقلت حديثًا الى بلادنا وليس لها اسماء عربية ولكنني أرى ان هذه الملحوظة لا تحول دون اثباتها في المعجم كما أثبتت أمثالها (شجر الاوكالبيتوس وغيره) · ثم ان لهذه النباتات شهرة تجعل ذكرها امراً ضرورياً في معجم كهذا وان كان لا يتناول غير اسماء النبات ·

ثانياً · — لا يزال في المخصص وغيره عدد لا يستهان به من اسماء النبات لم أجدها في معجم الدكتور المحترم مثل الغُذَّام والحَيَّهَل والسُّلَّج والعَبَاقِيَة والأُسْحُمَان الخ فعساه يتمكن من معرفة اسمائها العلمية وان كان ذلك امراً صعباً ·

ثالثاً · — شاهدت في بعض انحاء لبنان كمبين زحلة ومابين يرمانا وضهور الشوير وعلى ضفاف (البردوني) في زحلة شجرة تسمى باللاتينية (Alnus) و بالفرنسية (Aulne) ويسميها اللبنانيون النغث والنغط والمغث وهي الفاظ لم أجدها في الامهات · وقد ذكر بوست هذه الشجرة في كتابه اما صاحب معجم اسماء النبات فلم يذكرها ·

رابعاً · — قال ان السوريين يسمون النبات (Gundelia Tournefortii) العَكُوب والكَعُوب مع اننا لم نسمع بغير العَكُّوب بتشديد الكاف · وقال اننا في الشام نسمي النبات (Prunier) الإنجاص مع اننا نسميه الخوخ ويسميه المصريون البرقوق · ولم نسمع بلفظة انجاص ، اما لفظة انجاص بالصاد فلا نطلقها على غير الكمثرى (Poirier) كما أورده · واما ما يسميه المصريون الخوخ اي (Pècher) فاننا نسميه الدراق والدراقن ·

وذكر ان مانسميه في الشام اسكي دنيا و بني دنيا هو الشجر المسمى (Mespilus germanica) و بالفرنسية (Néflier) على حين ان الشجر الذي نطلق عليه الألفاظ المذكورة وخاصةً لفظ ابكي دنيا هو الشجر المسمى (Eriobotria japonica) دون غيره و بالفرنسية (Neflier du Japon, Bibassier) ·

خامساً · — جمع حضرة المؤلف عمداً جميع الألفاظ التي رأى ان العرب يطلقونها على النبات الواحد مع ان من هذه الالفاظ ما اشتهر بكونه يدل على نبات آخر · وهذه

الطريقة لاتخلو من سيئات مثاله انه أورد مقابل النبات المسمى (Vicia Ervilia) ١٣ لفظة منها الكرسنة والبيقية والقرصعنة ، فالكرسنة هي اللفظة الوحيدة التي يُعرف النبات المذكور بها في الشام وفي معظم البلاد العربية (وهو من القطاني المشهورة) اما لفظة البيقية فالشاميون كافةً لا يطلقونها الا على النبات الزرعي المعروف المسمى (Vicia Sativa) ·

(ومن الغريب ان المؤلف لم يذكر لفظة بقية وبيقة مقابل هذا الاسم اللاتيني) · واما لفظة قرصعنة فنحن لانطلقها اليوم الا على النبات المسمى (Eryngium Creticum) وهو من البقول البرية · فيتضح من ذلك ان طالب العلم اذا قرأ في كتاب زراعي فرنسي عن نبات (Ers ervilier) مثلاً وفتش عما يقابله بالعربية في المعجم يضيع بين اللفظات الثلاث المذكورة لان كلاً منها لا تستعمل (في الشام على الاقل) الا لنبات واحد من النباتات الثلاثة ·

ولا شك ان الدكتور هو أجدر من يدرك اضرار تعدد المعاني في اللفظ الواحد ولا سيما في موضوع علمي كهذا اذ لا يجوز ان تتناول اللفظة غير نبات بعينه لكن المؤلف الفاضل تعمد كما يفهم من مقدمة المعجم ذكر جميع مدلولات اللفظة الواحدة لتكون الالفاظ مرجعاً لعلماء المستقبل الذين سيعهد اليهم تخصيص المعنى الواحد بكلمة واحدة ·

وبعد فان معجم العلامة احمد عيسى بك « الذي يظهر انه يشتغل بتواضع وبلا ضوضاء كما يقول الاوربيون لا كالذين يملأون الدنيا ضجيجاً لأتفه تصنيف » هو عمل خالد · ومتى قدر لهذه الامة ان يجتمع علماؤها في مجمع علمي مشترك (وهذا لايكون الا في مصر على ما أرى) لوضع معجم في العلوم أعجمي عربي تقره الدول العربية ، فان خير أساس يمكنهم ان يبنوا عليه من حيث اسماء النبات هو هذا المعجم ·

مصطفى الشهابي

القبائل الرحالة والنصف رحالة

« في دول الانتداب الافرنسي في الشرق »

طبع في بيروت سنة ١٩٣٠ م في مطبعة جان دارك ص ٢٦١ بالافرنسية

Les tribus nomades & semi - ncmades des états du Levnt placés sous mandat français. Beyrouth juillet 1930

هذا كتاب نشرته دائرة الاستخبارات في المفوضية العليا في سورية ولبنان . وفيه مختصر ممتع في تاريخ القبائل الرحالة في سورية ، ووصف القبيلة وما يتنوع منها والمشايخ والعادات والأخلاق والمنازل والأمواه ، وما له اتصال بالبدوي وما يعمل لتحضيره ، ووصف مطول لما يجب ان يعرف من حال القبائل في الشمال والجنوب ، ومن ينزل من هذا الصنف من الناس في سورية وجمهورية لبنان وبلاد اللاذقية وجبل الدروز ، وجداول في أنساب المشهورين من الرحالة والنصف رحالة .

وقد جاء فيه ان قبيلتي عنزة وشمر هما الآن في اول سلم التحضر ، اي رحالة من الطراز الاول ، اما الموالي والحديديون والنعيم فهم في المرحلة الثانية من التحضر ، وعرب السلوط والفضل ، وان نزلوا تحت الخيام ، فهم عرب متحضرون مقيمون ، وان حب الغزو متأصل في نفوس هاته القبائل العربية منذ اكثر من الف سنة قبل المسيح لذلك اطلق المصريون القدماء على القبائل التي غزت شرقي السويس اسم اللصوص (سوزو) او النهابين ومنه اشتق اليونان اسم (هكسوس) الذي اطلقوه على الملوك الرعاة الذين خلصوا الى مصر وغزوها قبل ثلاثة آلاف سنة .

وجاء في هذا الكتاب انه بذل من العناية لتحضير هؤلاء البدو واسكانهم في عشر سنين ، ما تكلل بالنجاح على صورة لم يجر التوفيق الى ايجاد مثله في قرون ، وان جزيرة العرب تقذف كل مئتي سنة الى البلاد العامرة في الشام والعراق ، بموجات من القبائل تزحزح سكانها المقيمين فيها لتنازعهم ارضهم ومراعيهم ومياههم الخ . وحبذا لو تعلقت همة احد الادباء لنقل هذا المبحث الجليل الى اللغة العربية ، فالقبائل البدوية في الشام نحو خمس السكان ، ومن العدل ان ينظر في حال هذا الجزء العظيم ، وبدون تحضيره لا تقوم للعمران عندنا قائمة .

م . ك

مختصر في القضاء البدوي

« تأليف السيد تربيه طبع على الآلة الكاتبة ص ٧٩ »

Commandaut Zerrier : Essai de législation bédouine

وهذا من منشورات المفوضية العليـا ايضًا ، كتبه الاستاذ تربيه من ضباط الجيش الافرنسي بعد ان قضى سنين طويلة مع البدو في بوادي الشام وحواضرها ، واطلع على أحوالهم اطلاعًا كافيًا ، فكتب هذا المختصر في الشرع الذي يشرعه العربان لانفسهم ، وما اصطلحوا عليه في هذا الباب ، وفيه آثار العطف عليهم ، والعناية بشأنهم . وقد ختم هذه الحلة القضائيـة البدوية بقوله : « يجب علينا ان نعامل البدو باحكام تتفق مع مداركهم بدون ضعف ولا شدة . وهذه احسن طريقة لنتألفهم ونقربهم منا ، وهم كذلك منذ الآن الا قليلاً » . وهذا ايضًا مما يجب نقله الى لغتنـا ليكون منه ومما كتبه بعض السور بين والفرنج في الموضوع مادة جاهزة تنفع كلما أريد البحث في شؤون بوادينا ، للتلطف في ادخال الحضارة عليهم على نحو ماتجري عليه الحكومة المنتدبة في تأليف شاردهم وإلانة شرتهم .
م · ك

تهافت التهافت لابن رشد

« نشره الاب موريس بويج (Bouyges) اليسوعي وطبعه في المطبعة »
« الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٣٠ ص ٦٧٩ »

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المكتبة الفلسفية (السكولاستيكية) التي اخذ الاستاذ بويج على نفسه نشرها والتعليق عليها ، على أسلوب علمي حديث (مجلة المجمع العلمي العربي ص١٢٤ م ٨) وتهافت التهافت لفيلسوف الاسلام ابن رشد مشهور معروف ، طبع طبعات غير متقنة ، وطبعه الناشر طبعة علمية جميلة ، وعلق عليه تعليقات دلت على تمكنه من اسرار موضوعه ، وكنا نود لو كانت تعليقاته باللغة العربية فقط ، لان الكتاب اذا أريد من نشره نفع المستعربين من علماء المشرقيات ، فهم يحسنون العربيـة ، واذا كان القصد منه قراء الفرنجة على الاطلاق ، فهؤلاء ليسوا من العربية على شيء ، ويحتاجون

قبل كل امر الى نقل النص الاصلي الى لسان عربي . وعلى كل فالشكر لناشر هذا السفر الممتع ، وعسى ان يقتدي الطابعون بل الناشرون والمؤلفون منـا بهذا المثال وغيره من كتبنا المنشورة ، فقد قلّ الاتقان عندنا في نشر ماننشره ففرطنا ، وكاد اتقان الغربيين في هذا الباب يعدّ افراطاً .

م . ك

تاريخ سوريا

« قبل الفتح الاسلامي »

تأليف السيد امين خليفة (ب . ع) طبع في مطبعة الدائرة الاستعدادية في الجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٣٠ ص ٢٧٦

هذا مختصر منسق في الدول التي تعاقبت الحكم على الشام قبل الاسلام ، وقد قال مؤلفه انه استند في وضع كتابه على مؤلفات شتى انكليزية وافرنسية وعربية لاشهر المؤرخين كبراستيد وهوار ولامنس وحتي و باتن ومسبرو ورولنصن وبيفن وومومصن وبوشير وغيرهم . ومنهم من لا يعدّ في المؤرخين الا تجوزاً وبكثير من التعسف . وقبل ان نشر المؤلف كتابه كان القاه على تلاميذه فرأى ان يضم الآن شتاته و ينشره سفراً للناس ، وكنا نود لو خلت عبارة المؤلف من الفاظ وتعبيرات ليست من الفصاحة العربية في شيء . وهذا مما عمت به البلوى ، ولا يزال كثير ممن يمسكون القلم ليؤلفوا من السور بين يستعملونها فتنبو عن مصطلح البلغاء ، مع كثرة التنبيه الى ركاكتها وغثاثتها في المجلات والكتب التي ألفت في نقد مصطلحات كتاب العصر . مثال ذلك انه عنن لاحد الفصول (ص ١٦٨) بقوله : « من هالك الى مالك الى قبـاض الأرواح » . وقال : (ص ٢٧١) « وذهب فضلهم على الأدب الروماني بين حانا ومانا » . هذا الى غير ذلك من الاخطاء اللفظية التي يجب اطراحها بتاتاً في قاعات التدريس ومنابر الخطابة وتأليف الكتب ومناشير الصحافة .

م . ك

كتاب البدع والنهي عنها

« تأليف الامام محمد بن وضاح نشره محمد دهمان في زهاء مئة صفحة وطبع »
« في مطبعة الاعتدال بدمشق عام ١٣٤٩ هـ »

اكثر الشارع (ص) من الوصية بحفظ الدين من البدع وحض اتباعه على النهي عنها وتمييز غثها من سمينها ، ولكن دخول أناس من غير العرب في الاسلام كان من اكبر الاسباب في فشو البدع فيه : اذ كانت هذه العناصر تحمل الى الاسلام تقاليد وآراء وأعمالاً لا تلائم روحه الطاهرة ولا تعاليمه البريئة ·

وقد تصدى لانكار هذه البدع والنهي عنها العلماء الأعلام أمثال ابن الجوزي في تلبيس ابليس وابن حجر في الصواعق وابن الحاج الفاسي في (المدخل) وابي شامة والطرطوشي والشاطبي وغيرهم · وأشد هذه البدع تغلغلاً في الدين البدع التي يشتبه امرها و يكون لها شبه اتصال بشرائع الاسلام وآدابه كاجتماع الطائفة الصوفية على الذكر والسماع والرقص وضرب السلاح وغير ذلك مما يقف المصلح أزاءه وقفة عواجز: فان نهيه عنه يشبه النهي عن ذكر الله وتمييز هذا من ذلك من أشق الامور على العلماء الآمرين الناهين · وأشهر هؤلاء العلماء بل ربما كان أسبقهم الى وضع تصنيف في النهي عن البدع هو الامام محمد بن وضاح القرطبي الاندلسي في كتابه الذي سماه (البدع والنهي عنها) وقد ظفر بنسخة من هذا الكتاب الشاب الصالح الشيخ محمد أحمد دهمان الدمشقي لكنه وجد فيها تصحيفاً وتحريفاً كثيراً فلبث بضع سنين ينتظر ان يظفر بنسخة ثانية من الكتاب يعارض نسخته بها فلم يتيسر له ذلك ، وفي آخر الامر عكف عليها بنفسه يصححها و يقوم اعوجاجها و يخرّج أحاديثها و يعلق عليها تعاليق تلقي عليها نوراً يكشف غموضها و يزيل الابهام عنها · فكانت لنا من هذا الكتاب نسخة متقنة الوضع والطبع ، جزاه الله عن العلم والدين خير الجزاء · «المغربي»

مقبرة الرجال

— او —

« مساوئ الدعارة في نظر العقل والعلم »

هو عنوان لمحاضرة قيمة عظيمة المنفعة في مساوئ الدعارة القاها بمصر احد كبار رجال الكهنوت وقد دعمها فيها خلا النظريات الفلسفية والاجتماعية بطائفة من البراهين العلمية واقوال كبار اساتذة الطب . ثم الحّ عليه الكثيرون من اصدقائه بان يفرغها في قالب الطبع ليعم النفع من نشرها فأجاب رغبتهم ولكنه طبعها تحت اسم مستعار (الدكتور فرج انطون) وهذا الاسم المنتحل يقرب من اسمه الحقيقي حتى لا يغيب عن عارفيه ومريديه ولا تفوت منفعته الاباعد فانه انما ابتغى به النفع العام لا الشهرة الذاتية ، ولا يجد فيه محبو الانتقاد الباطل مادة لتسميم السنتهم ونفث هذا السم في المجتمعات . فالمؤلف من أساتذة الدين ويزعم الجهال وصغيرو العقول عندنا ان رجال الدين لا يجب ان يطرقوا الا المواضيع الدينية وان امثال موضوع هذه المحاضرة سافلة في عرفهم يجب ان يترفع عن البحث فيها اي رجل دين فضلاً عن كبير من اساتذة الدين .

وقد ملأت هذه المحاضرة النافعة كتيباً بقطع الثمن ذا ثلاث وستين صفحة كلها حكم ونصائح للشبان الذين يلازمون الخلاعة والفساد كتبت بلغة عربية فصحى ، واهديت الى خير من يهمه هذا الموضوع والى الشبيبة الراقية .

عبد الله رعد
عضو المجمع العلمي

المجلد الحادي عشر الجزء ٣ و ٤

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

آذار — نيسان

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي	في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً	وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

حياة العلامة احمد تيمور باشا [1]

« ذكريات شخصية »

مبدأ التعارف ونشأته وأخلاقه

لما هبطتُ مصر اول مرة في سنة ١٩٠١ أرادني احد أصدقائي وأظنه الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار على ان أزور احمد تيمور بك وقال ان في بيته اليوم اجتماعاً يضم شيخنا الامام الشيخ محمد عبده وجماعته فبادرت شاكراً له دلالته ، فدخلنا داراً قوراء على الطراز القديم من البناء ، وكان في الجلسة طائفة من العلماء والادباء ، ومنهم فيما أذكر حسن باشا عاصم وقاسم بك امين وفتحي باشا زغلول والشيخ عبد العزيز شاويش والشيخ محمد المهدي والشيخ حسن منصور والشيخ احمد الاسكندري . ولا أذكر ان كان في الجمع يومئذ سعد باشا زغلول وحفني بك ناصف واسماعيل باشا صبري ومحمود سامي باشا البارودي وعلي بك بهجت واسماعيل بك رأفت وعبد العزيز بك محمد والسيد محمد البيلاوي وحافظ بك ابراهيم والشيخ احمد ابراهيم والشيخ عبد الوهاب النجار فان الجمع ما كان يقل عن عشرين رجلاً . وهؤلاء كانوا من حلقة الاستاذ الامام ومن أصدقاء احمد تيمور بك .

تجلت لي يومئذ ظاهرة من ظواهر عظمة مصر بعظماء رجالها ، ورأيت عطفاً على غريب صعلوك شاب اكبرت معه بما شهدت تناهي المصريين في التأدب والرقة ، خصوصاً اذا كانوا من هذا الطراز الممتاز . ولقيت ذاك اليوم من أدب صاحب الدار ما بهرني فانعقدت بيننا اواخي الاخاء . وهذا المجلس كان المرحلة الاولى التي فتحت أمامي الدخول في المجتمع المصري ، وتشرفت بعشرة هذه الطبقة المختارة . رحم الله من سبقونا الى الدار

---

(١) محاضرة الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي القاها في غرفة المجمع في هذا الشهر .

الآخرة ومد في أعمار الاحياء منهم . غدوت منذ ذاك اليوم أحرص على الاجتماع باحمد تيمور ورعيله والاخذ عنهم ، وانشأت أكثر سوادهم لاني استطبت عشرتهم .

وكان تيمور في ذاك الحين يقرأ على الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي امام اللغة في عصره . وقال لي هذا مرة انه لم ير في مصر من يفهم كلام العرب مثل الشيخ محمد عبده واحمد بك تيمور ، وذكر شخصاً آخر أنسيته . وكان تيمور تخرج في صباه في دار ابيه باستاذه الشيخ رضوان الخلالاتي ولازم أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلسوف الازهر وشيخ شيوخها مدة طويلة ، فأخذ عنه العلوم الدينية والعقلية والادبية . واتصل بعد ذلك بعلماء عصره كالشيخ العدوي والشيخ الموريني والشيخ الحسيني ثم موخراً بالشيخ طاهر الجزائري . ولكثرة مااستهوى قلبه حب الشيخ محمد عبده ابتاع بجواره في عين شمس داراً بحديقة جميلة ونقل اليها من العاصمة خزانة كتبه ولازمه ملازمة المستفيد المغتبط .

وما زالت الصداقة تزيد بيني وبين احمد تيمور حتى كانت السنة التي أنشأت فيها مجلة المقتبس في القاهرة غرة المحرم سنة ١٣٢٤ . وكنت ازداد إعجاباً بما أرى من اخلاقه وحرصه على الاستفادة من مجلس الامام محمد عبده واللغوي الشنقيطي وأضرابهما ، ممن يغشون مجلسه او يغشى مجالسهم وأحس منه عزوفاً حتى عن بعض المشهورين ، وتحرزاً من مخالطة من لا يعرف ماضيه وحاضره . فكان وهو في تلك الحقبة من حياته بعيداً عن القوم قريباً منهم ، يهتم لسعادة أصحابه ويرمضه اذا نزلت بهم نازلة ، وينبسط مع خاصته تبسطاً ما خرج فيه يوماً عن حدود الأدب والفكاهة ، وما تعدى حواره البحث عن ما في الكتب مطبوعها ومخطوطها والنظر فيما يعلي شأن الاسلام والعرب . واخذ قبيل ذاك العهد يكتب آراءه وابحاثه في جريدتي المؤيد والاهرام ومجلات المقتطف والضياء والهلال والمقتبس ثم السلفية والآثار والزهراء وغيرها . والغالب انه كان يكتب في المناسبات او متى أريد على معالجة موضوع غامض يحتاج الى درس ، او يعرض ما عنده من المواد المهمة التي يستعان بها على ظهور الحقيقة .

وكان لاول عهدي به لا يبين رأيه في بعض معاصريه ، وان كان منهم لا تروقه حركاته وأفكاره ، هذا وهو على يقين من ان بعض الازهريين كانوا منذ اخذت تعظم شهرته ، يحسدونه ويصغرون من شأنه . ومنهم من كان يعده في الجهلاء لان احمد تيمور

على غناه وشرف بيته لا يهنأ له عيش الا اذا أنفق ماله على العلم وعلى المعوزين من المساتير. وما عدا ذلك من أبواب النفقات ليس له فصل في موازنة بيته ، بل كان عيشه في الحقيقة عيش اهل الطبقة الوسطى ، مع ان ما أوتيه من اليسار كان يتأتى له به ان ينفقه في ضروب من البذخ والرفاهية ، يسمو به الى محاكاة الطبقات التي تماثله بغناه في القطر المصري .

قلت انه كان ينفق على المساتير وربما كاد اقتصاده يعد امساكاً في نظر بعض من لا يعرفون للمال قيمة (مجلة المجمع العلمي م ٤ ص ٢٤١) ولا يحكمون على ارباب المروآت الا بما يبدو من مظاهرهم وظواهرهم . فكان مايرى به حسداً ولؤماً يترامى الى سمعه فيبتسم ولا يفوه بكلمة . غبرت ايام وأعوام ثبت بعدها من طريق احد المفضل عليهم انه كان يدر المشاهرات على بيوت كثيرة في مصر ، قعد الدهر بأربابها فأعجزهم عن الكسب . فكان يرسل اليهم على رأس كل شهر مع احد مستخدمي دائرته ما يقوم بنفقتهم سراً ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه اذاعة ماتجود به نفسه ، فيتكتم بحسناته جداً التكتم ، وقد اخذ العهود على من يحسن اليهم ان لا يذيعوا له سراً . ولما اشتهر امر صدقاته شق عليه ذلك فتظاهر بان أطيانه أصبحت لا تعطيه الريع الذي كان يأتيه منها وانه في ضائقة من المال اضطرته الى تخفيف نفقاته . وبعد مدة أصبح هؤلاء الذين عاشوا زمناً بنعمته يتناولون من المصرف حوالات مالية تأتي بأسمائهم وهم لا يعرفون مصدرها بل ان المصرف ذاته لا يعرف حقيقة مرسلها . فتأمل بربك هذه النفس الكريمة المسلة وهذه الأخلاق التي لا تشهد مثلها في مئة غني من اغنياء زماننا .

حقيقة ان وجه الغرابة في تربية مترجمنا هو انه اخذ من العلم أقصى ما يمكن اخذه لمن كان في أصالة بيته ، فأتقن من اللغات العربية والافرنسية ، وهذه درسها في مدرسة (مارسيل) مدرسة أبناء الاعيان خمس سنين ، وتلقف الفارسية والتركية على أساتذة خصوصيين ، ونشأ يتيماً في حجر أخته المرحومة عائشة عصمت التيمورية الشاعرة الاديبة المشهورة فجاء منه مع هذا الغنى رجل علم ورحمة وقصد وتدين وعزوف عن المظاهر والاشتغال فيما ينفع . ولو أراد لاول امره على ما لابيه وجده من المنزلة عند الأسرة المالكة ان يدخل في المناصب الحكومية لخطبته الوزارات ، ولما تخطته الرئاسات والزعامات .

ولكن كان نبوغه ينحصر في دائرة خاصة ولا تنبعث مواهبه العلمية الانبعاث الذي قدر لها باشتغاله في جو هادئ لا تكدر صفوه مشاغب الاحزاب ولا متاعب السياسة واهواؤها فاقتصد من وقته في هذه الناحية . وشغله طول عمره في ملاذ روحية من مطالعة و بحث وتأليف قل ان تتاح لكثير ممن شغفوا بالعلم ، وحاولوا استثماره لفائدته ولذته لا لمقصد آخر .

قلت كانت لابيه وجده المنزلة العليا عندالأسرة العلوية . جاء جده احمد مع جد شاعر العصر احمد شوقي بك الى مصر ، وكانا من ابناء الاكراد ، وجد مترجمنا من مدينة الموصل ، ارسلهما والي عكا الى محمدعلي الكبير واوصاه بهما خيراً قائلا ان النجابة بادية عليهما وانهما سيبلوان البلاء الحسن في خدمة الدولة المصرية ، فعين جد مترجمنا في وظائف انتهت به ان عد في آخر امره من قواد محمد علي ، كان ابنه من بعده رئيس الديوان الخديوي . وخلف اطياناً كان ما اصاب المترجم منها مع ماابتاعه بأخرة من بقية الورثة نحو ثلاثة آلاف فدان ، وكان يتعهدها احسن تعهد ولا تعوقه عن طلب العلم بل تساعده على اتمام رغائبه منه . وكم من ابناء الاعيان امثاله من اورثهم آباؤهم الوف الافدنة فلم يحسنوا استغلالها ، وانفقوها بسوء تربيتهم في شهواتهم واسرافهم او ضاربوا فاستدانوا فافتقروا . اما هو فخالف جمهرة جيله فكان بالتربية الاسلامية العالية التي لقنها في صباه غنياً بماله ، غنياً بعلمه ، غنياً بتدبيره وعقله . تجردت نفسه الكريمة عن المطامع ، ومع هذا اقبلت عليه الدنيا من طريقها المشروع المعقول .

غرامه بالكتب واحتفاله بجمعها

عرفنا بما تقدم ان بيت تيمور كان بيت علم وفضائل ومجد تليد طريف . فلما نشأ عاله هذه النشأة الطيبة ، رأى في داره خزانة كتب صغيرة لم تشبع نهمته العلمية فقام في نفسه منذ سنة ١٨٨٩ ان يقتني من المخطوطات والمطبوعات ما يتلاءم موضوعه مع ما غلب عليه من العلوم ، وما يزال ينفق على اقتناء مجموعاته عن سعة وهو يطالعها و يعلق عليها ويخدمها بالفهارس والحواشي حتى تألف منها قبيل وفاته خزانة كتب تقدر بنحو ثلاثة عشر الف مجلد ، عدا الصور التاريخية والآلات الفلكية ومحابر واقلام كانت لبعض

المشاهير ونحو نصف خزانته مخطوط او مصور بالتصوير الجديد · وقد وضع لمخطوطاته قائمة جليلة كانت مرجعاً لكل طالب وطابع وناشر من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وقلما كان يضن بها على احد ، يعيرها حتى الى البلاد البعيدة ، فاشتهرت في الشرق والغرب ، وعُدت بحق اهم خزانة خاصة في بلاد المشرق لغناها بمخطوطاتها النادرة ، ومنها عشرات من الكتب كتبت بخط مؤلفيها او قرأ فيها اعلام من رجال السلف او قرئت عليهم ،علقوا عليها واجازوها ·

أتيح لي ان اصف هذه الخزانة التيمورية في سنة ١٣٣٠ ﻫ وكانت اذذاك نحو ثمانية آلاف مجلد · وكان صاحبها دعاني مع أستاذي العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري الى زيارتها في عزبته في قويسنا من عمل مديرية المنوفية في الدلتا وهي احدى مزارعه كان يؤثرها على غيرها لان اباه وامه كانا يحبان المقام في قصرها و ينزلان فيها اياماً معدودة من كل سنة · ذلك ان احمد تيمور اسودت العاصمة في وجهه بعد وفاة شيخه وصديقه الشيخ محمد عبده وزهد بعده بالدار التي كان اقتناها فى جواره فرأى ان ينقل خزانته من عين شمس وحملها الى قويسنا ورتبها في خزائنها احسن ترتيب فكان يفزع اليها كل حين ليطالع و يؤلف ·

ولقد قضينا في ضيافته ثلاثة ايام كان خلالها يقرأ علينا اسماء الكتب المخطوطة وأستاذنا الجزائري يتولى الترجيح في اختيار الاندر فالاندر ، فوصفت الخزانة اذ ذاك في احدى وعشرين صفحة في المجلد السابع من مجلة المقتبس · ولقد قلت له يومئذ ان وجود الخزانة في داره بقويسنا لا يؤمن عليها من الحريق ، لان الدار متلاصقة مع بيوت الفلاحين ، والفلاحون يضعون الخوص والعيدان على سطوح بيوتهم ، فاذا سرت النار الى بيت من البيوت لا تلبث المزنة وما اليها ان تحرق في ساعة · وفي ذلك من الخسارة على العلم ما فيه · فاجابني ان في نيته ان يعمر لها داراً في مصر ينقلها اليها ، وغبرت مدة واشترى ارضاً في الزمالك احد الاحياء الجديدة في القاهرة وعمرها ونقل الخزانة اليها بعد سنة ١٣٤٠ وكتب (في ٢ يونيه ١٩٢٣) يقول: « ان الخزانة رتبت والحمدلله ولم يبق الا عمل فهرس جديد لها على الطراز الحديث في الخزانات ولابد لها من ثلاثة فهارس فني ومعجمي وآخر لاسماء المؤلفين فأرجو ان يوفقني الله لمن يقوم بعمله لان أشتغالي به سيعطلني عما بيدي ·» ثم وقفها ووقف عليها بعض اطيان تقوم بنفقاتها ، وجد واي جد في ابتياع

ما ينقص مجموعته في كل علم من المطبوعات والمخطوطات ، وربما لا يقل ما انفق عليهما عن مئة الف جنيه ، ثم نزل عنهـا للامة المصرية الكريمة بل للعـلم العربي الاسلامي فأعظم بها من مأثرة ..

سعة علمه التي جعلته مرجعاً

توطدت صلات الحب والتشاكل في وحدة المقصد في سني ١٩٠٦و٧و٨ بعد نشري مجلة المقتبس فكان يؤازرني فيها ، ويعيرني كثيراً من مخطوطات خزانته أكتب في وصفها في المجلة ، فلما رحلت عن مصر الى دمشق في آخر سنة ١٩٠٨ بعد انشاء الدستور العثماني استعضنا عن المسامرة والمذاكرة ، بالمراسلة والمخابرة ، ولم تكد تنقطع رسائله او رسائلي مدة قصيرة الا لمعذرة كمدة الحرب العالمية الكبرى ، وقد انقطعت المواصلات بين مصر والشـام اربع سنين . وجدت في اضبارة خاصة برسائله الي مئة واربعين رسالة عدا ما أرسله باسمي الى المجمع العلمي العربي مبـاشرة منذ أواخر سنة ١٩١٩ . ومجموعة رسائله خلاصة علم ودرس وبحث عن المفقود او الموجود من المخطوطات ومنها مشاكل في اللغة والأدب والتاريخ .

ولقد كنت منذ توطدت بيننـا أواصر الصداقة التي زادها تمكيناً وجود أستاذي الشيخ طاهر الجزائري في القاهرة مدة ثلاث عشرة سنة وكان هو على اتصال وثيق به بعده أعزّ عزيز عليـه بعد شيخه الامام محمد عبده — اذا عرض لي او لبعض أعضـاء المجمع اشكال لغوي او تاريخي او أحببت ان أعرف كتاباً في موضوع يهمني البحث عنه لا أجد من يشفي غلتي خصوصاً بعد فقد أستاذنا الجزائري غير المرحوم احمد تيمور . ومجموعة كتبه التي تؤلف مجلداً مفيداً جداً في هذه الابحاث . ولاسيما ما كان منها ذا علاقة باسفار القدماء من الأسلاف فهو في هذا الموضوع المفرد العلم والصدر المقدم والبحاثة الواسع المادة ، البعيد النظر ، الصحيح الاستنتاج والاستقراء . ساعدته على ذلك جودة ذاكرته وتقييده في دفاتره كل ما يعثر عليه في الكتب التي يقتنيها ويصنف لها الفهارس التي تقرب منال الاخذ منها على أحدث طراز في هذا الباب .

رأيت كثيرين من غلاة الكتب من الشرقيين والغربيين وقلّ ان عرفت مثله من

اذا تكلم في الكتب كان كلامه عن ذوق وتحقيق - وذلك لانه يطالع كثيراً ويقيد كل ما يظفر به ولا ينسى ويحسن الاختيار ويجوّد النقد . وقد كتبت له عامة أسباب النجاح في هذا الباب لانه عالم يُعنى بتمهد عمله بالتنمية كل يوم ويجمع الكتب ويحرص على اقتناء نوادرها خصوصاً ، ويغلي لها الثمن معتقداً انها هي الكنز الثمين . وكان اذا صارت الاسفار الى ملكه لا يلقيها كما يلقيها اكثر هواة الاسفار و يبرد شوقهم اليها بمجرد تقليب صفحاتها والالمام بمضامينها او بمجرد انتقالها الى خزائنهم فقط فتراهم يرجئون النظر فيها اذا ملكوها لتشاغلهم بامر آخر او لانهم ممن يهوون حجمها وشكلها و يزهدون بما في بطونها . اما هو فيشرع حالاً بدرس مايقتنيه ويتناولها باليمنى فرحاً بمقدمها ، مقدساً لعمل مؤلفها مغتبطاً باقتنائها يحملها بالتجلة ويودعها قمطره بالاعظام ، ولا يزال بها حتى يحفيها درساً بالفاظها ومعانيها . ولطالما هنأني على ما كنت أظفر به من نوادر المطبوعات والمخطوطات كأنني ولد لي مولود او أظفرني حسن الطالع بعزيز مفقود . وفي العادة ان يضن غلاة الكتب بكتبهم اما هو فقد تعوّد بسط الكف فيها لان غايته منها نشر العلم وإحياء آثار السلف . كتب الي مرة (٢٩ جمادى الثانية ١٣٤٢) يقول : « نقلت لك ترجمة الصدر الآمدي من مخطوطين نادرين عندي ولا يبعد ان يكون السخاوي ترجمه ايضاً في الضوء ولست على يقين من ذلك لان نسختي استعارها احد الاصحاب من ثلاث سنوات ولم تزل عنده ولا يريد ردها وكلما احتجت الى الكشف عن ترجمة أذهب الي عنده واكشف عنها . » فتأمل هذا الشغف بنشر العلم وهذا اللطف حتى مع المتساهلين في رد الكتب الى أربابها ، وقد تكون مما لا يقع عليه ثمن .

مثال من تهذيبه

لما صح عزمي على نشر كتابي « خطط الشام » كان يبعث الي في البريد بالنوادر من المخطوطات التي أطلبها او لا اطلبها ، عساني اظفر فيها بجمل تدخل في موضوعاتي ، وكنت أعيدها الى مصر في البريد المضمون ، ولا ترتاح النفس الا اذا اخذت علماً منه بوصولها ، فاسدى بذلك الي يداً لا تنسى على وجه الزمان ، ومنها ما كان ينسخه بالتصوير الابيض على الاسود ويرسلها هدية الى المجمع العلمي العربي وكثير مما في خزانة المجمع من هذه

النوادر المصورة هو من هدايا احمد تيمور ، ولطالما اهدى اصحابه ومن يعملون لمصلحة عامة اشياء من هذا القبيل ولم تؤسس في الشرق العربي خزانة كتب الا كانت هداياه اليها اول الهدايا . لا يضن في هذه السبيل بعشرات الجنيهات اذا ايقن من ورائها خدمة للمسلمين والعرب .

ولما تم تأليف الخطط وقد خدمه بعلمه ومادياته وشعر بانني اريد ان اقدمه اليه عرفاناً لجميله تأفف وتنصل وحاول ان يقنعني بالعدول عن قصدي ومما كتبه اليَّ في هذا الشأن (٩ جمادى الاولى ١٣٤٢) :

« سرني اهتمامك بانجاز الخطط وهو ما كنت احثك عليه دائماً فأسأله تعالى ان يتولاك بعنايته وتوفيقه حتى تتم هذا العمل العظيم النافع وقد احسنت كل الاحسان في تخصيص فصل منه لتاريخ الشام السياسي كما فعل من كتب قبلك في الخطط واذا وفقت الى طبعه على مثال طبع المجلة فسيكون على احسن مثال . اما صورتي فليس عندي احدث منها لاني لم اصور نفسي بعدها وتصدير كتابك بها فضل كبير تطوق به عنقي وتنبه من ذكري ولكن هل لك ان تسمع كلة مني واقسم لك انني لااقولها تواضعاً وتحاشماً وهي ان تعدل عن ذلك لاني لا ارى لي من الفضل ما استحق به ان اصور في فاتحة كتاب كهذا وما هو بمنع مني ولكنه رجاء أرجو ان تقبله . » وعاد في كتاب فكرر هذا المعنى راجياً اعفاءه من هذه التقدمة قال (٢١ جمادى الاولى ١٣٤٣) : وصلني كتابك وأخجلني مافيه وقد كنت استعفيتك من وضع صورتي في الخطط فأكرر الآن هذا الاستعفاء شاكراً حسن ظنك وجميل رأيك و يعلم الله اني لا أقول ذلك تواضعاً فهل لسيدي ان يحسن اليَّ باعفائي من ذلك وله مني الشكر الجزيل والثناء المكرر . » وكتب ايضاً بهذه المناسبة بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٤٣ : « وصلتني الملزمة الاولى من الخطط وقرأت مقدمتها واذا ساغ لي شكر سيدي الحبيب على ماتفضل من التنو به بي افلا تسوغ معاتبته على هذا الغلو والاغراق . حقاً يا سيدي انك بالغت مبالغة أخجلتني فيها وأفحمتني فلا أدري ما اقول والله سبحانه يجزيك خير الجزاء على حسن ظنك بي الى هذا الحد . »

وهكذا كان أدب نفسه يوم أراد صديقه ان يقابل بعض جميله و يقول في نعته مايعتقده و يعتقده كل من سبر غور اخلاقه وسعة علمه . وهو يستقل ما يعمل ، شأن ارباب الهمم

العالية ويستكثر ما يمن له ، فقد أهدى دمشق مجموعة بديعة من النقود القديمة قال لي صديقي امير الشعراء احمد شوقي بك انه لم يجمعها هو وحده بل جمع فيها ابوه وجده من قبله ، ومع ذلك كان في اهدائها متواضعاً . فقد كتب في ٢ رجب سنة ١٣٤٢ « عندي مجموعة نقود قديمة من دنانير ودراهم وفلوس جلها من النقود العربية وعددها (٤١٨) قطعة ومعها مجموعة أختام قديمة عددها (٣٤) قطعة وقد رأيت اهداءها لدار الآثار العربية بدمشق وكتبت لكم جريدة ببيانها وسلمتها جميعها لحضرة السيد الكريم ليحملها اليكم في عودته فأرجو التكرم بقبولها وغض النظر عن تفاهتها ولكم الفضل » . وعاد فأكمل هذه المجموعة بمجموعة أخرى من الدنانير الذهبية القديمة وعدّ كل ذلك تافهاً .

بعده عن الظهور وإيثاره العزلة

لما تولى جلالة الملك فؤاد ملك مصر منحه رتبة الباشوية فتمهل لانها صدرت عن عاطفة عالية نحوه ولم يسعه الا قبولها . ولما هنأته بها أجابني : « اما الرتب فسيدي يعلم رأيي فيها من قديم ولكنها لما كانت عنوان العطف شكرت مولاي السلطان بقلبي ولساني على عطفه » . ولما عين عضواً في مجلس الشيوخ ضاق صدره ايضاً فكتب اليّ (١٠ آذار سنة ١٩٢٤) يقول : اما عضوية الشيوخ فقد تورطت فيها إطاعة لرغبة جلالة الملك وحاولت التنحي فلم أفلح اذ لا يخفى على سيدي دقة هذا المركز في وسط العاصفة الثائرة ولا سيما ان امر البت في مصير القطر سيكون في هذه النوبة من انعقاد المجلس وهو ما كنت أتوخى الابتعاد عنه ما امكن لاسباب كثيرة تعرفها » . وكتب ايضاً : (١٦ ربيع الثاني ١٣٤٣) « صحت عزيمتي على الاستقالة من مجلس الشيوخ وكنت على وشك تقديمها لولا عقبات قامت بوجهي اهمها استرضاء جلالة الملك فأرجو الله تعالى ان يهيء لي باب الخلاص » .

وحقاً انه كان يحب الابتعاد عن السياسة كل البعد ، ولكن مصالح بلده تستلزم استدعاءه في الاحايين ، فكانت الموضوع الذي يلذه كونه عضواً في مجلس الازهر ، وعضواً في مجلس دار الكتب المصرية ، او في كل مجمع علمي مؤسس في مصر اوغير مصر ، اما كونه عضواً في الشيوخ فهذا مالا ترضى عنه نفسه ولا تسمح بالاضطلاع به تربيته ،

وهو الذي عاش هادئاً مسالماً يصرح بما يعرف ولا يتعدى طوره . كتب يقول : (في ٢ يونيه سنة ١٩٢٣) « يعلم سيدي الاخ اني لا أعرف من السياسة الا مادة ساس يسوس التي أراها في المعاجم فاذا ذكرت الحكومة بخير او بشر فانما أذكرها من الوجهة العلمية فقط . فمن دلائل عناية الحكومة الحاضرة بالعلم الانعام برتبة باشا على صديقكم احمد كمال باشا الاثري الشهير وتقرير طبع معجمه المصري العربي الفرنسي على نفقتها وستشرع في ذلك قريباً واحداث مدرسة للسان المصري يتولى هذا العلامة التدريس فيها اما المعجم ففي عشرين جزءاً ولا يستطيع طبع مثله في الشرق الا الحكومات » .

وكتب في ١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ : « ويظهر ان الوحدة من الوسائل الناجحة في صحتي لتفرغي فيها لما اشتهي من المطالعة في راحة وهدوء بال وبعد عن القيل والقال ومجالس المدن التي أصبحت أجد نفسي غريباً عنها ، ولله در من قال :

هذا جزاء امرئٍ أقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الأجل

وكتب في ٢٢ رجب سنة ١٣٣٨ : « وقد كان سيدنا وأستاذنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله ورضي عنه منزعي الوحيد عندما اكون بالقاهرة فشاء القدر ان يفجعنا به ولا يبقي لنا من تلك الايام الا الذكرى المؤلمة والاسف المتواصل . حالنا يا سيدي الاخ عجيب غريب في هذا التطور الجديد . فقد اصبحت العامة والخاصة الجهال والعلماء في مستوى واحد من الآراء ونعمت والله الحالة لولا انه عمل صالح مرفوع الى أسفل ونتيجة منطقية تابعة للاخس من المقدمتين . فقل لي بعيشك اي انس في الاجتماع واية لذة في المخالطة وقد أصبح من المحتم على المرء قبول كل مايقال على تغيره وتناقضه كل يوم والا فالويل له ثم الويل . ولهذا تراني في اكثر اوقاتي جانحاً بوحدتي بقويسنا مكتفياً بمنادمة كتبي وقد أنجزت في هذه الفترة بعض ما كانت تتوق اليه نفسي من المواضيع ولعلي أوفق الى طبع بعضها متى انخفض ثمن الورق » . وكتب ايضاً (في ٢٩ شوال سنة ١٣٤٤) : « احوالنا الخاصة والعامة غير مرضية فقد بعنا القطن بثمن بخس لا يفي بنفقاته وخسر المزارعون هذه السنة خسارة كبيرة ، اما الاحوال العامة فسيدي عالم بها من الجرائد الضالة المضلة والمصير مجهول ولكن الله لطيف بعباده » .

ومن مجموع هذه النتف من رسائله تتجلى روح احمد تيمور ، وبعد نظره في مسائل وطنه وان زعم انه لا يعرف مداخلها ومخارجها .

حرصه على المصلحة العلمية

لما صدر الامر بتوقيف اعمال المجمع العلمي العربي في أواخر العهد الفيصلي ساءه ذلك جداً وكتب مرة (٢٨ ربيع الاول سنة ١٣٤٣) : « رأيت في بعض الجرائد السورية نبأً ساءني عن المجمع والعزم على الغائه فعسى ان يكون نبأً كاذباً . فلا يهدم بذلك اعظم صرح من صروح النهضة اللغوية في الشرق » . وكتب قبل هذا التاريخ (٥ شوال سنة ١٣٤٠) : « وقد كان سروري لا يقدر من النبإ الذي بشرتموني به بثبات المجمع وبقائه وهو البقية الصالحة والامل الوحيد لانصار العربية » . وكتب (٤ يناير سنة ١٩٢٣) : « اننا في حاجة كبرى لألفاظ عربية تغنينا عن الدخيل ولهذا نرحب بكل لفظة فصيحة ترادف أخرى دخيلة ، بل النظر في وضع هذه الألفاظ من اهم ما تشتغل به المجامع اللغوية ان لم يكن اهمها كلها ، وقد عني مجمعنا الدمشقي بذلك واتى بفوائد لا تنكر » . وقال في نفس هذه الرسالة : « المجمع املنا الوحيد في إنهاض اللغة فلهذا نقابل كل خبر سيء عنه بارتياع عظيم فنشكر همة الاستاذ الكبير فارس بك الخوري ونرجو ان يكون في اتباعه للاتحاد السوري ما نؤمله له من الثبات » . وكتب (٣ رجب ١٣٤٤) : « ساءني جداً فتور المجمع عندكم وتوقف المجلة عن الصدور وهي التي كنا نعدها من مفاخرنا » .

اما بشأن المجامع التي ألفت لغرض خدمة العربية بمصر ، فقد كتب (٢٦ جمادى الاولى ١٣٣٧) : « واما الاخبار العامة فتأليف المجمع اللغوي برئاسة شيخ الجامع الازهر وانضمام من هب ودب اليه والامل فيه قليل والسير بطيء وقد مضى علينا سنتان لم نصنع فيها شيئاً ونفسي تحدثني بالاستقالة منه وقد فاتحت الاستاذ الطاهر في ذلك فصوب رأيي ولكنه أوصاني بالتريث » . وكتب ايضاً : « اما مجمعنا بمصر فلا أدري ما قُدّر له ولا أخفي عليك اني أميل فيه الى التشاؤم ولا سيما بعد ان سمعت اقتراحات لبعضهم بضم أشخاص اشتهروا بانتصارهم للعجمة وفتح الصدر لكل دخيل وسنرى ما سيكون فربما كان

حكمي غير مصيب وارجو ان يكون كذلك » . وكتب (٢٢ رجب ١٣٣٨) : « الحركة العلمية بمصر نائمة ومجمعنا اللغوي في حكم المعدوم » . وكتب في ٦ يوليو سنة ١٩٢٣ : وفيه دليل على شدة غرامه باحياء آثار السلف قال : « اخبر سيدي بخبر اعرف انه يسره ولكني اود ان يظل مكتوماً حتى نبدأ فيه بالعمل فانه لم يزل الى الآن في حيز القول ذلك ان الفاضلين النشيطين الشيخ عبد المعطي السقاء المدرس بالازهر واحد المولعين بالكتب والسيد محب الدين الخطيب فكرا في تأليف شركة لاحياء مآثر السلف بالطبع على نمط جمعية المعارف القديمة وخاطباني في ان اتولى امرها فرضيت بان اتولى السعي فيها واقترحت ان تسند رئاستها لصاحب المعالي حشمت باشا وزير الخارجية الآن اعترافاً بفضل الرجل لانه صاحب اليد البيضاء على مشروع إحياء الآداب العربية لدار الكتب والواضع له وكل كتاب يطبع فيها الآن فهو من ثمرات غرسه فوافقا ، ثم قيدنا اسماء من رأينا انهم يصلحون لان يكونوا مؤسسين واعضاء لمجلس الادارة ممن يثق الناس بهم واشتهروا بعلم او جاه او ثروة واخذنا نطوف عليهم نعرض عليهم المشروع ونبين لهم فوائده فما قوبلنا من اكثرهم الا بالفتور والوجوم ولم نر من هش للمشروع وحث عليه غير اسماعيل رأفت بك وعلي بهجت بك ولكن ذلك لم يمنعنا من الدأب ومواصلة السعي حتى يتم المرغوب ومتى وفقنا لتأليف الاعضاء نعرض امر الرئاسة وقتئذ على حشمت باشا والله سبحانه الموفق » .

واشار في رسائل له غير مرة الى يأسه من قيام الاعمال النافعة بايدي الافراد والى ان القوم في وادٍ آخر . وبقدر ما كنت تراه يحرص على إحياء آثار السلف لعلمه بانها التركة الثمينة الناطقة بمدنيتنا النافعة في حاضرنا ومستقبلنا ، كان يرغب عن إحياء الكتب التي يعتقد الضرر بنشرها ، فقد كتب (في ١٤ ابريل ١٩٢٣) : من اخبار الكتب ان السيد كاظماً الدجيلي كتب يسألني عن كتاب المثالب لابن الكلبي وانه عثر على قطعة منه بالعراق يود تكميلها ، ولا يخفى انه في مثالب العرب . فكتبت اليه اني لا اعرف عنه شيئاً ، وقلت له انه وان يكن يعد من النوادر فليت كل نادر مفقود كان من نوعه فليذهب غير مأسوف عليه » .

* * *

كلام على تآليفه

قلت ان احمد تيمور كان عزوفاً عن الناس وكان ايضاً زاهداً في الشهرة فشهرته كانت تتبعه بالضرورة وما كان في الواقع عبداً لها يتبعها فتستجيب له او لا تستجيب ، ولو قصد الى الشهرة لكانت منه على طرف الثمام ، ولكان يُعنى على الاقل بطبع مؤلفاته في حياته ويقلل من العناية بجمعها مكتفياً بما تهيأ له . واكثر ما ألفه وطبعه في حياته كانت تدعوه اليه الدواعي مثل رسالته في الرتب والألقاب فقد كتب اليّ في « ٢٥ جمادى الاولى ١٣٤٣ ، واني أشكر سيدي الاخ على تفكيره في إعادة طبع بعض آثاري التافهة التي لا تحق هذه العناية ، فرسالة الرتب والالقاب لم أضعها في الاصل لتطبع بل جملتها مادة أقدمها للحكومة للمناقشة فيها في الوقت الذي عزمت فيه على تغيير الالقاب فلما رأيتها أبقت على أغلب الالقاب الاعجمية ضربت عنها صفحاً ، ثم رآها عندي السيد محب الدين الخطيب فنقلها ثم تكرمتم بطبعها ، واما طبقات المهندسين فلا أظن في نشرها بمجلة المجمع فائدة بعد ما نشرت بالهندسة فلندع صفحات المجلة لما هو أفيد منها وعسى ان اجد فرصة لأعيد النظر فيها وأضم اليها زيادات اطبعها على حدة » .

وكتب في (٢٢ ذي القعدة ١٣٤٣) : « رحلت هذا الشهر لبعض البلاد المصرية ترويحاً للنفس فقادني الطواف الى المنصورة فزرت بها اثراً من آثار بحثاً نفيساً هو بقايا دار ابن لقمان التي اعتقل بها لويز التاسع في إغارته على مصر وقد كتبت بحثاً عن هذه الدار رجعت فيه الى المصادر العربية والافرنجية وسلمته امس قبل سفري الى اخينا محب الدين لينشره في الزهراء . وقد كان لهذا الاثر ياسيدي اثر في نفسي تذكرت به ماضينا وسألت الله ان يلطف بنا في حاضرنا ويهيئ لنا منه مخرجاً فهو اللطيف بعباده » .

وكتب في (٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٠) بشأن كتابه التراجم مانصه : « كتاب التراجم لم أشتغل به الا يسيراً ومرادي ان يكون خاصاً باعيان الشرق في القرن الثالث عشر الهجري اي ان يكون كالذيل لسلك الدرر ثم ألحقه بذيل في تراجم اعيان اوائل القرن الرابع عشر وكل ما أنجزته منه لايخرج عن تمهيدات وسألخص فيه من الجبرتي ومن خطط علي باشا وأضم بعد ذلك ماستطيع جمعه . الا ان معجم العامية المصرية والكلام

على اصولها ومايقابلها من الصحيح يستغرق اوقاتي كما تستغرق اوقاتكم الخطط ومن الله تعالى نسأل الاعانة والتوفيق » . وقد اتم التراجم فيما احسب وكذلك معجم العامية المصرية وهو من المدهشات في التحقيق اللغوي يدل على علم واسع جداً وقد نشر منه نموذجات في مجلة المجمع العلمي العربي في بضع مقالات وربما كان هذا السفر كتابه الخالد لانه صرف فيه اوقاتاً طويلة وجوّد كل الاجادة . ومنها كتابه نوادر المسائل « وكان كلما مرت به مسألة نادرة او حادثة غريبة او توضيح لمشكلة خلال مطالعاته الكثيرة يقيد ذلك في كراسات مع بيان اسماء هذه الكتب المشتملة على هذه النوادر ورقم الصفحة التي احتوتها واجتمع له منها شيء كثير رأى في آخر ايامه ان يرتبه ويضم الشكل الى شكله و يطبع ذلك و يقدمه الى العلماء والباحثين طرفة لم يقدم اليهم مثلها » .

وقال الاستاذ السيد محب الدين الخطيب ان هذا الكتاب هو الأم لمؤلفات تيمور باشا كلها بل هو خلاصة مطالعاته واطلاعاته وسماه معجم الفوائد . وللمترجم له من الآثار التي ألفها عدة رسائل وكتب ومنها البرقيات وهي كلمات تؤدي كل منها معنى جملة كاملة . ومنها رسالة في التصوير عند العرب نشرت في مجلة الهلال ولكن زاد فيها زيادات عظيمة ، ومنها الامثال العامية وهي نحو خمسة آلاف مثل عامي . ومنها لعب العرب . ومنها نقد القسم التاريخي لدائرة معارف فريد وجدي وطبقات المهندسين جرى فيه على نسق طبقات الحكماء للقفطي وطبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة . ومنها ذيل طبقات الاطباء . كان يجمع مواده و يكتب مذكرات عن مصادره ولانظنه تمكن من إتمامه (مجلة الزهراء م٥ ج ٧ — ٨ ص ٥٦٥) .

ومن رسائله التي لم تطبع : الآثار النبوية ، ومفتاح الخزانة خزانة البغدادي وهي ثلاثة عشر فهرساً ، ومما طبعه رسالة في اليزيدية وأخرى في حدوث المذاهب الاربعة وثالثة في تاريخ العلم العثماني ورابعة في قبر السيوطي وخامسة في تصحيح لسان العرب وسادسة في تصحيح قاموس المحيط وسابعة في ابي العلاء المعري وعقيدته وثامنة في الحلقة المفقودة من تاريخ مصر . ومن أهم ماعاقه عن نشر كثير من تآليفه ميله الى التحقيق واشباع الموضوعات حقها اوتحاميه احياناً من الدخول في مآزق لاتسمح له تربيته بالتورط فيها . فقد كتب بشأن رسالة التصوير مانصه : « اما التصوير فكنت كتبت مقالة عنه عند العرب في الهلال

(٢٧ — ٣١٣ — ٦٠١) وربما كان فيها ما يفيد كم ولكن هذه المقالة أصبحت لاشيء جنب ما جمعته بعد ذلك في رسالة خاصة أتممتها وأعددتها للطبع تمنعني من طبعها الآن ان ذكر العرب حتى نبيهم عليه الصلاة والسلام بخير أصبح معدوداً عند عامتنا ومن على شاكلتهم عدواناً لبعض الكماليين فأخرت الطبع خوفاً من الإهانة . وقد اطلع على هذه الرسالة صديقنا الاستاذ جرجي زيدان فأعجبته وشدد علي في سرعة اظهارها فذكرت له عذري في تركها الآن » . اما مقالاته التي نشرها في الصحف والمجلات في موضوعات علمية وأدبية وتاريخية ولغوية فانها لو جمعت لجاء منها مجلدان لطيفان نافعان . فعسى ان تصح همة نجليه الفاضلين اسماعيل بك ومحمود بك على ان ينشرا ما خلف الفقيد العظيم من نفثاته وتحقيقاته خدمة للعلم وتخليداً لذكره في العالمين .

تعصبه للاسلام والعربية

كان احمد تيمور متعصباً للعرب والعربية والاسلام ، يهتم لذلك اهتمامه لأقدس شيء لديه ، وكان اذا شم من بعيد رائحة من شخص يريد السوء بمقدساته هذه او يكتب فيها كتابات بعيدة عن مواطن الحقيقة يستعديه و يبتعد عنه ، و يتأفف في باطنه منه ، ولما شاعت دعوة انصار القديم والحديث في مصر ، آلى على نفسه ان لا يطالع من الصحف الا جريدة الاخبار للمرحوم امين الرافعي لان صاحبها متدين يدافع عن الاسلام والمسلمين ، فلا يقرأ فيها ما ينقبض له نفسه مع انه من أوسع الناس صدراً . وكتب في هذا الشأن يوم (١ جمادى الاولى ١٣٤٦) : « ومن نكد الايام اني لم أزل ممنوعاً من المطالعة والاشتغال بامر الاطباء حتى ضاقت الدنيا في وجهي وساءت اخلاقي لاني لم اتعود الجلوس في الملاهي ولا أدري كيف أقضي اوقاتي مع هذا التحجير . وقد منعوني ايضاً من مطالعة الجرائد التي لا تروق لي خطتها ولا تتفق مع مشربي فصرت أقتصر على مطالعة جريدة الاخبار لانها توافقني ولا سيما في المدافعة عن الاسلام والانتصار له ومقاومة الالحاد المعبر عنه في لسان هذا العصر بالجمود اوالرجعية ولا حول ولا قوة الا بالله » .

ولما تعرض بعض اصدقائه للنيل من المأمون (واسطة عقد الخلفاء وفخر الامة العربية) اخذ يعالجه بالوسائط المتنوعة كما يعالج الطبيب المريض حتى اعتدل وعاد للانتصار للعرب

ومدنيتهم « فكتب نبذة في الاهرام نصح في آخرها ان يعيد سيرته الاولى التي لم ينل شهرته الا بها » . وله مع صديقه هذا مناقشات في الصحف والمجالس لانه يبرر عمل الكمالبين في نزع الخلافة مما لا يتسع له هذا المقام . وكان غضب تيمور من صديقه هذا مما لا يستكثر من غيور على الاحتفاظ بمقدسات أمته . ولما ألف الاستاذ علي بك عبد الرازق كتابه في الاسلام واصول الحكم خالفه تيمور في اجتهاده وتألم لما كتب الما شديداً . وكتب لي يصف هذه الفئة ويستحسن أقوال من ناقشوا المؤلف في موضوعه . ولما رأى انني تصديت لنقد كتب بعض انصار التجدد في مجلة المجمع العلمي طرب واغتبط ، وتألم لما قرأ تقريظاً لي لبعض نبغائهم ، لكن ادبه حال دون التصريح بذلك .

كتب مرة (٢ شعبان ١٣٤٣) : واني من رأيكم في اقتدار الشيخ ... وجودة أسلوبه وعدم الموافقة على بعض آرائه المتطرفة وخصوصاً عن العرب وآدابهم فانه كثير الغض منهم في كل شيء ومن دواعي الأسف ان هذه الآراء السخيفة تنتشر اليوم بسرعة بين الناشئة حتى صار من المضحكات عندهم التحدث ببلاغة القرآن او بفضل العرب انا لله وانا اليه راجعون . وسيدي حفظه الله أعرف مني وأسد رأياً في أسلوب الرجل وغاية ما يظهر لي مع إعجابي به كثرة التكرار في بعض المواضع والظاهر انه يتعمده لانه يستحسنه و يظن انه طريقة جديدة تروق للقراء ...... » . بل ان احمد تيمور كان يتألم لاقل من هذا اذا كان فيه العبث بمشخصات الامة ، فقد جاء في رسالة في (٢٠ آذار ١٩٢٤) : لما كانت لجنة عمل الدستور مجتمعة في العام الماضي وشاع انها ستسمي المجلسين بالبرلمان قدم لها بعض الفضلاء ومنهم الاستاذ الشيخ احمد الاسكندري عضو مجمعنا اقتراحاً بتسميتهما بدار الندوة فعارض بعض اعضائها في ذلك وكان المشايخ المعممون منهم أشد معارضة وعلى هذا سمي اكبر مظهر من مظاهر استقلالنا باسم أعجمي مع وجود الاسم العربي عند العرب من زمن الجاهلية ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

عطفه على من يعطف على العربية

ولقد كانت على تعصبه لامته ودينه وقوميته وعربيته متساهلاً مع من يخالفونه في معتقده ، ولطالما خرج أمثاله من مجلسه وقد رأوا من عنايته بهم ، خصوصاً اذا كانوا

من المشتغلين بالعلم والادب ، ما اطلق السنهم بشكره ، وعقد قلوبهم على حبه ، واورثهم حسن الظن بهدي دينه وتاريخ أمته ، وايقنوا ان الرجل قد يتعصب لمشخصاته ولكنه يريد الخير كله لمن يوافقونه من بعض الوجوه على ما تشبعت به نفسه و يحكموا على مايرون بالمعقول والمنطق . ولقد اقترح على المجمع العلمي ان يضم اليه الاستاذ اسعد داغر لانه خدم اللغة العربية . وشق عليه ما نال الاستاذ الاب انستاس ماري الكرملي يوم غضب عليه رؤساؤه في ديره ببغداد وقضوا عليه ان يذهب للاعتكاف في دير لهم في جبل الكرمل متخلياً عن كتبه وتآليفه ، وسعى للافراج عنه ليرجع الى بلاده وحتى لا تحرم اللغة نفثات قلمه ولا سيما من معجمه الفرنسي العربي الذي اقام على تأليفه زهاء ثلاثين سنة . واودعه من الفصيح كلمات كثيرة نحن في اشد حاجة اليها ، ساءه ما حل بصديقه (لما كان لهذا العلامة من الآثار النافعة في اللغة) . ولقد خدم الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف انواع الخدم العلمية لانه ايقن انه يخدم اللغة العربية بابحاثه . وكل من يخدم اللغة والعلم هو حبيبه . ولقد اعجب مرة بمقالة للاستاذ انيس سلوم في التعريب نشرت في مجلة المجمع فكتب في (٢٥ صفر ١٣٤١) « فاني ماكدت آتي عليها حتى علمت ان للعربية انصاراً وان قل عديدهم وان لطف الله لم يزل حافاً بهذه اللغة بعد ان كنت في يأس عظيم من انهاضها لا ارى فيها الا استجابة دعوة جرول في قوله لامه :

جزاك الله شراً من عجوزٍ ولقيت العقوق من البنينا

كما رآها من قبلي ابو العلاء في الدنيا ... » .

كتبت اليه مرة اوصيه باحد اصدقائي من رجال فرنسا الاستاذ المستشرق السيد اميل بيات وكان يريد ان يزور الازهر ويتعرف الى القاهرة من طريق العالمين لا السياسيين فأدهشه ما اطلعه عليه ومن عرفه اليهم من رجال العلم وما اغدق عليه من ضروب الاكرام حتى جاوز كلام صديقي بعد انقلابه الى بلاده في شكر احمد تيمور حداً عجيباً وبهذه العناية بالموصى عليه وبامثاله من ابناء الشرق وابناء الغرب ابان فضل مصر وفضل ابنائها على العلم ، وبلوغهم درجة عالية من الحضارة والثقافة ، و بالتالي اورث بعمله حسن الظن بالمسلمين عامة والشرق خاصة . وهذه هي الوطنية الحقة ولو كثر هذا العدد من دعاتنا على هذا النحو ، لتعريف الغرب بفضل الشرق ، لما اساء بعض الغربيين

الظن بنا وبمجتمعنا ولما صغروا من شأن مدنيتنا في الغالب تصغيراً قائماً على الهوى والجهل معاً ·

آخرة المترجم

قلّ ان تمت لسعيد سعادته ، وبينا كانت السعادة ترفرف ظلالها على دار احمد تيمور ، وقد تزوّج من امرأة فاضلة وهي كريمة المرحوم احمد رشيد باشا احد وزراء مصر فولدت له ثلاثة أولاد اسماعيل ومحمد ومحمود فتعلقت ارادة المولى ان يفقد زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره (ولد سنة ١٢٨٨ ه وتوفيت زوجته سنة ١٣١٧) فلم يرض ان يتزوّج ثانية وقال لي وانا أحثه على الزواج : المسألة معقدة من وجهين الاولى انه يتعذر وجود زوجة تشبه أم الاولاد بعقلها وأدبها وصيانتها ، والثانية انني أخاف على اولادي من خالة تنغص عليهم عيشهم · وكان كما أراد فعاش أرمل متبتلاً ومثال الوقار والصون والعفاف ·

وكان المترجم متديناً تديناً حقيقياً ولم يعرف عنه انه ترك صلاةً ولا صوماً ، وحج مرة كما زار اوربا مرة وزار الشام مرة والاستانة مرة ، وكان القرآن يتلى ابداً في داره وفي عزبته وفي ذهبيته وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والحكماء تردد في ناديه ولم يعهد ان غشيه أرباب المساخر والملاهي اومال يوماً الى مصاحبتهم ، بل كانت اوقات فراغه كلها مصروفة في الجد يتخللها بعض المزاح المقبول مع خاصة أصحابه وكان اذا اتفق ان القى احد المختلفين اليه كلمة هجر يتصام عنها ويلوي وجهه وربما احمر خجلاً كأنه هو الذي قالها · ولو كان حظ خاصة المصر يين من الجد حظ هذا الرجل العظيم لبلغت مصر في مدنيتها شوطاً أوسع من الشوط الذي بلغته ·

ولقد عني بتربية بنيه التربية الحسنة وعلمهم العلوم العالية لكن أصيب منذ عشر سنين بفقد ثاني أولاده محمد ، وكان من أرقى شباب مصر علماً وادباً وجمالاً وكمالاً وجواب تعزيتي له قوله في (١٣ رجب ١٣٣٩) : « فشكراً لسيدي الاخ الاعز على ماتفضل به من مواساتي في مصيبتي العظيمة التي هدّت ركني ونغصت عليّ مابقي من ايامي » وكان كما قال لا يكاد يتجه بعدها نحو الصحة حتى ينعكس وأصبح اكثر الاحيان من المتشائمين لا المتفائلين

ويزيد ذلك كلما تراجعت صحته وأيقن بقرب منيته . كتب (١٩ يوليه ١٩٢٤) : « وقد أشار عليّ طبيبي حينما استدعيته امس بالسفر الى اوربا وعين لي بلدة بالمانيا يقصدها المرضى بالقلب فلم أقبل لاني لا أستصوب السفر الى مثل هذه الديار وانا مصاب بمرض خطير بل أفضل البقاء بين ولديّ وأحب ان لا أتعبهما في موتي كما لم اتعبهما في حياتي » .

نعم كان العقد السادس من حياة عظيم العلماء ونابغة المصر بين حياة نغص وغصص ، ومع هذا كان لا يضن بوقته على افادة قاصديه ، ويكلف صحته اكثر من طاقتها لنفع الناس وكان خاصة اصحابه يمتنعون عن مراسلته او زيارته ، لئلا يكلفوه في قضاء الواجب نحوهم ماقد يضر بصحته ، حتى ناداه ربه الى جواره في صبيحة يوم السبت ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٨ (٢٦ ابريل ١٩٣٠) فكان لمنعاه في مصر والبلاد العربية وفي مجامع علماء المشرقيات في الغرب رنة أسى وحسرة وذكره الناس بالرحمة وعزى بعضهم بعضاً على فقد رجل الاسلام والعرب . وشمل الحزن عامة الطبقات المفكرة رحمه الله عداد حسناته للعربية والعروبة وانا لله وانا اليه راجعون .

ايها السادة : هذا ما عرفته من حياة صديقي الذي عددت فجيعتي به من اعظم الفاجعات ، وعلم الله انني ماالقيت عليكم من صفاته الا ماثبت عندي ثبوت الشمس والقمر . ولم أحاول ان اكتب فيه سطراً الا بعد ان انشأت بعض سورة الحزن عليه ، وعسى ان يسعني عفوكم فتسبلوا ذيل المعذرة على ذكر اسمي ، خلافاً لعادتي ، مقروناً الى اسمه الكريم في هذه المحاضرة ، بيد اني لم أر لي مخلصاً من ذلك ، لان المسألة مسألة ذكريات شخصية لا بدّ فيها من ذكر الفريقين ، والله يرحمنا و يتولانا بمعونته .

محمد كرد علي

وطن الجاحظ (١)

—«»—

لئن أنبتت (خد العذراء) أبا الطيب المتنبي جبار الشعر على ترادف الايام فأي بقعة من بقاع الارض أنبتت اباعثمان الجاحظ جبار النثر في قديم الدهر وحديثه ·

يقول كاتب من بلغاء الكتاب الفرنسيين في الشاعر (دي فيني) : لا يقرأ احد شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، فما أصدق هذا القول بالجاحظ نفسه ، كلنا نعرف اسمه ولكن هل نقرأ كلنا كتبه ، هل نعرف حياته على الوجه الذي نريده في عصرنا هذا ·

ولئن فاتنا ما نريد من هذه المعرفة فلنعمل في استقصاء في ما لم يفت ·

كنت أقرأ وانا أهيئ هذا الكلام كتاباً يبحث عن (فرجيل Virgile [٢]) شاعر ايطالية ولد هذا الشاعر سنة ٧٠ قبل السيد المسيح فلم يغفل الكلام على القرية التي ولد فيها ، لم يغفل الكلام على محاقلها وعلى طيرها وعلى سواقيها وعلى ينابيع مائها وعلى مراعيها وعلى تعاشيبها وقد اوصى الشاعر الرعيان برعي ماشيتهم في منابت عشبها ·

وللامم الغربية مذاهب بعيدة في الحنين الى الاوطان ، وقد انتخب البرت سيم طوائف من الكلم استنبطها من آثار كتاب الغرب وشعرائه واثبتها في مقال عنوانه : المولد وقع

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ ·

(٢) فيرجيل بقلم اندره بليسور (André Bellessot) الصفحة ٢ ·

عليه نظري في « المجلة العالمية La revue mondiale » وقد استخرجت من هذا المقال شيئاً من الكلام اذكره على سبيل الايجاز :

لما نفي اوفيد الشاعر اللاتيني الى شواطئ البحر الاسود خرج من دياره وهو يلتفت الى رومة وبوادي وطنه سولمون ويقول : لادري اي رونق لهذا الوطن حتى ملك علينا حواسنا فلا نجد سبيلاً الى نسيانه على وجه الدهر .

وكذلك فيرجيل شاعر اللاتينيين ، فانه لم ينس مولده البائس مدينة مانطو كل حياته ، ولا ذهل هوراس عن بقعة ارضه الباسمة .

قال فنلون في قصيدة له : مهما ضربتُ في مناكب الارض ، فان البقعة التي رزقت فيها الحياة تلذ الاقامة بها وتضحك لي جواؤها اكثر من كل بقعة .

وذكر روسو ايامه التي قضاها في قرية بواسي على مقربة من جنيف فقال :
وما فتئت منذ طويت شرخ الشباب ووخطني الشيب اشعر بان ذكرى بواسي تتوقد في خاطري على حين انسى صور غيرها من الذكر وتستقر في حافظتي استقراراً يشتد على تراخي الحقب ، فكنت كمن احس بدنو اجله فطلب السبيل الى الحياة بتذكر اوائلها واصغر حوادث تلك الايام يحلو في عيني لانه من تلك الايام .

وانك لتجد العواطف نفسها في كلام لبرناردن دي سان بير قال : اني افضل باديتي على سائر البوادي ، ولا اؤثرها لجمالها ولكنني ربيت ونشأت في آفاقها . . ما اسعد الذي يعود الى الديار التي جعل كل شيء فيها محبوباً .

ولما عاد الجنرال دي برسول من وقعة روسية وهو مثخن بالجراح رأى مولده فصرخ :
انا من اوفيلار ! قربني قبل كل شيء . .

قال لامارتين وقد ذكر وادي ماكونه وهو يحبه حباً جماً : هذا مسكني منذ الصبا ! سلام على ربيعه وصيفه وخريفه وشتائه ، واهاً لي ! تسخرني تصاريف الدهر في كل خطوة خطوها فلم اعد الى هذه الديار الا لانتزه فيها ساعات قلائل فاقيس الشجرات التي غرستها لادفن في ظلالها واصلي في جوار قبرين يسيراً من الزمن . .

وكتابات اسكندر دومانئم عن نزاعه الى تربته وتشتمل على وصف جميل لكل مايحس به في عودته الى فيلر كوتره قال في جملة كلام له : دع هذا المولد الذي انشأ في اعماق

قلبي ذكراً ثابتة يجتذبني اليه فكلما دنوت من الموت يشتد هذا الاجتذاب فكأن الطبيعة قد جعلت الانسان يفرح بالبحث عن لحده في ظلال مهده ·

وقال في مقام آخر : صرفت ثلاثين سنة من عمري في العمل والنزاع حتى سلبني الدهر رونق ايامي وشرخ شبابي ومع هذا فاني انبسط الى هذه القرية الصغيرة التي لا يعرفها احد في العالم وقبل وصولي اليها انزل من العربة فاحصي الشجر واجلس الى بعضه فاغمض عيني واتذكر اموراً مضى عليها عشرون سنة وفي جملة هذا الشجر شجيرات نزلت مني بمنزلة الاصدقاء القدماء وفي جملتها شجيرات غرسها غيري فأمرّ بها ولا ابالي كما امرّ برجال لا اعرفهم ولا يهمني معرفتهم ·

وقال كراسزوسكي البولوني مخاطباً مولده :

ايتها الارض الجميلة التي تحتفظين بذكرانا بعد انقضاء الاجل !

ايتها الارض العذبة التي حنوت علينا في قديم الدهر !

اننا نودع خلطاءنا ونحن نأمل لقاءهم في السماء ، ولكننا اذا ودعناك لا نرى ابداً بعدك ضياءك المحبوبة ، ودیارك وجداولك ، وربيعك وصيفك ، وخريفك وشتاءك وسائر ما رسخت صوره في اذهاننا في عنفوان الشباب ·

كيف تكون عنادلك ، وازاهرك وغدواتك وروحاتك ؟

اترحب بنا السماء حتى ننسى من اجلها كل شيء قديم ؟

ومثل هذا الكلام كثير في آثار الافرنجة اجتزيء بالقدر اليسير منه تفادياً من التطويل ·

قرأت هذا كله فقلت في نفسي : ما الذي نعرفه من وطن الجاحظ ما الذي نعرفه من الجاحظ نفسه وهو أذهب أدبائنا شهرةً وأبعدهم صيتاً ، هل يتيسر لنا ان نبعث هيأته من مرقده حتى نحيط باسرار عبقريته بحذافيرها ·

مالنا وهذا اليأس فان الفرح بمحادثة رجل مثل الجاحظ بعد ان اتى عليه احد عشر قرناً وهو هادئ في ترابه مطمئن في قراره يكاد ينسينا الالم الذي نألمه في فوات ما فات من جميع امره ·

في سنة اربع عشرة كتب عتبة بن غزوان كتاباً الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب وقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتاشتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجؤا اليه فكتب اليه عمر ان ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب اليَّ بصفته فكتب الى عمر : اني قد وجدت ارضاً كثيرة القَضّة في طرف البر الى الريف ودونها منافع فيها ماء وفيها قصباء . ولما وصلت الرسالة الى عمر قال : هذه ارض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب فكتب اليه ان انزلها فنزلها وبني مسجدها من قصب وبنى دار امارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها : رحبة بني هاشم ، وكانت تسمى الدهناء وفيها السجن والديوان وحمّام الامراء فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان .

في هذه الارض التي مصّرت على زمن عمر بن الخطاب ولد الجاحظ وقد سموها : البصرة ، واذا قالوا : البصرتان عنوا بقولهم الكوفة والبصرة ، ومن فرط اهتمامنا بالجاحظ لزمنا ان نعرف كل شيء يختص به حتى معنى الارض التي شرب من مائها واكل من طعامها ونشق من نسيمها واستظل بظلها فانبلج من أفقها نوره ودرج من أفيائها شعوره فكان لنا معاشر العرب من هذه العبقرية الوهاجة مفخرة نفخر بها على تراخي الاحقاب .

ولقد اهتم الافرنجة بمعاني بقاعهم الاهتمام كله ولم يكن اهتمامهم بمثل هذه الامور على سبيل اللهو او على سبيل العبث وانما رموا في هذه المذاهب مرامي أبعد فان لفهم اشباه هذه المعاني عملاً جليلاً في حمل القلوب على الارتباط باوطانها ، وآخر ماقرأته في هذا الباب مقال عنوانه : سواقي فرنسة [١] ، فليت ان في ادبنا أمثال هذه المقالات التي تنشئ في النفوس محبة الاوطان فبعد ان وصف الكاتب الساقية على وجه عام وأتى على ذكر ماتضمنته من اغاريد وابتسامات وتكلم على رفيف الضحى وعلى عبوس الليل في احفتها، بعد ان تبسط في هذا الوصف على اساليب شعرية رجع به القول الى الكلام على الساقية

(١) كتاب النزه الأدبية لصاحبه (Remy de gourmont) .

فنفخ فيها روحاً واخذ يفسر الاسماء التي أطلقوها على سواقي فرنسة وقد جاءتها هذه الاسماء من الامم التي نزلت بفرنسة في القديم من السنين ثم ختم مقاله بهذا الكلام :

هذا آخر عهدي ببنات سواقينا فليتني لم أقطع الكلام عليها فاني أجد الماء في قطع هذا الكلام لان الساقية ام الطبيعة ·

* * *

فلنبحث عن معاني البصرة لعل معرفة هذه المعاني تزيد في مقدار اتصالنا بالوطن الذي أخرج للناس أمثال الجاحظ ·

البصرة ومعناها في كلام العرب على ماقال ابن الانباري الارض الغليظة ·

وقال قطرب : البصرة الارض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب ·

وقال غير قطرب : البصرة حجارة رخوة فيها بياض ·

وقال ابن الاعرابي : البصرة حجارة صلاب قال : وانما سميت البصرة لغلظها وشدتها كما تقول : ثوب ذو بصر وسقاء ذو بصر اذا كان شديداً جيداً ·

وذكر الشرقي بن القطامي : ان المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا اليها من بعيد وابصروا الحصا عليها فقالوا : ان هذه ارض بصرة يعنون : حصبة ، فسميت بذلك ·

وذكر احمد بن محمد الهمداني حكاية عن محمد بن شرحبيل بن حسنة انه قال : انما سميت البصرة لان فيها حجارة سوداء صلبة وهي البصرة ·

وقال حمزة بن الحسن الاصبهاني سمعت موبذ بن اسوهشت يقول : البصرة تعريب بس راه لانها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها الى اماكن مختلفة ·

وفي اللغة اسباب لتسميتها غير هذه فالمجمع عليه ان في البصرة معنى الشدة والصلابة فكأنما اوحت الى ابي عثمان صلابة القول وشدة اسره ·

فما الذي تركه الجاحظ لنا من آثار هذه الشدة ورسوم هذه الصلابة ، ما الذي تركه لنا من آثار وطنه وهو الذي يقول في الحنين الى الوطن : « وانت لو حولت ساكني الآجام الى الفيافي وساكني السهل الى الجبال وساكني الجبال الى البحار وساكني الوبر الى المدر لأذاب قلوبهم الهم ولأتى عليهم فرط النزاع · وقد قيل : عمر الله البلدان بحب الاوطان

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشيء من اقسامهم اقنع منهم باوطانهم · وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا الى بلادهم بعد ان انزلهم من الشام منزلاً خصيباً وفرض لهم في شؤون العطاء : يصلون اوطانهم بقطيعة انفسهم ، وقال الله عز وجل : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليلاً منهم · فقرن الضن بالاوطان الى الضن بمهج النفوس » ·

فان الذي يقول مثل هذا القول و يشعر مثل هذا الشعور انما هو عالم بمنزلة الوطن من القلوب فلننظر في مقدار حنين الجاحظ الى وطنه ما هي الآثار التي خلّفها لنا من هذا الحنين ، ما هي طبيعة هذه الآثار ·

نظر الجاحظ الى عيوب تربته ولم ينظر الى فضائلها فقال :

« من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لانهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات ولذلك سميت الرعناء فقال الفرزدق :

لولا ابو مالك المرجو نائلـه   ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا »

فلم ينظر الجاحظ الى تربته نظرة شاعر مولع بالوان هذه التربة كلف بمشاهد طبيعتها وانما نظر اليها نظرة العالم الذي يريد ان يبحث عن اصل كل شيء حتى يعرف المورد والمصدر والمدخل والمخرج وهذا من خصائص عبقريته ومن طبيعة عقله · ولقد تجلت هذه الخصائص وهذه الطبيعة في كلامه على اعجوبات البصرة قال :

بالبصرة ثلاث اعجوبات ليس في غيرها من البلدان منها ان عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد فيقبل عند حاجتهم اليه و يرتد عند استغنائهم عنه ثم لا يبطئ عنها الا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها لا يقتلها عطشاً ولا غرقاً ولا يغبها ظمأ ولا عطشاً يجيء على حساب معلوم وتدبير منظوم وحدود ثابتة وعادة قائمة يزيدها القمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على اهل الغلات يتخلفون ومتى يذهبون و يرجعون بعد ان يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر فهي آية واعجوبة ومفخر واحدوثة لا يخافون المحل ولا يخشون الحطمة · والاعجوبة الثانية ادعاء اهل انطاكية واهل حمص وجميع بلاد الفراعنة الطلسمات وهي بدون ما لاهل البصرة وذلك ان لو

التمست في جميع بيادرها وربطها المعودة وغيرها على نخلها في جميع معاصر دبسها ان تصيب ذبابة واحدة لما وجدتها الا في الفرط ولوان معصرة دون الغيظ اوتمرة منبوذة دون المسناة لما استبقتها من كثرة الذبان .

والاعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسود جميع نخل البصرة واشجارها حتى لا يرى غصن واحد الا وقد تأطر بكثرة ما عليه منها ولا كربة غليظة الا وقد كادت ان تندق لكثرة ما ركبها منها ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط الا على نخلة مصرومة ولم يبق منها عذق واحد ومناقير الغربان معاول وتمر الاعذاق في ذلك الابان غير متماسك فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة حتى لم يبق عليها الا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر ان تصرم فاذا اتى الصرام على آخرها عذقاً رأيتها سوداء ثم تخللت اصول الكرب فلا تدع حشفة الا استخرجتها فسبحان من قدر لهم ذلك وارائم هذه الاعجوبة . »

من هذا كله يتبين لنا ان الجاحظ في الحنين الى الوطن انما ينظر الى بقعة ارضه نظرة العالم المدقق على ان قلبه لم يخل من نزاع الى وطنه وانما ذهب في هذا النزاع مذهباً بعيداً فجاز من وطنه الاصغر الى وطنه الاكبر فمن بعض كلامه :

« وانا اقول في هذا قولاً وارجو ان يكون مرضياً ولم اقل : أرجو ، لاني اعلم فيه خللاً ولكني اخذت بآداب وجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب » .

اني ارى في هذه الكلمات عروبة واضحة ووطنية صادقة فما اعذب قوله : ملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي ! وما اعذب هذه الياآت كلها ! فانها تدل على ولع صاحبها بقومه وكلفه بوطنه ولهجه بلغته اني ارى فيها صورة الرجل الذي جعل من جزيرة العرب ومن لغتهم ملكاً خاصاً به يرتبط بهما قلبه ولسانه .

ومع هذا كله لم يصور لنا الجاحظ وطنه فاذا اردنا ان نعرف شيئاً من صورة البصرة في القديم لزمنا ان نستعين بغير الجاحظ .

فمن الذين وصفوا البصرة خالد بن صفوان ، وصفها لعبد الملك بن مروان فقال : يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم ونحن اكثر الناس

عاجًا وساجًا وخزاً وديباجاً و برذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً بيوتنا الذهب ونهرنا العجب اوله الرطب واوسطه العنب وآخره القصب فاما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته هذا على افنانه كذاك على اغصانه هذا في زمانه كذاك في ابانه من الراسخات في الوحل المطعمات في المحل الملقحات بالفحل يخرجن اسفاطاً عظاماً واوساطاً ضخاماً وفي رواية يخرجن اسفاطاً واوساطاً كأنما ملئت رياطاً ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الابيض ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الاخضر ثم تصير ياقوتاً احمر واصفر ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء ليست بقربة ولا إناء حولها المذاب ودونها الحراب لا يقربها الذباب مرفوعة عن التراب ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال يستعان به على العيال .

واما نهرنا العجب فان الماء يقبل عنقاً فيفيض مندفقاً فيغسل غثها و يبدي مبثها يأتينا في اوان عطشنا و يذهب في زمان رينا فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا فيقبل الماء وله عباب وازدياد ولا يحجبنا عنه حجاب ولا تغلق دونه الابواب ولا يتنافس فيه من قلة ولا يحبس عنا من علة .

واما بيوتنا الذهب فان لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور نأخذه في اوقاته ويسلمه الله تعالى من آفاته وننفقه في مرضاته » .

ليت هذا الوصف قد جرى به قلم الجاحظ نفسه واظن اننا لا حاجة بنا من بعده الى معرفة شيء من صورة البصرة وانما يلزمنا ان نعرف ان في البصرة نشأ النصيب الاوفى من عبقرية العرب فكان لهذه البقعة من شعر العرب ولغتهم وادبهم ونحوهم الحظ الاوفر فلا نذكر البصرة الا تمثل لنا بشار بن برد والسيد الحميري وسلم الخاسر وحسين بن الضحاك وصالح بن القدوس والرقاشي والرياشي وغيرهم من الشعراء على اختلاف طبقاتهم واي تربة افضل من تربة سقى ماؤها وغذى هواؤها وادفأت شمسها رجالاً تبسط سلطانهم في عالم الطبيعة وفي عالم العاطفة فكان للطبيعة وللعاطفة من شعرهم مرآة مصقولة الجوانب مرة تعكس لنا اشكال الالوان على تباين كدرتها وصفائها ومرة تمثل لنا صور العاطفة على اختلاف دقائقها .

ولا نذكر البصرة الا تخيل لنا الاصمعي وابو زيد الانصاري وخلف الاحمر والخليل

ابن احمد والنضر بن شميل وقطرب وغيرهم من المحافظين على لغة العرب المرامين دون حياضها واذا قلنا : لغة العرب تصورت لنا هذه المادة التي اعانتهم على الافصاح عن نتائج عاطفتهم وشعورهم وعن ثمرات خواطرهم وعن مذاهب حضارتهم وعمرانهم وعن اساليب سياستهم وسيرتهم فكان في هذه الالفاظ المجموعة في كتاب واحد صورة ناطقة تعرب لنا عن ظواهر العرب وبواطنهم ·

وفي البصرة نشأ سيبويه والمازني والى البصرة ينتمي المبرد وابن دريد فمن هذا كله يظهر لكم ان معظم عبقرية العرب في الكوفتين فاذا نبتت على ضفاف بردى عظمة العرب وما اشتملت عليه هذه العظمة من منازع قومية فعلى ضفاف الرافدين دجلة والفرات طلع فكر العرب وشعورهم وللجاحظ نصيب غير يسير من هذا الفكر ومن هذا الشعور ·

دمشق : في ٢٠ كانون الاول ١٩٣٠

ادبنا القومي

— ٣ —

بين القديم والجديد

ابتدأ الشعور الصادق بازمة اللغة العربية في مصر من يوم دلفت اليها علوم الغرب الحديثة على يدي محمد علي الكبير · ولقد حدثتك في مقال سابق انه استعان على الترجمة بين اساتذة الطب الغربيين وبين طلبتهم من المصريين او المتمصرين بجماعة من النازحين الى مصر من المغاربة ومن بلاد الشرق القريب ، فكانوا يؤدون الى هؤلاء بالعربية او بما يشبه العربية مايلقيه اولئك باللغات الغربية · فكان هذا اول مجهود بذل في هذا الباب · واذا لم يكن قد انتج كثيراً ، او لم يجر على وجه الدقة فالعذر لهؤلاء السابقين قائم ، وسعيهم مشكور على كل حال ·

وظلت الحال على هذا الى ان عاد من الغرب رفاعة وقرناؤه ، واتسعت رقعة العلم الحديث في مصر بما انشئ من المدارس في فنون الحياة المختلفة ، وقويت الحاجة الى التماس صيغ العربية ومفرداتها تؤدي بها علوم العصر الحديث · فلم يتعاظمهم الامر ولم يخذل من عزائمهم ، بل لقد جردوا هماً تتزلزل الجبال ولا تتزلزل ، فأقبلوا على معاجم اللغة وجعلوا ينفضون منها كل لفظة تؤدي معنى مما بين ايديهم ، كما أقبلوا على الكتب العربية في العلوم والفنون المختلفة مؤلفة ، ومترجمة عن اليونانية وغيرها ، فاستخرجوا منها شتى المصطلحات الفنية وأطلقوها على ماوقع لهم من المصطلحات في اللغات الاجنبية · فاذا قام لهم بعد هذا جديد من المعاني في لغات الغرب فلم يجدوا له من قديم صيغ العربية مايترجم عنه عاذوا بالتعريب · فعمدوا الى الكلمة الاجنبية فأطلقوها بعد ان يهذبوها بما يسيغها في لسان

العربية . وبعد ان كان الامر في صدر النهضة مقصوراً على الترجمة فقد شمر العلماء المصريون للتأليف فأخرجوا من الكتب والرسائل مؤلفة ومعربة مالا يحصى كثرة في الطب والهندسة والحساب والفلك والطب البيطري والزراعة والتعدين وغيرها مما زخرت به العربية على الرغم مما كان يشوبه من المعرب والدخيل والركيك . والا فكيف كانت الحيلة في أداء علوم الحياة للمصريين ؟ ما احسب احداً يزعم ان الواجب عليهم كان ان يتربصوا بالعلم حتى يأذن الله فيخرج لهم من خالص العربية مايدل على كل ما كان وما سوف يكون .

ولعل الحرج السياسي في مصر في مؤخرات عهد اسماعيل ، ثم في تهيؤ البلاد للفتنة في عهد توفيق قد خذل من قوائم هذه النهضة « اللغوية العلمية » وان لم يخذل في النهضة الادبية ثم كانت القارعة الكبرى بالاحتلال الانجليزي ، ثم تعمد المسيطرين منهم على التعليم بسط العلوم على التلاميذ باللغة الانجليزية . ولا يذهب عنك ان ادامة هذا السنين الطوال قد كاد يقطع ، ثانياً ، الصلة بين العربية ومصطلحات العلوم الكونية : ولسوء حظ العربية لقد كانت هذه الفترة هي اشد فترات التاريخ ازدحاماً بمخترعات الغرب ومستكشفاته في مرافق الحياة . وما زال يرشقنا كل يوم منها بما لا نجد عنه منصرفاً ولا محيداً ، ولا تجد لغتنا عليه مسعداً ولا معيناً !

على انه من جيل مضى قد تعاظم هذا الخطب جماعة العلماء والمتأدبين فانبعثت له طائفة من ائمة اللغة واعلام البيان واقبلوا على كتب اللغة ينكتونها نكتاً ليصيبوا بها ما يمطرنا به العلم الحديث ، فجدوا اشهراً او اياماً ، ولا ادري ما الذي فرق عزائمهم ، فسرعان ما انقبضوا بعد ان اخرجوا بضع عشرة كلمة سار أقلها ومات سائرها ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

على ان جهوداً فردية ظلت مرسلة ، انتج بعضها كثيراً ، وانتج بعضها قليلا . الا انها بكثيرها وقليلها لا تغني في هذا الباب كثيراً !

وعلى ذكر هذه الجهود أحيي بأطيب التحيات وازكاها ذكرى استاذنا الاعظم العالم اللغوي الاديب الشاعر الكاتب حفني بك ناصف عليه رحمة الله . فانني لا أعرف في هذه البلاد من جمع بين خدمة العلم وخدمة الادب وخدمة اللغة ، وخاصة من الجهة العملية مثل حفني ناصف . و يدوم على هذا طوال السنين لا زهو ولا استكبار ، بل انه لتواضع

يشبه الانكسار . وهكذا العلماء لا المتعالمون !

إذن لم يغن كل ما بذل العهد الاخير في مطالب العلم الحديث عند لغة العرب . وكيف الحيلة في هذا الخطب الجسام : ان البلاد تريد ان تتعلم ، وتريد ان تتعلم بلغتها لغة العرب ، وفي الحق انهـا اذا لم ترد هذا فقد خطت بيدها قبراً لا انبعاث لها منه الى غاية الزمان .

وهنـا اذكر لامام الصحفيين المرحوم السيد علي يوسف حكمة له مأثورة : « ان من يعلم الامة بلغتها فانه ينقل العلم اليها . اما من يعلمها بغير لغتها فانه ينقل أفراداً منهـا الى العلم » . ونحن المصريين بحمد الله اشد أنفة واوسع في الحياة مطلباً واعز مطمعاً من ان نقنع بان ينقل افراد منا الى العلم !

وإذن لا بد من حل ، وهذا الحل لا يمكن ان يكون الا باتخاذ احدى طريقتين لاثالث لها : اما العياذ بالنحت والتعريب وما اليهما من الوسائل الى مط اللغـات حتى تصيب طرائف المعاني . واما الالتجاء الى التعريب بعد صقل الالفاظ الاجنبية وتسويتها حتى تستقيم اللهجة العربية . وذهب قوم من افاضل العلماء الى هذا ، وخالفهم جماعة من أندادهم الى ذاك . ومن ذلك اليوم نشأ في هذه البلاد مايدعى بالقديم والجديد ، ونجم من يدعون أنصار القديم ومن يدعون أنصار التجديد .

نعم ، لقد اتسع بعد هذا معنى القديم ومعنى الجديد اذ اصبح الى تناوله فقه اللغـة . يتناول الادب في تصرفه واساليبه ومطالبه والغاية منه وغيرذلك ، ولهذا شيعة وانصار ، ولهذا شيعة وانصار ، واننا لنعود الى هذا الموضوع بعد اذ نفرغ مما اخذنا فيه من هذا التاريخ لكيلا تختلط الموضوعات و يختل نظم الكلام .

اسلفت عليك ان الخلاف قد انبعث بين من يقولون بالاجتزاء بالنحت والاشتقـاق وما اليهما ، وبين من يذهبون الى التعريب . وقامت المناظرات بين الفريقين ، وعقدت المحافل لشهود الجدل والحوار . فكانت اظهر حجة لهؤلاء ان اللغة العربية قد انقبضت من مئات السنين عن اسباب الحضارة ، ولم تشهد هذه العلوم الحديثة ولا عهد لها بهـذه الوسائل التي يطلع علينا الغرب بها كل حين . فليس من المعقول ان نصيب فيها ما يغني في كل ذلك .

ومن المسلم به اننا في علومنا واسبابنا في الحياة انما نعيش عيالاً على الغرب وعنه نأخذ ، ومنه نستمد وبه نقتدي فلا محيص لنا عن التعريب . على اننا لا نكون مبتدعين اذا نحن عمدنا الى التعريب . فلقد اضطر اليه سلفنا العظام في انضر عصور اللغة العربية وازكى ايامها ، اضطروا اليه في صميم العصر العباسي حين ارادوا على نقل علوم اليونان وآداب الفرس الى لغة الكتاب العزيز ، ولست تتق كتاباً ترجم او أُلف في ذلك العهد في منطق او فلسفة او طب او هندسة او فلك او غيرها ، الا رأيته قد سلك ، في كثير من المواضع ، سبيل التعريب .

وأبلغ من هذا ان العرب في جاهليتهم على غنى لغتهم الهائل وعلى انهم كانوا أجهل خلق الله بالعلوم والفنون ، لم يتحرجوا من ان يقترضوا كثيراً من الالفاظ الفارسية والحبشية وينظموها في صميم العربية .

وكان من أبلغ حجج الآخرين ان التعريب لايجوز الا للعرب . فهم وحدهم الذين يملكون ان يدخلوا في لغتهم ماشاؤا وان ينفوا عنها ماأرادوا . فكل دخيل بعدهم لايمكن ان يقال انه من لغة العرب .

على ان السابقين في العصر العباسي وما وليه اذا كانوا قد اضطروا في سبيل الترجمة عن بعض مصطلحات العلوم الى ايراد كلمات اجنبية فما كان ذلك ليدخلها في لغة العرب ، بل انها مازالت تعتبر من لغى اجنبية .

ثم ان العباسيين قد استطاعوا ان يترجموا بالعربية الصحيحة الخالصة علوم اليونان ، وبديه ان وقوع طائفة يسيرة من المصطلحات الأعجمية فيها لايخرجها عن عربيتها . اما نحن فاذا طرقنا اليوم هذا الباب فسنجد في كل عشر كلمات واحدة عربية وتسعة معربة ، او على الصحيح اعجمية ، اما لانه ليس في لغة العرب مايدل على المعنى الحديث ، واما باستسهال الناس للتعريب عن طول المراجعة والتنقيب ، وفي هذا القضاء كله على لغة الكتاب الكريم .

ويرى هذا الفريق من العلماء ان في ابواب النحت والاشتقاق والمجوز متسعاً لكل ما يعرض لنا من معنى حديث وزادوا على هذا انه اذا تعصت لغة العرب عن اداء معنى طريف بعد ان نفر كل تلك الابواب ، وتنفد الحيل والوسائل ، فواجب ان نلجأ الى مجفوات

اللغة وما لم يعد يستعمل من مفرداتها فيطلق على ذلك المعنى ، وبذلك تؤدي الغرض من جهة ، ونبعث ميت العربية من جهة اخرى .

ثم يحتدم الجدال ، ويستحر الطعن والقتال ثم اذا الزمن يكر ، واذا الليالي تفر ، واذا اللغة في انقباضها ، واذا المعاني الحديثة ما زالت في اضطرادها ، لا نستدركها على رأي انصار القديم ، ولا نلحقها على رأي اصحاب الجديد .

وقبل ان نجوز هذا الموضع يجب ان نشيد بأثرين كريمين كان لهما حظ في انعاش اللغة العربية بقدر محمود . اولهما ، انه لما ولي المغفور له سعد زغلول باشا وزارة المعارف تقدم بتدريس العلوم المختلفة باللغة العربية ، فنشطت العزائم ، وتضافرت الهمم على التماس ما يترجم من صميم العربية عن مطالب تلك العلوم . وكان من مقتضيات هذه النهضة ان أنشيء في وزارة المعارف قلم للترجمة العلمية ، فاخرج في مختلف العلوم كتباً غير يسيرة ، اذا اعوز بعضها الدقة في حسن الاداء ، فلقد كان لها نفعها على كل حال .

والثاني انه لما تقلد المغفور له احمد حشمت باشا هذه الوزارة والى سعي سلفه العظيم ، واقبل على تشجيع تلك النهضة بتقريب علماء اللغة واذكاء هممهم ، وشق طرائق العمل لهم وبادر فألف لجنة دعيت (لجنة الاصلاحات العربيـة) يتولى رياستها وزير المعارف ، ووكالتها وكيلها ، ودعا الى عضويتهـا جماعة من خيرة العلماء : اسماعيل حسنين باشا ، احمد زكي باشـا ، حفني ناصف بك ، اسماعيل رأفت بك . الشيخ احمد السكندري وغيرهم .

ولولا حب الجدل ، الذي ابتلينا به نحن المصريين ، لآتت هذه اللجنة اجل الثمار ؛ على انها برغم ذلك قد حققت كثيراً من الاعلام والمصطلحات الجغرافية مازالـــ يؤخذ بها في التعليم الى الآن .

ثم فترت هذه الفورة بعد اعتزالـــ حشمت باشا وزارة المعـارف وجرى على تلك اللجنة القضاء المحتوم .

***

« المجمع اللغوي

ادرك اهل العلم ثانياً ان جهود الافراد لا تغني في هذا الحدث كثيراً ، لان الواقع دل على ذلك اولاً ، ولأن عمل الفرد في مثل هذا لا يُكفَل له الضبط والدقة الواجبان ثانياً ، ولان اثر الفرد لا يلتزم به المجموع ثالثاً ، فتكون النتيجة نتيجة الارتكان على الجهود الفردية ان تختلف الدلالات على المعنى الواحد ، سواء في الالفاظ المفردة او في الصيغ المحبوكة .

ومن هنا التفتت النيات الى وجوب عقد مجمع لغوي يضم اليه افذاذ العلماء واللغويين وكبار الادباء من الشعراء والنقدة والكتاب ، حتى يثمر السعي من جهة الدقة والتجويد ، ومن استراحة جمهور المتأدبين اليه واخذهم به في معالجتهم لالوان العلوم والآداب .

ووجهت الدعوة الى صفوة هؤلاء فعلا ، وجهها الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير دار الكتب يومئذ) فلبوا ، واجتمعوا ثم اجتمعوا ، ثم انفضوا لا عن شيء وتفرقوا كل مفرق .

وبعد بضع سنين شبت هذه النية مرة اخرى فدعا صاحب العطوفة ادريس راغب بك جماعة من صفوة العلماء والادباء الى عقد « مجمع لغوي » ايضاً . فاجتمعوا واشتعبوا لجاناً تتجرد كل واحدة منها لمطلب خاص ، ثم اجتمعوا وانتضح مسعاهم عن اثر يسير ، لا ادري مصيره اليوم ، ثم انفضوا وتمزقوا كل ممزق .

لم يبق بعد كل هذا بد من احالة الامر على الحكومة فالحكومة قوية بمالها ، قوية برجالها ، قوية بقوانينها . ماتأخذها هوادة في بسطها على موظف فاتر كسول وبعبارة أخرى ، لا نجاح « لمجمع لغوي » الا اذا تولته الحكومة فاصبح فرعاً (رسمياً) من فروعها . ولهذا مزية اخرى ، وهي ان الحكومة تستطيع ان تفرض ما يخرجه (المجمع اللغوي) فرضاً في كتب التعليم وفي مكاتباتها (الرسمية) وغير ذلك . وفكر في ذلك الاستاذ علي الشمسي باشا مذ كان وزيراً للمعارف ، واحتفل للامر ايما احتفال ، وراجع فيه الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير الجامعة يومئذ) والاستاذ احمد حافظ عوض بك وثالثاً . وقدم كل منهم الى الوزير تقريره متضمناً المبادئ الاساسية التي ينبغي ان يقوم عليها بناء المجمع والغاية من قيامه ، وطريقة قيامه بمهمته ، على جهة الاجمال لا التفصيل . وجعل الوزير يفكر بعد ذلك ويتدبر ، وفي خلال هذا التفكير وهذا التدبير تخلت الوزارة عن الحكم .

وقام على وزارة المعارف بعده الاستاذ احمد لطفي السيد بك فوالى مسعاة سلفه ، وجد في الامر ايما جد حتى اتم مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ومشروع ميزانيته على ماروى لي الثقة الصادق ، والعهدة عليه ثم لم يظهر لهذا المجمع «الرسمي» الى الآن (حس ولا خبر) .
وهكذا ظلت لغة العرب وحاجة العلم يناشد كل منهما صاحبه قول الشاعر :

أرى ماء وبي ظمأ شديد ولكن لا سبيل الى الورود

ولقد انتهى الي ان هناك ملاحظة قوية قد ارتفعت على مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ذلك بان اللغة العربية ليست ملكاً لمصر بين وحدهم حتى يستأثروا بالتصرف فيهـا ، بل هي ارث مشاع بين جميع الامم التي تنطق (الضاد) . وهيهات ان يكفل لهذا المشروع نجاح الا اذا اشترك فيه مندوبون عن سائر الامم العربية الاخر ، ليجري كل ما يستخرجه المجمع وما يولده على السنة المتكلمين بالعربية في جميع اقطار العالم ولقد يكون لهذا الرأي شيء من الاعتبار بتوحيد جميع الصيغ والدلالات في أقطار العالم العربي ، وان كان هذا برغم الف مجمع ومجمع ، مما يكاد يلحق بالمستحيل . ولكن اليست اقامة مجمع لغوي مصري بحت خيراً من ألا يقام مجمع البتة من اي نوع كان ؟ .

ثم لقد سبقنا اخواننا اهل الشام فألفوا « لهم مجمعاً علمياً لغوياً » فهل دعونا او دعوا غيرنا من المنتمين للعربية الى الاشتراك فيه ؟ وهل هم منتظرون حتى تبدي الامم العربية الاخرى رأيها فيما هم مخرجون ؟

والحق الذي لا ريب فيه ان مصر اعلى البلاد العربية حضارة واوفرها غنى ، واوسعها علماً وادبا ، فهي حاملة لواء الحضارة في الامم العربية ، وان غيرها ليقتدي بها . ولو انها نجحت في هذا الباب سبيلها لاتبعها غيرها واخذ عنها سواها من الامم الناطقة بالعربية .

ثم ماذا يضيرنا نحن اذا خالفنا غيرنا ، في الدلالة على المعاني الحديثة ، الى غير ما نستخرجه من المفردات وما نتواضع عليه من المصطلحات ؟

***

وبعد فلقد اوردت عليك موجزاً من تاريخ اللغة العربية من صدر النهضة الحديثة ، ومبلغ تقلبها ، وكيفية تصرفها . والجهود التي بذلت في سبيل انبساطها لحاجات العلوم

الكونية . ومن هذا كله ترى ألا ملجأ ولا منجى الا بالاسراع في عقد مجمع لغوي (رسمي) تكفله الحكومة ، و يشد منه جمهرة العلماء والمتأدبين . .

بين القديم والجديد ايضاً

قلت لك في مقالي الماضي انه قد اتسع معنى القديم ومعنى الجديد ، اذ أصبح الى تناوله فقه اللغة ، يتناوله الادب في تصرفه وأساليبه ومطالبه والغاية منه ، وغير ذلك . والواقع ان الخلاف جد واضح في امر فقه اللغة ، فهناك قوم يقولون بالتعريب فيما لا غناء للعربية فيه وقوم لا يسيغونه البتة ، بل يذهبون الى معالجة ذلك بالنحت والاشتقاق وما اليهما على ما سلف به التفصيل . اما الخلاف في شأن الادب بين أنصار القديم وأنصار التجديد ، فالحق انه غير واضح المعالم ولا بين الحدود .

نعم ان هناك اختلافاً كبيراً تحسه وتستشعره بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء وهذا الاختلاف لقد يظهر مرة بقدر كبير وقد يظهر مرة بقدر صغير ، فهو من الجهة العملية قائم على كل حال . اما من الجهة النظرية فان احداً لم يتقدم الى الآن بتبيين حدوده واظهار وجوهه وتفصيل مسائله . وبعبارة أخرى : ان احداً من هؤلاء ولا من هؤلاء عبر في صراحة ونصاحة بيان عما يرى ان يكون عليه الادب العربي في هذا العصر الذي نعيش فيه . فان انت ظفرت بشيء من البيان في هذا ، ظفرت به على وجه الاجمال لا على وجه التفصيل . وعلى ذلك فليس من حقنا نحن المحايدين ان ندخل في تفصيل ما طواه اهله وأجمله ذوو الشأن فيه . بل ان كل ما علينا ان نأخذ في الامر كلامنا من الجهة النظرية بالاجمال . اما من الجهة العملية البادية في آثار اصحاب القديم وانصار التجديد ، فهذه من حقنا ان نخوض فيها على جهة التفصيل :

يعيب اصحاب القديم خصومهم بان آداب الافرنج قد غمرت احساسهم وطغت على مشاعرهم فانحرفت ملكاتهم عن الطبع العربي ، فهم اذا نظموا او أرسلوا البيان وان جلوه في لفظ عربي فانه لا يستقيم لطبع اللغة ولا يساير كرائم آدابها وبدائع أساليبها : صيغ حائلة ، وجمل ناصلة ، وتراكيب متزايلة ، وأخيلة ناشزة على الطبع ، وتشبيهات نابية عن السمع . وانزلاق الى معان غريبة لا يصلنا بها سبب ، ولا يربطنا بها نسب .

وهيهات ان يكون الادب كذلك أو يكون ذلك من الادب ·

ويجيبهم الآخرون : انكم لاتفقهون الادب ، ولاتدركون اثر الادب ، ولاتعرفون الغاية من الادب ، لان كل همكم وهمتكم قد احتبسا على رص الألفاظ وتزيين الصيغ بالتماس ألوان المحسنات البديعية مهما استهلكتم المعاني في هذا السبيل ، والتجرد في تلقط جملة قديمة او مثل عربي تسوقون ذلك في غير شيء ، وقد تدفعون الكلام اليه دفعاً لتصيبوه وتستكرهوه على نظمه فيما أنتم فيه · فالاصل في الادب عندكم نظم الفاظ وتصيد صيغ وتزويق كلام كائنة ماكانت معانيه ، وواقعة ماوقعت مراميه · اما المعاني واما الاغراض ، واما إفضاء النفس بما يترقرق فيها من الوان الحس ، واما تصوير الجمال وإشعاره الخ فلستم هناك في شيء من ذلكم · وهذا هوالادب لو كنتم تفقهون ·

هذه صفوة ماانتفض الينا من مناظرات الفريقين (أصحاب القديم وانصار التجديد) اما من الجهة العملية فقد حدثتك في صدر هذا المقال بان الاختلاف بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء لقد يظهر مرة بقدر كبير ، وقد يظهر مرة بقدر صغير ولآن ، ونحن بسبيل الابانة عن الخلاف من هذه الجهة ان نعمد الى أطول أقطاره وأوسع مراميه لنظهر القاريء على أوضح صوره وأبين مجاليه :

فلان عندنا وفلان وفلان يقرضون الشعر فلا يكادون يأتون به الا بالغريب الشامس من مفردات اللغة لا يجد الخاصة انفسهم السبيل الى فهمه الا بمراجعة المعاجم ·· فاذا سافروا (في اشعارهم) فطريقهم الموامي (الصحاري) وما يترقرق فيها من السراب ، وما يتراءى لهم من الآل ، يقطعونها على متون العيس ، وكيف وردت خمساً (بكسر الخاء) او سدساً (بكسر السين) وكيف صنع ذيلها؟ اوضعته عارضة؟ (فنقول ارخى فوقها ستر) ام رفعته شامذة (فنقول رنق فوقها نسر) وكيف حنت النجائب وكيف انت ، ولم تبلغ راكبيها طلبتهم الا بعد ان :

اكل الوجيف لحومها ولحومهم فأتوه انقاضاً على انقاض

فاذا بكوا بكوا الأطلال والاحجار من دوارس الآثار · واذا تعشقوا تعشقوا (بنت معتنق الفوارس في الوغى) واذا واعدوا الحبيبة اللقاء ففي (منعرج اللوى) واذا فاخروا

بالكرم ، فبحر الجزور لسنامه (شحم كهداب الدمقس المفتل) واذا كاثروا بالشجاعة فاداتهم للطعان (السيف اليماني ، والرمح السمهري ، والقنا الخطي) الخ الخ الخ ٠

اما المتطرفون من اصدقاء الحديث فعندهم (الموت اللازوردي) و (الهيولى الراقدة على سرير الابدية) و (العذاب الناعم) و (بالجحيم) و(بالشيطان) و (الشيطان المرتبك في نسيج عنكبوته) الخ مما لا أريد الاطالة فيه إشفاقاً على ذوق القارئ الكريم ٠

هذان مثلان ضربتهما اولهما شديد التطرف في التعصب للقديم ٠ وثانيهما شديد التطرف في عدم المبالاة باللغة في سبيل اصابة معنى حديث ٠

ولا يذهب عنك انه يقع بين هذين الحدين مراتب متعددة ، حتى انك لا تكاد تحس في بعض الآثار فروقاً بين اصحاب القديم وانصار التجديد ٠ ولا ننس ان العلة فيما ترى من هذا التبلبل او شبه التبلبل في الاساليب هي ماشرحته لك في المقال الثاني فراجعه ان شئت وجوه التعليل ٠

وبعد ففيم الخلاف في الرأي ، وفيم كل هذا الجدل والحوار ؟ لقد يفهم ان يقوم الخلاف جدياً في متن اللغة بين من يقولون بالتعريب ، ومن يحظرون التعريب ٠ وهذه مسألة يجب ترك البت فيها لمجمع لغوي معقودة له ثقة العلماء وأئمة اهل البيان ٠ اما الادب وأساليبه وسائر اسبابه فالخلاف عليه لا يزول بالمناظرة ولا بالاقناع ، وانما بتقاص و يزول بحكم الزمان ، وانه الى هذه الغاية لفي بعض الطريق ٠

لا أحسب ان هناك شكاً عند اصحاب القديم او دعاة التجديد في ان الأدب في كل لغة وعند كل أمة كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة ما يجري على سائر هذه الكائنات فهو ينمو ويهزل ، وهو يطول و يقصر ، وهو يشتد و يضعف ، وهو ينبسط و ينقبض ، وهو يجود و يخبث ، وهو يتشكل و يتلون ٠ يتأثر في كل هذا بما يدخل عليه من العوامل وما يحيط به من الاسباب والملابسات ٠

ثم اذا كانت ابلغ مظاهر الادب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من العواطف ، و يتنزى فيها من الوان الاحساس ، وما يتعلق به الذهن من فنون الاخيلة ، فلا بد للأدب على هذا من ان يتلون ، ولا بد له ان يتطور ٠

واعلم وفقنا الله جميعاً للسداد ان اهل العلم اجمعوا على انه مامن صورة يبتدعها الذهن

او خيال يتراءى للوهم الا وهو منتزع من امر واقع مستمد من حقيقة ثابتة . وانك مهما تمثلت لنفسك من الصور ماتجاوز المعقول ، وطيرت من الأخيلة مايلحق بالمستحيل ، فلست بمستطيع ان تجاوز في شيء من ذلك الواقع ، ولا ان تخرج عن دائرة المحسوس ، وانما كل شأنك فيما تتصور او تتخيل انك تلفق صورك وأخيلتك من الواقع المحسوس ، انك تستطيع ان تتصور جبلاً من اللؤلؤ وبحراً من الزئبق وانساناً من الخشب وطائراً من الذهب ، فهل تراك في هذا جئت بشيء من العدم ، كلا فالجبل موجود واللؤلؤ موجود والبحر موجود والزئبق موجود الخ ، فكل ماصنعت انك لفقت من الحقائق الواقعة لحسك فأخذت من الجبل جرمه ، واستعرت اللؤلؤ لجوهره وهكذا ، وكيف يتهيأ لذهن انسان ان يتمثل اشياء لم تقدر في الخلق ولم يقع عليها حس ؟ ذلك المستحيل .

ولقد ترجم العرب عن احساسهم اصدق الترجمة ، وصوروا عواطفهم ابدع تصوير ، فوصفوا البيد لانها مساكنهم ، والنوق لانها مطاياهم ومادتهم في طعامهم ، وأن لهم (من اصوافها واوبارها واشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين) وافتنوا في وصف السيف والرمح لانهما عدتهم في حروبهم ومغازيهم الخ ..

والناس هنا انما يسكنون الدور ، بله القصور . ويسعون في شوارع فؤاد الاول وقصر النيل (والكورنيش) لا في سقط اللوى ، ويمتطون في سفرهم وتجوالهم قطر السكك الحديد ، والترام ، والسيارات ، والمركبات ، لا متون العيس ، وعيونهم تقع كل يوم على ماتخرج الارض من مختلف الازهار والانوار ، لا على النخل ، ولا على الجدب المحل ، وهم يستصبحون بالكهرباء لا بالزيت الخ ، وهم من هذا الذي يقع لحواسهم فوق ما شاع في نفوسهم من علوم الكون واسبابه ، انما يستلهمون الحس ويستوحون الشعور . ولا سبيل لهم الى غير ذلك . فمن أرادهم بعد هذا على ان يغمضوا جفونهم ، ويسدوا آذانهم ويحقنوا انوفهم ، ويبعثوا بمشاعرهم الباطنة وعواطفهم الكامنة ، الى جزيرة العرب تسلخ اليها الف عام مضت لتشهد ماشهد العرب ، وتحس ماأحس العرب ، وتقول ماقال العرب — فذلك من لا يحق له ان يعد في الناس .

ثم مالنا ولكل هذا ، ألم تكن للجاهلية آدابها ، حتى اذا فتح الاسلام للعرب ، واتصلوا بطرف من الحضارة في العصر الأموي تطور هذا الادب وتلون مسايرة لكل

صور الحياة ، حتى اذا استحصدت الحضارة وذاع العلم في العصر العباسي ازداد تطور الادب فوافى كل مطالب العلم والحضارة . وهكذا مابرح الادب يتشكل و يتلون في كل عصر وفي كل بيئة .متأثراً بما يتداخله من العوامل وما يحيط به من الاسباب .

والشيء بالشيء يذكر ، فلقد قيل لابن الرومي كيف يسبقك هذا الغلام من بني العباس ؟ (يريدون عبد الله بن المعتز) فقال هذا غلام اذا شعر فانما يصف آنية بيته وصدق ابن الرومي ، ودعك من تشبيهات ابن المعتز في السحاب ، وفي الهلال والنجوم وفي الخمر وفي خيل الطراد ؛ وانظر كيف يقول حتى في مقام الاستعطاف والمديح . قال يصف قلم ابي القاسم :

قلم ما أراه ام فلك يجري ... عما شاء قاسم و يسير
خاشع ساجد يقبل قرطا ... سا كما قبل البساط شكور
مرسل لاتراه يحبسه الشك ... اذا ما جرى ولا التفكير
كم منايا وكم عطايا وكم عيـ ... ـش وحتف تضم تلك السطور

أرأيت كيف يكون كلام الملك بن الملك حتى في مقام المديح والاستعطاف ؟ انه لايرى القلم يجري الا بما شاء مرسله وانه لايمثله في انحنائه على القرطاس الا بمن براهم في حضرة ابيه وحضرته خاشعين ساجدين يقبلون البساط شكراً على ما أوتوا من النعمة . ثم لا يرى هذا القلم الا يجري دائماً بالاسعاد والاشقاء و بالاحياء والافناء .

نظن ان هذه القضية من المسلمات عند اصحاب القديم وانصار الجديد .

وهنالك قضية أخرى لااحسبها كذلك موضع خلاف بين هذين الفريقين : وتلك ان هذا الادب الذي نحاور فيه انما هو قبل كل شيء ادب العرب . ولهذا الادب اصله وعنصره ، وله مادته وجوهره ، وله بدائع تراكيبه ، وروائع أساليبه ، وله نصاحة ديباجته واشراق بيانه ، وله تلاحم نسجه ورصانة بنيانه ، وله موسيقاه تنحدر الى النفس فتحفزها من عجب ، وتثيرها من شجى وطرب ، حتى انك لتصيب الجمال كله في تنسيق اللفظ ، وتستشعر اللذة اجمعها في تجويد النسج دون اي اعتبار لمعنى او تعلق بخيال .

أليس يهزك قول البحتري :

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة بالعقيق

وقوله :

ذاك وادي الاراك فاحبس قليلا مقصراً في ملامة او مطيلا
لم يكن يومنا طويلاً بنعما ن ولكن كان البكاء طويلا

أليس يهزك هذا الكلام ، يتزاحف الى كبدك ؟ ومع هذا اي معنى فيه ؟ واي غرض أراد ان يشكه الشاعر به ؟ اللهم لا شيء غير شرف اللفظ ، وتلاحم النسج ، والبراعة في تأليف الكلام فاذا خرج بنا طلب المعاني الطريفة والتشبيهات الحديثة عن ارضاء الذوق وانحرف بنا عن مواتاة الطبع فقد حق لنا الا ننتظم ذلك الكلام في الادب العربي لا على التفصيل ولا على الاجمال ٠

* * *

هاتان قضيتان ليس الجمع بينهما بالمعنى ولا بالعسير ٠ فلقد زعمت لك في بعض هذا المقال ان الادب كائن حي يجري عليه من سنن الكون ما يجري على سائر الاحياء ٠ فاذا لم تر له الا ان يظل رابضاً في مجثمه من عصر طرفة وزهير فذلك تعسف ايما تعسف ، وانكار لحقوق الحس وواقع الشعور أيما انكار ٠ واذا قدرت له ان يسلخ جلده ، ويجدع انفه و يصلم أذنيه ويفري لحمه و يبري عظمه ٠ ثم يتزايل و يتتابع حتى يستوي للمعاني الحديثة ، و يتهيأ لمطالب الحياة الطريفة ، فذلك العسف بأدب العربية وذلك الخسف من دونه كل خسف ٠

اذن لقد اتفقنا في تقديري على الاقل على انه لا سبيل لنا الى استمداد مشاعرنا واحساسنا من غير ما يحيط بنا من الاسباب كما انه لا ينبغي لنا أن نجانف لغة العرب وما ازلوا لنا من بارع الصيغ وروائع الاساليب ٠

فهل ترى يشق علينا الجمع بين هذين المذهبين ؟

كلا والله ما كان ذلك — لو بسطتم لغة العرب في البلاد — بعسير ٠

ولقد سبقكم القرآن الكريم بالترجمة عن السنة الامم الخالية ، فسوى المعنى بالضرورة كاملاً ٠ ولكنه طبعه على ذوق العربية فروي عن ابليس في نشأة آدم (رب فانظرني

الى يوم الوقت المعلوم) وروي عن نوح (رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين) وروي عن شعيب وآل شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز . قال ياقومي ارهطي اعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا — الآية الكريمة) وروي عن فرعون موسى يتحدث الى وزيره : (ياهامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الاسباب . اسباب السموات فاطلع الى إله موسى واني لاظنه كاذباً — الآية الكريمة) وغيرهذا مما لا يستدركه الاحصاء من ترجمات الكتاب العزيز . افكان هذا كله ترجمة حرفية يدل فيها لفظ بلفظ ؟ ام ان الكتاب الكريم صاغها بما يتضمن المعنى كله ويتوافى في الوقت نفسه للهجة العرب .

صدق الله العظيم

وفي الواقع انك ترى فينا نفراً ممن اخذوا انفسهم بادب الغرب وطبعوا على ثقافته ، اذا ترجموا او اجتمعوا لاداء معنى حديث اخرجوه على سمت عربي لا ينبو عن الطبع ولا ينشز عن الذوق . وانما اعانهم على هذا فقههم في العربية ووفرة ماحصلوا من مفرداتها وكثرة ما قلبوا من النظر في صيغها واساليبها .

* * *

ولقد قلت لك في بعض هذا الكلام ان الادب كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة ما يجري على سائر الاحياء اليس يندفع الوليد من رحم امه دقيقاً ضعيفاً لا يملك من امر نفسه كثيراً ولا قليلاً ، فما يبرح ، على الزمن ، بالغذاء والتربية والرياضة ينمو ويتفطن وتدرك جوارحه وتنضج حواسه حتى يصبح رجلاً كاملاً ، اذ هو هو مابدل يداً بيد ، ولا رأساً برأس ، ولكنه صنع الطبيعة تربيه وتنميه رويداً رويداً بما يدخل عليه من الغذاء ، وما يؤثر فيه من عناصر الحياة ، وانت ابوه ما تكاد تستشعر نموه ولا شبوبه للرجولة . وقل مثل هذا في الشجرة الباسقة المظلة المثمرة ، فلقد تخرج نجماً ، ثم لا تزال بموالاة السقي وحسن التعهد تنمو وتطول ، اذ انت لا تحس لها شيئاً من هذا حتى تنبسق وتزهر ، ومع هذا فالشجرة هي الشجرة ما غيرت ساقاً بساق ، ولا بدلت غصناً بغصن .

وكذلك ينبغي ان يكون الادب ، هو الادب العربي في اصله ومنجمه ، يتلون بتلون الزمن ، ويتشكل بتشكل الحضارة .

والحضارة لا تهجم هجوماً ، بل انها لتتسرب الى الناس في هوادة ولين ، فيسايرها الادب كذلك في هوادة ولين ، بحيث ان كل ما تنتظر له به من معان حديثة ، واغراض طريفة ، يمد له بعض جوانبه حتى يتناولها و يسيغها و يهتضمها او يجريها في عروقه مجرى دمه حتى تندمج في نفسه وتصبح جزءاً من كله ، فيخرج بها وهو هو رابياً نامياً ، اذ تصبح هي به كذلك عربية لا شية فيها وعلى ذلك درجت العرب من اول جاهليتهم الى ان انقبضت لنتهم واوشك ان يتقلص ظلها بتقلص حضارتهم في هذا العالم ٠

لقد وضحت لك هذا المقام ابين توضيح ، وليس بعده من شك في ان من يريدنا على ان لا نعدو حدود الادب في الجاهلية أو ما بعد الجاهلية انما هو مخلوق لا يؤمن بالحياة ولا بنواميس الحياة ٠ وان من يريدنا على ان نطفر بالادب العربي انما هو انسان لا يؤمن بادب العرب ٠

باحث

رسالة الكرم

- ٧ -

« الحق والحلفة »

اللحَق محركة كل شيء لحق شيئاً او أُلحِق به من الحيوانـ والنبات وحمل النخل واللحق الثمر الذي يأتي بعد الاول · وكل ثمرة تجيء بعد ثمرة فهي لَحَق والجمع الحاق · وقيل اللحق في النخل ان ترطب وتُذْعِر ثم يخرج في بطنه شيء يكون اخضر فلما يرطب حتى يدركه الشتاء فيسقطه المطر وقد يكون نحو ذلك في الكرم يسمى لحقاً قال الطرماح في مثل ذلك يصف نخلة اطلعت بعد ينع ما كان خرج منها في وقته ·

ألحَقَتْ ما استلعبت بالذي قد أنى اذ حان حين الصرام[1]

اي ألحقت طلعاً غريضاً كأنها لعبت به اذ اطلعته في غير حينه وذلك ان النخلة انما تطلع في الربيع فاذا أخرجت في آخر الصيف مالا يكون له ينع فكأنها غير جادة فيما أطلعت ·

وفي المخصص واذا أنى العنب واناه ادراكه ثم اتى الكرم بحصرم جديد فذلك اللحق والجمع الحاق · والخِلْفَة كاللحق ·

وقيل الخلفة شيء يحمله الكرم بعدما يسود العنب فيقطف العنب وهو غض أخضر لم يدرك بعد[2] والخلفة في جميع الشجر وهو في النخل اللحق · وفي اللسان والقاموس فيقطف

(١) الاستلعاب في النخل ان ينبت فيه شيء من البسر بعد الصرام · واستلعبت النخلة اطلعت طلعاً وفيها بقية من حملها الاول ·

(٢) هكذا في الاصمعي وفيه ايضاً وهو الخلفة في العنب والنضاج في جميع الشجر وهو في النخل اللحق · وفيه ايضاً يقول احدنا لصاحبه أندخل تحت العنب فتلقط من الخلفة اي ادخل ولم ار النضاج الا جمعاً لنضيج او ناضج ·

العنب وهو غض أخضر ثم يدرك وكذلك هو من سائر الثمر . والخلفة ايضاً ان يأتي الكرم بحصرم جديد . وخلفة الثمر الشيء بعد الشيء والاخلاف ان يكون في الشجر ثمر فيذهب فالذي يعود فيه خلفة ويقال أخلف الشجر إخلافاً اذا اخرج ورقاً بعد ورق قد تناثر . وخلفة الشجر ثمر يخرج بعد الثمر الكثير . وأخلف الشجر خرجت له ثمرة بعد ثمرة . وتخالفت الفاكهة بعضها بعضاً تخالفاً وخلفة اذا صارت تخالفاً من الاولى .

« الزبيب »

تقدم ان الضمير هو الذابل[1] من العنب .

والزبيب ذاوي العنب[2] اي يابسه واحدته زبيبة وقد أزب العنب وزبب فلان عنبه تزبيباً جعله زبيباً فتزبب هو . وفي التاج أزب العنب وزببه تزبيباً فتزبب ومن المجاز قولهم تزبب قبل ان يتحصرم وفي المخصص فان ترك العنب حتى يتكشش[3] فقد أزب فاذا فعل ذلك به فقد زبب .

والزبيبي والزباب كشداد بائع الزبيب .

العُجْد بالضم الزبيب وقيل حبه وقيل اردؤه وقيل ثمر يشبهه وليس به . وقيل حب العنب وقد تقدم وذكر في القاموس جواز الفتح فيه .

العنجد قال في القاموس كجعفر وقنفذ وجندب الزبيب ونقلها في اللسان عن ابي زيد . وفي المخصص وهو الزبيب والعُنْجُد والعُنْجَد وقيل هما حب الزبيب وقيل هما من الزبيب الأسود .

وفيه عن ابن دريد العُنجُد ردي الزبيب او حب العنب وليس له اشتقاق يوضح زيادة النون لانه ليس في كلامهم عَجَد[4] الا ان يكون فعلاً مماتاً . وفي اللسان والعَنجَد

---

(١) ذبل كنصر وكرم النبات والغصن والانسان يذبل ذبلاً وذبولاً دق بعد الري وقيل ذوي . وذوى العود والبقل يذوي ذياً وذُوِيّاً ذبل فهو ذاوٍ وهو ان لا يصيبه ريه او يضر به الحر فيذبل ويضعف . وذوى العود يبس . (٢) والتين .

(٣) يقال تكشش جلده اي تقبض واجتمع .

(٤) في التكملة ليس في كلامهم عجد ولا عَجَد .

والعُنْجُد[1] رديءُ الزبيب وقيل نواه ·

الفَصَى بالفاء والصاد حب الزبيب واحدته فصاة وانشد ابو حنيفة :

فَصَى من فَصَى العنجد

الفضا[2] بالفاء حب الزبيب ·

القضى بالقاف المفتوحة · مقصورة العنجد وهو عجم الزبيب وهو لغة في الفضى ·
وقَفَّى الرجل بالتشديد اكل القفى ·

وفي المخصص العَرَق الزبيب ومثله في القاموس ·

النواة عجمة الزبيب والتمر ·

وقد تقدم ان كل ما في جوف مأكول كالزبيب وما اشبهه · عَجَم واحدته عَجَمة وان الفرصد بلغاته عجم الزبيب ·

العَزْم بالفتح تجبير الزبيب وجمعه عُزُم ككتب · والعَزْمي بياع التجبير · والتجبير كرغيف ثفل كل شيء يعصر والعامة تقوله بالتاء · وفي المصباح انه معرب · وثفل كل شيء وثافله ما استقر تحته من كدر · وقال الليث الثفل ما رسب خثارته او علا صفوه من الاشياء كلها · والثفل الحب · وفي المصباح الثفل مثل قفل حثالة الشيء وهو الثخين الذي يبقى أسفل الصافي ·

الحُثال كغراب بقية الثفاريق والاقماع من الحشف والزبيب ·

الصناب ككتاب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب يؤتدم به · والمصنب كمنبر المولع باكل الصناب ·

العَبْس نوع من الزبيب وقد تقدم انه ضرب من الكرم ينهض على ساق ·

الوَزْنَة الزبيب الاسود ·

الطائفي زبيب عناقيده متراصفة الحب كأنه منسوب الى الطائف ·

* * *

(١) في التاج كجعفر وقنفذ فتأمل ·

(٢) هكذا في اللسان وفي التاج والصواب كتابته بالياء ·

« التزبيب وموضعه وما يتعلق به »

الجرين : الموضع الذي تجفف فيه الثمار جمعه جُرُن كبريد و برد وفي اللسان والجرين موضع البر وقد يكون للتمر والعنب والجمع أجْرِنَة وجُرُن وقد أجْرَنَ العنب وفي المخصص فاذا وضع في الجرين قيل أجْرِن ·

الرحبة بالتحريك موضع العنب بمنزلة الجرين للتمر قال الاصمعي ولا يسمون موضع العنب الجرين انما يسمونه الرحبه · وقال في موضع آخر ويُجْرَن العنب في الجرين اي يجمع فيه وقد اجرنته ·

ويقال فرش العنب في الرحبة بسطه ليزبب ·

الكَتر بالفتح والتاء المثناة حائط الجرين اي جرين التمر والزبيب ·

الذَّشْرِيرَة هي الجرين كما في المخصص ·

المِحْمَل كمنبر والحاملة الزنبيل الذي يحمل فيه العنب الى الجرين ·

الكَنهدر كسفرجل · هو الذي ينقل عليه العنب واللبن ونحوهما ·

المكتل كمنبر : والمكتلة زنبيل يحمل فيه التمر او العنب الى الجرين وقيل هو شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً · والجمع المكاتل ·

الزَّبيل الذي يحمل فيه العنب الى الجرين والوعاء يحمل فيه جمعه زُبُل وزُبْلان قال الجوهري اذا كسرته شددت فقلت زِبِّيل او زنبيل لانه ليس في الكلام فعليل بالفتح ونقل الصاغاني عن الفراء الفتح · وجمع زنبيل زنابيل وزبل الشيء وازدبله احتمله ·

المعقاب البيت يحمل فيه الزبيب ·

المِرحة بالكسر الانبار من الزبيب وهو المحل الذي يخزن فيه ذلك ·

« عصر العنب والزبيب »

يقال غَمَلَ العنب يَغْمُله غملاً نضد بعضه فوق بعض وفي المخصص غَمَلت العنب في الزبيل أغْمُله وذلك اذا اردت ان تعصره فجعلته قبل ذلك في الزُّبُل فلا يرسه الشمس حتى يشرب العنب ماء العيدان ·

عصر العنب ونحوه مماله دهن اوشراب اوعسل يعصره عصراً من باب ضرب واعتصره اعتصاراً · استخرج ماءه او ما فيه فهو معصور وعصير فعيل بمعني مفعول · وقيل عَصَره

عَصْراً وعصَّره تعصيراً ولي عصره بنفسه · واعتصره اذا عصر له خاصة وقد انعصر العنب وتعصر وعُصارة الشيء بالضم وعُصاره وعصيره ماتحلب منه اذا عصرته ·

وقال في المخصص اذا اعتصر العنب فاول ما يخرج منه العُصارة وجمعها عُصارات وعُصار وكذلك اسم كل شيء عصر · وقيل العصـارة ماسال عن المعصر · وما بقي من الثفل ايضاً بعد العصر · وكل شيء عصر ماؤه فهو عصير واعتصر عصيراً اتخذه ·

المَعْصَرة التي يعصر فيها العنب والمعصرة موضع العصر ·

المِعْصَر كمنبر ما يعصر فيه العنب والمِعْصار الذي يجعل فيه الشيء ثم يعصر حتى يتحلب ماؤه ·

العواصر ثلاثة احجار يعصر بها العنب يجعلون بعضها فوق بعض الرِكوة مثلثة الراء رفعة تحت العواصر · والافصح فيها الفتح وجمعها رِكاء ·

الرَهْص شدة العصر رهص الشيء كمنع عصره عصراً شديداً ·

القَرْو مسيل المعصرة ومثعبها والجمع القُري والافراء ولا فعل له ·

« للبحث صلة » : سليم الجندي

عضو المجمع العلمي العربي

آراء وافكار

تأثير اللغة العربية
« في اللغات الاوربية »

نشر السيد محمد امين محرز مقالة في المقطم عالج فيها بعضاً من المعلومات عن تأثير اللغة العربية وبالاخص اللهجات العربية العامية القديمة في اللغات المنحدرة من اللغة اللاتينية للامم التي كان لها اتصال بالعرب . ولا يخفى على كل من تعلم اللغة اللاتينية خاصية عدم وجود أداة التعريف فيها مطلقاً حتى ان اللغات الحديثة المنحدرة منها والتي لم يكن للعرب بها اتصال حافظت على هذه القاعدة وهي عدم وجود أداة التعريف فيها مثل اللغة الرومانية في ولايتي « الافلاخ والبغدان » وكذا في لغة «الرومنش» المتحدث بها في شرق سويسرا اما اللغات المتولدة من اللغة اللاتينية وكان للعرب بها اتصال فقد أخذت أداة التعريف عنهم من دون ملاحظة الاحرف شمسية كانت اوقمرية وهي اللغات البرتغالية والاسبانيولية والفرنسوية والايطالية وبما ان أداة التعريف في اللغة البرتغالية هي (O) مثل كلمة (Opan) اي الخبز و (اوبورتو) (Oporto) اي (الميناء) فانت ترى انها أخذت بالاحرف الشمسية بلا تمييز بينها واللغة الاسبانيولية اخذت بالاحرف القمرية وأداة التعريف فيها (ال) . مثال ذلك (Elpain) الخبز وكلمة (Elporto) (الميناء) واداة التعريف في اللغة الفرنسوية هي (lo) وفي الايطالية (il) .

ولما دخل العرب اسبانيا وفتحوا جنوب فرنسا وجنوب ايطاليا وجدوا الشعب يقول عن الماء (Aqua) فنطق العرب حرف (Q) (قافاً) فصارت (اقوى) فاثرت اللهجات العامية في ذلك الوقت التأثير الملموس للآن في الصعيد وبعض مدن شمال افريقيا التي ينطق اهلها (القاف) (جافا) فأخذ الاسبان بهذه القاعدة وسموا الماء بدلاً من (Aqua) بـ (Agua) ومازالت مستعملة للآن وكذلك في البرتغال . اما في فرنسا فيظهر انهم اخذوا

باللهجة العامية المستعملة الآن في التكلم في عواصم المدن المصرية ونطقوا القاف (آفاً) ولا يخفى ان الاحرف المتحركة في آخر الكلمات اللاتينية تسكن في اللغة الفرنسوية فكلمة (Aqua) صارت (Aque) اي ان (أقوا) صارت تنطق (أقو) ونطقوا القاف همزة كما هو واقع في مصر الآن فصارت (آاو) واختصرت الى (او) (Eau) وهي ما يعنى به في الفرنسوية (الماء) . وترون بعض اللهجات في بلاد الارياف مثل القنايات والزنكلون في مديرية الشرقية يعطشون الكاف و يقولون عن كلمة (الحكومة) مثلاً (الحشومة) .

وقد اخذت اللغة الايطالية الحديثة واللاتينية ايضاً بالنطق العامي فتعطش الكاف امام الاحرف المتحركة مثال ذلك انهم يقولون عن (Cicéron) (سيسيرون) المحامي الروماني الشهير (Cicérone) (تشيتشيرون) .

ولكن الالمان حافظوا على النطق اللاتيني الاصلي ومازالوا يسمونه للآن (Kekeré) كيكرو . وقد ذكر ابن بطوطة في رحلاته انه لما ذهب الى القسطنطينية ايام البيزنطيين في جملة رسل ملك التتار ليخطبوا بنت امبراطور القسطنطينية البيزنطي لابن ملك التتار سمع الاهلين حينما كان يمر بهم في الاسواق يشيرون اليه بكلمة (سراكنو) فاخذتها الامم الاوربية الغربية وسمت بها العرب . وقد عطش الايطاليون (الكاف) على ماسبق بيانه فكانوا يسمون العرب (سراتشيني) (Sarracini) وصحفها الفرنسويون تصحيفاً يسيراً فقالوا (سارازين) (Sarrasin) وقد كثر ذكرها في حروب شرلمان والحروب الصليبية وقد اخذها عنهم الانكليز ونطقوا بها (سارازانز) (Sarrasins) .

ولنرجع الآن لترجمة لفظ البيزنطيين (ساراكينو) ولها معنى قبيح لانك لا تنتظر من عدوك طبعاً ان يسميك ملاكاً فلفظة (سارا) معناها (صحراء) ولفظة (كينو) باللغة اليونانية القديمة (كينوس) (Kynos) يعني (كلب) .

وكثير مثل هذه الكلمات تجده في اللغة الاوربية الحديثة ولها اصل عربي واضرب مثالاً بكلمة تطلق على كثير من محال تجارية صحية في القطر المصري وفي اوربا باجمعها وهي لفظة (فارمسي Pharmacie) وهي مجموعة كلمتين احداهما عربية اصلاً والثانية يونانية و (ماكيون) باليونانية (Makcion) معناها (مصنع) و (Phar) لو نطقنا

بكل حرف على حدة لكانت (بهار) اي (مصنع البهـار) وكثير مثل ذلك في اللغة الفرنسوية مثل (كاف) (Cave) (قبو) اي محل خزن الخمر و (مسكين) (Mesquin) و (الجبر) (Algebre) وقد لاحظت في الاسكندرية بنفسي ان بعض صناع البلاط القادمين من جنوب ايطاليا عندما يسألون عن المقاطعة التي كانوا يستوطنونها في ايطاليـا يقولون (آلابريا) (Alabria) عن مقاطعة (كالابريا) (calbria) اي انهم ينطقون (الكاف) بـ (الآ ف) كما سبق التوضيح ·

من تعاليق صاحب مختار الصحاح
«على كتاب جامع الاصول في أحاديث الرسول»

نشرتُ في المجلد (٨) الصفحة (٦٤١) من مجلة مجمعنـا العلمي مبحثاً عن صاحب مختار الصحاح ونقلتُ اليه السماع المدوّن على الجزء التاسع من كتاب جامع الاصول في أحاديث الرسول وقد وجدتُ في كناشي بعض تعاليق لصاحب المختار كنت نقلتها عن هوامش الكتاب المذكور فأحببت نشرها لاطلاع العلماء ·

قال : لم أجد اللحوق بمعنى اللحاق الا في لفظ الحديث وكفى به حجّة ·

اما الحديث فهو ان بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلنَ يا رسول الله أينـا أسرع بك لحوقاً قال : أطولكنّ يداً فأخذوا قصبة فذرعوا بها فكانت سودة أطولهن يداً· فعلمنا بعد انما كان طول يدها الصدقة وكانت اسرعنا لحوقاً به وكانت تحب الصدقة · أخرجه البخاري ومسلم والنسـائي ·

وقال في تعليق آخر :

لم أجد من البيدر فعلاً الا في هذا الحديث بيدر تمرك الى آخر الحديث ·

وقال عند ذكر حديث « دعوا الحبشة ما وَدَعوكم واتركوا الترك ما تركوكم » ان هذا حجة على أئمة اللغة في قولهم ان ودع لا يستعمل منه ماضٍ ·

عبد الله مخلص

مطبوعات حديثة

المخارج في الحيل

« للامام محمد (توفي ١٨٩ هـ) »

لم يكف المستشرقين خدمتهم لآدابنا العربية بنشر كتبنا التاريخية والادبية حتى سمت بهم همتهم الى نشر كتبنا الفقهية والدينية ايضاً . وهذا الكتاب أعني كتاب (المخارج في الحيل) هو من أعرق آثار السلف في الدين ، وأقدمها في التصنيف ، فهو للامام محمد بن الحسن الشيباني احد صاحبي ابي حنيفة اللذين رويا مذهبه وشرحاه وأكملا ما كان بدأ به من تقرير القواعد وتخريج المسائل وتفريع الاحكام .

وقد عمد الى هذا الكتاب المستشرق الالماني يوسف شخت (Josepf schacht) فطبعه في ليبسك طبعاً متقناً مصححاً . وألحق به رواية أخرى لهذا الكتاب لشمس الائمة السرخسي . وقد يبلغ مجموع صفحات الكتاب (١٣٦) صفحة . ورواية السرخسي لهذا الكتاب مفتتحة بهذه العبارة : (من كتاب المبسوط لشمس الائمة ابي بكر محمد بن احمد ابن ابي سهل السرخسي المحتوي على كتب ظاهر الرواية للامام محمد بن الحسن الشيباني كتاب الحيل الخ) . فيفهم من هذا ان كتاب (مخارج الحيل) ليس كتاباً مستقلاً ألفه الامام محمد وانما هو جزء من كتبه الفقهية المشهورة المسماة (كتب ظاهر الرواية) وهي أصل الاصول في مذهب الامام ابي حنيفة . قال العلامة ابن عابدين في منظومته رسم المفتي :

(وكتب ظاهر الرواية أتت ستاً و بالاصول ايضاً سميت)
(صنفها محمد الشيباني حرر فيها المذهب النعماني)
(الجامع الصغير والكبير والسير الكبير والصغير)
(ثم الزيادات مع المبسوط تواترت بالسند المضبوط)

وقد جمع الامام الحاكم هذه الكتب الستة في كتاب سماه (الكافي) وقد شرح (الكافي)

الامام السرخسي في كتاب سماه (المبسوط) وعليه المعول في مذهب السادة الحنفية. ولذا قال ابن عابدين في منظومته المذكورة :

(ويجمع الست كتاب الكافي   للحاكم الشهيد فهو الكافي)

(أقوى شروحه الذي كالشمس   مبسوط شمس الائمة السرخسي)

فكتاب (مخارج الحيل) هو احد مضامين ظاهر الرواية للامام محمد. وقد رويت عنه كتب ظاهر الرواية بعدة طرق أهمها ماجاء في مبسوط السرخسي ، فالمستشرق (شخت) طبع كتاب المخارج هذا باحدى الروايات عن الامام محمد ثم ألحقها برواية السرخسي في كتابه (المبسوط) .

ومعنى كلمة (مخارج) ان المكلف اذا وقع في ضيق من امر الحلال والحرام يرجع فيه الى الفقيه فيجد له مخرجاً من ضيقه : بان يفتيه فتوى شرعية تحلل له ما كان حرم عليه او تحرم عليه ما كان حل له . فهذه الفتاوى التي تنير المخرج أمام المكلف المرهق سموها (الحيل) وقد ألف الفقهاء كتباً كثيرة في هذا النوع من الفتاوى أشهرها (حيل الخصاف) و ياليتهم لم يسموها بهذا الاسم القبيح فان التحيل في الدين ضرب من التلاعب به بل هو التلعب بعينه والعياذ بالله . وانا لنربأ بفقه ديننا وبكبار أئمتنا — ولاسيما الامام محمد وشمس الأئمة السرخسي — عن مثل هذا الموقف الذي هو شأن من لاخلاق لهم من المتسمين بسمات العلماء . ولذا أنكر بعضهم أن يكون (كتاب المخارج في الحيل) للامام محمد . واسمع ماقاله شارحه السرخسي في فاتحة روايته وهاكه بنصه :

« اختلف الناس في كتاب الحيل انه من تصنيف محمد رحمه الله ام لا ؟ كان ابو سليمان الجوزجاني رحمه الله ينكر ذلك . و يقول من قال ان محمداً رحمه الله صنف كتاباً سماه الحيل فلاتصدقه . وما في أيدي الناس فإنما جمعه وراقوا بغداد . وقال ان الجهال ينسبون علماءنا (يريد بهم علماء السادة الحنفية) رحمهم الله الى ذلك على سبيل التعبير (يعني ان الجهال من أتباع المذاهب الاخرى ينسبون الى علماء المذهب الحنفي مالم يقولوه من امر الحيل الفقهية تعبيراً لهم وزراية عليهم) فكيف نظن بمحمد رحمه الله انه سمى شيئاً من تصانيفه بهذا الاسم ليكون ذلك عوناً للجهال على مايتقولون . واماابو حفص رحمه الله فكان يقول : هو من تصنيف محمد رحمه الله وكان يروي عنه ذلك . وهو

الاصح ») هذا ماقاله الامام السرخسي وقد ختمه بقوله (وهو الاصح) فدل على ان (كتاب مخارج الحيل) هو للامام محمد نفسه . لكن الحيل التي علّم بها الامام محمد وشارحه السرخسي وأمثالها من ثقات أئمة مذهبنا الحنفي إنما هي حيل يراد بها تأييد حق بعد ان كاد هذا الحق يفوت صاحبه و ينفلت من بين يديه ولم يجد نصاً صريحاً يحفظ له حقه فالفقيه يرشده الى طريقة شرعية تساعده على حفظ حقه من الضياع . اما اذا كانت الحيلة تساعد المبطل على بطله وعلى إضاعة حق ثابت لآخر — فان الأئمة رضوان الله عليهم وفي طليعتهم — الامامان محمد والسرخسي — لا يرضون هذه الحيلة ولا يعلمونها . ولا يرشدون اليها . بل ينكرونها ويمقتونها أشد المقت . ويفسّقون الدالّ عليها والآمر بها : فالمديون الذي يحاول الفرار من دينه الثابت في ذمته اذا علّمه احد الفقهاء حيلة توصل بها الى أكل ذلك الدين كان المديون والفقيه آثمين بل فاسقين في نظر الامام محمد وشارحه السرخسي وسائر أئمة الاسلام — والدائن الذي له دين ثابت في ذمة آخر وكانت أدلة الاثبات في يده ضعيفة فله ان يلجأ الى فقيه يرشده الى طريقة شرعية تساعد القاضي على إثبات دينه والحكم به واستنقاذه من يد المديون الظالم — فيكون هذا الفقيه وذاك الدائن غير آثمين بالطبع . ولكن مع هذا كان يحسن ان لا يطلق على هذا النوع من الفتاوى الشرعية — اسم (حيل) ولعل الامام محمداً رحمه الله لاحظ هذا فسمى كتابه (كتاب المخارج في الحيل) وقد أحسن كل الاحسان ولو سماه كتاب (المخارج في المخارج) اي في المضايق والمآزق لكان اكثر احساناً لعمري .

والحاصل ان الحيل التي تضيع على الناس حقوقهم هي المذمومة المنهي عنها شرعاً — وهي التي يجب ان لا تسمى شرعية لان الشرع براء منها — وهي التي ورد في بعض الآثار بحق المفتين بها : « لا تعلموا أولاد السفهاء العلم فيعلّموا الناس الحيل » وكفى بهذا دليلاً على قبحها وسفاهة أربابها .

هذا وانا لنشكر للمستشرقين (ولا سيما الاستاذ شخت) عنايتهم بنشر مآثر أسلافنا حتى الفقهية الدينية منها . لكننا نأمل منهم ان يتفطنوا الى (المتشابهات) من امور ديننا : كمثل اشتباه (بحث الحيل) ويفهموا جيداً ماقاله الامام السرخسي نفسه في هذا الصدد وهو قوله (ص٨٨ من كتاب مخارج الحيل) : (فالحاصل ان ما يتخلص به الرجل من الحرام او يتوصل به الى الحلال من الحيل فهو حسن . وانما يكره من ذلك ان يحتال في

حق لرجل حق يبطله · او في باطل حتى يموّهه او في حق حتى يدخل فيه شبهة · فما كان على هذا السبيل فهو مكروه · وما كان على السبيل الذي قلنا اولاً فلا بأس به · لان الله تعالى قال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ففي النوع الاول معنى التعاون على البر والتقوى ، وفي النوع الثاني معنى التعاون على الاثم والعدوان اه · «المغربي»

—*«×»*—

البستان

« جمعه العلامة الشيخ عبد الله البستاني »

هو كتاب في اللغة أخرجته المطبعة الاميركية ببيروت يقع في قرابة ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير متقن الطبع حسن التبويب والترتيب · فهو من هذه الناحية يغني في كثير من المواد عن كثير من المعاجم القديمة · ثم هو من حيث السعة والصحة ايضاً يغني عن المعاجم الحديثة التي لم يسلم اكثرها من كثير من الخطإ ·

فانت في البستان تكاد ترى ما تراه في اللسان ، بل قد تجد بعض الفاظ أغفلها اللسان نفسه — واللسان من أغزر كتب اللغة مادة — تراه في البستان مبوباً مرتباً لا حشو فيه ولا تكرار ·

لذلك يكون البستان قد سدّ ثلمة ظاهرة في دواوين اللغة لا كما قيل فيه : انه نسخة عن أقرب الموارد ·

ولو كان لرجل فرد في العصر الحاضر ان يستبد بوضع معجم لكان أستاذنا العلامة عبد الله البستاني حقيقاً ان يكونه · وهو الرجل الذي انقادت اليه هذه اللغة بمفرداتها وغرائبها ، ووارده وشاردها ·

بقي ان الترتيب والدقة ، على فائدتهما ، ليسا كل ما نحتاج اليه في معاجمنا ، فهناك المصطلحات الحديثة ، وتحديد بعض الألفاظ ، وتوضيح بعض المعاني ، واقرار وجه واحد لالفاظ تكثر فيها اللغات ، الى غير ذلك مما أعرض عنه العلامة البستاني في معجمه

لانه من أعمال المجامع العلية ، اوالجماعات اللغوية ، لا من عمل الفرد . فالكتاب من هذه الناحية ناقص ، ولا يسد حاجة العرب والعربية .

وثمة نقص آخر ، هو اغفال ألفاظ قد يفتقر اليها . وهذا مخالف للغرض الذي أراده المؤلف من وضع مطول يجمع اللغة كلها ، اختصره بآخر اقتصر فيه على الضروري من الالفاظ . وهناك أغلاط نرجح انها مطبعية ، غير ان وقوعها ثم تركها من دون تصليح ولا اشارة ، ليس مما يجوز في معجم يرجع اليه .

وفي رأينا ان هذين النقصين سببهما ايضاً الانفراد في التأليف ، ولا يسلم مؤلف من مثل هذا مهما علا قدره العلمي ، وسمت منزلته في اللغة .

الألفاظ المغفلة

فمما أغفله : (السَّمَوْد) بمعنى الطويل الشديد . و (ساد) بمعنى سود صار أسود . و(الاسود) العظيم من الحيات وفيه سواد . لم يورد صاحب البستان في جمعه الا (أساود) وفي اللسان : (إسودات) و (اساود) و (اساويد) . قلت ولعل اسودات جمع (اسودة) مؤنث (أسود) على خلاف القياس .

(السحدود) السيء الخلق لم يذكرها البستان . وكذلك : (السند) بمعنى المعتمد . وما اظن قوله : السند « ماستند اليه الانسان من حائط له غيره » كافياً . والسرد بمعنى الزرد .. و (السراد) وهو الزراد . و (السرادة) البُسرة تحلو قبل ان تزهى وهي بلحة .

اورد (مساعدة) مصدر (ساعد) ولم يذكر (سعادا) ولم يذكر من معاني : (سمد) رفع رأسه تكبراً بل خص هذا المعنى بـ (سمد) وزان طرب . وفي اللسان سمد سمودا رفع رأسه تكبراً ، وكل رافع رأسه فهو سامد ، وقد سمد يسمد ويسمُد سمودا . واغفل اسمأد وبعضاً من معاني اسمدّ واسمادّ .

واغفل . من معاني (السُّمُد) القليل من النوم .

ولم يذكر في (سود) استادهم بمعنى (سادهم) ولا ذكر (المَسود) وهو الذي ساده غيره . ولا (المسوّد) وهو السيد او الذي سوده غيره . واغفل (تساده) مشادة

وشداداً غالبه . و(شد) المئزر جد واجتهد .

هذا ماعثرت عليه في مواد معدودة متتابعة ، ولعل الناظر في هذا المعجم نظراً دقيقاً مطولاً ، يرى أشياء كثيرة قد أغفلها صاحبه . وفي ذلك اخلال بالغرض المقصود من جعل هذا المعجم مطولاً جامعاً . ولا يرد على هذا انها كلمات استثقلها فاطّرحها اذ هو قد ذكر في جملة ماذكره أمثال :

(القُراشياء) ضرب من النبت . (القِرشب) المسن و— السيء الحال ... و(قرشح) وثب وثباً منقاربا . و(اقرنشع) (اقرنشاعاً) : ايرنشق ورفع رأسه ونشط . و (المقرنشع) المنتصب المنتشر المتهيء للشر . و (قرشم) الشيء جمعه كقرشه : كل هذا على ثقله وقلة فائدته جاء في حقل واحد من صفحة واحدة فما بالك في الصفحات الاخرى ؟

الاغلاط المطبعية

قلنا : (الأغلاط المطبعية) لان الاستاذ لا يخفى عليه صوابها ولا يمكن ان يقع مثله في مثلها . من ذلك :

الشُكُر : عُرفان الاحسان (كذا) بضم الشين والكاف من (الشكر) وصوابها سكون الكاف . وبضم العين من عِرفان وصوابها بالكسر .

(رصخة) جاء في (واث) عندي (وثة) من خبر ورصخة منه ، اي يسير . وليس في البستان الا (رصخ) في الامر (رسخ) بالسين . ولم ترد فيه (الرضخة) بالضاد . وانما جاء فيه (الرضخ) خبر تسمعه ولا تستيقنه . وفي اللسان (الرضخة) الشيء اليسير تسمعه من الخبر من غير ان تستبينه . فالصواب اذاً (رضخة) بالضاد .

(مبرهد) الصبي أحسن غذاءه . برفع الصبي وحقها النصب وهي من الاغلاط الظاهرة .

(المبرهد) السمين من (الامهنة) وصوابها من (الاسنمة) ففي لسان العرب سنام مبرهد اي سمين .

(يمنة . وقطان) جاء في (سند) ... و— ذنب الناقة خطر فضرب قطافها يُمنة ويسرة . والصواب (قطاتها) بالتاء لا بالفاء على مافي التاج . (يمنة) بالفتح لا بالضم) وقد وردت (يُمنة) بالضم ايضاً في (لفت) قال : التفت — وبوجهه يمنة (كذا) ويسرة .

(القرن) وفي (سند) ايضاً : (ناقة مساندة القرن : اي صلبته متلاحكة) والصواب القرى على ما في اللسان والتاج . أنشد ثعلب :

مذكرة الثنيا مساندة القرى ... جماليه تختب ثم تنيب

والقرى الظهر : يقال جمل اقرى طويل القرا وهو الظهر والانثى (قرواء) وقد وردت القَرى والقَرا . مقصورة وممدودة .

(المُسنَدة) : ضرب من الثياب ولعل الصواب مُسنَّدة كمعظمة بالتثقيل .

هذه أغلاط منها اربعة في مادة واحدة هي : (سند) . وعسى ان لا يجد المتتبع شيئاً كثيراً من مثل ذلك . على ان هذا الغلط اذا كان يسيراً ضبطه ومعرفته على المشتغلين باللغة ، فليس امره بالهين على الطلاب والشادين .

القصور في التعريف

(السكران) : نبت دائم الخضرة يؤكل حبه ؟

(السكر) : بالفتح بقلة من الاحرار ؟

(السمام) : بالفتح ضرب من الطير واحدته سمامة على ان ابن منظور في لسان العرب حدد هذا التعريف بعض الشيء بقوله : ضرب من الطير نحو السماني واحدته سمامة . وفي التهذيب ضرب من الطير دون القطا في الخلقة .

(السعلاج) : عيد للنصارى ! وكم للنصارى من عيد ؟

(سم السمك) : شجرة الماهيزهرة وتعرف باليوصير اه وترجع الى (اليوصير) فيعرفه بانه : نبت يتداوى به و يعرف بـ(سكر الحوت) أجوده الذهبي الزهر . فالطالب بين (سكر الحوت) و (الماهيزهرة) و (سم الحوت) لا يعرف كيف يخرج ولا بابها يأخذ ؟

وأخرى هي التعريف الدوري الذي أشار اليه المفضال الخوري بطرس البستاني في المقدمة الممتعة التي صدَّر بها الجزء الثاني من البستان . عدد فيها شوائب المعاجم وجعل التعريف الدوري احداهن .

(الجو) : الهواء . و (الهوآء) الجو .

(تلافي) تدارك . (تدارك) تلافي .

وهذا بعض ماذكره صاحب المقدمة ووقع فيه صاحب البستان وامثال ذلك كثير :

(النصي) : نبت سبط مادام رطباً فاذا ابيض فهو الطريفة ·

(الطريفة) : النصي والصِليان اذا ابيضّا او اذا اعتما وتمّا ·

وليست بالحجة المُعذِرة ان المعاجم القديمة هكذا وضعت ، وان اصحاب المعاجم الحديثة على هذا جروا · فالزمن الذي نعيش فيه يتطلب غير ما كان يتطلبه عصر اصحاب المعاجم القديمة ، والعلامة البستاني كان يرجى منه غير ما يرجى من غيره ممن وضعوا المعاجم الحديثة والاّ كان الامر متابعة والعمل مراجعة ·

هذا وقد أُغفلت بعض الحركات في كلمات كان من حقها انـ تضبط في مثل هذا المعجم وأُدخلت بعض كلمات في غير مواضعها ·

على ان هذه الهفوات لاتنقص شيئاً كثيراً من قدر الكتاب ومقام صاحبه · وعسى ان يقف الافراد في وضع المعاجم اللغوية بعد اليوم عنـد هذا الحد اذا كانـ التأليف متابعة ·

وقد وعدت المطبعة الاميركية ان تخرج معجماً يجمع الالفاظ الحديثة والمصطلحات العلمية · فعسى ان ترجع في عملها هذا الى لجنـة من الثقات ليكون العمل اكمل والثقة أكبر ·

هذا ونحن نكرر الثناء على المطبعة الاميركية ونرجو ان يستأنف المرسلون الاميركان تلك النهضة العربية التي كانوا بدأوا بها في أوائل عهدهم · ونستمطر الرحمة والرضوانـ لاستاذنا العلامة عبد الله البستاني على خدمته الجلى للغة العربية وأبنائها ·

عضو المجمع العلمي العربي

عارف النكدي

كتاب الدواجن

« لمؤلفه الامير مصطفى الشهابي »

وهذا ايضاً من الكتب الزراعية النافعة التي عاهد مؤلفها الفاضل نفسه على التصنيف فيها · والكتاب كما يظهر من اسمه يبحث بايجاز عن طرائق تربية الحيوانات الداجنة ويقع في ٢٣٢ صفحة ويحوي ١٦ شكلاً ، ويتناول في قسمه الاول القواعد العامة لهذا الفن « كالتعريفات والخصائص الفردية والتبدلات والوراثة وطرائق التسافد والانتخاب والاصطفاء والتهجين والتخليط والتبغيل والتغذية واهم الاغذية وتعيين الشحنة ومساكن الدواجن والغاية من تربيتها وتصنيف عروقها » · وفي قسمه الثاني القواعد الخاصة بتحلية أهم الحيوانات الداجنة وتربيتها ، فيذكر مثلاً عن الخيل « خلقها وألوانها وشياتها ومعرفة سنها وتحلية عروقها العربية والافريقية والاوربية ، وتوليد الخيل ورياضتها وعلفها وتعهدها وعيوبها وأمراضها » ، وتتكرر هذه الأبحاث عن الحمير والبغال والبقر والجواميس والضأن والمعز والإبل ·

ومما يلفت النظر ان المؤلف قد اصطلح على تعريب لفظة (Genre) الافرنسية بجنس و (espèce) بنوع و (Variété) بصنف او ضرب و (Embranchement) بشعبة و (classe) بصف و (ordre) برتبة و (race) بعرق (اورس او سلالة) و (Séléction) بانتخاب و (consanguinité) باصطفاء و (croisement) بتهجين و (métis) بهجين او مقرف و (métissage) بتخليط و (Hybridation) بتبغيل و (Hybride) ببغل (او نغل او خلامي) و (Ration journalière) بشحنة الى آخر ماهنالك من المصطلحات العلمية التي نتمنى لو تتوحد في انحاء البلاد العربية فتنقذ بذلك المؤلفات العلمية العربية الحديثة من بلبلة المصطلحات واختلافها بين مصر والشام والعراق والمغرب · وذكر المؤلف عدداً كبيراً من الاسماء الفصحى لاعضاء الخيل وألوانها وشياتها وما يقابلها بالفرنسية مما كان درجه في المجلدين الخامس والعاشر من هذه المجلة · وأظهر ان اسم العومي الذي يعرف به احد صنوف الضأن في بلاد الشام مذكور في معاجمنا القديمة وان ضأن مرينوس الشهير في اوربا واميركا بجودة صوفه هو من اصل افريقي وان اسمه

مشتق من قبيلة بني مرين . هذا والكتاب يعد في الجملة من خير ما وضع في هذا الفن لخريجي المدارس الزراعية وللمشتغلين بتربية الدواجن في البلاد العربية . فنهنئ مؤلفه الفاضل ببروز هذه الحلقة الخامسة من سلسلته الزراعية ونرجو له التوفيق لا كما لما .

المهندس الزراعي
وصفي زكريا

المختارات

« جمعها الأب رفائيل نخلة اليسوعي وطبعها بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت »
« فجاء الجزء الاول منها في ٢٢٤ صفحة من القطع الصغير وسيليه »
« الجزء الثاني »

نظر المصنف الفاضل في جمع هذه المختارات المدرسية الى عوامل شتى ترغب التلامذة في دراسة آداب اللغة العربية منها ان تكون القطع المختارة لادباء القرن الحاضر دون غيرهم وان يكون بعضها في موضوعات وطنية والباقي في موضوعات متنوعة وتكون لغتها بسيطة متينة الحوك ، وتكون في الكتاب صور المؤلفين وموجز في تراجمهم . ولا شك ان نظرة المؤلف في عوامل التشويق هذه هي نظرة صائبة . لكن الاقتصار على الادباء المعاصرين لا يجوز الا في المدارس الابتدائية او في الصفوف الاولى من مدارس التجهيز اما في الصفوف العليا من تلك المدارس (كالتاسع والعاشر والحادي عشر) فيجب ان يدرس التلامذة قطعاً لفحول الأدباء الأقدمين اذ بغيرها لا يمكن اكتساب ملكة اللغة والوقوف حتى على البسيط من أسرارها .

وجاء في الجزء الاول من المختارات قطع لثلاثين أديباً من المعاصرين منهم الفحول ومنهم الذين يعدون من الدرجة الرابعة . ولذلك نظن ان الأب المحترم لم ينظر في انتقائهم الى عامل ما من عوامل الانتقاء المختلفة . وعلى كل أرى ان كتابه هو من كتب القراءة المفيدة ولا سيما للأحداث .

« الشهابي »

حقائق ودقائق

« وهي مقالات مختارة من عشرة مجلدات من مجلة العرفان ».

صدر الجزء الاول من هذه المختارات حاوياً لاثنتي عشرة مقالة في ٣٢٠ صفحة . وموضوعات المقالات مختلفة وكلها مفيدة ومطبوعة طبعاً جيداً . وفي الكتاب صور لبعض رجال العرب المشهورين . فنشكر للأديب صاحب العرفان هديته ونتمنى صدور الاجزاء التالية من مختاراته . « الشهابي »

التعاون

« كتاب اجتماعي الفه الاستاذ احمد لاشين يقع في ٤٠٠ صفحة »
« بقطع الربع »

هو سفر تتجلى في كل سطر منه روح الغيرة الحميدة الكامنة في صدر المؤلف وغزارة معارفه في معالجة الادواء الاجتماعية . وهو فوق ذلك مكتوب بلغة فصيحة لاتكلف فيها يفهمها الفصحاء وغير الفصحاء ومزين بعدد من رسوم كبار الاساتذة الاجتماعيين الذين كان لهم القدح المعلى في نشر أساليب التعاون في اوربة ومصر وتأسيس الجمعيات التعاونية في مختلف البلدان .

ما لا يستطيعه الفرد تستطيعه الجماعة مشتركةً متعاونةً ، فالتعاون اذاً في الصناعة والزراعة والاقراض والبناء وخصوصاً في بيع الحاجيات نوع من الاشتراك بين جماعات يحمي بهذه الطريقة بعضها بعضاً من البطالة ومن الفقر بوضعها سداً يحابه استبداد المتمولين الذين ينتجون المنتوجات او يتجرون بها فيسلبون باثمانها الباهظة الشارين سلباً بلا شفقة غير ناظرين الا غاية واحدة وهي الاثراء العاجل . وقد تبين خصوصاً بعد الحرب العالمية التي قلعت من الناس روح الاستقامة والانسانية إن شركات التعاون خير سلاح لمقاومة جشع الرأسماليين ، وقد رفعت حالة الطبقة المتوسطة وخصوصاً الطبقة الفقيرة وحالت دون سقوطها في حفرة البؤس المحفورة لها بقصد استعبادها ، فأذاقتها شيئاً من الرفه والرغد

لم تكن لتستطيعه بجهودها المنفردة ، وحمتها من الامراض القتالة التي كانت تفتك فيها في المساكن المظلمة الرطبة القذرة حيث الاجور رخيصة لا يسمح للفقير بؤسه ان يؤوي عائلته الى أحسن منها ، ووزعتها عن إتيان المحرمات وارتكاب الجرائم التي يجرُّ اليها الاعدام والجوع .

بون شاسع بين هذا النوع من الاشتراك وبين الاشتراكية المعهودة اليوم ونموذجها الاشتراكية البولشفية ، وشتان بين أضرار هذه في الحياة الاجتماعية ومنافع تلك . فلا نخلطنَّ اذاً بين التعاون الاشتراكي والاشتراكية الصرفة ولنميزن الغث عن السمين عندما نقرأ الكتب التي تبحث في مبادئ الاشتراك .

يتمنى كل عاقل محب لوطنه ان تنتشر في بلدنا مبادئ التعاون التي شرحها الاستاذ لاشين شرحاً وافياً في كتابه ، وهي خير وأبقى من الجمعيات الخيرية الموجودة عندنا . فهذه تساعد الفقير المعدم مساعدة محدودة لا كبير تأثير فيها وكثيراً ما انفقت دانق الاحسان في غير محله ، وتلك تسنده كي لا يهوي وتطعمه حتى لا يجوع ، وتحفظ قواه من الوهن وذريته من الانقراض . وحريٌّ بكبار مفكرينا ان يشتغلوا بمثل هذه المنافع فبها يرفعون مستوى أمتهم .

عبد الله رعد

عضو المجمع العلمي

حكايات الاطفال

« نشرته المطبعة العصرية بمصر »

لم يؤلف في تربية الاطفال كتاب توفرت فيه جميع الشروط المرغبة للصغار في القراءة والمطالعة مثل هذا الكتاب الذي ألفه الاستاذ كامل الكيلاني . ويظهر انها سلسلة كتب صدر جزؤها الاول مزيناً بالصور المختلفة الألوان والاشكال مرسومة على ورق متين ويتخللها حكايات غاية في السهولة مكتوبة بخطوط ذات حرف ثخين مختلفة الحبر من أزرق وأحمر وغيرهما . فنلفت نظر المعلمين والمربين الى هذا الكتاب . « المغربي »

مبادىء الكشفية

اسم كتاب ألفه بالانكليزية (رويرت بونغ) الانكليزي ونقله الى لغتنا العربية السيد بهاء الدين الطباع . وقد تصرف في تعريبه ذاهباً مذهب الكشاف المسلم من حيث اللباس والعلامات والشعار ونحو ذلك . وهذا الفن (فن الكشاف) حديث النشأة في بلادنا من الوجهتين العلمية والعملية . لكنه آخذ في التقدم رويداً رويداً وهو اذا قارنه حسن التربية الأخلاقية والجد في تحصيل العلم كان منه فائدة عظمى لناشئة البلاد . لأنها تبث في نفوسهم روح الرجولة والنجدة والنشاط والإيثار وغير ذلك من الأخلاق النبيلة . فنشكر للفاضل عنايته بترجمة هذا الكتاب . له

نوابغ السريان

رسالة تضمنت محاضرة نفيسة في تراجم نوابغ السريان الذين نبغوا في لغتنا العربية كان ألقاها في حفلة مدرسة حمص السريانية سنة ١٩٣٠ الحبر العالم السيد (سويريوس أفرام) مطران سوريا ولبنان على السريان . وقد جاء في المحاضرة ترجمة نحو ٣٥ فاضلاً من علماء الطائفة السريانية ومعظمهم أطباء وفلاسفة ومؤرخون ومنهم المترجمون الذين نقلوا العلوم القديمة الى لغتنا العربية في عهد المأمون وغيره . فلا غرو اذا كان في مطالعة هذه المحاضرة فائدة لمحبي التاريخ والادب العربي . له

نظرة في كتاب

« الفلاحة الأندلسية »

كتاب الفلاحة الاندلسية اهم ما اتصل بنا من الكتب الزراعية القديمة بعد كتاب الفلاحة النبطية . وهو تأليف الشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد بن احمد المعروف بابن العوام الأشبيلي الأندلسي ممن عاشوا في القرن السادس للهجرة . وقد طبع بانكري هذا الكتاب في مجريط سنة ١٨٠٢ مع ترجمته الى الاسبانية فجاء في جزءين صفحاتهما من القطع الكبير .

وترجمه الاستاذ كلنيان موله الى الفرنسية وطبعت تلك الترجمة في باريز سنة ١٨٦٥ وذكره دوزي في معجمه ونقل عنه كثيراً من الالفاظ ولا سيما التي لا توجد في معاجم اللغة الاصلية . وذكره ادورد فنديك في كتاب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » . والاستاذ صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة . ولم يفت ذكره احداً ممن الفوا في الزراعة وكانوا على صلة بما تركه الاجداد لنا من المصنفات العلمية لكني لم اجد ذكراً لابن العوام في كتاب الصلة لابن بشكوال او كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار او بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس لاحمد بن يحيى الضبي وكلها مطبوعة في مجريط . وفات ذكره الاستاذ خير الدين الزركلي صاحب قاموس الاعلام .

ولكتاب ابن العوام شأن كبير لدى علماء الزراعة لأنه يعد اكبر معلمة زراعية في القرون الوسطى . وقد نقل المؤلف عن ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية وعن عدد من المؤلفين المسلمين الذين ضاعت كتبهم الزراعية ولم يتصل بنا شيء منها مثل كتاب ابي عمر بن حجاج المسمى بالمقنع وكتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصال الاندلسي وكتاب الشيخ الحكيم ابي الخير الاشبيلي وكتاب الحاج الغرناطي

وكتاب ابن ابي الجواد وكتاب غريب بن اسعد وغيرهم . وقد راجعت اسماء هذه الكتب في فهارس بعض دور الكتب المهمة في اوربة والبلاد العربية فلم اعثر عليها مع ان ابن العوام ذكر في الصفحتين ٧ و٨ من مقدمة كتابه انه اعتمد عليها في تصنيف ذلك الكتاب . فهي اذن قد ضاعت كما ضاع معظم ما انتجته قرائح اجدادنا العرب في القرون الخالية .

واذا تلونا رأي بعض العلماء الاوربيين في كتاب الفلاحة الاندلسية يتجلى لنا ما كان لهذا الكتاب من الفوائد في تلك الايام . قال العالم الفرنسي رنجامان « كان ابن العوام يسكن اشبيلية وقد قام بعدة تجارب زراعية على جبل الاشرف . وليس كتابه معرض فصاحة وبلاغة لكنه كناشة لاجود الابحاث الزراعية التي كتب فيها الانباط واليونانيون والرومان مع التي كانت معروفة في الاندلس » .

وقال انطوان باسي في تقرير قدمه الى الجمعية الوطنية الزراعية الفرنسية سنة ١٨٥٩ « لا تقتصر قيمة كتاب ابن العوام على كونه يحوي الفنون الزراعية القديمة والتي كانت متبعة في الاندلس بل له قيمة ثانية وهي كشف النقاب عن ان العرب كان لهم ملحوظات في الطبيعة والكيمياء ما كنا نرتقب وجودها لديهم . وهو سفر ملآن بالفوائد يرينا بايجاز ما كانت عليه الزراعة لدى الامم القديمة ثم في الاندلس وسائر البلاد الاسلامية ابان الفتح الزاهر . وبالاختصار ان هذه المعلمة الزراعية التي خص بها القرن الثاني عشر (من الميلاد) هي تامة » انتهى .

ولا بد من تنبيه القارئ الى ان ابن العوام وأمثاله ممن الفوا في الزراعة كانوا قليلي الحرص على سلامة لغة مصنفاتهم وانهم كانوا يستعملون في بعض الاحايين الفاظاً ومصطلحات لا تجيزها معاجم اللغة وقواعدها . ثم ان طبعة مجريط من كتاب الفلاحة الاندلسية بالعربية والاسبانية مشحونة بالاغلاط المطبعية . وبعد هذا يجب ان لا يظن بأن كتاب ابن العوام واشباهه تصلح لهذا الزمان (وان كانت اصلح الكتب في القرن السادس من الهجرة حتى اوائل القرن الثامن عشر من الميلاد) فهي تحوي الغث والسمين كسائر كتب القرون الوسطى في العلوم الطبيعية واذا انعمت النظر في مضمونها رأيت اجود القواعد المبنية على التجارب والحس بجانب اسخف الخرافات التي ينبو العقل عنها . ولا لوم

على المؤلف في ذلك لان الفنون الزراعية الحديثة بما فيها من حقائق علمية راسخة هي وليدة القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر من الميلاد بعد الكشف عن المكروبات واصول الكيمياء وعلم الطبيعة وحياة النبات والاسمدة المعدنية والكيماوية وحياة الحشرات المضرة الخ .

وهاك بعض ما لفت نظري من الالفاظ والمصطلحات في الجزء الاول من كتاب ابن العوام :

استعمل حرف الصنف بمعنى (Variété) وفاقاً لرأيي ورأي العلامة الدكتور امين باشا المعلوف صاحب معجم الحيوان وخلافاً لرأي الدكتور محمد بك شرف صاحب معجم العلوم الطبية والطبيعية الذي انكر تخصيص ذلك المعنى بتلك اللفظة . قال ابن العوام في الصفحة ٢٥٤ « في غراسة القسطل وهو الشاه بلوط والقسطون قال خ هو اصناف منه المفرطح المعروف بالاملیسي ومنه الصغير المعروف بالبرجي . . . » . وليس صاحب كتاب الفلاحة الاندلسية ثقة في اللغة كما اشرت اليه سابقاً ولكن استعمال هذه اللفظة للمعنى الفرنسي المذكور منذ القرن السادس من الهجرة شيء يدعونا الى عدم استنكار هذا الاستعمال او التخصيص في ايامنا هذه مع العلم بان اللفظة فصيحة لا غبار عليها . ويجب ان لا يحط ذلك من قيمة لفظة « الضرب » فهي تصلح ايضاً للمعنى نفسه .

وقال في الصفحة ٥١ « فينبت الشجر كالسنديان والكتم والضرو » فلفظة السنديان الفارسية الاصل لا ذكر لها في الامهات عدا التاج حيث نوجد الجملة الآتية وهي : « الاسناد شجر . قلت والمعروف السنديان » وهو لم يعرّف هذه الشجرة . اما ابن البيطار فقد ذكر في مفرداته : « السنديان هو شجر البلوط عند اهل الشام بلا خلاف » . ولما كان اهل الشام يطلقون هذه اللفظة على نوع خاص من انواع البلوط هو المسمى باللاتينية (Quercus coccifera) وجب ان يخص هذا النوع النباتي بهذه اللفظة المعربة قديماً وان توضع اللفظة المذكورة في مكانها من معاجم اللغة . وهي لم تفت العلامة الدكتور احمد عيسى بك صاحب معجم اسماء النبات ولعله نقلها عن بوست الذي عاش في الشام وعرف النبات الذي يطلق الشاميون عليه هذه اللفظة الفارسية .

وسمى المنابت (ترمدانات) في ص ١٦٠ والمنبت هو ما اطلقته في مقال سابق على

ما يسميه الفرنسيون (Pépinière) اي الارض التي تربى فيها الغراس ريثما تنقل الى مستقرها · وتسميها العامة (دندانة ومشتلة)· ولفظ المنابت اصح واجمل من لفظ الترمدانات التي لا تستعمل اليوم والتي تظهر عليها العجمة ·

واطلق لفظ التغطيس والتكبيس (ص ١٨٢) على ما يسميه الاكارون « التدريك والتدريج » اي حني غصن شجرة ودفنه في التراب دون فصله عنها فتبرز في الجزء المطمور جذور حتى اذا قطع الغصن وفصل عن أمه يصبح نباتاً مستقلاً محتوياً على جميع صفات الشجرة الاصلية · وهذا العمل يسمى بالفرنسية Marcottage وهو بالعربية العكس وهو ايضاً الترقيد مع التوسع · والغصن المحني يسمى المكبس و بالفرنسية Marcotte ·

واذا لم يحن الغصن ولم يدفن في تراب الارض بل وضع حوله اصيص (او تنكة) مملوء تراباً كما يصنع فلاحة بلادنا بالكروم وبأشجار الفصيلة البرتقالية مثلاً فان هذا العمل يسميه ابن العوام الاستسلاف (ص ١٨٧) · وقد وصفه بدقة وسمى الاصيص ظرفاً كأن يكون قصرية او قدراً · ولم اجد لفظة الاستسلاف في الامهات بهذا المعنى او بمعنى بقرب منه · وذكر دوزي في معجمه عن موله الفرنسي الذي ترجم كتاب ابن العوام الى الفرنسية ان الاستسلاف هو العكيس الموضوع في قصرية وذلك خطأ لان ابن العوام اطلق الاستسلاف على الفعل اي على طريقة العكس هذه لا على العكيس ·

وسمى الاصيص اي ما تسميه العامة (شقفة زريعة) قدراً واجانة (ص ١٩٩) وقصرية (ص ٣١٨) ومن الغريب انه سماه ايضاً (شقفة فخار) وهي اللفظة الدارجة على لساننا قال في ص ١٩ من ج ٢ « ويجعل ذلك في شقفة فخار » وهي عامية ·

واذا قطعت الارض قطعاً تفصل اعضادها بعضها عن بعض لكي يسهل سقيها فكل قطعة منها تسميها العامة « مسكبة » وقد سماها ابن العوام « حوضاً » قال في ص ٣٩١ « ··· ويقطع احواضاً كل حوض ١٢ ذراعاً ··· » ·

ومما يلفت النظر ان بعض الذين نقل ابن العوام عنهم كأبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفضال الاندلسي كانوا يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية وهي يناير وفبراير الخ وهؤلاء نقلوها عن الكتب الرومية · وبعضهم كانوا يوردون اسماء الاشهر السريانية وهي كانون الثاني وشباط الخ ومنهم ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية · فيتضح اذن ان

استعمال هذه او تلك من اسماء الاشهر كان امراً مألوفاً . والشاميون لا يستعملون اليوم في كتبهم وجرائدهم ومجلاتهم الا الاسماء السريانية اما المصريون فيقتصرون على ذكر الاسماء الفرنجية . ولما كان من الضروري توحيد الثقافة في القطرين وكانت الالفاظ الفرنجية مألوفة لدى المغاربة من العرب والمتعلمين من ابناء الشام والعراق ارى من المفيد ان يستعمل الشاميون والعراقيون اسماء الاشهر الفرنجية في مطبوعاتهم بدلاً من الاسماء السريانية او ان يضعوا هذه بين هلالين بجانب تلك .

وعندما تكون الزروع والغراس كثيفة متآمرة تقلع الضعيفة منها لتجود البقية . فهذا العمل يسمى بالفرنسية Démariage وقد وجدت المصريين يطلقون عليه فعل أخفّ فيقولون أخف الزرعَ و يُخفّ الزرع بمعنى يجعل خفيفاً اي يقلل عدد نبتاته في الارض المزروعة . اما ابن العوام فأنه استعمل لهذا الغرض التفريج ما بين الغراس بمعنى الكشف والتوسيع وهذه اللفظة اصلح من التي استعملها المصريون وكنا استعملناها نحن نقلاً عنهم .

ومن التعبيرات الغريبة التي لم نسمع بها اضافة الفلاحة للحيوان قال في الصفحة الاولى « . . . وما يتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان . . » وقد كرر هذه الاضافة في الصفحة السابعة . و يظهر انه يعني بقوله « فلاحة الحيوان » الفن الذي نسميه اليوم « فن تربية الدواجن » و بالفرنسية Zootechnie

وثمت الفاظ استعملها ابن العوام ما برحت شائعة الى يومنا هذا على السنة الفلاحين ولكن يندر ان تراها في كتاب حديث مطبوع وهي كثيرة مثالها :

ص ١ (وفلاحة الارض تنقسم قسمين بعلاً وسقياً) .

ص ٢١ (تدبير التفاح حتى يثمر في غير إبانه وتدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى) . ونحن نستعمل اليوم في الكتابة افعال المعالجة والتهيئة والتحضير وغيرها بدلاً من التدبير مع ان الفعل الاخير كثير الاستعمال في المكالمة وهو فصيح بمعنى الاعتناء والتنظيم .

ص ٣٨ (ولذلك كان وجه الارض اطيب من سائر اجزائها) ونحن نكتب اليوم اجود واصلح ونستعمل لفظة اطيب بلساننا .

ص ٦٤ (... والتي يغلب عليها البياض)

ص ٦٧ (... فهي اوفق الارضين للارز) ونحن نستعمل في الكتابة لفظ اصلح الارضين .

ص ٦٧ (... وربما خف سوادها) بدلاً من قلّ

ص ١٥٢ (ينبغي ان تختار مواضع لغرس البساتين فيها مياه كافية)

ص ١٥٥ (في اتخاذ الاشجار في البعل وفي الجنات على السقي)

ص ٦ (.. ومعرفة جيد الارض ووسطها والدون منها) واللفظة الاخيرة فصيحة ومتفشية على الالسن لكنها غير مستعملة في الكتابة .

ص ١١ (النبش والطمر والمشق) استعمل الاولى للكشف عن اصول الاشجار والثانية لرد التراب الى الارض والثالثة للحفر الخفيف كالتمشيط .

ص ٢٣ (فيما يريح الارض و يصلحها ...)

ص ١٢ ج ٢ (قال شولون البزر يستنفد دسم الارض)

وهكذا عثرت في كتاب ابن العوام على عشرات من الالفاظ الشائعة على السنة اكرة الشام اليوم ويندر ان يستعملها الكتاب كما قلت ذاهبين الى انها عامية اومبتذلة .

واورد التركيب والانشاب والاضافة بمعنى التطعيم . واستعمل في تعدية الفعل الاول تارة حرف الجر في وطوراً على . قال في الصفحة ٤٢١ « اذا ركبت شجرة على شجرة توافقها ... وان التفاح اذا ركب في الرمان ... » . اما انشب فعداه بالحرف في واما اضاف فبالحرف على قال في ص ٤١٧ « متى ينشب اترج في فرصاد » وذكر في ص نفسها وفي التي تليها فعل الاضافة معدى بحرف الجر الى .

وفي الامهات طعّم الغصن وأطعمه وصل به غصناً آخر . اي انك اذا اردت جعل شجرة مشمش كلابية تحمل مشمشاً حموياً مثلاً نقول « يجب تطعيم المشمش الكلابي بالمشمش الحموي » فالاول هو المطعم والثاني نسميه اليوم الطعم . ولم اجد في المعاجم الاصلية غير ذلك . اما ابن العوام فقد اورد في ص ٤١٩ « يطعم الجوز في التين و يطعم القراسيا في الاجاص ... » وذلك مخالف لما ذكرنا وكان يجب ان يقول « يطعم التين بالجوز

والأجاص بالقراسيا » لأن التين والأجاص هما المطعمان اي ما يراد التخلي عنهما . ومع هذا فان عبارة ابن العوام لا تحتمل الالتباس فكأنه قال يركب الجوز في التين والقراسيا في الأجاص .

أما كتاب هذه الايام الذين تناولوا الزراعة والنبات في ابحاثهم فكثير منهم يعدون فعل التطعيم بعلى وذلك تبعاً للافرنج في لغاتهم فيقولون مثلاً طعم البرتقال على الاترج بدلاً من طعم الاترج بالبرتقال . والجملة الاولى هي ترجمة الجملة الفرنسية (Greffer l,oranger sur le bigaradier)

ومن اشكال التطعيم التي تراها مفصلة في كتب الزراعة الحديثة التطعيم بالشق (Greffe en fente) والتطعيم التاجي ترجمة (Greffe en couronne) والتطعيم بالبرعم (Greffe en écusson) . فالشكل الاول سماه ابن العوام التركيب بالشق كما نسميه اليوم وسماه ايضاً التركيب النبطي قال في ص ٤٥٢ « التركيب الذي يعمل بالشق و يسمى النبطي ... » . وسمى الشكل الثاني تطعيم اللحاء (ص ٤١١) والتطعيم الرومي (ص ٤٥٦) وقوله تطعيم اللحاء اقرب الى الفهم من التطعيم التاجي لأن الغصن في هذا الشكل يركب في المطعم بين اللحاء والعود . اما الشكل الثالث فقد سماه التركيب الفارسي والتركيب بالرقعة والتعبير الاخير لا يزال شائعاً على السنة الأكارين في بلاد الشام . ومما هو شائع لديهم ايضاً لفظة القلم للغصن الذي يركب في المطعم في شكل التطعيم بالشق وللذي يؤخذ منه البرعم اوالعين في شكل التطعيم بالبرعم (اي الرقعة) فان ابن العوام يستعمل لفظة القلم لذلك الغصن كما يستعملها البستانيون في ايامنا هذه .

واستعمل الكَسْح والزَّبْر والشَّمْر (ص ٥٠٠) لأشكال تقليم الاشجار والكروم على الاطلاق [1] . والفعلان الاول والثاني مابرحا جار بين على السنة فلاحة بلادنا . ولم اجدهما بهذا المعنى فيما لديّ من الامهات .

وسمى القضبان التي تقطع للغرس اوتاداً كقضبان الكروم والصفصاف والحور مثلاً وهي التي يسميها فلاحو الشام اقلاماً وفلاحو مصر عُقَلاً واصلح لفظة لها الفَسْل ج

(١) انظر ج ٤ ص ٣٧٨

أقـل وفسول [1] واقربها للفهم «قضبان الغرس» · وهي بالفرنسية Boutures ·

واستعمل لفظة « الخلوف » للفسائل التي تنمو حول جذع الشجرة (ص ٢٦٨ و ٢٢٩) وهي بالفرنسية Rejetons ويسميها اكارو الشام «صرار يش وأخلاف » وسميت واحدتها الشكير والعقّان والركزة والبتيلة [2] الخ وسماها العلامة امين المعلوف الحبلة والسرع والشكير والنامية [3] · واخطأ دوزي في معجمه حيث قال ان ابن العوام استعملها لقضبان الغرس فحسب اي Boutures ·

واورد النقلة والنقل ج أنقال بمعنى الغريسة والشربة (نصبة في الشام) و بالفرنسية Plant وهذه اللفظة لا توجد في الامهات بهذا المعنى ولا يستعملها فلاحو الشام في هذه الايام ·

ويحصل على ارومة الزيتون مثلاً حذاء سطح الارض او تحته نتوءات بارزة عليها عيون تنفتح عن فسائل · فاجزاء الارومة المذكورة تصلح للغرس ونسمى في بلادنا « الجدار » وقد سماها ابن العوام العُجَر واحدتها عُجْرَة (ص ٢٢٩) وسماها دوزي في معجمه نقلاً عن موله Loupe ou protubérance d'un olivier مع ان اللفظة الفرنسية المستعملة في الكتب العلمية هي Eclat de souche ويسمونها في بعض انحاء فرنسة Souquet و Souchet · والعجرة بمعنى النتوء والعقدة فصيحة ونفيد استعمالها للمعنى الذي نحن في صدده ·

وذكر دوزي ان ابن العوام استعمل لفظة النوامي لما يسمى بالفرنسية Drageon مع انه استعملها لتلك اللفظة وللفظة Rejeton على السواء وكذا لفظة ملُّوخ ج ملاليخ ·

هذا جزء مما اقتبسته من الفاظ كتاب الفلاحة الاندلسية فلعل في ذلك فائدة لمن يؤلفون في العلوم الزراعية والنباتية ·

مصطفى الشهابي

عضو المجمع العلمي العربي

---

(١) انظر ج ٥ ص ٥٥٨ · (٢) انظر ج ٥ ص ٥٥٩ ·

(٣) انظر ج ٧ ص ٢٩٣ ·

حياة الجاحظ (١)

تفوتنا نواحٍ كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً الى الوقوف على تفاريق حياته ، على اننا نستطيع ان نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة وان لم يكن لنا بهذه الاحاطة مقنع ، فقد نستطيع مثلاً ان نعرف طائفة من امور ميلاد الجاحظ ، وأهله ، وهيأته ، وابتداء تثقيفه ، وحالات عقله في صباه ، وحرفته في اول امره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال الذين لازمهم في حياته ، وتعذيبه بسبب صحبته لاحد هؤلاء الاكابر ، ومكاتبتهم له ، وأسفاره الى انطاكية والى دمشق والى مصر ، وآثار هذه الاسفار وطبيعة هذه الآثار ، وعلّته في آخر حياته ، وتأثير هذه العلة في بعض كتاباته ، وتعقب الناس له في التماس بعض المطاعن ومداراته اياهم ، وضجره من لؤم اخلاقهم ، ووفاته .

نعم قد نستطيع ان نعرف هذا كله ، لكن هذه المعرفة لا تنقع غليلاً قياساً الى ما يعرفه أدباء الافرنجة من امور كتابهم وشعرائهم وأشباه هذه الطبقات ، على ان أمرنا لا يشبه امرهم ، فان آثار عقولنا مبعثرة وقد ضاع كثير من هذه الآثار وما حفظ منها قد يصعب وصول الايدي اليه ، ولم يكتب لنا ان نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر يسلّم كل عصر من العصور نتائج عبقريته الى العصر الذي يليه حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

الآخر في ميراث الاول فيضيف مستحدث الأدب الى قديمه ، فما فاتنا في الماضي فعساه ان لا يفوتنا في الحاضر والآتي ·

فلنشرع في ذكر ما اتصل بنا علمه من حياة الجاحظ[1] ·

ميلاده

لم يذكر الانباري ولا ابن عساكر ولا ابن خلكان السنة التي ولد فيها الجاحظ وانما ذكروا السنة التي مات فيها وقالوا : نيف على تسعين سنة ، وذكر ياقوت في معجمه ان الجاحظ قال : انا أسن من ابي نواس بسنة ولدت في اول سنة ١٥٠ وولد في آخرها ·

ولكن ابن خلكان قال في كلامه على ميلاد ابي نواس : وذكره الخطيب ابو بكر في تاريخ بغداد وقال : ولد في سنة خمس واربعين وقيل سنة ست وثلاثين ومائة ·

وقال الانباري قبل ابن خلكان : ولد ابو نواس سنة خمس واربعين ومائة وقيل ولد سنة ست وثلاثين ومائة

وقد ذكر بعض الذين طبعوا ديوان ابي نواس انه ولد في سنة احدى واربعين ومئة ·

من هذا كله يتبين لنا ان رواية ميلاد الجاحظ لا تخلو من اضطراب ، ولكننا اذا علمنا ان الجاحظ مات في سنة ٢٥٥ وانه شكا في أواخر ايامه كبر السن فقال : وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، سهل علينا ان نقول ان الجاحظ ولد في سنة تسع وخمسين ومائة او في سنة ستين ومائة بوجه التقريب ·

اهله

أجمعوا على ان الجاحظ اسمه عمرو بن بحر بن محبوب وهو كناني ليثي نسبة الى ليث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ··

وقالوا : كان الجاحظ مولى ابي القلمّس عمرو بن قلع الكناني ، ثم الفقيمي ·

ومنهم من أضاف الى هذا : وهو كناني ، قيل صلبيه ، وقيل مولى ·

(١) استندت في الكلام على حياة الجاحظ الى كتب ابن خلكان وابن عساكر والى معجم الادباء لياقوت الرومي والى طبقات الادباء للأنباري ·

وكان جده اسود يقال له : فزارة ، وكان جمّالاً لعمرو بن قلع الكناني .

اما كنيته فقد قال ابوبكر العمري ، سمعت الجاحظ يقول : نسيت كنيتي ثلاثة ايام فأتيت اهلي فقلت : بمن أكنى ، فقالوا بابي عثمان[1] .

هذا كل ما نعرفه من نسبه واسمه وكنيته وأظن ان هذه المعرفة لا تفيء ظلنا ، فان ناحية نسبه غامضة .

غير اننا نعلم ان للجاحظ أقارب عاشوا بعده ، وأريد بهؤلاء الاقارب يموت بن المزرّع وولده ابا فضلة ، اما يموت فقد ذكر عنه ابن خلكان انه ابن اخت الجاحظ ولكن يموت يقول : الجاحظ خال امي[2] .

عاش يموت بن المزرّع بعد وفاة الجاحظ وقدم بغداد سنة احدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير وحدّث بها عن المازني والسجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن اخي الاصمعي وعن غيرهم وكان أديباً اخبارياً وله ملح ونوادر وحكايات وكان لا يعود مريضاً خوفاً من ان يتطير باسمه وكان يقول : بليت بالاسم الذي سماني به ابي ، فاذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه فقيل : من هذا ؟ قلت : انا ابن المزرّع وأسقطت اسمي .

سافر يموت الى مصر مراراً ومات سنة اربع وثلاثمائة بطبرية الشام .

يتصل بعض نسبه بحكيم بن جبلة ، وحكيم هذا كان من أعوان علي بن ابي طالب وكان صاحب الشرطة في البصرة وقتل بالبصرة .

خلّف يموت بن المزرّع ولداً اسمه ابوفضلة مهلهل وكان شاعراً ذكره المسعودي في كتابه وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال : هو شاعر مليح الشعر في الغزل وغيره ، وسكن بغداد .

وفيه يقول أبوه مخاطباً له في قصيدة[3] :

فجُبْ في الارض وابغ بها علوماً ولا تقطعك جائحة ثبوت
وان بخل العليم عليك يوماً فذلّ له ، وديدنك السكوت

---

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) تاريخ ابن عساكر .

(٣) عن تاريخ ابن خلكان بتصرف يسير .

وقل : بالعلم كان ابي جواداً يقال : ومن ابوك ؟ فقل : يموت
من هذا كله نستطيع ان نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم وبالملح والنوادر فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب فان الجاحظ طلاب للعلم مفتون بالنوادر .—

هيأته

كان الجاحظ مشوه الخلق وانما قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له ايضاً الحدقي . ومن جملة اخباره انه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

تحصيله

أين طلب الجاحظ العلم في صغره
يظهر لنا ان الجاحظ كان في ابتداء امره يحمل اللوح بيده و يغدو على كتابه على نحو ما كانت عليه الحال في هذه الديار من عشرين سنة وعلى نحو حالنا في يومنا هذا فان الكتاتيب لم يبطل امرها في بعض القرى واحياء المدن . واليكم القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال[1] :

« وأنا حفظك الله رأيت كلباً مرة في الحي ونحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى مهدياً من اولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه ، فعض وجهه ، فقلع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ماظننت انه لا يعيش معه وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتّاب وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبح الى ان بريء ولا هرّ ولا دعا بماء حتى اذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جرواً ولا عاقاً ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص ٥) .

ولئن دلتنا هذه القصة على ان الجاحظ طلب العلم في اول امره في الكتّاب مع ابناء القصابين وغيرهم فلقد دلتنا على شيء أعظم من هذا كله فاني ارى فيها اثر عنصر من عناصر عبقرية الجاحظ فأبو عثمان نقريس من صغر امره ، والكلمة من كلامه ، والنقريس النظّار المدقق والجاحظ مطبوع على التدقيق لا يريد ان يتفلّت منه امر قبل الاهتمام به ، على ان هذه القصة تشتمل على اشياء غير ما ذكرت فانها تدل على قوة حفظ الجاحظ فقد رواها وهو ابن سبعين بوجه التقريب ، فلم يهمل في روايتها لوناً من الالوان او حركة من الحركات او هيأة من الهيآت ، ولكن فيها غير قوة الحفظ فان كلمته : يمحو لوحه ، تتضمن سراً من أسرار لغته ؛ فهي تشبه الكلمة التي نتهكم عليها منذ اسبوعين : أين تذهب في هذا المطر والبرد .

فبأي كلام تفصح في هذا اليوم عن فكرة مثل هذه الفكرة ، أفتستطيع ان تجد أسهل من هذا التعبير : يمحو لوحه ، على ان هذا المقام لا يتسع للخوض في مثل هذا البحث ولكني أحببت ان أشير الى شأن الآثار التي يبقيها لنا الكاتب مما يتعلق بصباه وبحياته فان هذه الآثار تكشف لنا الغطاء عن كثير من عبقريته .

حالات عقله في صباه

وكما عرفنا ان الجاحظ نشأ في الكتّاب فقد عرفنا حالةً من حالات عقله في تلك الصبوة الغامضة فمن هذه الحالات طائفة من أوهامه ، قال[1] :

واما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش فانهم يزعمون ان الخفاش اذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي فما أنسى فزعي من سنّ الخفاش ووحشتي من قربه ايماناً بذلك القول الى ان بلغت » .

ومن هذه الخرافات التي برئ الى الله منها قوله[2] : وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو في ارث منها ان حية يقال لها الدساس تلد ولا تبيض وان أنثى النمور لم تضع نمراً قط الا ومعه أفعى .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص١٦٧) .

(٢) « « (الجزء الرابع ص ٧٥) .

والاعراب تزعم ان الكمأة تبقى في الارض فتمطر مطرة صيفية فيستحيل بعضها أفاعي فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين فزعم لي انه عاين كمأة ضخمة فتأملها فاذا هي تتحرك فنهض اليها فقلعها فاذا هي أفعى ، هذا ماحدثته عن الأعراب حتى برئت الى الله من عيب الحديث » .

هذه معتقدات صبي مالبث ان نشأ وترعرع فكان على العقل معتمده واليه مستنده في كل امر من امور الدين والفلسفة والعلم فلم يبق من تلك المعتقدات اثر .

حرفته وثروته

الى اي حرفة كان يتحرف الجاحظ بعد خروجه من الكتّاب فقد قيل لنا أنه رؤي يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) .

ولكن هل طال عهده ببيع هذا الخبز وهذا السمك ، فالذي نعلمه انه جمع مالاً لابأس به ، قال ميمون بن هارون قلت للجاحظ[1] :

ألك بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن ابي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لاتحتاج الى تجديد وتسميد » .

أعماله

ولقد جمع هذا المال وتقلد جلائل الاعمال فقد صدّر في ديوان الرسائل ايام المأمون ثلاثة أيام ثم انه استعفى فأعفي وكان سهل بن هارون يقول : ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب .

وكان يتقلد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ويحكى انه لما جاء الى الديوان جاءه ابوالعيناء فلما أراد الانصراف تقدم الجاحظ الى حاجبه اذا وصل الى

(١) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس ص ٧٥) .

الدهليز ان لا يدعه يخرج ، ولا يمكنه من الرجوع اليه ، فخرج ابو العيناء ففعل به ذلك ، فنادى باعلى صوته : يا ابا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك .

فانظروا كيف يميل الى الهزل حتى في دواوين الخلفاء . ولكنه لم يحلق لهذه الدواوين . فقد خرج الجاحظ من ديوان الرسائل وفي نفسه عاملان : عامل الهزء، وعامل الطموح فلنوضح هذا الامر .

كان الجاحظ على نحو ما صوّره لنا الفتح بن خاقان في رسالته اليه صاحب عظمة في نفسه ، يثق بعلمه وبمعرفته ، وان رجلاً قد شعر من نفسه بهذه العظمة ليصعب عليه ان يكون في ديوان مسلوب الإرادة فيه ، يعمل لرجال ربما كان يعتقد انه أرفع منهم منزلةً ، وأعلى شأناً ، فما وسعه الا ترك الديوان ، حتى يتبسط في أفق اعلى ، ويتفسح في جوّ أمدّ ، ليس بينه وبين شيء من مرادات نفسه حاجز يحجز ، او حائل يحول ، يوفر على هذه النفس كرامة ، قد لا يستطيع ان يوفرها وهو راسف في قيد السلطان ، ويتمتع بقراءة كتب كانت غذاء روحه مدة قرن .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة لانه صاحب اعتماد على نفسه يحب ان يعيش مطلقاً من كل قيد فلم يخلق لامثال هذه الدواوين التي لا تخلو من القيد ، وخاصة ان الجاحظ رجل مطبوع على الهزء والسخرية ، ومن كان هذا شأنه قد يتعذر عليه ان يجدّ ونفسه تبعثه على الهزل وان ينقاد وطبعه يدفعه الى الانطلاق فما أحبَّ ان يقيد نفسه في ذرا الدواوين ، فان رجلاً قد خبر عمل السلطان ، وكان رأيه في هذا العمل على الوجه الآتي (١) :

« وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقار به بخدمته ، فان اولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لم تخوّل مملوءة قد لبسها الرعب والفهما الذل ، وصحب ترقب الاحتياج فهم مع هذا في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن ، فان هي حلّت وكثيراً ما تحلّ فناهيك بهم

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

مرحومين يرق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء » .

لبعيد عادة عن ملابسة السلطان بنفسه ومقاربته بخدمته وخاصة ان كان قد شاهد المحن التي أشار اليها وشاهد بمن حلّت وسنتكلم عليها في الآتي .

ان رجلاً يقول في مدح التجار [1] :

« اودع الناس بدناً واهنأهم عيشاً وآمنهم سرباً ، لانهم في أفنيتهم وكالملوك على أسرتهم يرغب اليهم اهل الحاجات وينزع اليهم ملتمسو البياعات لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ولا يستعبدهم الضرع لعاملاتهم . »

لطامح الى أفق يشبه افق التجار يتمتع فيه بدعة البدن وهناء العيش وأمن السرب ، ولئن نزعت بالجاحظ نفسه عن عمل يجد فيه الذل والملق والضرع فربما نزعت به هذه النفس الى عمل يكون فيه صاحب الامر النافذ يضرع الناس اليه و يذلون له بدلاً من ان يكون الضارع الذليل ، وما يتيسر له مثل هذا العمل الا في ظلال الخلافة فكأنما وسوست له نفسه ان يذوق لذة هذه الخلافة فاذا صحت الرواية التي رواها ابن عساكر في تاريخه وهذه هي :

« دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا ابا عثمان ، كيف حالك ، فقال الجاحظ سألتني عن الجملة [2] فاسمعها مني واحداً واحداً ، حالي ان الوزير يتكلم برأيي و ينفذ امري ، ويواتر الخليفة الصلات اليّ وآكل من لحم الطير اسمنها وألبس من الثياب الينها واجلس على ألين الطبري وأتكئ على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل الفرج ما أنت فيه ، قال : بل احب ان تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري و يختلف اليّ ، فهذا هو الفرج ! » .

إذا صحت هذه الرواية فمعناها ان الجاحظ لم يجد لذة في التصدير في ديوان الرسائل لأنه لم يعمل بأمره ، وانما كان يعمل بأمر الخليفة ، على حين يجد لذته في الانفراد بالامر والنهي ، فهل افصح عن أمانيه لما قال : [3]

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

(٢) في الأصل سألتني عن الجلة ، وفي نسخة عن الجملة .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٣

« وليس شيء الذ ولا أسر من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن عقد المنن في اعناق الرجال والسرور بالرئاسة وبثمرة السيادة لان هـذه الامور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس . »

وكيف كان الامر فاننا نحمد الله الذي لم يأته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد انه ان فاتته الرياسة عن سبيل السلطان فقد اتته هذه الرياسة منقادة اليه عن سبيل الادب ولا شك في ان الادب اخلد اثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه ان الجاحظ عاش في نعمة وربما اعطى نفسه حقها من اللهو فقد كان المكي يعشق جارية يقال لها سندوة ثم تزوجها نهارية وقد دعاه الجاحظ الى منزلها غير مرة .[1]

اعتناؤه بداره

عاش الجاحظ في نعمة وقد بقيت منه آثار فيها شيء يدل على التحقيق العلمي لكن هذا الشيء لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية الى غرس الاشجار ، فمن قوله :[2]

« ولقد اردت ان اغرس في داري أراكة فقالوا لي : ان الاراك انما تنبت من حب الاراك يغرس في جوف طين في قواصر ويسقى الماء اياماً فاذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الارض وتكن الى ان تصير في جوف الارض فان الذر تطالبه مطالبة شديدة وان لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها فعمدت الى مشارات من صفر من هذه المسارح وهي في غاية الملاسة واللين فكنت اضع القوصرة على الترس الذي فيه الاملس فاجد فيه الذر الكثير فكنت انقل المشارة من مكان الى مكان فما أفلح ذلك الحب . — »

ومرة كان يصرفها الى تعليق الابواب الثمينة ، فمن هذا قوله :[3]

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له : ان

(١) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨

(٢) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٢٥

(٣) — كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥

إحكام تعليق البـاب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد وقد يذكر بالحذق في نجارة السيوف والقباب وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الاحكام والقباب عند العامة اصعب ولهذا امثال فمن ذلك ان الغلام والجارية يشويان الجدي والحمل وهما يحكمان الشيء وهما لا يحكمان شي جنب ومن لا علم له يظن ان شي البعض اهون من شي الجميع فقـال لي : قد احسنت حين اعلمني انك تبصر العمل فان معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق فملأته فاحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب اذا اردت اصفاقه فقلت له أكره ان اجلسك الى ان يذهب الغلام الى السوق و يرجع ولكن اثقب لي موضعها فلما ثقبه واخذ حقه ولاّني ظهره للانصراف والتفت الي فقال : قد جودت الثقب ولكن انظر اي نجار يدق فيه الرزّة فانه ان اخطأ بضربة واحدة شق البـاب فعلمت انه يفهم صناعته فهماً تاماً . — » .

من هذا كله تستنتجون ان الجاحظ ملمّ بكل امر سواء أكان هذا الامر صغيراً أم كان كبيراً فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملكات حتى يكاد يصل بهم الضعف الى البلاهة ، وانما هو كامل من الكملة .

ملازمته لاكابر الرجال — من هم الرجال الذين لازمهم في حياته .

قال ياقوت في معجم الادباء : [١]

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للعداوة بين احمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له لمَ هربت فقال : خفت أن اكون ثانيَ اثنين اذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنورَ حديدٍ فيه مسامير كان هو صنعه ليعذّب الناس فيـه ، فعذب هو حتى مات يعني محمد ابن الزيات . — »

من هو محمد بن عبد الملك ومن هو احمد بن ابي دواد وما هي العداوة بينهما . [٢]

(١) معجم الادباء — الجزء السادس — ص ٥٧

(٢) اعتمدت في الكلام عليهما على تاريخ ابن خلكان . —

اما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات وزير المعتصم وهذه قصة وزارته :

كان احمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال له المعتصم : ما الكلأ فقال لا اعلم ، وكان قليل المعرفة بالادب ، فقال المعتصم : خليفة امي ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ثم قال : ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات فادخلوه اليه فقال له : ما الكلأ ، فقال : الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم انواع النبات فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه و بسط يده ٠

ولما مات المعتصم وقام بالامر ولده الواثق هرون أقر الواثق ابن الزيات على ما كان عليه في ايام المعتصم بعد ان كان ساخطاً عليه في ايام ابيه ، وحلف يميناً مغلظة انه ينكبه اذا صار الامر اليه ، فلما ولي أمر الكتّاب ان يكتبوا ما يتعلق بامر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه فكتب ابن الزيات نسخة رضيها وأمر بتحرير المكاتبات عليها ٠ فكفر عن يمينه وقال : عن المال ، والفدية عن اليمين عوض وليس عن الملك وابن الزيات عوض ٠

فلما مات الواثق وتولى المتوكل كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء وسببه انه لما مات الواثق بالله اخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق واشار ابن ابي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده والبسه البردة وقبّله بين عينيه وكان المتوكل في ايام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ويغلظ له في الكلام متقرباً بذلك الى قلب الواثق فأضمرها المتوكل في نفسه فلما ولي الخلافة خشي ان نكبه عاجلاً ان يستّر امواله فيفوته فاستوزره ليطمئن وجعل ابن ابي دواد يغريه و يجد لذلك عنده موقعاً حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع املاكه وضياعه وذخائره الا ما كانت قيمته مائة الف دينار فندم على عمله وقال لابن أبي دواد : اطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم اجد عنه عوضاً ٠

كان ابن الزيات قد اتخذ في ايام وزارته تنوراً من حديد واطراف مساميره المحدودة الى الداخل وهي قائمة مثل رؤوس المسال وكان يعذب فيه المصادرين وارباب الدواوين

المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقه احد الى هذه المعاقبة وكان اذا قال له احد منهم ايها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة ·

فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله في التنور وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال ابن الزيات : يا امير المؤمنين ارحمني ، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس فلما كان في الحبس طلب دواة وبطاقة فأحضرتا اليه فكتب :

هي السبيل فمن يوم الى يوم   كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجزعنّ رويداً انها دول   دنيا تنقل من قوم الى قوم

وسيرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر باخراجه فجاؤا به اليه فوجدوه ميتاً وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وكانت مدة اقامته بالتنور اربعين يوماً فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ ان يكون فيه ثاني اثنين ·

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن ابي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ، اظن انه لم ينج من شيء من ذلك وقبل ان نبين ماصنع به ابن ابي دواد لا حرج علينا ان أوجزنا في كلمة على ابن ابي دواد ·

قال ابراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك ودخل احمد بن ابي دواد فعدّهم واحداً واحداً باسمائهم وكناهم وانسابهم فقال المأمون : اذا استجلس الناس فاضلاً فمثل احمد فقال احمد : بل اذا جالس العالم خليفة فمثل امير المؤمنين الذي يفهم عنه ويكون أعلم بما يقول منه ·

هذا هو احمد بن ابي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة وعزل يحيى بن اكثم وقد خصّ به أحمد بن ابي دواد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً الا برأيه ·

ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن ابي دواد عنده ولما مات الواثق بالله وتولى اخوه المتوكل فلج ابن ابي داود في اول خلافته فولي موضعه ولده ابو الوليد محمد ·

وكثر ذامّوه وقل شاكروه واستمرّ على مظالم العسكر والقضاء الى سنة سبع وثلاثين ومائتين فسخط المتوكل على القاضي احمد وعلى ولده محمد وصرف ولده عن المظالم ثم صرفه عن القضاء واخذ من الولد مائة الف وعشرين الف دينار وجوهراً بأربعين الف دينار وسيّره الى بغداد من سرّ من رأى وفوّض القضاء الى القاضي يحيى بن اكثم الصيفي .

كان بين قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد ابياتها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضي احمد فقال :

احسن من سبعين بيتاً هجا جمعك معناهن في بيت

ما احوج الملك الى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ويقال ان بعض اجداد القاضي احمد كان يبيع القار فقال:

ياذا الذي يطمع في هجونا عرّضت بي نفسك للموت

الزيت لا يزري باحسابنا احسابنـا معروفة البيت

قيرّتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

تعذيبه

قلت : لم ينج الجاحظ من شر ابن ابي دواد لأنه كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات . فماذا صنع به ابن ابي دواد ؟

قال ابو عبدالله المرزباني [1] :

«حدث اسحاق الموصلي وابو العيناء قال : كنت عند احمد بن ابي دواد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان من اصحاب ابن الزيات وفي ناحيته ، فلما نظر اليه قال: والله ماعلمتك الامتناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوي وما فتئني باستصلاحي لك ولكن الايام لاتصلح منك [2] لفساد طويتك ورداءة دخلتك وسوء اختيارك وتغالب

---

(١) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨

(٢) في الاصل : لا تصلح منك الا لفساد طويتك . . . فأظن ان « لا » زائدة فلا محل لها .

طبعك فقال له الجاحظ : خفض عليك ايدك الله فوالله لئن يكون لك الامر عليّ خير من ان يكون لي عليك ولئن اسيء وتحسن أحسن عنك من ان احسن فتسيء ، وان تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن ابي دواد : قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك اما قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ، ان اخذه اليم شديد . قال تلاوتها تأويلها اعز الله القاضي ، فقال : جيئوا بحداد ، فقال : اعز الله القاضي ، ليفك عني او ليزيدني فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ و يطيل امره قليلاً فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة فضحك ابن ابي دواد واهل المجلس منه ، وقال ابن ابي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه ثم قال يا غلام ، صر به الى الحمام وامط عنه الاذى واحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخفاً فلبس ذلك ثم اتاه فتصدر في مجلسه ثم اقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا ابا عثمان » .

مكاتباتهم له

هذه طائفة من اكابر الرجال الذين كان يلازمهم ويتردد اليهم وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ ان ابا عثمان كان يأكل معه في يوم من الايام فجاؤوا بفالوذجة فتولع محمد بالجاحظ وأمر ان يجعل من جهته مارقٌ من الجام فأسرع الجاحظ في الاكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً(١) .

ولقد رغب في مجالسه الامراء والخلفاء وصحب هؤلاء الامراء في أسفارهم وقد كانوا يكاتبونه ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل وأمره على الشام وامره ان يستنيب عنه وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة .

وقد كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر

(١) تاريخ ابن عساكر .

داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة ، قال ابو هفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسماعيل القاضي [١] .

ومن رسائل الفتح بن خاقان الى الجاحظ كتاب كتبه اليه يقول في فصل منه [٢] : « ان اميرالمؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسك لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان الذي الي من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به الي وكن من جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك سنة كاملة مستقبلة وهذا مما لم تحتكم به نفسك وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ولولا اني أزيد في تخيلتك لعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة ، منهم ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب وكان والياً على الاهواز ، وابوالفرج نجاح بن سلمة وسنظر في شعره وكان يكاتب جماعة منهم ابراهيم بن المدبر وكان ابراهيم هذا ينبسط مع ابي عثمان وكانا يجتمعان في كل ثلاثة ايام .

أسفاره

فلنصحب الجاحظ في أسفاره ولننقب عن الآثار التي خلفها بعد هذه الأسفار ، فقد كان ابوعثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الارض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحاري جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك وجارى الطرق ودخل البراري وأمعن فيها وضرب الى المواضع الوحشية [٣] .

ومن الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ، فقد يكون الضرب في مناكب الارض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور

(١) فوات الوفيات (الجزء الثاني) . (٢) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس) ص ٧٢ . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ١٥)

ومتباين الالوان مما يكون مادة لرجال العبقرية يستمدون منها في الشعر والتصوير ، فقد اقتبس (شاتوبريان) من سفره الى اميركة صوراً شتى وألواناً غريبة أسبغت على فكره وعلى لغتـه نعمة الشباب ، ومن أراد ان يعرف ماالذي أوحاه السفر الى « لوتي » فليقرأ كتبه التي صوّر فيها مازاره من مختلف الأصقاع فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد فأحيا في كتبه مصر القديمة وافريقية المحرقة وقسطنطينية الساحرة وكان لبلاد فارس ولديار الشـام صورة في هذه الكتب ، وأحيا عواصف بحر من البحور ولذّات جزيرة من الجزائر ، وكان يمزج عواطفه بكل ماوقعت عليه عينه ·

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر اثراً في بعض هذا الأدب. فلو لم تحضر الهموم رحل ابي عبادة البحتري فيوجه عنـه الى (ابيض المدائن) لما كانت لنا من شعره هذه السينية الخالدة التي لانجد سينية أفضل منها في شعر العرب ·

اي شيء من ايوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري ، أفاته شيء من صورة انطاكية ، أم فاته شيء من مواثل المنايا وتزجية الصفوف واخضرار لباس الجنـد واصفراره وعراك الرجال بين يدي كسرى واشاحتهم برمح او الاحتهم بترس فكأنهم احياء وكأنهم أموات ·

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس او كأنها ضوء الليل حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها واغتلى ارتيابه في العسكر فكانت يده تتقراهم باللمس فليس يدري أهو في حلم قد أطبق عينيه على الشك ام هي امان غيرت ظنه فما تمالك في سحر هذه المشاهد وروعة هذه الصور ان اعانهـا بدموعه فبكى على ايوان بزّ من بسط الديباج واستلّ من ستور الدمقس لم يكن بانيه نكساً في الملوك ، وصبا الى قيان المقاصير بين حواء ولعساء ، وما تمالك ان بكى على رباع عمرت دهراً للسرور فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي !

ولو لم يغر المهلبي شعراء بغداد بابي الطيب المتنبي حتى تبـاروا في هجائه وأسمعوه مايكره وتماجنوا به وتنادروا عليـه لما اتخذ المتنبي الليل جملاً وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد والى ابي شجـاع عضد الدولة فكان من رحلته الى بلاد فارس هذه الابيات التي وصف بها شِعْب بوّان فقال :

ملاعب جنة لو سار فيهـا سليمان لسار بترجمانـ
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كرمن، من الحران
غدونا ننفض الاغصان فيها على أعرافها مثل الجمانـ
فسرتُ وقد حجبن الحرَّ عني وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنانـ
لها ثمر تشير اليك منـه باشربة وقفن بلا اوانـ
وأمواه تصل بها حصاها صليل الحلي في ايدي الغواني

وكان لنا من هذه الابيات صور ناطقة في الوصف أضفناها الى ميراثنا الأدبي .

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت اكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ماقاله احد كتاب الافرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه فقد قال : يسافر الانسان كي ينسى الحقائق . وفي كلمة هـذه معنى بعيد ، فكأنه يريد ان يقول ان الحياة تشتمل على حقائق لا تخلو من ايلام وايجاع فاذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لان طرفه يلهو بامور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها .

واني اعتقد ان من جملة الامور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها .

سافر الجاحظ الى انطاكية والى دمشق والى مصر ووضع كتاباً اسمه : (كتاب البلدان) وغير بعيد انه وصف فيه الامصار التي عرفها ولكن هذا الكتاب لم يسقط الينا فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وانما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف ماتناهى الينا من كتبه ، فاذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وانما يتعلق هذا الحكم بما وصل الينا من آثار أسفاره دون غيرها مما لم نطلع عليه .

فمن آثار سفره الى انطاكية قوله[١] :

« اني رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدّة من الثلثين الاسفلين

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٥١) .

فقلت لهم : مابال هذا الثلث الاعلى أجدّ وأطرى ، قالوا : لأن تسميتنا ترفع من بحرنا هذا فكان لايمر بشيء الا أهلكه فرّ على المدينة في الهواء محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هي عليه فضربه بذنبه ضربة خرقت من الجميع اكثر من هذا المقدار فأعادوه بعد ذلك ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا ان ديدن الجاحظ في كل امر من الامور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلَعة لا تريد ان يفوتها شيء .

اما آثار سفره الى دمشق والى مصر فانها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر الى دمشق مع الفتح بن خاقان وذكر هذه الحكاية[1] :

« واحتاج أصحابنا الى التسلم من عض البراغيث ايام كنا بدمشق ، ودخلنا انطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرة فلم ينتفعوا بذلك لان براغيثهم تمشي و براغيثهم نوعان : الابجل والبرد ، انما سموا ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فان يحيى زعم ان البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقاً كما يعرض الطيران للنمل و كما يعرض الطيران للدعاميص فان الدعاميص اذا انسلخت صارت فراشاً فكأن اصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً وكانت له بلية أخرى وذلك ان الذي تسهره البراغيث لا يستريح الا ان يقتلها بالعرك والقتل والاّ ان يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى انهن اذا صرن عشرين كان أهون عليه من ان تكون احداً وعشرين ، وكان الرجل اذا رام ذلك من واحد منها انثنت يده وكانوا ملوكاً ومثل هذا شديد على أمثالهم فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني وجعلوها طويلة الابدان والاردان فناموا مستريحين . »

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره الى بلد يكاد يكون جنة الدنيا فلسنا ندري اتفنى الجاحظ بغوطة دمشق ام نظر الى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم فمن قوله :[2]

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ١١٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول —

« وقول الدمشقيين ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا الا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها وماندري اجواهر مقطعاته اكرم في الجواهر ام تنضيد اجزائه في تنضيد الاجزاء » .

انه ليعلم هذا كله فهل استماله شيء من المسجد ومحرابه وقبة مصلاه وجواهر مقطعاته أم آلمه عض البراغيث في دمشق فشغله هذا العض عن كل حسن من محاسنها .

على انه قد اشار الى المسجد اشارة خفيفة فقال : (١)

« وقد رأيت مسجد دمشق حين استجار هذا السبيل ملك من ملوكها ومن رآه فقد علم ان احداً لا يرومه وان الروم لا تسخوا انفسهم به فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب الى ان ذلك الصنيع مجانب لسنة الاسلام وان ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقائق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وان البال لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه . »

ولئن ابقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث فقد ابقت مصر في هذا الذهن العجيب صورة أبشع فمن قوله : (٢)

« كنت بججت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحد نحو ارزة . »

براغيث وعقارب !

هذا ما عرفناه من آثار سفره الى مصر ودمشق ، فاذا كان كلامه في كتاب البلدان وفي رسالة مصر من هذا النمط فلم يكن الجاحظ في اسفاره شاعراً ، اي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور وانما كان يبحث عن حقيقة من الحقائق العلمية فلم يبعج بطن العقرب على سبيل اللهو وانما فعل هذا واضرابه على سبيل التحقيق وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه وتجريبه . على ان صاحب صبح الاعشى ذكر ان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الاول — ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وانما سميت مصر بمصير الناس اليها ، فاين هذه الرسالة [١] ؟

***

علّته

كيف انطفأ نور هذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل الى كل ضرب من ضروب المعرفة حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين اشكالها فكان لنا من مزدحمها كنز لا يفني تجبس الليالي .

حكى ابو علي القالي عن ابي معاذ عبدان الخولي المتطبب قال : [٢]

دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج فلما اخذنا مجالسنا اتى رسول المتوكل اليه ، فقال : وما يصنع امير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ثم اقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، احدهما لو غرز بالمسال ما احس والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث واكثر ما اشكوه الثمانون . »

وقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث فقال : [٣]

وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة فقال لمن اراد حمله : وما يصنع امير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل . »

وحدث المبرد قال : [٤]

دخلت على الجاحظ في آخر ايامه ، فقلت له كيف انت ، فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه واشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم انشدنا :

(١) الجزء الثالث — ص ٣١٨
(٢) امالي القالي — الجزء الاول — ص ٥٠
(٣) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩
(٤) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

أترجو ان تكون وأنت شيخ   كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب   دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لوقرض بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[1] : اصطلحت على جسدي الاضداد ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان أكلت حاراً اخذ برأسي ، أنا من جانبي الايسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت وبي حصاة لا ينشرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة . »

هذه جملة الروايات التي تتعلق بعلته ، وقد اثّر هذا المرض في كتاباته حتى قال في كتاب الحيوان ، وكتاب الحيوان ألفه في الربع الاخير من عمره[2] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب الى ان قال :

فان وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد ان صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي» .

شكواه من اللؤم

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صوّرها فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لاتهدأ أعصابهم الا اذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول ابي عثمان في هذه الجماعة[3] :

« فان كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب او كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم

(١) مرآة الجنان — الجزء الثاني — ص ١٦٤ . (٢) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٢) .

وفلتات الضجر ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ومن عارض التبرع ومن أخلاق من عسى ان يتسع في القول بمقدار ضيق صدره ويرسل لسانه ارسال الجاهل بكنه مايكون منه ولو جعل بدل شغله بقليل مايرى من المذموم لقله بكثير مايرى من المحمود كان ذلك أشبه بالادب المرضي والخيم الصالح وأشد مشاكلة للحكمة وأبعد من سلطان الطيش وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين وأجدر ان يهب الله تعالى له السلامة في كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ومقارعة اعدائه » .

من هذا يتبين لكم ان الفالج قد اثر في تأليف الجاحظ حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة والكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان فكان يضطر الى مداراتهم واستمالتهم والى كثرة الاعتذار فمن قوله[1] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار حتى كأن الذي أفيده اياهم استفيده منهم وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة فالجه ومرة شيئاً أشد من الفالج وهو لؤم بعض الاخلاق حتى ورد الخبر بموته .

وفاته

حدث احمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن ابيه قال[2] :

قال لي المعتز بالله : يايزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب ان اشخصه الي وان يقيم عندي ، فقلت له : انه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقد قال فيه ابو شراعة :

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٥١) . (٢) تاريخ ابن عساكر .

في العلم للعلماء ان يتفهموه مواعظ
واذا نسيت وقد جمعت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت ايامه وهو الرئيس الواعظ

* * *

هذه خلاصة حياةٍ تقلّب صاحبها في كل أفق من آفاق العيشة ، وخبر كل امر من امور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزّه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بمجامعها فلم يخفَ عليه شيءٌ من لذة السفر ولذة العلم وماشابههما ، ومدّ الله في أجله فكأنه يقول :

متى يأت هذا الموت لاتبق حاجة لنفسي الا قد قضيت قضاءها

ان حياةً مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الانسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لاأمرُّ الا بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية .

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل وكان همه الأبعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الاشارة الى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب وبالعلم ، جزاء هذا كله تعقب الناس اياه وهو في أشدّ حالةٍ من الحالات ، واي حالة أشد من الفالج ، فقليلاً مانسائح وقليلاً ماتلاين ، فقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي اليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر الى سيئة تسترها حسنات فلا تفترق العين الا هذه السيئة ونغضي على الحسنات فنعمي عنها او نتعامى ، وقد نؤلما المحاسن في كثير من الأحوال فلا نحب ان يبرع الى جنبنا بارع ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول ان نهذّب هذه الطبيعة ، هل هذّب العلم من أخلاقنا ، أفلا نزل في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون الى الكهوف والغيران في شباب البشرية ! .

نعم ، هذا مالقيه الجاحظ من الناس في أواخر ايامه ، وأغرب من هذا كله انه ربما

ألّف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته حتى كان ينسب كتبه الى من تقدم عصرهم فيأتيه اولئك الطاعنون باعيانهم فيكتبون كتبه المنسوبة الى غيره بخطوطهم و يتدارسونها بينهم و يتأدبون بها و يستعملون الفاظها ومعانيها ، ولو علموا ان هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم الا الطعن والقدح !

وقبل ان انظر في سيرة الجاحظ كنت أنظر في سيرة المتنبي ، فما أشبه الذي كان يلقاه الجاحظ بالذي كان يلقاه المتنبي فأبو عثمان شكا الحسد ، وابو الطيب لم يسلم من شر الحساد .

كنا نعلم ان اباالطيب كان في ابتداء امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله يشتهي كل شيء ، يشتهي الناعم من الملابس والكريم من المطايا . توفي ابوه وهو فقير فضرب في مناكب الشام التماساً للرزق وكثيراً ما أشار الى فقره والى إخفاقه في السعي والى كساد شعره في اسواق بعض الممدوحين ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين ، فكان ضجره من هذه الأخلاق اللئيمة يطفح على جنبات شعره ، ولقد أفضى الامر بحساده الى ان شمتوا بموت جدته لانه كان يذهب في حبها كل مذهب .

لم يسلم المتنبي من شر الحساد وهو فقير فأخلق به ان لا يسلم من هذا الشر بعدان غرق في مكارم سيف الدولة الباهرات وبعد ان أنعل أفراسه عسجداً بنعمى ملك حلب فقد آلم كثيراً من الشعراء وكثيراً من رجال اللغة ، فكانت شكوى الحسد تفيض في شعره وربما تمنى القوم موته فنعوه وهو حي ولكنه كان ينتفض من بعد منعاهم فيزول القطن والكفن .

ترك المتنبي سيف الدولة واتصل بكافور الإخشيدي فاندفع في شكوى الحسد وغادر كافوراً فوقع في بغداد في شر شعرائها الذين نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه .

لم يسلم المتنبي من داء العبقرية في كل طور من أطواره ولئن كان الجاحظ يهزأ بحساده فلم يكن المتنبي اقل هزءاً منه بهؤلاء الحساد فلم يفكر في واحد منهم وربّ بيت

قاله في الشعر يعض بهم أشد من وقع السهام في غلس الدجى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجـد مراً به الماء الزلالا

***

نظرت في سيرة الجاحظ وفي سيرة المتنبي وكنت أقرأ من ايام قليلة مقالاً أنشأه الكاتب الفرنسي (زولا) في وصف نعش الشاعر (فلوبر) ·

لم يمش حول نعش هذا الشاعر الا ثلاثمائة رجل من باريز فقد غاب كثير من الذين كان يجب عليهم ان لا يغيبوا ، ومدينة الشاعر نفسه وهي (روان) لم تشيع اشهر ولد من أولادها فقد قالوا ان اهل (روان) انما هم تجار يسخرون من الادب على ان في (روان) كثيراً من الاساتيذ والمحامين والاطباء والشباب المستنير ، ان فيها من قرأ رواية مادام بوفاري فلم يتحرك واحد منهم ، فلم يصحب النعش الا مائتا رجل من (روان) وكثير من الناس كانوا ينظرون الى النعش على سبيل اللهو فلم يكن على وجه واحد منهم اثر من آثار الحزن والحقيقة ان اربعة اخماس اهل روان لا يعرفون فلوبر والخمس الآخر كانوا يكرهونه وقد ختم (زولا) مقاله المبكي بهذه العبارة : هذا هو المجد ·

نعم هذا هو المجد ، وهذا ما يصادفه رجال العبقرية في حياتهم وفي مماتهم !

أفهدأت أفكار هذه الطبقة من الناس في عصر من العصور ؟ أفنال رجال العبقرية ما يستحقونه من الجزاء ؟ استغفر الله · انهم لا يريدون جزاء ولا شكوراً انهم اجل من كل جزاء ومن كل شكور ، وانما الذي يريدونه ان نكف عن نهشهم وعن لسعهم هذا هو كل جزائهم ·

ومن البلاهة ان يبلغ من وساوسنا ان نعتقد ان مجرد الطعن على بارع من البارعين يحطمه تحطيماً أحطم الجاحظ طعن الطاعنين ؟ أفهدم المتنبي نهش الناهشين ؟ أفلم يذهب اولئك الناهشون اللاسعون بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق الا ذكر الجاحظ والا ذكر المتنبي !

اننا نستطيع ان نهدم الجاحظ واننا نستطيع ان نحطم المتنبي والسبيل الى ذلك ان نأتي بادب ابرع من ادب الجاحظ و بشعر اروع من شعر المتنبي · فنعفي يومئذ على آثارهما ، فاما المذيان واشباهه فيذهب جفاء واما النبوغ فيمكث في الارض !

البستان

« في الميزان »

—«»—

البستان معجم عربي وضعه الشيخ اللغوي عبد الله البستاني ، لتتداوله ايدي المحققين عند احتياجهم الى مراجعة بعض الألفاظ الضادية ، وقد قرظته بعض الجرائد والمجلات ، ونسي النقدة انهم قد اوتمنوا على لغة آبائهم ، وحفظها من الفساد وان لا ينظروا الى لوجوه ولا الى الصداقة ، ولا الى كل شيء يفكك عرى هذا اللسان البديع البناء المحكم الأركان . على اننا كنا قد نقدنا بعض النقد المجلد الاول من هذا الديوان ليكون المجلد الثاني أتقن تأليفاً وأسدّ انشاءً وذلك في مجلتنا لغة العرب (٦ : ٦٨ وما يليها) وظن بعضهم ان في الحوباء حوبة ، تبرئة لمديحهم المكيل كيلاً ، اذ غايتهم غير الغرض الذي رمينا او نرمي اليه . وقد أشرنا الى ما في الجزء الثاني من الأوهام اشارة قابس نار في مجلتنا ايضاً (لغة العرب ٩ : ٥٠٣) لكن ذلك غير واف بالغرض ، اذ لم نتعرض لهذه النقلية الا كمن يمر بالديار راكب القطار ، او ناقل الأخبار على أجنحة البرق خاطف الابصار .

والآن أردنا ان نعيد نظرة ثانية في هذا المجلد الثاني ، ليعلم الواقف على هذا المقال ان هذا الديوان الجديد مفسدة للغة العربية ، ولكلام كل من ينقل عنه ، او يقتبس منه . والدليل : انك لا تجد فيه صفحة واحدة سالمة من عدة أغلاط . ولو كانت قليلة و يسيرة وخفيفة لهان الامر واحتقر ، لكنها مخلة بالمعنى والمبنى ، فاقتضى التنبيه على أمثلة منها ، لتنجلي الحقيقة بصورتها الواضحة ، وتزول اللائمة من صدور بعض الثقات الاثبات ، الذين يتوخون الصدق في جميع شؤونهم .

الصفحة الاولى من هذا المعجم هي نصف صفحة على الحقيقة ، وقد طالعناها بتؤدة ، فلم نر فيها خللاً مميزة لها دون غيرها ، فقد بالغ بعض الكتبة في اعلاء شأن هذا

الكتاب ، مبالغةً مخالفةً لكل واقع . والذي ثابتناه ان هذا المعجم نسخة ثالثة من محيط المحيط ، (والثانية هي أقرب الموارد كما قلناه مراراً) ، والأغلاط الواردة في الأم ، واردة بعينها في الابنة مع زيادة . نعم قد أصلح الشيخ عبد الله بعض هفوات محيط المحيط ، الا انه عوّض عنها باوهام شنيعة ، كرّهت المطالع ان ينعم النظر في ما حرره قلمه . ونحن نذكر لك بعض الأمثلة .

جاء في اول باب الضاد : « قال ابو منصور الثعثع الصدفة » وهي عبارة التاج . لكن الوارد في الشرح (اي التاج) هو من خطإ الطبع . والصواب : الثعثع الصدف ، كما في لسان العرب ، والثعثعة : الصدفة . اي صواب التعبير ان يفسر المفرد بالمفرد ، والجمع بالجمع على ماهو معهود .

وقال : « الضوْبان كقربان السمين الشديد من الجمال » ولم يذكر جمعه ، لان سائر الدواوين لم تذكره . الا ان التاج ذكره في مادة ض و ب : واحده كجمعه سواء . وهذا يجب ان يعرف ، لان المعاجم وضعت لمثل هذه الامور .

وفيها : « المضؤُد المزكوم » والصواب المضؤود بواوين الاولى مهموزة والثانية ساكنة ، لان المضؤود على المفعول . وفي هذا اللفظ خمسة أحرف ، فيجب ان يكون في الموزون خمسة أحرف ايضاً ، كما هو فعل بنفسه حينما قال في ضأك «مضؤوك» .

وقال « وضأز فلاناً ، بخسه ومنعه » — والصواب ضأز فلاناً حقه بخسه ومنعه .

وفي تلك الصفحة « الضُؤْضؤ كهدهد والضِئْضِيءُ كجِرْجِر ، والضِئْضِيءُ كجرجير والضُؤْضُوه كسُرسُور وضِيضَأً كضِفْدَع ، الاصل ... » والصواب وضِئْضَأً كضفدع . لكن المؤلف اتبع رسم الكلمة على ماجاء في التاج المطبوع الكثير اغلاط الطبع . والصواب ان تثبت الهمزة الاولى الواقعة بعد الضاد الاولى ، لان اللفظ مهموز الثاني والرابع . وقد نبه على ذلك صاحب مد القاموس . — ثم ان اتخاذه (جرجراً) ميزاناً له فقد اتبع فيه صاحب القاموس . والذي كان يجب عليه ان يتخذ ميزاناً له لفظاً مشهوراً بين الخاصة والعامة . اي يقول كجعفر او كسبسب كما فعله القاموس نفسه ، في جميع المواطن الشبيهة لهذا الحرف . اما المشهور في وزن جَرْجَر ففتح الجيمين . نعم ان الجِرْجِر بكسر الجيمين وارد ايضاً ، ومعناه غير المعنى المفتوحيها ، بيد أن المعهود في الجرجر عند جميع

الناس هو فتح الجيمين ، وبمعنى آخر ، وهو ماتداس به الكدس من آلات الزراعة . فكان يحسن بالشيخ ان يتخذ اللاحب من الطرق لاالمندرس منها .

وقال في تلك الصفحة : وفي خطبة ابي طالب « الحمد لله الذي جعلنا من ضِئْضِيءِ مَعَدّ وعُنصُر مُضَر » ... والذي في دواوين اللغة : «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضِئْضِيءِ مَعَدّ ، وعُنصُر مُضَر » . فكان يجب ان يراعي الامانة التي اوتمنها ولايخالفها ، امّا اذا كانت نيته الاختصار ، فكان يحسن به ان يحافظ على الطريق التي اتبعها من تعمد الحذف و يجعل ثلاث نقط بدلها . فيكتب مثلاً هكذا : « الحمد لله الذي جعلنا من ... ضئضيءِ معدّ وعنصر مضر .» وعلى هذا الوجه يسلم من كل نقد ، ويُرضي الحزبين : حزب المحافظين على سلامة النصوص . وحزب مختصريها .

وجاء فيها : « المضوضي: المصوّت » . وليس هذا صحيحاً ، فان المُضَوْضِيءَ خاصّ بالرجال ، وكان عليه ان يقول : رجل مُضَوْضِيءٌ او : المُضَوضِيءُ من الرجال المصوّت . — ثم قوله : « المضوضى بتسهيل الهمزة الاخيرة ليس هـذا موطنه . بل مظنّته في مادة (ض وض) اماهنا فكان يجب ان يقال المضوضىءُ اي بهمزة في الآخر لكنّه نقل ما جاء في القاموس ومن نقل عنه ولم يترَوَّ كل التروّي في ما نقل . واللغوي الضليع من يميز الغثّ من السمين ، ويأخذ الحسن و ينبذ الرديء .

ومن منقولاته ، انه قال « الضُوْضُوهُ ايضاً كهدهد . الاخيل . توقف فيه ابن دُريد فقال ما إدري ما صحته » اه . قلنا في هذا التعريف عدة مغامز الاول انه قال الاخيل . وللاخيل عدة معان ، منها ، الكبر ، وذو الكبر وذو الخال اي الشامة ، وطائر مشؤوم ، او هو الصبرد ، او هو الشقراق ، فأيّا من هذه المعاني اراد صاحب البستان ؟ والذي يظهر من سياق عبارته أنه أراد معنى الطائر ، فكان عليه ان يقول ، الضُوْضُوهُ ايضاً كهدهد الاخيل للطائر المعروف ، او لهذا الطائر المعروف ، او ان يقول الأخيل بمعنى الطائر حتى تنتفي سائر المعاني التي تنطوي تحت الاسم المذكور . وهذا يتجلى من كتابه نفسه اذا راجعنا معنى الاخيل . — وقوله توقف فيه ابن دريد يصح على المعنى الذاهب الى الطائر ، امامعانيه الباقية فلم يتوقف فيها ابن دريد . فهذا المغمز الثاني .

اما المغمز الثالث فهو : ان توقف ابن دريد في هذا المعنى ذكره صاحب حياة الحيوان ، على مانص عليه صاحب التاج · والدميري ليس بحجة في نقل الأسانيد اللغوية · والدليل ان صاحب المخصص قال في كتابه (٨ : ١٥١) [قال] ابن دريد : (الشقراق) وهو الضوضو ايضاً والشِّرِقْراق » اه · ولم يضعف هذه الرواية ولم يجرحها ولم يطعن بها ، ولم يقل ان ابن دريد توقف في معنى الضوضو ·

والمغمز الرابع : لو صح نسب هذا التوقف الى ابن دريد لما جازلة ان يذكره في كتابه ، لانه كثيراً ما حذف الزوائد من الشروح والتفاسير والتآويل ، فكان عليه ان يسير في طريقه لا يلوي عليها ولا على أمثالها ، بل يتمسك بالمبدإ الذي عاهد نفسه عليه ليكون معجماً حاوياً لباب اللغة ، لا قشورها اوزوائدها التي تترك للمعاجم الكبرى ؛ كلسان العرب أو تاج العروس أو مد القاموس ، الى نحوها ·

والمغمز الخامس انه لم يحقق شيئاً بنفسه عن لفظة الضوضو وعن معناها الحقيقي ، والذي ظهر لنا ان الكلمة لغة في اليؤيؤ ، في لسان من يقلب الياء ضاداً بعد ان يجعلها جيماً (راجع لغة العرب ٦ : ٧٨٧) فهو من الصوائد الجوارح لا من البغاث · وقد نبه على هذا الامر ابن سيده في مخصصه · فليراجع (في ٨ : ١٥١ وفي عدة مواطن بعد تلك الصفحة) ·

وجاء في تلك الصفحة الاولى (ضَؤُلَ الرجل ضُؤُولة وضآلة ، صغر وضعف ···)

قلنا : والذي في لسان العرب (ابو منصور ، ضَؤُلَ الرجل يضؤُل ضآلةً وضُؤُولةً ، اذا قال رأيه · وضَؤُل ضآلة ، اذا صغُر) اه · فانظر كيف خلط مصدراً بمصدر ، ومعنىً بمعنى ، ومبنى بمبنى ·

وقال : « يقال (ماعليك فيه ضُؤُولة) اي صغار وضعف » اه · وهذا كلام لا غبار عليه · والذي عهدناه في هذا الديوان أن يفسر الصعب من الكلم بالفاظ سهلة يفهمها الجميع · فقوله صغار ، عوض (مذلة) التي استعملها سائر اللغويين ، من باب وضع الشيء في غير موضعه ·

***

فتحنا اتفاقاً بعد الصفحة الاولى من هذا (الكنز الثمين) الصفحة ٤٠٤ فرأيناه يقول فيها « الفِرِسْيِس بالكسر وفتح الياء طائر يقال له الطيهوج وهو المعروف بالحجل » اه ·

فكم من غلط في هذه العبارة الصغيرة ! — واول هذه الاوهام انه ضبط الضريس ضبط قلم وكلم بكسر الضاد واسكان الراء وفتح الياء نقلاً عن محيط المحيط ، بحر الاغلاط وهاوية الاوهام . والصواب وزان زُبَيْر اي بالتصغير . قال الكمال الدميري في طرغلودس « يعرفه اهل الأندلس ويسمونه الضُرَيْس (بضاد معجمة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وياء ساكنة منقوطة اثنتين من تحتها وسين مهملة) . قال الرازي في كتاب الكافي هو عصفور صغير أصغر من جميع العصافير ، لونه رمادي واحمر وأصفر وفي جناحيه ريشة ذهبية ومنقاره رقيق ، وفي ذنبه نقط بيض متواترة ، وهو دائم الصفير واجوده السمين» اه على انه قال في رسم الضريس « الضُرَيْس : الطيهوج » فالدميري ضاد نفسه بنفسه . ولم نرَ في سائر كتب اللغة ذكراً للضُرَيْس في مادة ض ر س ، ولا في مادة ط ه ج ولا ط ي ه ج . والذي عليه العلماء انّ الضُرَيْس تخفيف اليونانية طرغلوديس او ضرغلوديس .

هذا من جهة ضبط الكلمة . ولم نجد مؤلفاً قبل صاحب محيط المحيط ضبط اللفظ بالوجه الذي ذكره الشيخ عبد الله . على ان دوزي ذكر ان بعضهم سماه : (الضُرَّيْس) بضم الضاد وتشديد الراء المفتوحة ، ويحيل النظر على القزويني . وقد رأينا ان الضبط الصحيح هو ماذكرناه عن الدميري وذكر عن ابن البيطار ان الطيهوج اي الدرّاج الا ان صاحب المعجم المنصوري يضعف هذه الرواية بقوله « وزعم ابن سمجون انه (اي الطيهوج) الضُرَيس ولم يصح . وقد ذكر الافرنج مايقابله عندهم في لسانهم فقال فريتغ هو الطرغلوديس (Motacilla troglodytes) وقال شَرْبُونُو إنه الضخم المنقار (Gros - bec) وذهب يابني انه الزرزور وهو في نظر (طُرَّة) ويسميه الدرّيس ايضاً طويئر يقيم في الغابات اسمه (pajarillo) او (Triguero) .

جئنا الآن الى معنى الكلمة . فقد رأينا فيما نقلناه من الأقوال انّ كثيرين منهم يقولون انه الطيهوج ، لكن الطيهوج غير الحجل ، نعم انه من جنس الحجل اوشبيه به ، لكنه ليس به . فالطيهوج هو المسمى بلسان العلم (Tetras bosania) لا كما قال احد الادباء انه (Ommoperdrix bonhami) إذن على من يؤلف المعاجم ان يتوخى اصدق المعاني والا لم يبق فيها فائدة .

ثم فتحنا بالاتفاق ايضاً الصفحة ١٤٥١ وفيها « الطرز محركة : النبت الصيفي معرب ترز بالفارسية » اه . — قلنا : والكلمة الفارسية (ترز) تعني النبت الصيفي لا النبت الصيفي ، لكن الرجل حاطب ليل ، يحطب فيما يحيط به من محيط المحيط ، فوجد العبارة التي نقلها ، فأدى النقل بامانة ماوراءها امانة . ولم يلتفت الى صحة ما كتب . على ان المعلم بطرس وجد هذا النقل في بعض دواوين اللغة فنقله ، إذ يُرى وارداً في لسان العرب . وخطأ الطبع سهل الوقوع . اما المحققون الاثبات فلم يفسروه الا بما فسرناه اعتماداً على لفظه الاصلي الفارسي .

وذكر في مادة (ط غ م) الطُغْمة . قال « الطُغْمة (وضبطها بالضم) الجماعة امرهم واحد» . فكم غلطاً في هذه الكلمات الاربع ؟ . (١) انه ضبطها بالضم وهي بالفتح . (٢) ذكرها كأنها من حر كلام العرب وعتيقه . وهي مولدة . نقلها بقطر وأمثاله ، فدخلت كتب النصارى الدينية . (٣) لم يشر الى انها دخيلة حديثة النقل في لغتنا وهي باليونانية (Tagma) . (٤) قال (الجماعة) ولم يذكر اي جماعة . أجماعة الناس ، ام الحيوانات ، ام الطير ام السمك . اذ لكل هذه المخلوقات جماعات وقد يكون لها شأن واحد كالحيوانات التي شأنها تقليد حركات الانسان ، وكالطير التي شأنها الطيران على وجه من الوجوه ، وكالسمك التي شأنها نوع من السباحة . فعلى كل هؤلاء البرايا تصدق الجماعة . وكان حقه ان يقول جماعة الناس ، لكن الرجل أراد ان يختصر فقصر . — وفاته ان ينقل من محيط المحيط قوله وعند الحاسبين ما بين الربوة والملك ، وهما [اي الطغمة بمعنى الجماعة من الناس و بالمعنى الحسابي] من كلام المولدين اه . فلاستعجال الشيخ عبدالله في النقل نسي ان ينقل تتمة الكلام ، واهمل قوله من كلام المولدين ، فقطع العبارة ، فجاءت الطغمة انها فصيحة في نظر من يبحث عنها في البستان .

وكلام محيط المحيط بقوله « بين الربوة والملك » أغلق على دوزي . فنقل العبارة ووضع وراءها علامة استفهام كأنه لم يفهم المراد من هذه الرطيني الغريبة — قلنا والصواب بين الربوة والملك لكن زاد المنضد من عنده ميماً فانقلب الكلام طمطمانيةً .

احتجنا الى ان نطلب معنى (الطقس) اليونانية الاصل فرأيناه يقول مفسراً اياها « الطقس الطريقة . وغلب على الطريقة الدينية (نصرانية دخيلة) » اه . اما عبارة

محيط المحيط فهي هذه « الطقس ... يطلق عند النصارى على شعائر الديانة واحتفالاتها معرب تكسيس باليونانية ، ومعناها نظام وترتيب ج طقوس » اه . فانت ترى من هذا الكلام ان صاحب محيط المحيط فهم معناها أحسن من الشيخ . لان الطقس الشعيرة الدينية و « الشعيرة واحدة شعائر الحج ، وهي مناسكه وعلاماته وآثاره واعماله وكل ما جعل عَلَماً لطاعة الله » (التاج) وهذه ما يسميه الافرنج (Rit, Rite) او (Cérémonie) اما الطريقة الدينية فهي — على ماعرفها السيد الشريف الجرجاني — (السيرة المختصة بالسالكين الى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات» اه . ومنها الطريقة القادرية والنقشبندية والمولوية والرفاعية والبدوية والسهروردية والشاذلية والسنوسية والدسوقية الى غيرها . وهذا ما يسمى عند الفرنجية (Ordre) او (Congrégation religieuse) .

وهناك ادلة عديدة على انه يتعسف الامور لجهله قواعد العربية ، فتراه يقول في مادة ع م ر س « العمروس ... ج عماريس وعمارس وهو نادر كقوله :

اولئك لم يدرين ما سَمَكُ القُرى ولا عُصُبٌ فيها رئات العمارس » اه .

فأنت تراه يقول « وعمارس وهو نادر » لانها عبارة محيط المحيط ، والقاموس الفيروزابادي . وكأنه يجهل ان فعاليل ومفاعيل وافاعيل قد تحذف منها الياء في الشعر ، كما ان فعالل ومفاعل وافاعل قد تشبع الكسرة في الشعر فيتولد منها ياء وكل ذلك غير نادر بل كثير الوقوع في اشعارهم ومنظوماتهم .

قال صاحب التاج في مادة (س ن د) وحديث مسند ، واحاديث مسانِد ومسانيد بزيادة التحتية اشباعاً ، وقد قيل انه لغة . وحكى بعضهم في مثله القياس ايضاً . كذا قاله شيخنا » اه . وقال المذكور في مادة ع ج ج « يوم معج ذو إعجاج . ورياح معاجيج اي ذات إعجاج . وضدها مهاوين . ومعجاج الريح التي تثير الغبار ، كما يصح ان تكون معاجيج جمع مُعِجّ . ومهاوين جمع مِهْوان . وقال ابن سيده يجوز ان يكون جمع مِهْوَن (التاج في هون) .

والظاهر من سرد البيت المذكور انه لم يفهم معناه ، لانه اورد رئات العمارس التي هي جمع رئة بصورة (رثاث) بمثلثتين قبل الالف وبعدها ، ولا معنى لما يتسق اتساقاً مقبولاً في هذا البيت .

ومن غريب امره انه كثيراً مايعرف الشيء او يجلّيه ، ولا يتصور حقيقة مايقوله . فقد ذكر مثلاً في مادة (ع ن ج ر) ماهذا نصابه « عنجر الرجل مدّ شفتيه وقلبهما ثم صات ، والعنجرة بالشفتين والزنجرة بالاصابع » اه . — قلنا هل تصور الاستاذ اللغوي معنى ما كتبه ؟ — لانه اذا مدّ الرجل شفتيه ، وقلبهما ، فكيف يمكنه ان يصوت بهما ؟ ان هذا الامر بعيد الوقوع . والذي ذكره الثقات من أئمة اللغة « عنجر الرجل اذا مد شفتيه وقلبهما » ولم يزيدوا « ثم صات » لان الامر غير ممكن .

ومن جهله احكام هذه اللغة قوله في مادة (ع ز ز) «العنزة ، العنز» وهذا لم يرد في كلام رجل فصيح يحسن العربية ، انما يقولها بعض العوام لاغير . وكيف جاز له ان يذكرها في الفصيح وقد تعمد نبذ العامي والمولد والوحشي من ديوانه ؟

ومن غريب امره ان ليس فيه سليقة معرفة الكلام العامي اوفساد الحرف الحوشي ، فتراه يقول مثلاً في مادة (ع ن ظ ز) « عنظز عنظزة ، صات كالعنز » وليس في دواوين اللغة هذه الكلمة ، انما هي من كلام بعض العوام ، الساقط كل السقوط ، فالرجل نقلها عن محيط المحيط . وهذا نقلها عن فريتغ . ولما كانت عبارة فريتغ لاتينية وبطرس البستاني لايفهم لغة الرومان أوّلها بالمعنى الذي ذكرناه . اما عبارة فريتغ اللاتينية فهي :

(eucurrit Saliens ut capra) ومعناها عدا قافزاً كالعنز ، فأين العدو قفزاً من صوت العنز ؟ — والذي نعلمه ان فريتغ نقل عنظز من كتاب الف ليلة وليلة الذي طبعه هبخت (في ٢ ، ٨٢) ولم يعتبر احد كلام الف ليلة وليلة فصيحاً عالياً حتى يحتج به او يؤخذ به او يدوّن في المعاجم تدوين الفصيح . نعم لو نبّه على انه من العامي لما عترضنا عليه ، لكننا نعلم انه نفى من معجمه ما كان من هذه اللغة ولذا نعاتبه على خلط الفصيح الصحيح بالمسيخ القبيح .

وليست هذه المرة هي المرة الاولى اعتبر فيها العامي فصيحاً فقد وهم هذا الوهم عشرات ان لم يكن مئات . فقد ذكر العُنْقُب والعُنْقُوت لنباتين . والعنقد والعنقريط لضربين من السمك وكل ذلك من كلام العوام . وهذا عن فريتغ ، وفريتغ عن بعض المستشرقين الذين قد لايعرفون العامي من الفصيح ، فنشأت من عدم تحقيق بعضهم هذه الفوضى في اللغة . اننا لسنا من الذين لا يودون تدوين العامي ، بل بالعكس نحب ان يُقيّد ، لكن نريد ان ينبه عليه لكي يتميز عن الفصيح ، اذ للكلام طبقات بعضها أرفع من بعض ، كما ان

للناس طبقات ، وللمعادن طبقات ، ولكل شيء طبقات ، يميز فيها الدون عن الرفيع القدر او الثمين · ومن الجهة الثانية ان الشيخ عبدالله اخذ على نفسه ان لا يلتفت الى كلام العوام ، إذن لماذا عاد الى ما حجره على نفسه ·

يقول في مادة (ع و ل) في ص ١٦٨٣ « ماله عال ومال » وفسرها هكذا : « دعاء عليه · اي كثرت عياله وجار في حكمه » اه · ثم عاد الى هذا الكلام عينه في الصفحة التاليـة فقال : « ماله عال ولا مال ، اي شيء » اه · وسبب وهمه هذا انه نقل مرة عن قاموس الفيروزابادي (وهي العبارة الاولى) ومرة عن محيط المحيط (وهي العبارة الثانية) ولم ينتبه الى ما فعل لخالف بين الشرحين ·

ويتفق له انه لا يفهم ما يكتب · فقد ذكر مثلاً في الصفحة ١٦٨٤ ما هذا نصه : « العالة ، النعامة وشبه الظلة يسويها الرجل من الشجر يستتر بها من المطر » اه · فظن ان النعامة هنا الطائر المعهود · والدليل انه فصل معناها عن المعنى الذي يليها كما رأيت ، والحال ان المراد بالنعامة هنا شبه الظلة · · · كما شرحها لكن جهل المعنى فوقع منه ما وقع · وقد تأثر في عمله هذا صاحب محيط المحيط فقد قال هو ايضاً ، العالة ، النعامة والظلة يستتر بها من المطر · وكان حقه ان يقول : النعامة وهي الظلة · · · او النعامة اي الظلة · · · او النعامة هي الظلة · · ·

وقال في مادة (ع ي هـ ن) « العيهون نبت طيب » وهي عبارة محيط المحيط وهذا النبت لا يعرفه احد لانه لا وجود له في الكون · والمعروف العرهون لا سواه ·

وقال مثلاً في مادة (غ ر ر) « غرّ الراعي يغُرُّ [كيمدّ] · · · رعى ابله · · · و — الرجلُ والدابةُ أكلا الغِرْغِر [كـبـب] · · · اه · واول هـذه الاوهام انه ضبط مضارع غرّ بالضم وهو بالفتح في هذا المعنى الذي يشير اليه · وهناك غلط آخر هو ان معنى غَرَّ يَغَرُّ (المفتوح العين) رعى إبلَهُ الغِرْغِر · فان لم يرعاها هذا النبت ، فلا يقال غَرَّها يَغَرُّها · كذا نقله صاحب التاج عن الصاغاني · — ثم انه وضع الرجلَ والدابةَ على مستوىً واحد · وكيف يقبل العاقل ان يضع نفسه موضع الدابة ؟ والصواب ان الرجل لا يأكل الغِرْغِر بل الدابة لا غير · ثم انه ضبط الغِرْغِر بفتح الغينين المعجمتين وليس للعرب نبات بهذا الاسم · والذي يعرفه السلف بهذا الرسم هو الغِرْغِر بكسرتين

والدليل على ذلك انك لا تجد في كتابه الغَرْغر بفتحتين بل بكسرتين ؟ وقوله وغر الرجل والدابة ، اكلا الغرغر ، كان حقه ان يقول : اكل الغرغر حتى لا يرجع القول الى الاثنين معاً كأنهما شُدّا في قرن واحد ، او كأن الرجل والدابة هما مما يجمع احدهما الى الآخر ، مع الواو هنا ليست واو عطف كما توهمه ، بل واو تقسيم اي انها وردت بمعنى (او) ومثل ذلك ماجاء في لسان العرب ومعجمه وغيرهما . فقد قالوا في مادة (ذ ي ل) ذالت المرأة والناقة تذيل ، هزلت وفسدت . وأذا لهما اهزلتها » اه . ولم يقولوهما بالتثنية . وقالوا اذال فلان فرسه وغلامه ، اذا أهانه » اه . ولم يقولوا اذا أهانهما ترفعاً من جعل الواحد في منزلة الآخر . فهكذا يجب ان تكتب الكُتُب وتصنف لا كما فعل . اما هو فقد عاد وقالها وهو غلط بيّن .

ولم يفكر ابداً في ان الغِرْغِر (بكسرتين لا بفتحتين كما فعل) ، من الانبتة التي لا تأكلها البشر وان كان ذلك ممكناً . فالغِرْغِرُ على ماجاء في تاج العروس ولسان العرب عشب من عشب الربيع وهو محمود ولا ينبت الاّ في الجبل . له ورق نحو ورق الخزامى ، وزهرته خضراء . قال الراعي :

كأن القتود على قارح اطاع الربيع له الغرغر
وزياد بقماء مولية وبهمى انابيبها تقطر

اراد اطاع زمن الربيع واحدته غرغرة » اه . وهذا العشب معروف الى يومنا هذا في ديار اليمن واسمه عند العلماء (Lavandula dentata) .

وقال مثلاً في مادة (ك ح ل) « تكحلت المرأة والارض (كذا) واكتحلتا كما كتحلتا في المنهبين » . ومثل هذا التعبير لم يرد في كتاب من الكتب ، بل لم يرد في محيط المحيط نفسه فكيف بلغ به الامر الى هذه الدرجة من تحقير المرأة حتى انه ساواها بالارض .

وقال مثلاً في المادة المذكورة « كَحَل بغير أل ، ممنوعة من الصرف للعلية والتأنيث » ثم قال بعد ذلك « كحل ايضاً السنة الشديدة المجدبة ويجوز فيها المنع والصرف كهند » — قلنا : فكيف منعها في الاول ثم جوزها في الآخر ، والصحيح انه يجوز فيها المنع والصرف فهي كهند . — وفي تلك المادة «ويقال» صرّحت كَحَل اذا لم يكن في السماء غيم . قال سلامة بن جندل :

قوم اذا صرَّحت كحلٌ لخيُّهم مأوى الضريك ومأوى كل قرضوب

والقرضوب هو الفقير» . واي صلة بين خلو السماء من الغيم وبين قول جندل ؟ أَفاذا غامت السماء ، كان يمنع على ذلك القوم قرى الضيف ؟ فالمعنى الذي اورد له هذا البيت هو ان كحل جاءت للدلالة على السنة الشديدة ، وهي من معاني كحل ، وليس كما قال . افتدري ما أمل صاحبنا ؟ — ذكر هذا المعنى ولم يستشهد بهذا البيت الذي يزيد كلامه قوة وأسراً ، بل ترك اللفظ والمعنى بلا سند ولا عماد من النظم .

وهناك غرابة أُخرى هي انه نسي نص البيت الذي كان انشده في مادة (ص ر ح) . فقد ورد ثَم بهذا الوجه شرحاً لقوله « صرحت كحل ، اي أجدبت وصارت صريحة اي خالصة في الشدة . قال سلامة بن جندل :

قوم اذا صرحت كحلٌ بيوتهمُ مأوى الضيوف ومأوى كل قرضوب »

ومن العجيب انه لا يستعمل الفاظ العصر بين الموجهة أحسن توجيه لاتخاذها ، بل يعدل الى الاعتماد على بعض مصطلحات البربر التي لا تعرف الا في ديار المغاربة او في لغتهم ، وما ذلك الا لانها وردت في تاج العروس . نعم لو ذكر جميع الحروف الواردة في التاج من أوضاع العوام التي دوَّنها لما لُمْناه ، لكنه ينتقي قضاً ويهمل قضيضاً . ذلك مما تأباه النفوس العربية . فقد قال مثلاً في تلك المادة « المُكْحُلة ايضاً : الآلة يضرب بها بندق الرصاص في لغة المغاربة . يقال « هو يرمي بالمكاحل » وهو مجاز . شبهت بمكحلة العين لما فيها من السواد » اه . ولم يعزها الى قائلها وهو صاحب التاج ، هذا فضلاً عن أنه لم يذكر البندقية ولا البارودة ، اللتين هما اصح استعمالاً من المكحلة التي ترادفهما ، ثم من قال له ان تفسير الزبيدي هو الصحيح ؟ — نعم قد يصح وجه تأويله ويقبله بعض الادباء او المتأدبين ، لكن هناك فريقاً لا يرضى بهذا التأويل المزبل . أما الذي يراه الغير فهو ان المكحلة سميت كذلك لان في نحو وسطها حفرة صغيرة كالعين ، تشبه المكحلة ، يوضع فيها البارود الذي يشبه الكحل بلونه ودقته .

الاب انستاس ماري الكرملي
عضو في المجمع العلمي العربي

ادبنا القومي

— ٦ —

عود على بدء

الآن وقد فرغنا مما اطرد فيه الكلام من الالمام بتاريخ النهضة اللغوية الحديثة، والعلل في الاختلاف بين لهجات الادباء والكلام في القديم والجديد — نعود مستعينين بالله الى الكلام في ادبنا العام او (الأدب القومي) .

وقبل كل شيء ينبغي ان أقرر ان في مصر والحمد لله أدباً عربياً بارعاً وان فيها شعراء لا يتخلفون عن فحول الشعراء في ازكى عصور العربية ، وان فيها كتاباً لهم من فصاحة البيان وقوة التصرف ما لا يقل عما أثر عن السالفين من أئمة البيان . وأزيد على هذا ايضاً انهم اجدوا على اللغة نفسها بما طبعوا من الالفاظ وما نظموا من الصيغ في اصابة المعاني الحديثة واداء الاغراض الطريفة . ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى في هذا الباب ماجاء به الشيخ حسين المرصفي . وتلميذه البارودي . والشيخ محمد عبده . واللقاني . وسعد زغلول . والمويلحي الكبير . والمويلحي الصغير . ومحمود واصف . وامين واصف . واسماعيل صبري . واحمد شوقي . وحفني ناصف . وحافظ ابراهيم . وخليل مطران . وقاسم امين . ولطفي السيد . وعبد الخالق ثروت . واحمد زكي . والدكتور عبد الحميد بدوي . وطه حسين . وعبد القادر حمزة . والدكتور هيكل . ومحمد المراوي . والمنفلوطي . والسكندري . وعباس العقاد . وابراهيم المازني . ومصطفى صادق الرافعي . وعبد الرحمن شكري . وغيرهم كثير . فانني لم اذكر من ذكرت على سبيل الحصر ، بل على سبيل التمثيل .

ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك ايضاً ان هذه النهضة مازال يعوزها شيئان : الاول ان مابعثت من ادب العرب وماجددت من لغتهم انما ظل دائراً في الخاصة ، على حين ظل

سواد المصريين بنجوة عن تذوق بلاغة العرب ، فعكفوا على ادبهم الذي الممت الى بعضه فيما سلف ، والذي سأعود اليه في شيء من التفصيل . والخلاصة انه لم ينبعث احد لتبسيط هذه اللغة وتيسيرها حتى تتعلق بروائعها أذهان جمهرة الناس ، اوعمل على رفع مستواهم هم حتى يدركوها ويتذوقوا بلاغاتها .

اما الثاني فان جل ما تجدد في اللغة وتطرق منها الى اصابة المعاني الحديثة ، ان لم يكن كله ، انما كان من حظ المعنويات دون الماديات حتى اضطر الخاصة ، بله العامة . الى ان يعوذوا في سبيل الترجمة عنها بالتعريب .

ومما يحسن ذكره هنا ان بلاغة الخاصة لا يتذوقها الا الخاصة وحدهم ، اما بلاغات العامة وأشباه الخاصة فالكل في تذوقها واستشعار حلاوتها بمنزلة سواء .

ولست في هذا المقام بمجشمك ان تطلع على العامة ، بل وانصاف المتعلمين . بقصائد امرئ القيس . وطرفة . والأعشى . ولبيد . والأحوص . وأراجيز رؤبة . والعجاج مثلا . لتمتحن مداركهم وتستخبر أذواقهم . بل أرو لهم من ذلك الشعر المرسل السهل اللين القائمة معانيه في ظواهر الفاظه ، اوهو الشعر الذي يسميه صديقنا شاعر النيل بالشعر (الدباح) اطلع بهذا على العامة وانصاف المتعلمين تر هم حتى ان فهموه لم يتذوقوه ولم يحرك فيهم من الشجن كثيراً ولا قليلاً ، اذ تراه يهز نفوس الخاصة هزاً ، ويحز في كبودهم حزاً !

هلم فانشد العامة وأنصاف المتعلمين قول الشاعر :

اقضي نهاري بالحديث و بالمنى	ويجمعني والهمّ بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا	لي الليل هزتني اليك المضاجع

او قول الشاعر :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا	كلانا على طول الجفاء ملوم

وقوله :

ابكي الذين أذاقوني مودتهم	حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتهضاً	بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبهم	بين الجوانح لم يشعر به احد

وقول الشاعر

حدثوني عن النهار حديثا   أو صفوه فقد نسيت النهارا

* * *

ومازال يخفي الحب حتى حسبته   تنفس في احشائه وتكلما

* * *

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا   ثم القفول فقد جئنا خراسانا
يا ليت من نتمنى عند خلوتنا   اذا خلا خلوة يوماً تمنانا

* * *

احمامة الوادي بنمرج اللوى   بحياة من ابكاك مابكاك ؟
اما انا فبكيت من ألم الجوى   وفراق من أهوى أأنت كذاك ؟

* * *

ولما تدانى البين قال لي الهوى   رويداً وقال القلب أين تريد
وقال لي الغادون ما أنت مشتهٍ   غداة قطعنا الرمل ؟ قلت أعود

* * *

ولقد وقفت على ديارهم   وطلولها بيد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت   عني الديار تلفت القلب

* * *

يامسرحة الماء قد سدت موارده   اما اليك طريق غير مسدود ؟

* * *

وكنت اذا ماجئت سعدى بارضها   ارى الارض تطوي اليّ ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها   اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

* * *

ولما التقينا قرب الشوق جهده   شجيّين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقاً في خلال صديقه   تسرب أثناء العناق وغابا

* * *

ايا برق ليس الكرخ داري وانما   رماني اليه الدهر منذ ليالي

وهل فيك من ماء المعرة قطرة   تغيث بها ظمآن ليس بسالي

***

الا ياحمامي قصر دوران هجتما   بقلبي الهوى لما تغنيتما ليا
وابكيتماني وسط صحبي ولم اكن   أبالي دموع العين لو كنت خاليا

***

أأترك ليلى ليس بيني وبينها   سوى ليلة إني إذن لصبور

***

وان مقيمات بمنعرج اللوى   لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

***

فديتك أعدائي كثير وشقتي   بعيد وانصاري لديك قليل
وكنت اذاماجئت جئت بعلة   فافنيت علاتي فكيف أقول؟

***

يا ليت ماء الفرات يخبرنا   أين تولت باهلها السفن

***

اآخر شيء أنت في كل هجعة   واول شيء انت عند هبوبي

***

وارحمتا للغريب بالبلد النا   زح ما ذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده ولا انتفعا

ومن هذا الطراز في اشعار العربية كثير ، فهلم انشده العامة وانصاف المتعلمين ، بل وبعض المتعلمين فلست بواجده متدحساً منهم الى نفس ولا محركاً فيها شجنا ، وهذا على سهولته وانكشاف الفاظه ، ووقوع معانيه اكثرها للآداب العامية !

والوجه في هذا واضح جلي : ذلك ان العلاقة بين الألفاظ والمعاني انما هي علاقة وضعية بحتة ، وان زعم بعضهم (كالصيمري) ان هناك علاقة عقلية بين الالفاظ ومدلولاتها بحيث لو تجرد الانسان وشحذ حسه ، وتخلى عن شواغله لوقع على المعنى من نفس اللفظ ما له به عهد من قبل . وهذا على بعده وغرابته لا تراه يجدي من الجهة العملية كثيراً ولا قليلا

فلقد نشأنا نسمع اللفظ وندل (بضم النون) على معناه ، وبحكم التكرار في اللفظ واستحضار المعنى ، كما وقع في السمع ينعقد بينهما تمام الاتصال حتى لا يكاد الانسان يجيل المعاني في قرارة نفسه من غير ان تقوم في الفاظها المقسومة لها . اما تصور المعاني مجردة من الفاظها فذلك من الشاق العسير .

ثم ان النفس تستريح الى اللفظ بطول ترديده وتقليب اللسان فيه . ثم ان الألفاظ فضلاً عن دلالتها على معانيها الاصلية بتطاول الزمن والاستعمال كثيراً ما تنم على دقائق لا ينم عليها غيرها . بل كثيراً ما يعجز عن تجليتها الشرح والتفسير .

فاذا كان الخاصة يتذوقون الأدب العربي ويطربون بروائعه فلانهم تعلموه وحذقوه وسلخوا السنين في حفظه وترديد النظر فيه . كما ان من حذقوا منا الفرنسية او الانجليزية مثلاً ودرسوا آدابها وقلبوا النظر في بدائع آثارها — يستريحون من غير شك ، اليها ، ويطربون بها .

وبعد فأنت تعلم ان العامية هي الفاشية في البلاد . وقد استقرت الفاظها على مختلف المعاني من الزمان البعيد ، وجملت هي الاخرى تتناول من الدقائق ما لا يكاد يغني فيه الشرح والتفسير . كما استراحت اليها آذان العامة والخاصة جميعاً بطول الاستعمال وكثرة التكرير . ولأورد عليك طائفة يسيرة من الألفاظ العامية ، لعلك مستخرج من صحيح العربية ما يؤدي معانيها ، بل وما تنم عليه من الدقائق ، ولكن نفسك لا تستشعرها وتطعمها حسك الا بعد العلاج الكثير في الزمان الطويل :

تقول : « فلان مزمزق مني » و « فلان ماله كده بيتقمص بالعجل » و « الكوز اتلمق منه » و « يادوب نوصل العصر » و « الواد ده ابن حنت » و « يقعد ويتجمص » و « خده على مشمه » و « سابه يرن » و « فلان ده قفا » و « قل له ينبط » و « اما راجل مقص » و « وفلان راجل عكي » و « فلان راجل مرم » و « التبن المهبطل » و « كان فلان بيهطه مهط » و « الولد صبح منيق » و « فلان ده مفلوت عياره » و « المسألة كانت يغمه » و « الولد ده دلوعة » و « استذوق » و « شوف لك قط غمضه » .

وارجو ان تبدل كل ما يقع لك من (القافات) في هذه الكلمات (همزات) هذه طائفة من الفاظ العامية يشعرك كل منها معنى خاصاً ، ويجلي في نفسك صورة لا يستطيع ان يجليها

عليك غيره الا بطول الإلف وكثرة العلاج والترديد ٠

ولقد قلت لك فيما سلف ان للعامة احساسهم وعواطفهم ولا بد لهذه ان تختلج ولا بد لهذه ان تترقرق ولا سبيل الى حقنها في الصدور حتى يأذن الزمان فيحذقوا العربية الخالصة ، و يطبعوا ملكاتهم على آدابها فكان لا بدلهم من ان ينحتوا آدابهم من لغتهم و يصوغوه من متواضع لفظهم فكان لهم على هذا أدب بارع تلوّن في عدة صور ولوضاع ٠ منها الزجل ، ومنها الادوار ، والمواني ، والواوات ، والطقاطيق ، والمنولوجات ، والامثال ، والنكات البلدية ، او ما يعبر عنه عندهم (بالقافية) والتطرف (القفش) وغير ذلك ولقد احسنوا من هذا في كثير ٠

واني فوق هذا لأزعم ان لغة العامة تمتاز على لغة الخاصة بشيئين : الاول اننا جميعاً نشأنا في العامية وبها نتحدث ونتقاول في جميع اسبابنا ٠ ولا تستثن من هذا الخاصة انفسهم ٠ فهي ألصق بنفوسنا وادنى الى طباعنا ، وأقدر على تبيين أغراضنا وتصوير عواطفنا ٠

والثاني : انه اذا كانت أبلغ مظاهر الآداب هي الترجمة عما يختلج في النفس من فنون الاحساس وألوان العواطف وكانت هذه مستمدة مما يلابسنا و يحيط بنا اذ ان لكل مسمى من ذلك في العامية اسماً ، ولكل معنى لفظاً ، لان العامية لا تتحرج ولا تتورع ، فان العامية من هذه الناحية أغنى وأعظم ، بالنسبة لنا ، وفراً ٠

وهنا أرجو من القارئ الا يظلمني فيخلق بين منية الكاتب وبين مجرد تقريره للواقع وانا انما أقرر الواقع في رأيي على الاقل ، اما أمنيتي واما سعادتي كلها فبأن يتقلص ظل العامية عن البلاد بحيث تخلفها على الالسن كلها سيدة اللغات ٠

رسالة الكرم

— ٨ —

« عصير العنب والزبيب »

السُلافة والسُلاف بالضم من الخمر أخلصها وأفضلها وذلك اذا تحلب من العنب والزبيب والتمر بلاعصر ولا مرث مالم يعد عليه الماء بعد تحلب اوله . قال الراغب السلافة ماتقدم العصر . وفي المخصص اذا أنقعت الزبيب اياماً فأول ما يرفع من عصارته السلاف ثم يصب عليه الماء فيكون مايخرج منه بعد الماء نَطلا . وفي اللسان والسلاف ماسال من عصير العنب قبل ان يعصر . وسلافة كل شيء عصرَته اوله .

الخُرطوم كزنبور اول مايجري من العنب قبل ان يداس . وقال ابن الاعرابي انه السُلاف الذي سال من غير عصر .

مُجاج العنب ماسال من عصيره .

العُنفوان ماسال من العنب من غير اعتصار . وعنفوان كل شيء اوله وقد غلب على الشباب والنبات .

الدبس بكسرة وبكسرتين عسل التمر وعصارته وقيل عصارة الرطب وقيل ماتحلب من الزبيب والعنب .

الصقْر والصَقَر ماتحلب من العنب والزبيب والتمر من غير ان يعصر والصقر الدبس عند اهل المدينة .

السَقْر الدبس ومنه نخلة مسقار بسيل صقرها اي دبسها .

الإسفِنْط بكسر الهمزة مع كسر الفاء وفتحها المطيب من عصير العنب وقيل هي اعلى الخمر وقيل خمر فيها افاويه وقيل هي الخمر بالرومية . قال ابن السكيت وهي الاسفنط وهو

اسم بالرومية معرب وليس بالخمر انما هو عصير عنب · ويسمي اهل الشام لا سفنط الرّساطون يطبخ ويجعل فيه افواه ثم يعتق · وفي اللسان واهل الشام يسمون الخمر الرساطون وسائر العرب لا يعرفونه · ثم قال ومنهم من يقلب السين شيناً فيقول رَشاطون ·

تقدم ان النطل ماعلى طعم العنب من القشر وان النَّطْل مايرفع من نقيع الزبيب بعد السُلاف · بعد صب الماء عليه ثانية · والناطل الخمر والجرعة من الماء واللبن والنبيذ · والنِّطل بالكسر خثارة الشراب · والمناطل المعاصر التي ينطل فيها ·

النبيذ الشيء المنبوذ والنبيذ مانبذ من عصير ونحوه · والنبيذ مايعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك · يقال نبذ التمر والعنب اذا ترك عليه الماء ليصير نبيذاً فصرف من مفعول الى فعيل وسواء كان مسكراً او غير مسكر فانه يقال له نبيذ · و يقال نبذ النبيذ وأنبذه وانتبذه ونبّذه ونبذت نبيذاً اذا اتخذته · و يقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر ·

الزبيبي بالفتح النقيع المتخذ من الزبيب ·

النَّقيع والنَّقُوع شراب يتخذ من زبيب ينقع في الماء من غير طبخ · والنقيعُ والمنقع كمكرم كل ما ينقع تمراً كان او زبيباً او غيرهما كالعناب والقراصيا والتين وما اشبههما ثم يصفى ماءٌ و يشرب (والنقيع المحض من اللبن يبرد كالمُنقع والنقيعة) · والنقوع ماينقع في الماء من الليل لدواء او نبيذ و يشرب نهاراً و بالعكس ·

وذلك الاناء منقع ومنقعة وبكسرهما · وفي اللسان والنَّقيع والنَّقوع شيءٌ ينقع فيه الزبيب وغيره ثم يصفى ماؤه و يشرب · والنقاعة ماأنقعت من ذلك · قال ابن بري والنقاعة اسم ما أنقع فيه الشيءُ ·

الفقد بفتح فسكون ولا يحرك هكذا قال في القاموس وفي التاج وصوب الصاغاني تسكون القاف · وقد ضبط في اللسان بالشكل محركاً — شراب يتخذ من زبيب اوعسل و يقال ان العسل ينبذ ثم يلقى فيه الفقد فيشدده وهو نبات يشبه الكشوث وهو نبت يتعلق باغصان الشجر من غير ان يضرب بعرق في الارض ·

القِنديد بالكسر عصير عنب يطبخ ويجعل فيه أفواه من الطيب ثم يفتق و يقال انه ليس بخمر وقيل هو الخمر ·

الفضيخ عصير العنب · وشراب يتخذ من بسر مفضوخ · والمِفضَخة بالكسر حجر يفضخ به البسر ويخفف · والمفاضخ الأواني التي ينبذ فيها الفضيخ وقد تقـدم · أفضخ العنقود اي حان ان ينفضخ و يعتصر ما فيه ·

البُختُج كقنفذ العصير المطبوخ واصله بالفارسية (مِيبُختَه) اي عصير مطبوخ ·

الجمهوري بالضم اسم شراب مسكر او نبيذ العنب أتت عليه ثلاث سنين · وفي حديث النخعي انه اهدى له بختج قال هو الجمهوري وهو العصير المطبوخ الحلال · وقال ابوحنيفة واصله ان يعاد على البختج الماء الذي ذهب منه ثم يطبخ و يودع في الاوعية فيأخذ أخذاً شديداً · وقيل انه سمي الجمهوري لان جمهور الناس يستعملونه اي اكثرهم ·

الصَّعْف والصَّعَف شراب لاهل اليمن وصناعته ان يشدخ العنب ثم يلقى في الاوعية حتى يغلي · وقيل هو شراب العنب اول مايدرك وقيل هو شراب يتخذ من العسل · والصَّعْفان المولع بشرب الصعف وهو العصير ·

الباذق بكسر الذال وفتحها ماطبخ من عصير العنب ادنى طبخة فصار شديداً · قيل اول من وضعه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر ·

الخَمْر كفلس ماأسكر من عصير العنب لانها خامرت العقل · وقال ابو حنيفة قد تكون الخمر من الحبوب · قال ابن سيده واظنه تسمحاً منه لان حقيقة الخمر انما هي للعنب دون سائر الاشياء · وفي التاج الأصح عند الجمهور ان الخمر عام اي هو عصير كل شيء يحصل به السكر ·

والخمر تذكر وتؤنث والأعرف فيها التأنيث · وذكر في التاج والمصباح ان الاصمعي أنكر التذكير ولكن كلامه في كتاب النخل والكرم يخالف هذا فقد قال فيه : قالوا هي الخمر وهو الخمر مذكر ومؤنث لغتان · وفي اللسان والخمر ماخمر العقل وهو المسكر من الشراب وهي خمرة وخمر وخمور مثل تمرة وتمر وتمور · وفي القاموس الخمر ماأسكر من عصير العنب كالخمرة · وفي المصباح و يجوز دخول الهاء فيقال الخمرة على انها قطعة من الخمر كما يقال كنا في لحمة ونبيذة وعسلة اي في قطعة من كل شيء منها ·

وخَمَر الرجل والدابة يخمُره خمراً سقاه الخمر والمُخَمِّر كمحدث متخـذ الخمر والخمّار بائعها · و يقال غالت الخمر فلاناً اذا شربها فذهبت بعقله او بصحة بدنه ·

والغول الصداع او السكر وبه فسر قوله تعالى : « لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون » اي ليس فيها غائلة الصداع · وقال ابو عبيدة : الغول ان يغتال عقولهم وأنشد :

ومازالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

اي توصل الينا شراً وتعدمنا عقولنا ·

وعنب خمري يصلح للخمر ، ولون خمري يشبه لون الخمر · وقد تقدم ان العنب يقال له الخمر كما يقال للخمر العنب · و يقال للخمر سويق الكرم · أنشد سيبويه لزياد الأعجم :

تكلفني سويق الكرم جرمٌ وما جرمٌ وما ذاك السويق

وما عرفت سويق الكرم جرمٌ ولا أغلت به مذ قام سوق

فلما نزل التحريم فيها اذا الجرمي منها لا يُفيق

و يقال للخمر ام الخل ·

السكر بفتح السين والكاف الخمر المعتصر من العنب قال ابن الاثير هكذا رواه الاثبات ومنهم من يرويه بضم السين وسكون الكاف · والسكّار النبّاذ ·

الخل كفلس ما حمض من عصير العنب وغيره جمعه خلول كفلوس سمي بذلك لانه اختل منه طعم الحلاوة · يقال اختل الشيء اذا تغير واضطرب · والخل واحدته خلّة يذهب بذلك الى الطائفة منه · وقال ابو زياد جاؤا بخلّة لهم فلا أدري أعنى الطائفة من الخل أم هي لغة فيه كخمر وخمرة · و يقال خلل الرجل النبيذ تخليلاً اذا جعله خلاً · ويستعمل لازماً فيقال خلل النبيذ اذا صار بنفسه خلاً · وتخلل النبيذ في المطاوعة ·

قال الأصمعي وان أردت صنعة الخل اخذت من العنب ما بدا لك فتنزع ثفاريقه وتلقي بعضه على بعض في جرة وتتركه حتى يجود ثم تصفيه فتعزل ماءه الاول وتصب على النطل من الماء ما يغمره فاذا احتاج اليه صفي ماؤه واستعمل وترك الماء حتى يدرك · وقال آخر يصب على العنب مثلاه من الماء و يترك حتى يحذق اي يحمض ثم يصفى ويصب مثلما يؤخذ منه ولم يصف ·

وخلل الرجل البسر جعله في الشمس ثم نضحه بالخل ثم جعله في جرة وكذا غير البسر كالخيار والكرنب والباذنجان والبصل · فهو مخلل · والاختلال اتخاذ الخل من عصير العنب

والتمر . وفي اللسان والتخليل اتخاذ الخل . والخلاّل كشدّاد بائع الخل وصانعه .

وخللت الخمر وغيرها من الاشربة تخليلاً فسدت وحمضت وخلل شراب فلان اذا فسد وصار خلاًّ .

وفي المثل ماهو بخل ولا خمر اي لاخير فيه ولا شر . وحكى ثعلب ماله خل ولا خمر اي ماله خير ولا شر .

التجير كرغيف . تقدم ان التجير ثفل كل شيء يعتصر . والتجير ما عصر من العنب فجرت سلافته وبقيت عصارته و يقال هو سفل البسر يخلط بالتمر فينتبذ . وقال ابوحنيفة يقال لما بقي من ثفل العنب التجير . والتّجز طرح التجير في النبيذ ليشتد وهو الخمر فان طبخ بعد ذلك حتى يؤتدم به و يشرب ولا يغلي فقد ارتب وهو الرُب وأُعقد وهو العقيد وكل شيء يطبخ حتى يثخن فقد أعقد . وقال ابوعبيد عقّدته حتى عقد يعقد وهذا في القطران والرب والعسل ونحو ذلك . وقال ابو حنيفة ويسمى ذلك العقيد دبس العنب وهو الطلاء تشبيهاً بطلاء الإبل .

الرُبّ بالضم الطلاء الخاثر وقيل هو دبس كل ثمرة وهو سلافة خثارتها(١) بعد الاعتصار والطبخ والجمع الرباب والرُبوب .

وارتُب العنب اذا طبخ حتى يكون رُباً يؤتدم به . قال الأصمعي قال الطائفي اذا أردت صنعة الرُب اخذت من الغربيب والأقماعي الفارسي او الأقماعي العربي او النوامي ما بدا لك حين يعقد فتُعْمله وإعماله ان تجعله في غرارة اومكتل فتصب بعضه على بعض فتدعه في الشمس ثلاثاً اوارىعاً ثم تفضخه ثم تصفيه وتجعله في قدر متوقد وقوداً غير شديد وتخرج رغوته وزبده وتطبخه حتى يعقد . وقال غير الطائفي عَمَله يعمُله .

وان أردت صنعة المريث(٢) اخذت ثفاريق العنب والحبة فيبستها ثم دققتها دقاً شديداً ثم بللتها بفضيخ العنب شيئاً ثم تلته برغوة الرُب ثم شيء (كذا) من رُب تخلط فيها

(١) الخثارة بالضم البقية . (٢) لم نجد المريث في اللسان والتاج ولعله فعيل بمعنى مفعول من مرث الشيء في الماء اذا انقعه فيه او من مرثه لينه حتى صار مثل الحساء ثم تحساه و يقال مرثه اذا مرسه في ماء وغيره حتى تفترق اجزاؤه .

شيئاً من سويق البلسن وهو العدس فتكبه به . وقال بعضهم المريث يعمل من سويق البلسن ومن الهبش[1] يعني المقل ومن النطل ومن الثفار بق ومن الحدل[2] والحدل شجرة تكون بتهامة يقال لها الاعاليف فذلك ما كان طحن ثم سقي الرُب والحدل يعمل من الطفق وهو مما وصف الحَصيص[3] يرب بعصير العنب ثم يؤكل .

الطلاء ككتاب ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وفي القاموس الطلاء خاثر المنصف[4] . وقال ابن الاثير هو بالكسر والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب قال وهو الرُب واصله القطران الخاثر الذي تطلى به الإبل . والطلاء في اللغة كل ما طليت به .

ويقال عقد العسلُ والرُبُ ونحوُهما يعقِد وانعقد وأعقدته فهو معقَد وعقيد اي غلظ . وكذلك عقيد عصير العنب . ويقال للقطران والرب ونحوه أعقدته حتى تعقّد . وفي القاموس عقدته تعقيداً أغليته حتى غلظ كأعقدته .

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي

---

(١) الهبش رديء المقل وقيل الرطب من المقل والخَشْل يابسه والمخ نواه والخذي سويقه . (٢) في اللسان الحدال شجر بالبادية وقال الصاغاني صوابه بالذال .

(٣) في اللسان الحصيص بقلة دون الحماض في الحموضة طيبة الطعم واحدته حصيصة وقال ابو حنيفة بقلة الحصيص حامضة تجعل في الاقط تأكله الناس والإبل والغنم . ولايخفى مافي هذه العبارة من الركاكة والغرابة اللتين تدلان على براءة الاصمعي من هذا الكتاب وقد أشرنا الى ذلك في المقدمة . وانا لم أجد للطفق ذكراً في اللسان والتاج وغيرهما مما لدينا من كتب اللغة .

(٤) والمنصف كمعظم الشراب يطبخ حتى يذهب نصفه .

آراء وافكار

واسطة السلوك

« في سياسة الملوك »

— ومثال رائع من أمثلة الحضارة العربية —

وصف السيد محمد السعيد الزاهري « تلمسان — الجزائر » كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف السلطان ابي حمو موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان (مجلة المجمع العلمي م ١١ ص ٩٧ ١٠١) وذهب الى انه « لا يزال مخطوطاً لم ينشر بعد » . والحق ان الكتاب قد طبع في تونس سنة ١٢٧٩ هـ كما ورد في « كشف القنوع بما هو مطبوع » (ص ٣٨٧) ويقول زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (م ٣ ص ٢٥٩) انه طبع في الاستانة ايضاً سنة ١٢٩٥ هـ .

اما الطبعة التونسية وهي في (١٧٥ صفحة) بقطع متوسط ، في كل صفحة ٢٦ سطر وفي كل سطر زهاء ١١ أو ١٢ كلمة . وقد عني بتصحيحها الشيخ محمود قباده ومحمد البشير التواتي ، ونجز طبعها « ... بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية في رابع ثاني الربيعين سنة تسعة (؟) وسبعين بعد المائتين والالف من الهجرة » . وصدرت بكلمة تصف بعض نواحي المؤلف زعموا انها ترجمته ، وقد استوعبت صفيحة وبعض صفحة ، ومن الخير ان نروي طرفاً منها على علاته فان فيه حديثاً رائعاً اذا صح كان غرة شادخة في جبين الحضارة العربية يضاف الى ما فيها من غرر معلومة ومجهولة .

ودونك ذلك « الحمد لله . ذكر ترجمة المؤلف ، هو السلطان ابو حم (؟) موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان ، وكان رحمه الله يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال بما هو فوق مواسم العام على ما هو منقول من زرح الارواح

ومن نظم الدر والعقيان فيقيم مدعاة (؟) يحشر لها الناس عامة وخاصة فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وبسط موشاة ، ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالاسطوانات (؟) وموائد كالهالات ، ومباخر صفر ، منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس وتستلذها الاعين. وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبقرب السلطان خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من ابوابها و برزت منه جارية صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويدها اليسرى على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة . هكذا حالهم الى انبلاج الصباح ، ونداء المؤذن : حي على الفلاح ... » .

وقد أشار الزاهري الى ان النسخة التي يصفها لم يذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض اخبار بني زيان وذكرت معها نوار يخها يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانما هو موسى بن حمو (؟) مافيه من شك ، ثم أورد بيتين من قصيدة للمؤلف في الكتاب تأييداً لما ذهب اليه ، وهما :

وأنا موسى بن حمو	أصلح للملك ولا (؟) يصلح لي
فأنا للطفل كوالده	وأسوق الشيخ على مهل

والطبعة التونسية تصرح باسم المؤلف في فاتحة الكتاب تصريحاً لاتبقى معه حاجة الى الاستدلال بالشعر وما اليه ، وهذا نص ما جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد . كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف الإمام الملك الهمام الاسد الضرغام اميرالمسلمين مولانا موسى بن يوسف ابوحمو بن زيان العبد الوادي رحمه الله تعالى . الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال ، وهو الكبير المتعال ، خالق الأعيان والآثار ، ومكور الليل على النهار ... » .

وقول الزاهري « هو موسى بن حمو » من خطإ الطبع فيما يظهر لانه ذكر مراراً

أنه موسى ابو حمو كما هو الحق وكما جاء في البيت الذي أورده ، وقد وقع فيه غلط وصوابه كما في الطبعة التونسية :

وأنا موسى وابو حمّو أصلح للملك ويصلح لي

والبيت الثاني الذي أورده إنما يقع في القصيدة قبل هذا البيت بخمسة أبيات ، وفيه : أحنو للطفل ... بدل : فأنا للطفل ... وقد شك في كلمة « الاعتناء » التي جاءت في مقدمة المخطوطة « ... وقرة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء ... » وهي في المطبوعة « والاعتقاب » كما ان قوله « ووسلة الانساب » فيها « ووصلة للانساب » . وقد لاحظت في المطبوعة أغلاطاً كثيرة خفيت على المصححين أو هي من المؤلف ، ولست أريد ان أعرض لتحليل لغته ونمط انشائه فقد قصدت الى غير هذا ولكل مقام مقال .

بغداد : محمد بهجة الاثري

عضو المجمع العلمي العربي

مطبوعات حديثة

الشرع الدولي في الاسلام

« وضعه السيد نجيب الارمنازي »

— الحكيم في الحقوق والمجاز في العلوم الدولية العليا —

Les principes Islamiques

&

Les rapports Internationaux en temps de Paix et de Guerre .

الناس الا اقلهم ، يأخذون الامور بظواهرها ، ويتوهمون الحاضر صورة عن الماضي ، فاذا رأوا أمة ناهضة خيّل اليهم انها كذلك منذ كانت ، وأخرى عاثرة حسبوا العثار طبعاً فيها ، لا تقال منه . وهم بعد ينسبون الى الاولى كل محمدة عرفوها . ويلصقون بالثانية كل مثلبة انكروها .

ولقد لقينا نحن العرب من هذا الامرين . عرفنا الناس وقد اضعنا تراثنا القديم ، فقاسوا على حاضرنا الباهت ، ماضينا الزاهر ، فجاءت احكومتهم فينا مغلوطة جائرة .

ولقد تفطن لذلك فريق من الناشئين النابهين ، الذين قصدوا في طلب العلم الى دار الغرب ، فجدوا في التنقيب عن أمجادهم الغابرة ، وعلومهم المنسية ، وتناولوا في أطروحاتهم العلمية طائفة من علوم العرب وآرائهم وأقوالهم التي توافق — من حيث المبدإ والاساس — كثيراً من علوم العصر الحاضر . وقد أشرنا في هذه المجلة الى كثير من هذه الاطروحات القيمة . وبين أيدينا الآن أطروحة السيد الارمنازي .

والموضوع دقيق ، بل هو ايضاً غريب على السمع وقعه (الشرع الدولي في الاسلام) فهل في الاسلام شرع دولي ؟ وهل كتب العرب في شيء لم تعرفه الامم الا في العصور

المتأخرة ؟ ام هي خطرات يوسوس بها شيطان الغرور في صدور هذه الامم المتناغية بماضيها ، فتكثر من التحدث عن مفاخر ، منها ما كان ، ومنها ما لم يكن . شنشنة معروفة في العاجزين ؟

هذا اول ما يتبادر الى ذهن القارئ او السامع ، ولسنا ننكر ان مثل هذا البحث يتطلب مدارسة وعناء حتى يستخرج المؤلف من حادثات الماضي ووقائعه ، ما ينطبق على ما أسموه بـ « الحقوق الدولية » . غير ان جهود السيد الأرمنازي وعلمه ، وخصب التاريخ العربي ، ومنابع السياسة الشرعية الاسلامية ، كل هذا ، ذلل جميع تلك الصعاب . فاذا بالذي كان شكاً يصبح يقيناً ، واذا بالمرتاب يعود مؤمناً ، والمنكر يرجع مقراً ، بعد الحقائق التاريخية التي أتى بها المؤلف .

فهو يسرد الاسس التي يتعين على المسلمين ان يجروا عليها في معاملة غير المسلمين : محاربين او مسالمين ، اشخاصاً كانوا ام دولاً . في دار الاسلام وفي خارجها . ويلم بشريعة الحرب ، ومذاهب المسلمين في القتال ، وفي السياسة العسكرية ، وفي السلم والتحكيم ، والامان والمعاهدات . ثم ينوه بالعلاقات السياسية والتجارية التي أقرها الاسلام ، وفي بعث الرسل والسفراء .

هذه خلاصة بعض الابحاث القيمة التي عالجها السيد الارمنازي . ولقد انفرد دون باقي اخوانه بان نقل كتابه هذا الى العربية بلغة عالية ، وتبسط في البحث فأتى بالحسنيين ، واستحق الشكر مرتين . عارف النكدي

نشرة الجمعية الخلدونية

« بتونس عن السنة ١٩٣٠ » .

اذا قيل للشامي ان في تونس جمعية علمية أهلية لها مدرسة تجهيزية تحوي في قسميها الابتدائي والثانوي نحو ٦٠٠ تلميذ يدرسون العربية لاستغرب الأمر ولما صدق هذا النبأ . ذلك ان انقطاع الصلات بين الشام وتونس جعلنا نعتقد ان هذا القطر العربي قد قضي عليه علمياً وادبياً واقتصادياً إن عاجلاً وإن آجلاً . وقد جاءت هذه النشرة تدحض هذا

الوم وتنبيء بان هنالك نهضة علمية وأدبية لا بأس بها اليوم قد تأتي بأينع الثمار اذا تعاهدها المستنيرون من التونسيين بعزيمة وثبات ٠

أسست الجمعية الخلدونية سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) وغايتها نشر المعارف بين التونسيين وارسال بعثات مدرسية الى فرنسة وتأسيس دور للكتب واظهار مدنية العرب للفرنسيين ومدنية الفرنسيين للعرب بنشر جريدة عربية فرنسية ٠

وقد جعلها مقام الباي العالي تحت رعايته وانخرط في سلكها كثير من وجهاء البلاد وافتتحت مدرستها منذ ذلك الحين فأخذت تسير الى الأمام سيراً مطرداً حتى قارب عدد تلامذتها اليوم ٦٠٠ تلميذ وصار لديها خزانة كتب تحوي خمسة آلاف مجلد تقريباً منها مخطوطات نادرة ٠ وبلغ معدل الذين يختلفون اليها للمطالعة الف مطالع في الشهر وهو عدد لا يستهان به في تونس ٠

واتضح لنا من برنامج الدروس ان المدرسة الخلدونية تعادل الصف التاسع او العاشر من مدارس التجهيز لدينا ، وان فيها علاوة على ذلك محاضرات يلقيها بعض الأساتذة في تاريخ آداب اللغة العربية والاقتصاد السياسي وحفظ الصحة والمواقف الخاصة في تاريخ الاسلام ٠ وعدد هذه المحاضرات خمس في الاسبوع وهي مباحة لطلاب الفائدة من الأهلين ٠ والجمهور يقبل على استماعها حتى ان عدد المستمعين لا يقل عن ٢٠٠ — ٣٠٠ مستمع لكل محاضرة ٠

وجاء في النشرة نموذج من تلك المحاضرات يدل على فضل المحاضرين وتضلعهم بالموضوعات التي يعالجونها كمحاضرات الاستاذ ابن عاشور في القاضي الفاضل وفي محمد المويلحي والاستاذ عثمان الكعاك في ديانة ابن المقفع وفي ابي السلط أمية بن عبد العزيز ، والأستاذ احمد المهدي النيفر في الأعشى ٠

وجاء فيها ايضاً مقالة في « شهيرات الدور الحفصي » للعالم الكبير حسن حسني عبد الوهاب احد اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق عن كتاب « شهيرات التونسيات » تأليف المومأ اليه وهو لم يطبع بعد ، ومقالة ممتعة عنوانها « مصير الأندلسيين » لمحمد الطاهر بن عاشور كبير اهل الفتيا من السادة المالكية ، وبحث أدبي علمي عن النحل للأستاذ مصطفى الكعاك المحامي ورئيس جمعية قدماء الصادقية ، وفصل في الجاذبية المالية للأجرام

السماوية بقلم الأستاذ الهادي الكسوري مدرس علم الفلك في الخلدونية ، وكلمة في حفظ الصحة للدكتور محمود الماطري ·

فحيا الله جهود اعضاء الجمعية الخلدونية ورئيسها الأستاذ عبدالرحمن الكعاك وحبذا لو طبعوا أهم المحاضرات في كتاب على أجزاء وجعلوا تلك المحاضرات تتناول العلوم المادية أحياناً وزادوا في صفوف المدرسة وعلومها حتى تعادل مدارس التجهيز في الشام ومصر واوربة · « الشهابي »

تاريخ الحركة القومية

— وتطور نظام الحكم في مصر —

« الجزء الثالث في ٦٣٥ ص من القطع المتوسط »

« تأليف عبد الرحمن بك الرافعي »

من الكتب مالا تكاد تقرأ في واحدها بضع صفحات حتى تحس بقوة عجيبة تطبق جفنيك حثيثاً وتبعث بك الى عالم الأحلام · ومنها التي هي على العكس من ذلك سحارة أخاذة تفعل في النفس فعل الشوق من الأثير فيأبى الجفنان ان ينطبقا الا على آخر كلمة منها ويودهما لو طالت صفحاتها أضعافا ·

وبعد ُ ان كتاب الاستاذ الرافعي هو من القبيل الثاني اي من الكتب التي تستهويك بسلاسة عبارتها وغزارة مادتها وسلسلة أبحاثها · ولقد كنت تكلمت في الصفحة ٢٥٣ من المجلد العاشر عن الجزءين الأول والثاني وهما يتناولان بدء الحركة القومية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر اي منذ ما احتل نابليون مصر الى ان ارتقى محمدعلي الكبير أريكة الحكم فيها · اما الجزء الثالث فهو يبحث عن عصر ذلك الرجل الكبير الذي كفل استقلال مصر وشاد فيها صرح القومية الباذخ وكاد يحقق غاية العرب الخاص ببناء مملكتهم الكبرى لو لم تخنه الدول الاوربية وتتألب عليه وبرأسها انكلترا · وهو يحوي ١٧ فصلاً كل موضوعاتها مهمة كالزعامة الشعبية في بدء حكم محمد علي والحملة الانكليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها وانفراد محمد علي بالحكم بعد اختفاء الزعامة

الشمية وحرب الوهابية وفتح السودان وحرب اليونان والحرب في الشام والاناضول ومعاهدة لندن والجيش والاسطول والمدارس التي فتحت في مختلف العلوم والبعثات التي أرسلت لتلقي العلوم في اوربة واعمال الإسقاء والاعمال الزراعية والصناعية ونظم الحكومة وأحكامها وحالة مصر الاجتماعية والحكم على عصر محمد علي .

وختام الفصول فصل في ابراهيم باشا ذلك القائد الباسل الذي يعد من اكبر قواد العالم والذي كان يجاهر بانه ينوي في فتوحاته إحياء القومية العربية وإعادة استقلال العرب اليهم . وقد نقل المؤلف الفاضل جملة عنه تنطوي تحتها سياسته وسياسة ابيه العظيم وهي « انا لست تركيًا فاني جئت مصر صبيًا ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دمًا عربيا » .

وكانت فرنسة تساعد محمد علي في سياسته لكنها تخلت عنه بتأثير انكلترا التي كانت من ألد أعدائه . وكان حكم المصريين في بلاد الشام أعدل من حكم الأتراك وذكر المؤلف الفاضل رأي بعض مؤرخي الشام في هذا الصدد ولا سيما رأي رئيسنا الجليل صاحب خطط الشام فقد نقل عنه المؤلف بضع صفحات قارن فيها حكم الترك بحكم المصريين وأظهر حسنات الحكم المصري في الشام وبين كيف قضت الدسائس الاجنبية وخاصة الانكليزية على فكرة الدولة العربية الكبرى .

والخلاصة ان الجزء الثالث من سفر الاستاذ الرافعي هو أثمن موجز تاريخي لاعمال محمد علي العظيمة وهو من الدروس الوطنية التي يجب على كل شاب مستنير تلاوتها بامعان .

« الشهابي »

حركات الاعراب

« في اللغة العربية »

— فائدتها ، من اين جاءت ، كيف وضعت ، آخر عهد البادية بها —

من البديهي ان مفردات اللغة مؤلفة من الألفاظ وان مادة اللفظ لا تتعدى حروف الهجاء . ولكن للحروف هيآت في اللفظ من حركات وسكون يُطلق عليها على سبيل التغليب اسم الحركات ، وهذه الحركات اما عارضة لمادة الكلمة ومبناها ، او عارضة لآخرها . وتسمى الاولى حركات المباني كما في حركات عَمْرٍ عِمْرٍ عُمْرٍ عَمِرٍ عَمَرٍ عُمَرٍ فهذه الكلمات الست مع اتفاقها في الحروف وترتيبها مختلفة المعنى باختلاف حركاتها اختلافاً من أصل الوضع .

وتسمى الثانية حركات الاعراب او (علامات الاعراب) لانها تعرب عن مراد المتكلم بموقع الكلمة من الجملة ، ولا تؤثر هذه الحركة بمعنى الكلمة الوضعي شيئاً ، فسعيد في قولك رأى سعيد احمد هو سعيد نفسه اذا رفعته فاعلاً او نصبته مفعولاً به ولكن حاله واقعاً منه الفعل غير حاله واقعاً عليه الفعل وانما يعرف اختلاف حاليه من اختلاف حركات الاعراب .

فائدتها

ان هذه الحركات تؤثر أثرها في المعنى التركيبي خاصة وتعطي الجملة ايجازاً بديعاً لامثيل له في غير العربية من اللغات فيما أحسب والايجاز في اللفظ مع الوفاء بالدلالة على المراد من أعظم ميزات اللغة . انظر الى قولنا ما أحسن زيداً فانك تجد لهذه الكلمة ثلاثة معانٍ تختلف باختلاف الحركات في أواخر كلماتها مع بقاء مبانيها وتراكيبها اللفظية كما هي .

فتقول ما أحسن زيداً بنصبها وانت تريد التعجب فيكون قائماً مقام قولك أعجب كثيراً الحسن زيد . (٢) وتقول ما أحسن زيد برفع أحسن وخفض زيد وانت تريد الاستفهام وهو قائم مقام قولك استفهم عن أحسن شيء في زيد . (٣ وتقول ما احسن زيد تفتح أحسن وترفع زيداً وانت تريد الاستفهام ايضاً وهو قائم مقام قولك استفهم عن ماهية احسان زيد .

ثم انظر الى قولنا هذا كريم أحسن منه عالم فاذا رفعت كريماً وعالماً كان المراد بهما شخصين اثنين احدهما كريم والآخر عالم ولكن العالم أحسن من الكريم واذا نصبتهما كانا شخصاً واحداً عالماً وكريماً لكنه في كرمه أحسن منه في علمه .

وانظر الى قولنا كم كتاب قرأت فاذا رفعت كتاباً كنت مريداً الاخبار بكثرة ماقرأت من الكتب واذا نصبت كنت مريد الاستفهام على حقيقته .

قال ابن قتيبة في كتابه مشكلات القرآن مانصه :

« وللعرب الاعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها وحلية لنظامها وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما اذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل ان يكون لكل واحد منهما — الا بالاعراب ولوان قائلاً قال هذا قاتلٌ اخي بالتنوين ، وقال آخر هذا قاتلُ اخي بالإضافة لدل بالتنوين على انه لم يقتله وبحذف التنوين على انه قتله .

ولو ان قارئاً قرأ : فلا يحزنك قولهم انا نعلم مايسرّون وما يعلنون . وترك طريق الابتداء بانا واعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب ان بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى على جهته وأزاله عن طريقته وجعل النبي محزوناً لقولهم ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون وهذا كفر ممن تعمده وضرب من اللحن لا يجوز الصلاة به . وقال رسول الله (ص) لا يقتل قرشي صبراً بعد اليوم فمن رواه جزماً أوجب ظاهر الكلام ان لا يقتل إن ارتد ولا يقتص منه ان قتل . ومن رواه رفعاً انصرف التأويل الى الخبر عن قريش انه لا يرتد احدٌ منهـا عن الاسلام فيستحق القتل . أفما ترى الى الاعراب كيف فرق بينها » . ثم قال : وقد تكتنف الشيء معان فيشتق لكل معنى منها اسم من ذلك الشيء

كاشتقاقهم من البطن الخميص (مبطَّن) وللعظيم البطن اذا كان خلقة (بطين) فان كان من كثرة الاكل قيل (مبطان) وللمنهوم (بَطِن) وللعليل البطن (مبطون) انتهى .

في كل هذا انما اختلف المراد باختلاف الحركات الاعرابية مع ان الجمل المذكورة لم يتغير شيء من تركيبها وتنسيقها غير علامات الاعراب ولكن المعنى التركيبي قد تغير معها تغيراً لا يستهان به كما سمعت من كلام ابن قتيبة .

وكذلك اذا قلت علَّم زيد خالد الكتاب لا تعلم ايهما المعلم وايهما المتعلم فاذا رفعت ونصبت عرفت ان المرفوع المعلم والمنصوب المتعلم تقدم او تأخر لا فرق وبقي للتقديم والتأخير افادته الخاصة من البيان . فاذا طرحت الحركات جانباً وجعلت الدلالة على الفاعل تقدمه وعلى المفعول به تأخره على ان تجعل الفاعل واجب التقديم مطلقاً كما اذا كانا مقصورين — فاتتك النكات البيانية والمعاني التي يأتي بها تقديم المتأخر او تأخير المتقدم وهي افادات تأتيك من ترتيب الجملة دون زيادة في اللفظ وهذا من خصائص العربية فيما أحسب وقد أسهبت القول قليلاً في فوائد الاعراب في اللغة ليُعلم ان القول بتفضيل اهمال الحركات على استعمالها لان المعنى لا يفسد باهمالها فكل أبناء العربية يفهمون من قولنا زيد مسافر بالتسكين كما يفهمون زيد مسافر بالتحريك — ليعلم ان هذا القول — عجيب لاسيما من علامة مدقق ذي غيرة على الفصحى كصاحب المقتطف . وقد ظهر مما تقدم من القول ان كثيراً من الجمل اذا اهمل فيها الاعراب اشتبه على السامع فهم معنى الجملة لانها تحتمل معاني لا يميزها الا الاعراب او إطالة الجملة بكلام يدل على المعاني المرادة .

من اين جاءت

من الحقائق التي لا أحسب ان فيها جدالاً او يكون فيها جدال غير معتدٍّ به ان العرب الذين قلَّ امتزاجهم بغيرهم من الامم كانوا أحفظ لجدّة اللغة ولقدمها من غيرهم لان الامتزاج بغير اهل اللغة من اكبر الاسباب في تطور اللغة فنشوء اللغة العربية من أم اللغات السامية لم يكن فيه من التغير ما كان في أخواتها فهي اذاً على هذا أقرب اللغات السامية من لغة الام . وهذه الحقيقة ليست بغريبة عن استنتاج العلماء فقد ذكرها كثير من الباحثين كمسألة لا تحتمل الجدال .

ثم انه جاء في التاريخ القديم ان اللغة التي انتشرت في المملكة البابلية الاولى قبل زمن حمورابي بعشرين قرناً واكثر (وهي ام اللغات السامية) كانت ذات حركات للاعراب وانها قضت اكثر من الفي سنة وهي ذات حياة في سجلات الحكومة ودواوينها وعلى السنة العلية من القوم قال مسبيرو (Maspero) ان اللهجة المصقولة التي كان كتبة نينوى و بابل يستعملونها في عهد هيردوتس لانشاء الكتابات الرسمية كانت منذ زمن طويل مايشبه لغة نبيلة يفهمها نخبة الناس وتجهلها العامة وكان العامة من سكان المدن والقرويون يتكلمون باللهجة الارامية التي كانت أسهل من تلك » وكلام مسبيرو ظاهر في ان لهجة العامة من سكان المدن والقرى (اهل الحاضرة) كانت الارامية ولكن لهجة سكان البوادي (اهل البادية) ما كانت ؟ ؟

ان اهل الحاضرة هم الذين امتزجوا بغيرهم من الامم فاستعجمت لغتهم بهذا الامتزاج وكانت منه اللهجة الارامية (العامية البابلية) كما امتزج بعد الاسلام اهل الحاضرة من العرب بغيرهم من الامم فاستعجمت لغتهم وكانت منه لهجتنا العامية .

وكذلك ضيّع الاولون حركات الاعراب باستعجام لغتهم وكانت هذه اول شيء أضاعوه منها بدليل ان اللغة الفصحى الاولى (الام) ذات الحركات الاعرابية انما فقدتها في سكان الحواضر والمدن والقرى الذين تطوّرت لغتهم فكانت منها الارامية (السريانية القديمة) وهي ليست بذات اعراب ، ولم يفقدها سكان البوادي فكانت لهم لغة بدو الاراميين (وهي العربية) تزدهي باعرابها الذي رأينساه ملكة راسخة فيهم مثلما ضيّع الآخرون حركات الاعراب باستعجام لغتهم وكان هذا اول شيء أضاعوه منها ، بدليل ان اول انحراف وقع في اللغة كان في خلافة عمر (رض) لما جاء الاعرابي يتعلم القرآن في المدينة فسمع اللحن في الحركات الاعرابية وانكره ولو سمعه في غيرها لما سكت عنه فكان بذلك نصيب سكان البوادي الأولين كنصيب سكان البوادي الآخرين من حفظ اللغة بحركاتها الاعرابية مااستطاعوا اليه سبيلاً وبقدر مابعدت عنهم الامم الاخرى وهكذا نقيس بين المصرين بقياس التمثيل ونعلم حال القديم الذي لم نره ولا تحققنا خبره بحال الحديث الذي عرفناه وتحققناه ونطمئن الى القول بان حركات الاعراب التي كانت في اللغة الاولى (الام) قد حفظتها لها البداوة والبعد عن الامم الاخرى حتى ظهرت في

عربيتهم الاخيرة وقد خلت منهـا اللغات الاخرى الاخوات الا آثاراً في لغة بطرا، ولغة تدمر لان اهلها من بقايا العمالقة[1] ثم نقول :

لكن بدو الاراميين الذين سكنوا البادية العربيـة والذين سموا عرباً لارتحالهم عن الوطن الاول غرباً[2] لم تذهب منهم هذه الحركات او اشباهها بدليل وجودها عند أعقابهم يوم اخذت اللغة عنهم وبدليل انها كانت حينئذ راسخة فيهم رسوخ الملكة في النفس تجري على السنتهم في مواقعها دون قصد ولا كلفة ولا تعمل مما يدل على طول عهدهم بها حتى أصبحت جارية مجرى الطبع ·

فهذه الحركات اذاً متصلة الينا من ميراث اللغة الاولى ام لغتنا العربية حفظتها لنـا البداوة وبُعْد حامليها عن الامتزاج بغيرهم من الاعاجم ·

قلنا ان هذه الحركات كانت في العرب اتصلت في الاعقاب على مدى الاحقاب حتى وصلت الينا وسواء أكانت هي كما هي او دخلها التطور جرياً على سنن الكائنات فهي لم تكن عينها فليست بعيدة عنها بل هي في واديها ربيت ونشأت وعلى غرارها طبعت وبدرها غذيت والقول بان العرب عرفوا هـذا بمعرفتهم النحو وانهم احتذوا فيه مثال اليونانيين فلا أراني كثير الحاجة لدفعه لان الالمام باحوال العرب قبل الاسلام فضلاً عن الاضطلاع بها يكفينا امره · وانى لسكان البادية بمعرفة قواعد النحو كعلم من العلوم وقد سئل اعرابي اتجر فلسطين؟ فقال اني إذن لقوي فقيل له اتهمز اسرائيل فقال اني اذاً لرجل سوء · ففهم هذا البـدوي وهو ممن يوثق بعربيته ويتخذ الائمة كلامه حجة في النحو واللغة — فهم الجر والهمز بمعناهما اللغوي ولم يكن للاصطلاحي اقل مساس بفهمه وعلمه ·

وان الاعرابي القادم من البادية الى المدينة ليتعلم القرآن وهو بعد لم يبلَ بفساد اللسان — عرف تغير المعنى بتغيير حركة (ورسوله) من الرفع الى الجر لا من حيث انها رفع وخفض بل من ان في افادتها مرفوعة معنى مغايراً لما تفيده مخفوضة ·

* * *

(١) العرب قبل الاسلام · (٢) العلامة فانديك ·

كيف وضعت

ان الذي عليه المحققون ان وضع اللغات لم يكن بالتنصيص على لفظ خاص لمعنى خاص وانما كان الوضع بالتوسع في الاستعمال على قدر الحاجة وامتدادها وتنوعها بامتداد الزمن وتطاول المدة وعلى حسب ما هو معروف من سنن التطور الجاري على الالسنة ويبعد في مثل هذه الحال ان توضع الحركات الاعرابية بمثل هذا النحو من الوضع وان تكون على هذه الطريقة لان الحركات الاعرابية على ما هو الظاهر ليست مما تدعو اليه الحاجة الماسة بان تكون ركناً من أركان التفاهم لا يتم بدونها حتى يقال انها جاءت على قدر الحاجة اليها ثم نمت وامتدت كما يصح ان يقال هذا في الكلمات ولهذا تجدها لا تطرد على لسان من لم يتعودها دون مران او ممارسة فكيف كانت اذاً هذه الحركات الاعرابية (او علامات الاعراب) هل هي بقايا كلمات كانت تدل ماتدل عليه علامات الاعراب ثم اختزلت بتطاول المدة وصقلت بالاستعمال فصارت كما نراها . يقول بذلك كثير من العلماء . وجاء في المقتطف[1] ما نصه « يستدل من علم اللغات ان اصل هذه الحركات كلمات فاختصرت على تمادي الزمن وبقيت هذه الحركات دلالة عليها » ولكن هل كانت هذه الكلمات التي هي اصل هذه الحركات خاصة بام اللغة العربية المعربة وفي حيزها اختصرت هذا الاختصار او انها كانت قبلها في أمها الاولى ثم جاءت الى أم اللغة العربية المعربة بالارث ؟ وعلى تقدير انها كانت في اصل الفرع الاسيوي الاول الذي منه كانت اللغات السامية والآرية والمغولية وأخواتها فهل اصابها الاختصار كله او بعضه قبل انفصال السامية (ام العربية) عنه او انه كان من صيغ اللغة السامية . ربما يعرف ذلك ويكشف هذه الامور ويحل هذا الاشكال الباحثون في مقابلة اللغات وتحليلها اذا تسنى لهم وكان في اخوات العربية وخالاتها ماينير لهم الطريق بان يكون لهذه الكلمات (الاعرابية) مايدل عليها او يشير اليها في هذه اللغات .

اما اذا كان هذا مجرد حدس وتخمين فللحدس والتخمين مجال ايضاً في غير هذا

(١) مجلد ١٩٢٩ .

الطريق وحينئذ يجوز لذاهب ان يذهب الى ان هذه الحركات الاعرابية ربما تكون وضعت بوضع خاص وذلك بان يقال ان ابناء اللغة الاولى كانوا في تمدنهم وعلومهم في منزلة صالحة تدل عليها آثارهم . وقد دلت الآثار انه كان للبابليين مدارس منظمة يعلّمون فيها الحكمة والطب والفلك والحساب ، وظهر في الآثار من آثار هذه المدارس جداول الضرب الحسابية التي كانت تدرس فيها ، واخبرنا التاريخ عن مزيد عنايتهم بلغتهم الفصحى التي حفظوها واتخذوها اللغة الرسمية وكانت مصقولة مهذبة كما يدل عليه كلام مسبيرو المتقدم وانها كانت لغة النخبة والطبقة العليا .

فلا يبعد والحال هذه عن الذين صقلوا لغتهم وهذبوها ان يكونوا في جملة صقلها وتهذيبها وتحريهم البلاغة فيها تعمدوا الاختصار في الكلام مع الوفاء بالدلالة على المراد مما يسمونه اليوم بالايجاز وهو من أعلى ضروب البلاغة ومن جملة هذا الاختصار وضع العلامات الاعرابية وهي حركات في الغالب لا تطول بها الجملة ولا تتضخم ولا يتغير بها وضع الكلمة فدلوا بها على مرادهم من الكلمة في جملتها فاعلة او مفعولة او غير ذلك . مقدمة او مؤخرة لتدل في التقديم والتأخير على معنى مراد ، وان يكون ذلك جرى في مجامع لهم خاصة او عامة ، او من جماعات او أفراد لهم محل المقتدى به في الامة فأخذه عنهم عليه القوم وتبعهم في ذلك المقتدون المتشبهون بهم وجرى مجرى الاستحباب اولاً ثم أصبح عادة وتقليداً ثم ملكة راسخة و يكون ذلك منهم حيث قل انتشار الفساد في اللغة . وسرى ذلك في سكان البادية فحفظوه وجروا عليه ولنفرض لذلك مثلاً فنقول استعمل أبناء اللغة ما الاستفهامية بدلاً من اي شيء فاشتبهت بما التعجبية ووقعت أفعل بعدها كاحسن في قولك ما أحسن زيداً . واشتبه على السامع اي المعنيين يريد المتكلم آ الاستفهام ام التعجب ونصبُ القرينة اللفظية كزيادة اللفظ تطويل والمفروض اننا قررنا منه فحركوا حينئذ ماوقع بعد ما التعجبية بالنصب ومابعدالاستفهامية بالرفع وليس في ذلك مشقة ولا تطويل . وكذلك كان الفعل يكون من فاعل لا يكون مفعولاً به وعلى مفعول به لا يكون فاعلاً ، وفي مثل هذا لا يشتبه الفاعل بالمفعول به سواء أتقدم ام تأخر مثل كسر الزجاج الحجر ونظم الشاعر قصيدة . وتبقى اعتبارات التقديم والتأخير البيانية صالحة في مثله ، ولكنهم وجدوا الفعل وكثيراً ما يكون يقع من فاعل يصح ان يكون مفعولاً به ، وعلى مفعول به

يجوز ان يكون فاعلاً وقد تقضي الاعتبارات البيانية التي هي حلية اللغة تقديم المفعول به على الفاعل للاهتمام به او لغير ذلك من الأسباب البيانيـة فيحتاج والحال هذه الى ما يميز الفاعل عن المفعول فجاؤوا بالحركات الاعرابيـة فكان المرفوع في مثل هذا تقدم او تأخر فاعلاً والمنصوب مفعولاً به . ولعل مثل هذا احتاج الى مدة متطاولة وبعد اختلافات كثيرة بين الأصقاع والقبائل في الاستعمال حتى استقر وثبت منه الاحسن والأصح في الاستعمال فعمّ وشاع وذهب ماعداه .

وان القول بالكلمات المختصرة الى الحركات يعترضه صعوبات كبيرة في تعليل هذا الاختصار وتطبيقه على حركات الاعراب لايمكن تذليلهـا الا بتكلف كثير ، واذا رأينا من السهل مثلاً ان نقول ان علامة الرفع (الضمة) اختصرت من الكلمة التي تدل عليهـا الى الواو الذي هو علامة للرفع ايضـاً ثم اختزل الواو الى الضمة ، فلسنا نرى من السهل تطبيق ذلك على غير هاتين من علامات الرفع كالالف وثبوت النون وكذلك الحال في النصب وعلاماته والخفض وعلاماته والجزم وعلاماته .

كما يعترض الحدس المفروض للوضع الخاص ان هذه العلامات نراها اول ما يذهب في اللغة عند امتزاج اهلها بغيرهم وان صيرورتها الى الملكة من الوضع الخاص في أمة لم تكن بعيدة عن الاختلاط في غيرها بقدر ما يفرض لها من البعد — امر لا يقبله العقل بسهولة وبدون مشقة .

وكيفما كان الحال فقد اتصل الينـا ام انـ اللغة العربية أورثتها نظام الاعراب بالعلامات فنقف عند هذا القدر المحقق من البحث ونترك ماعداه للمحققين في اللغات حتى يظهر البحث ما تطمئن اليه النفس فيه . وتحقق لدينا ان العرب (بدوالارامبين) اتخذوا هذا الميراث وجرى فيهم مجرى الملكة وهم في عزلتهم فلم يتسرب اليهم الاهمال وحفظته لهم البادية فلم يؤثر فيه عندهم ما اثر فيه عند اخوانهم .

كما حفظت البادية البعيدة عن الامصار هذه اللغة الفصحى الى زمن ظهور الاسلام وفي صدره برونقها وبهجتها وصونها من اللحن الطارئ على ألسنة العرب المجاورين للاعاجم كان ذلك حتى أصبحت هذه الحركات ملكة طبيعية ثابتة في ألسنتهم . وليس معنى قولنا هذا انهم لايقدرون على اللحن كما كنا نتلقاه من مشايخنا زمن الدراسة بل معناه ان السنتهم

تجري بلا تعمل ولا كلفة على هذا النظام شأن من يتمرن عليه في هذه الايام فينطلق به لسانه دون تعمل ايضاً ، ولئن كان لا يسلم متمرن اليوم من الخطإ الذي يكثر و يقل بحسب مرانه وتعود لسانه فلأن مرانه ناقص من حيث انه يتمرن في بيئة ملؤها الخطإ والغلط وعلى العكس متمرن ذلك العصر الذي كان في بيئة كلها صواب وصحيح .

ان سكان هذه الجزيرة اتخذوا حفظ هذه اللغة على هذا النحو تقليداً لم في التجاوز عنه العيب والعار ، ولا ترسخ عادة في قوم ما لم تتخذ تقليداً مستحباً يعاب تاركه على تركه فتمرنوا عليها مراناً تاماً يشب عليه الصغير و يشيب عليه الكبير حتى أصبح عاماً شائعاً بين صغيرهم وكبيرهم عالمهم وجاهلهم ولم يحجم النقلة من الأئمة الآخذون اللغة عن الاعراب ان يعتدّوا بلغة الصبيان والمجانين لانهم آمنون على ملكاتهم من الخطإ فكان بعضهم يحتج لمذهبه بكلام امثال هؤلاء فلا ينكره عليه منهم منكر .

قال ابن دريد في اماليه عن الاصمعي قال سمعت صبية بحمى ضرية يتراجزون فوقفت وصدوني عن حاجتي ، اقبلت اكتب ما أسمع واذا شيخ أقبل فقال أتكتب عن هؤلاء الاقزاع الادناع ؟

لم يحجم الاصمعي وهو الامام اللغوي عن ان يكتب عن هؤلاء الاقزاع الادناع لانه يرى في كلامهم حجة . وقول الشيخ أتكتب الخ مستنكراً . ما هو الا استصغار لامرهم واحتقار لشأنهم من حيث انهم أقزام أدناع (من صغار النـاس وأراذلهم) لا من حيث انه مخطئ او مصيب بالاخذ عنهم فهو نظير ان تختار لامرك حاذقاً فيه ولكنه صغير المنزلة دنيء الحسب مستقذر العيش مع انك لا تعدم حاذقاً مثله رفيع المنزلة كريم الحسب ظاهر المروءة فيصح حينئذ لمن يغار عليك ان يلومك على هذا الاختيار وليس معنى لومه الطعن في حذق من اخترته بل الطعن فيه من حيث نفسيته .

***

آخر عهد البادية بها

ان هذه الملكة الراسخة في نفوس هؤلاء الاعراب لحفظ اللغة باعرابها اهملت في القبائل المجاورة للأعاجم الكثيرة الاختلاط بهم ولم يسمع عن احد من العرب الجاهليين

ان الائمة تحرزوا عن الاحتجاج بلغته قبل عدي بن زيد العبادي الذي نشأ بين أيدي ملوك الفرس ٠

فسدت لغة اهل الاختلاط والامتزاج بالامم الاخرى وكانت قوة هذا الفساد وضعفه تابعين لقوة الاختلاط وضعفه ثم سرى الفساد من الحاضرة الى البادية بقوة الامتزاج والاختلاط سرياناً تابعاً لهذه السنّة وكانت السلامة تتقهقر امام هذه القوة وبقي هذا الغزو مستمراً الى أُخريات القرن الثالث للهجرة وما بعده بقليل حتى ذهبت هذه الملكة او كادت وعم اللحن أقطار العربية باديها وحاضرها الا قليلاً لا يعتد به ٠

وصينت اللغة الفصحى المعربة في دفاتر العلماء والادباء وفي المجامع الادبية وعلى السنة الشعراء والخطباء والكتاب ٠

احمد رضا

عضو المجمع العلمي العربي

المحاضرتان السابعة والثامنة

ثقافة الجاحظ(١)

—«»—

مرَّ بنا ان الجاحظ طلب العلم في ابتداء امره في كتّاب والظاهر ان الكتاتيب كانت شائعة في عصر الجاحظ فكان يتردد اليها اكابر علماء اللغة أمثال النضر بن شميل وابي محمد اليزيدي وابي زيد الأنصاري احد أساتيذ الجاحظ حتى قال النضر بن شميل : كنا ثلاثة في كتّاب ، انا وابو زيد الانصاري وابو محمد اليزيدي ·

فاذا كانت كتاتيبهم في تلك الايام الطيبة على نحو كتاتيبنا في هذه الديار لا تطلع عليها شمس ولا يهبُّ في نواحيها نسيم فمن ظلمة الكتّاب الذي ترعرع فيه الجاحظ انبلج ضياء أضاء مدارك العرب احد عشر قرناً ولا ندري الى ايّ قرن يمتد ·

ولكن من الذي يعلمنا كيف انصرف الجاحظ من بعد خروجه من الكتّاب الى التوسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة ومن الذي رغّبه في هذا التوسع فاننا نجهل هذا كله وانما نعلم ان اباعثمان قرأ على طائفة من العلماء لم تغب عنا اسماؤهم واذا علمنا هذا هان علينا ان نعرف كيف نما عقل الجاحظ فلسنا نرتاب بان لأساتيذه اثراً بليغاً في نمو عقله وامتداد ثقافته ·

من هم أساتيذ الجاحظ ؟

سمع الجاحظ من ابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري واخذ النحو عن الاخفش

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي ، التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ ·

أبي الحسن وكان صديقه واخذ الكلام عن النظّام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد [١] .

لقد كشف لنا هذا النبأ القطاء عن تثقيف الجاحظ فاذا بحثنا عن خصائص الرجال الذين روّضوا عقل أبي عثمان ونقبنا عن المذاهب التي عرفوا بها استنبطنا من مجثنا ان للجاحظ أربع ثقافات : تفقهه في اللغة والأدب والدين والعلم .

اما اللغة وربما كانت هذه الناحية أعجب نواحي الجاحظ فقد اخذها عن اهلها الذين لم يفسد بيانهم شيءٌ من العجمة فاذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة ما لم يملك غيره من الكتّاب فان لمخالطته عرب المربد سراً في هذه الفصاحة وسننظر في هذا كله في كلامنا على لغته .

واما الأدب فقد خرّجه فيه رجال كانوا مضارب الامثال فيه واذا قلنا الادب أردنا بهذه اللفظة ما كانوا يريدونه بها في عصر الجاحظ فالأدب كان يتضمن أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شابه ذلك .

وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه .

فلننظر في كل من اساتيذ الجاحظ نظرة عجيلة حتى نلمّ الماماً بعقول الذين ثقّفوا رجلاً مثل الجاحظ فان إلمامة من هذا الشكل تمهد لنا مجازاً الى الاطلاع على أسرار عبقرية الجاحظ لاننا اذا علمنا ان اباعثمان قرأ على أشباه النظام وابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري والأخفش ابي الحسن واخذ اللغة عن عرب المربد سهل علينا بعد هذا كله أن ندرك سرّ هذه الآفاق التي تبسّط فيها الجاحظ واذا أضفنا الى معرفتنا هذه ما نعرفه من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها في حياته ومن وَلَعه بالكتب على وجه عام لم تشكل علينا نشأة هذه العبقرية الفتانة .

من هو ابوعبيدة ومن هو الاصمعي ومن هو أبوزيد الانصاري ومن هو الأخفش ابوالحسن ومن هو النظّام وما هو رأي الجاحظ في اساتيذه ؟

---

(١) معجم الادباء (الجزء السادس ص٥٦) مطبعة هندية بمصر .

فلنبحث قبل كل شيء عن جماعة العلماء الذين تولوا تثقيف الجاحظ من ناحية الأدب وأريد بهذه الجماعة أباعبيدة والاصمعي وأبازيد الانصاري والأخفش اباالحسن ولنذكر على سبيل الايجاز آراء اهل عصرهم فيهم (١) ·

اما ابوعبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري فهو الذي قال فيه الجاحظ نفسه : لم يكن في الارض خارجي ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم منه ·

وقد كان ابونواس يتعلم منه و يقول فيه : ذاك أديم طوى على علم ·

أقدمه هرون الرشيد من البصرة الى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة وقرأ عليه اشياء من كتبه ·

وقد كان الفضل بن الربيع يقول : هذا علامة اهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه · الا انه كان سيئ العبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة ·

وقد كان جبّاهاً لم يكن بالبصرة احد الا وهو يداجيه و يتقيه على عرضه ·

خرج مرة الى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة فان كلامه كله دق ثم حضر الطعام فصبّ بعض الغلمان على ذيله مرقة فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق وانا اعطيك عوضه عشرة ثياب فقال ابوعبيدة : لا عليك ، فان مرقك لا يؤذي ، اي مافيه دهن ففطن لها موسى وسكت ·

وكان الأصمعي اذا أراد الدخول الى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك يعني أبا عبيدة خوفاً من لسانه ·

ولما مات ابوعبيدة لم يحضر جنازته احد ، لانه لم يكن يسلم من لسانه احد، لا شريف ولا غيره وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل الى مذهب الخوارج وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام ·

كانت ولادته سنة عشر ومائة في الليلة التي توفي بها الحسن البصري ·

وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة وقيل سنة احدى عشرة وقيل سنة عشر وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين ·

(١) رجعت في الكلام عليهم الى الانباري صاحب الطبقات والى ابن خلكان ·

وكان سبب وفاته ان محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه ثم اتاه ابوالعتاهية فقدم اليه موزاً فقال له ابوالعتاهية : ماهذا يا ابا جعفر قتلت اباعبيدة بالموز وتريد ان تقتلني به ، لقد استحليت قتل العلماء ·

وتصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتب في الحمام والحيات والعقارب والخيل والابل والزرع اي في الموضوعات التي عالجها الجاحظ ذاته ·

* * *

واما الأصمعي فهو صاحب لغة ونحو وامام في الاخبار والنوادر والملح والغرائب وهو من اهل البصرة قدم بغداد في ايام هرون الرشيد ·

قيل لأبي نواس : قد أحضر ابو عبيدة والاصمعي الى الرشيد فقال : اما ابوعبيدة فانهم ان امكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين واما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته ·

كان حسن الانشاد والزخرفة لردي الاخبار والاشعار حتى يحسن عنده القبيح ·

وقال عمر بن شبة : سمعت الاصمعي يقول : أحفظ ستة عشر الف ارجوزة ·

وقال اسحق الموصلي : لم ار الاصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه ·

وكان الشافعي يقول : ما عبر احد عن العرب باحسن من عبارة الاصمعي ·

وقد حرص المأمون على الاصمعي وهو بالبصرة ان يصير اليه فلم يفعل واحتج بضعفه وكبره فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها اليه ليجيب عنها ·

كانت ولادته سنة اثنتين وقيل ثلاث وعشرين ومائة وتوفي في صفر سنة ست عشرة وقيل اربع عشرة وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة وقيل بمرو ·

* * *

واما ابو زيد الانصاري فهو من أئمة الادب وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ·

كان ثقة في روايته وكان سيبويه اذا قال : سمعت الثقة أراد به ابا زيد الانصاري ·

حدث ابوعثمان المازني قال : رأيت الاصمعي وقد جاء الى حلقة ابي زيد المذكور فقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : انت رئيسنا وسيدنا من خمسين سنة ·

وكان الثوري يقول : قال لي ابن مناذر أصف لك اصحابك : اما الاصمعي فأحفظ الناس واما عبيدة فأجمعهم واما ابو زيد الانصاري فأوثقهم ·

و يروى عن ابي عبيدة والاصمعي انهما سئلا عن ابي زيد الانصاري فقالا : ما شئت من عفاف وتقوى واسلام ·

كانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة وقيل اربع عشرة وقيل ست عشرة ومائتين وعمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة وقيل عاش ثلاثاً وتسعين سنة وقيل خمساً وتسعين وقيل ستاً وتسعين ·

***

واما الأخفش ابو الحسن فهو من اكابر أئمة النحو في البصرة ·

أخذ النحو عن سيبويه وكان اكبر منه وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً الا وعرضه عليّ وكان يرى أنه أعلم به مني وانا اليوم اعلم به منه ·

حكى ابو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم قالوا : دخل الفراء على سعيد المذكور فقال لنا سعيد : قد جاءكم سيد اهل اللغة وسيد اهل العربية فقال الفراء : اما ما دام الأخفش يعيش فلا ·

وكان الأخفش أجلع والأجلع الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين وقيل سنة احدى وعشرين ومائتين ·

هذه جماعة العلماء الذين اخذ الجاحظ عنهم النحو واللغة والنوادر والغريب والاخبار والملح ولا ندري ماذا اخذ عنهم ايضاً ·

وللجاحظ رأي في أساتيذه فاذا اتسع له مجال النقد تقدم ولم يتهيب والظاهر انه كان يستعصي عليه في بعض الاحايين فهم كلام أستاذه في النحو الاخفش أبي الحسن حتى قال له يوماً (١) ·

« انت اعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم اكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : انا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني اليه

---

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٥) ·

قأت حاجاتهم الي فيها وانما كانت غايتي المنالة فانا اضم بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة مافهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا وانما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم اكثرها » .

من هذا نتبين لنا ناحية من نواحي عقول اساتيذ الجاحظ فلئن كان الاخفش من اكابر النحويين فلقد كان صاحب حيلة وفطنة يعرف كيف يتصرف في جر مرغوب . وكما ان ابا عثمان نقد الاخفش في غمغمته في النحو فقد نقد الاصمعي وابا عبيدة والاخفش في مقدار نظرهم في الشعر فقد قال [1] :

« طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا إعرابه فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والأنساب فلم اظفر بما أردت الا عند أدباء الكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات ... حتى قال الصاحب على اثر هذه الحكاية : فلله ابو عثمان فلقد غاص على سر الشعر واستخرج أرق من السحر » .

غير أن هذا النقد قد لا يخلو من شيء من الانحراف عن الصواب فقد قال الجاحظ في الاصمعي : طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ولكن الذي وصل الينا من امر الاصمعي ان له آراء في الشعر لا تدل على انه لا يحسن الا غريبه حتى كان الرشيد يقول له : يا أصمعي ما انطاق في الشعر وقد كنت ذكرت لكم في محاضرتي الاولى رأيه في بشار ومروان بن ابي حفصة فان الذي يقول في بشار : سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل، ان الذي يقول نظير هذا القول قد يحسن من الشعر على ما اعتقد غير غريبه .

مالنا ولهذا فاننا نتكلم على نقد الجاحظ لاساتيذه ولسنا نتكلم على وجه الصواب او الخطأ في هذا النقد .

---

(١) العمدة لابن رشيق (الجزء الثاني ص ٨٤) .

هذا ما انتاهى الينا من تخريج الجاحظ في الادب والى جنب هؤلاء العلماء عالم في طبقة مختلفة عن طبقاتهم قد اثر في الجاحظ من ناحية غير الناحية التي اثروا فيها فلئن كان لابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري والاخفش ابي الحسن اثر بليغ في تثقيف عقل الجاحظ من جهة الادب فقد كان للنظّام اثر ابلغ في تثقيف هذا العقل من جهة الدين والعلم ·

والتلميذ محمول على تقليد أستاذه وربما قلده في حركاته وسكناته وفي مشيته · يقول الجاحظ في النظّام [1] :

« الاوائل يقولون : في كل الف سنة رجل لانظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام » ·

وقال فيه في مقام آخر [2] :

« مارأيت احداً أعلم بالكلام والفقه من النظام » ·

وقال ايضاً في كلام له على تأثير النظّام في المعتزلة [3] :

« أنهج لهم سبلاً وفتق لهم اموراً واختصر لهم ابواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة » ·

صور لنا الجاحظ أستاذه ابا اسحق النظّام في صور شتى فمرة كان يعرض علينا طبيعة نظره وتمييزه فقد قال [4] :

« وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ولم أزعم انه قليل الزيغ والزلل على ان ذلك قد كاد يكون منه وان كان قليلاً بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء وانت لست تريد حياءً البتة وذلك انهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس وانما كان عيبه الذي لايفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التماس تصحيح الاصل الذي

(١) ذكر المعتزلة للمرتضي (ص٢٩) · (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص ٣٠) ·
(٣) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) ·
(٤) الحيوان (الجزء الثاني ص٨٣) ·

كان قاس عليه أمره على الخلاص ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظناً فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته ».

ومرة كان يعرض علينا مبلغ ثقة اصحابه به فقد قال [1] :

« وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع و بيان ».

وحيناً كان يصف لنا مقدار حمله السر فقد قال [2] :

« وكان ابواسحق ابراهيم بن سيّار النظّام أضيق الناس صدراً بحمل سره ، وكان شر مايكون اذا يؤكد عليه صاحب السر ، وكان اذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر . وقال له مرة قاسم التمّار : سبحان الله ما في الارض أعجب منك أودعتك سراً فلم تصبر عن افشائه يوماً واحداً والله لأشكونّك للناس فقال : ياهؤلاء سلوه نممت عليه مرة واحدة او مرتين اوثلاثاً اواربعاً فلمن الذنب فلم يرض بان يشاركه في الذنب حتى صيّر الذنب كله لصاحب السر ».

وحيناً كان يصف لنا اخلاقه فقد قال [3] :

« وكان انفاً شديد الشكيمة ابّاء للضيمة ».

هذا بعض مااتصل بنا من آراء الجاحظ في أستاذه النظّام واني ارى ان اذكر لكم من اليوم نماذج من مذاهب النظّام في الدين والفلسفة والعلم وانماطاً من تهكمه وخصائص عقله حتي تعرفوا من هو الرجل الذي اثر في الجاحظ من نواحٍ كثيرة .

ابراهيم بن سيّار بن هانيء النظّام رئيس من رؤساء المعتزلة وقد انفرد عن اصحابه بمسائل تبعه فيها جماعة سموا بالنظّامية ، فاعتزاله يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فلا محل للافاضة في ذكرها في مثل هذا المقام ولكنني لا أرى بأساً ببيان بعض آرائه في الدين ، من هذه الآراء ان استواء الطاعات يؤدي الى

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص١٠٦) . (٢) الحيوان (الجزء الخامس ص ٦١) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص١٣٦) .

استواء اهلها في الثواب وكذلك الحال في المعاصي قال الجاحظ [1] :

« وزعم ابو اسحق ان الطاعات اذا استوت استوى اهلها في الثواب وان المعاصي اذا استوت استوى اهلها في العقاب واذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضيل وزعم ان أجناس الحيوان يحس ويألم في التفضيل سواء » .

فكأن النظّام يريد بهذا القول ان الله عزّ وجلّ ينظر الى الناس اذا استوت طاعاتهم او معاصيهم نظرة واحدة فلا يقدم صالحاً على صالح ولا يؤخر طالحاً عن طالح وكذلك نظره الى كل حيوان ذي شعور فلا يفضل ديكاً على كلب ، مثلاً وان رأياً مثل هذا الرأي يدلنا على طبيعة المباحث الدينية التي كانوا يبحثونها في عصر الجاحظ .

وقريب من هذا الرأي قوله في دخول الأطفال الجنة وفي الفرق بين الاطفال وبين البهائم فاليكم هذا القول على نحو ما اشار اليه الجاحظ وهو لا يخلو من يسر ومسامحة [2] .

« وزعم ان اطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة وزعم ان ليس بين الاطفال ولا بين البهائم فرق وكان يقول : ان هذه السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ولكن الله عزّ وجلّ ينقل تلك الارواح خالصة من تلك الآفات فيركبها في اي الصور الحسان أحبّ » .

ولما قالوا بقتل الكلب وأشباهه ردّ عليهم بما يلي ، قال الجاحظ [3] :

لما قال معبد في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص . قال ابو اسحق : وان كنت انما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام : ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم فأسقط من اقدارها

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٣) . (٢) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص١٧٥) .

بقدر معنى الكلام وادنى ذلك ان تشرك بين الجميع في الذم فانك متى انصفت في هذا الوجه دعاك ذلك الى ان تنصفها في تتبع مالها من الاشعار والامثال والاخبار والآيات كما تتبعت ما عليها » .

ولا ارى لي مندوحة عن التنبيه على رأيه في بعض المفسرين لمشاركة الجاحظ له في هذا الرأي على نحو ما يتبين لنا هذا في كلامنا على دين الجاحظ ، كان ابو اسحق يقول (١) :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة واجابوا في كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير اساس وكلما كان المفسر اغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وابو بكر الأصم في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسير واسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : وان المساجد لله ، ان الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل انما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة وقالوا في قوله تعالى : أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت انه ليس الجمال والنوق وانما يعني السحاب واذا سئلوا عن قوله : وطلح منضود قالوا الطلح هو الموز ، وجعلوا الدليل على ان شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الامم وان الناس غيروه ، قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقالوا في قوله تعالى : ربّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قالوا يعني انه حشره بلا حجة ، وقالوا في قوله تعالى : ويل للمطففين الويل وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ومعنى الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهلية قبل الاسلام وهو من أشهر كلامهم ، وسئلوا عن قوله تعالى : قل اعوذ برب الفلق ، قالوا : الفلق وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفونه ، وقال آخرون : الفلق المقطرة بلغة اليمن ، وقال آخرون في قوله تعالى : عيناً فيها تسمى سلسبيلا قالوا : أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض ، قالوا : وانما هي سل سبيلاً اليها يا محمد ، فان كان كما قالوا فأين معنى تسمى وعلى اي شيء وقع قوله : تسمى ، فتسمى ماذا وماذلك الشيء . . . » .

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ١٦٨) .

هذا من ناحية بعض معتقدات النظّام في الدين اما من ناحية الفلسفة فاليكم رأيه في مذهب الشكاك فقد قال (١) :

« نازعت الملحدين والشكاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من اصحاب الجحود » .

وقال في موطن آخر (٢) :

« الشاك اقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

فاذا عرفنا طائفة من آرائه في الدين والفلسفة فلا بأس بان نعرف شيئاً من ناحيته العقلية فقد كان مطبوعاً على البحث عن اصل كل شيء وعن علته دون ان يقتصر على الانقياد والتقليد وهذا من خصائص الجاحظ نفسه ، فقد قال (٣) :

« بلغني وانا حدث ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اختناث فم القربة والشرب منه ، قال : فكنت أقول ان لهذا الحديث لشأناً وما في الشرب من فم القربة حتى يجيء فيها هذا النهي ، حتى قيل ان رجلاً شرب من فم قربة فوكعته حية فمات وان الحيات تدخل في افواه القرب علمت ان كل شيء لا اعرف تأويله من الحديث ان له مذهباً وان جهلته » .

من هذا يتبين لنا ان النظّام لا يؤمن بالامور قبل ان يعمل عقله في اصل هذه الامور وهذه صفة من صفات الجاحظ تظهر لنا في الآتي .

واليكم مايدل على حسن تصرفه في الاختبار والامتحان فقد قال (٤) :

« اذا أردت ان تعرف مقدار الرجل العالم وفي اي طبقة هو واردت ان تدخله الكير وتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد فكن عالماً في صورة متعلم ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه » .

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) . (٢) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .

(٣) الحيوان (الجزء الرابع ص ٨٨) .

(٤) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .

على ان النظّام لم يكتف بطلب الفلسفة والكلام وانما عكف على طلب العلم ولاسيما علم الطبيعة وكان الجاحظ ينقل عنه ، ولا بأس بان أشير الى نموذج من آرائه في هذا العلم فأشير الى رأيه في انتشار الضياء والحرارة دون ان اتعرض لصحة هذا الرأي او لفساده وانما اكتفي باثباته في هذا المقام حتى نعرف كيف كانت مباحثهم عن الطبيعة في عصرهم اذ ان الضياء والحرارة معروف امرهما في عصرنا هذا فلا ارى حاجة الى الخوض في مثل هذا المعنى ، قال ابو اسحق (١) :

« النار اسم للحرق والضياء فاذا قالوا : احرقت او سخّنت فانما الاحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين وهوالحر دون الضياء وزعم ان الحر جوهر صعاد وانما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقًا بين جواهرهما لانهما متى صارا من العالم العلوي الى مكان صار احدهما فوق صاحبه وكان يجزء القول و يبرم الحكم فان الضياء هو الذي يعلو اذا انفرد ولا يعلي ، قال : ونحن انما صرنا اذا اطفأنا نار الأتون وجدنا ارضه وهواء وحيطانه حارّة ولم نجدها مضيئة لان في الارض وفي المادي الذي قد لابس الارض حراً كثيراً وتداخلاً متشابكاً وليس فيها ضياء وقد كان حر النار هيّج تلك الحرارة فأظهرها ولم يكن هناك من ضياء ملابس فيهيجها الضياء و يظهرها كما اتصل الحر بالحر فأزاله من موضعه وابرزه من مكانه فلذلك وجدنا ارض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة » .

ولقد كان النظّام مع هذا العلم ومع هذه الفلسفة يميل الى التنكيت في بعض الأحوال ، قال الجاحظ (٢) :

« وانشد ابراهيم بن هاني‌ء وعبدالرحمن بن منصور :

جنونك مجنون ولست بواحد طبيبا يداوي من جنون جنون

وكان ابراهيم لايقيم شعراً ولا ادري كيف أقام هذا البيت وكان يدعي بحضرة ابي اسحق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون وانه يقول الشعر فقال ابواسحق نحن لم

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٢) .

(٢) الحيوان (الجزء الثالث ص ٣٤) .

نخجلك في هذه الامور فلك ان تدعيها عندنا ، كيف صرت تدعي قول الشعر وانت اذا رويته لغيرك كسرته ، قال : هكذا فاني طبعت انا قيمه اذا قلت واكسره اذا انشدت ، قال ابواسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! » .

فقوله : ما بعد هذا الكلام كلام لايخلو من تنكيت باطن .

***

بقي ان نعرف بعض ماوقع الينا من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها الجاحظ في حياته حتى نعلم بعناصر ثقافته بحذافيرها .

سمع الجاحظ من الفلاسفة وقرأ كتب الاطباء والمتكلمين فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والاخبار والاشعار والغرائب وما شابهها وقرأ كتباً غيرها نقل عنها منها : كتاب الفراسة لافليمون وكتاب طباع الالبان لصاحبه ماسرجويه وكتاب المنطق لارسطاطاليس وكتاب إقليدس ونقل عن بختيشوع وعن حنين وعن جالينوس وعن صاحب الديك وغيرهم .

فقد نظر في الذي اودعته الاوائل كتبها وخلدته من عجيب حكمتها ودوّنته من أنواع سيرها بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني فهو من هذا الباب كامل من الكملة وأريد بالكامل من اخذ من كل شيء بطرف واذا تكلمنا على عبقريته في الآتي تبينت لنا نتائج ثقافته العامة فلم يخف عليه موضوع من الموضوعات قد يجوز انه لايتعمق في الموضوع تعمق اهل الاختصاص الا انه قد يلمّ به الماماً بحيث لايكون غريباً عنه وقد طبعت قراءته الكتب على مختلف معانيها ثقافته بطابع خاص واعني بالطابع الخاص تنوع أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل لانشكو منه قحطاً في فكر اوجدباً في معنى .

لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية فانه على الرغم من انقياد ادب العرب له وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الادب في مواطن شتى من كتبه ماتذمم من الاخذ عن اليونانيين او عن الفرس فقد ذكر الامم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم فقال : هذه الامم اربع ، وهي : العرب والهند وفارس والروم .

ورأى ان العرب أنطق وان لغتها اوسع وان لفظها ادلّ وان اقسام تأليف كلامها اكثر والأمثال التي ضربت اجود واسير والبديهة مقصورة عليها والارتجال والاقتضاب

خاص فيها [١] .

وكره الشعوبية وطعن عليهم :

« واعلم انك لم ترقوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا اشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غنماً من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة وتسعّر تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق كل ملة وزي كل لغة وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم وما علة كل شيء من ذلك ولم اختلقوه ولم تكلفوه لأراحوا انفسهم وتخففت مؤنتهم على من خالطهم [٢] .

ومع هذا كله فما كان يستنكف عن ان يقول : قال جالينوس وقال صاحب المنطق وقال بختيشوع وأضرابهم فالجاحظ نزّاع الى التجديد فهو لا يرى بأساً بان يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الامم المعروفة في عصره المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب ، واي ادب لم يعمل فيه ادب غيره .

« اي ادب من الآداب لم يؤثر فيه ادب غيره ولسنا نعرف ادباً قومياً محضاً مستقلاً كل الاستقلال وقد يذهب وهمنا الى ان الأدب اليوناني مصبوغ بمثل هذه الصبغة وانما نتوهم هذا لأن الأدب اليوناني قد عاش وحده دون بقية الآداب التي كانت في عصره وقد يؤثر ادب وسط في ادب اعلى منه على شرط ان يكون هذا الادب الوسط فيه شيء من الغرابة والجدة .

الجدّة انما هي غذاء الأدب وهل تأتي هذه الجدّة الا من ادب غيره اننا لا نستطيع ان نتغذى بمواد بدننا وحدها لقد اقتبست فرنسة عناصر ابداعها عن آداب غيرها من الامم وقد كان هذا الابداع يتجدد في كل عصر وقد اقتبست آداب اوربة على اختلافها معظم مادتها التي سكر بها أعاظم العبقريين عن الادب الفرنسي ، هل من سبيل الى فهم (غوتي) مجرداً من الثقافة الفرنسية ؟ ام هل من سبيل الى فهم (شاتو بريان) مجرداً من

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٢٠٤) .

(٢) البيان والتبيين (الجزء الثالث ص ١٤) .

الثقافة الانكليزية (١) .

فالجاحظ لم تخل ثقافته من عنصر يوناني ولا يبعد انه كان يعرف الفارسية ولست أقول هذا استناداً الى طائفة من الألفاظ الفارسية التي أوردها في بعض كتبه وفسرها فهذا غير كاف ان يستدل به على معرفته الفارسية فلا يخلو عصرنا من جماعة يعرفون بعض الفاظ أعجمية ثم يزعمون انهم واقفون على أسرار اللغة التي تدخل فيها هذه الألفاظ وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يذهبون الى البحث عن اشتقاقات الألفاظ وردها الى اصولها وهم جاهلون بالفروع و بالاصول وهذا منتهى الخلط والتدجيل . وانما الجاحظ تغلغل في بعض الأحيان في أسرار الفارسية فلم يقتصر على ذكر اللفظة ومعناها فمن قوله :

« والفرس تسمي الاشياء بالاشتقاقات كما تقول للنعامة : اشترمرغ وكأنهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل فلم تجد هذا الاسم أوجب ان تكون النعامة نتاج ما بين الإبل والطير ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين وهم يسمون الشيء المر الحلو : ترش شيرين وهو في التفسير « حلو حامض » (٢) .

وقال في مقام آخر (٣) :

فالجاسوس بالفارسية « كاوماش» وتأويله : ضاني بقري لانهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور » .

وقد كانت الفارسية مستفيضة حتى انهم كانوا يدخلون شيئاً منها في الشعر نفسه كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من يلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه و (الكرد)

قال الجاحظ والكرد «العنق» .

و يقول العماني في الرشيد ايضاً :

---

(١) النزه الادبية — السلسلة السابعة لصاحبها (Remy de Gourmont)

(ص ١٠٧) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٥) . (٣) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٩) .

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر (آب سرد[1])

ودليل آخر على استفاضة الفارسية في كلام العرب قول الأصمعي[2] :

« ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكبا ، اوسمعته يعرب اوشممت منه رائحة طيبة .

وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل او سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية او رأيته على ظهر الطريق ينازع في القدر » .

***

هذا ما رأيت ان اذكره من ثقافة الجاحظ وهذه هي عوامل ثقافته : قراءته الادب والدين والعلم والفلسفة على أساتيذ كانوا الأمثال في مذاهبهم واقتباسه عن علم اليونانيين في بعض الاحيان ومطالعته لكتب في موضوعات شتى ثم خواطره وتجاربه ومعايناته . فقد كان مولعاً بقراءة الكتب حتى قال ابوهفان[3] : « لم ار قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر .

وقد تظهر لنا آثار هذا الولع في الفصل الذي عقده في الكلام على الكتب فقد تفنن في هذا الكلام التفنن كله .

فرآه يجد في الكتب النزهة والانس والظرف والمزاح[4] :

« والكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة . . . والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً واناء شحن مزاحاً وجداً . . . ان شئت ضحكت من نوادره وان

---

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٧٩) . (٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ص٢٩٦) . (٣) معجم الادباء (الجزء السادس ص ٥٦) .
(٤) الحيوان (الجزء الاول ص١٩) .

شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه ...»

ومرة يجد فيها آثار العقول ونتائج العصور [١] .

« ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب »

وحيناً يجد فيها شحذ الطباع وتبجيح النفس [٢] :

« والكتاب هو الذي ان نظرت فيه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجوّد بيانك وفخم الفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك» .

وحيناً يجد فيها الاستغناء عن ملابسة صغار الناس وما يلتج عنهم [٣] :

« ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارّة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ... »

والخلاصة انه يجد الكتب اشد تقييداً للمآثر على مر الايام والدهور من البنيان [٤] :

« وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى اثره ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا لجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه الا بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة ولو لجأنا الى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٢١) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص٢٦) .

(٣) الحيوان (الجزء الاول ص٢٧) .

(٤) الحيوان (الجزء الاول ص٤٢) .

وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً وكلّ الحدّ وتبلد العقل » .

الى آخر ماجاء في هذا الفصل البليغ الذي يدلنا على قدرة الجاحظ على الانشاء . ولقد شحذت الكتب فهمه وفتقت عقله وأرهفت طباعه ، وان ربلاً هذه هي مبالغ ثقافته وهذا هو مقدار ولعه بالكتب لانعجب من خصب عبقريته واذا شئنا ان نحيط بهذا الخصب فلنرجع الى فهرست كتبه .

فكأن الجاحظ قد أمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ماقدر عليه من أصناف الموضوعات فلم يكن غفلاً من كل مايجري فيه الناس ويخوضون فيه ، فاذا اردنا ان نصفه بكلمة قلنا فيه انه كامل على نحو قول الافرنجة في امثاله : فلان Encyclopédiste والصحيح ان الجاحظ قد لخص معارف عصره فهو في هذا الباب يشبه ارسطاطاليس في القديم ، وقد هيأته ثقافته لهذا التلخيص .

الشرع الدولي في الاسلام [1]

—«»—

تساءل كثير من العلماء عن وجود شرائع دولية عند الأقدمين كاليونان والرومان والصين وتباينت الآراء في ذلك . ومما لا مجال للشك فيه ان في العهد الطويل الذي خلا بين الحضارة القديمة والحضارة الحديثة اي بين القرن السابع والثالث عشر — ذلك العهد الذي سادت فيه الحضارة العربية والآراء الاسلامية — أسست قواعد ومذاهب في المعاملات الدولية يستطيع المؤرخ ان يجد فيها سوابق تاريخية جليلة يقايس بينها وبين ماوصل اليه المحدثون من الآراء والأوضاع .

وما كنت أعرف بادئ الرأي ماعسى ان يقع لي من الوثائق وماذا اجده من المظان والمراجع . وحسبت انني لا أعثر الا على النزر اليسير الذي لا يطفئ غلة الباحث الحريص . فما كدت استثير دفائن التاريخ وأرد ينابيع الفقه حتى وجدت فوق ما كنت اؤمل واكثر مما كنت أتوقع . واذا كان كثير من مؤرخي الشرائع الدولية قد أغفلوا هذه المرحلة العظمى فانهم قد أغفلوا بذلك اعظم المراحل التي قطعها الشرع الدولي قبل المرحلة الحديثة .

نعم ان الشرع الدولي من أوضاع المحدثين . ولم يتقرر حقيقة الا منذ معاهدة (وستفاليا) ايام أصبحت الصلات الدولية قائمة على قواعد محكمة . ولكنه كسائر ما تنتجه عقول البشر ، ثمرة المساعي المشتركة التي تقوم بها جميع الشعوب وتتعاقب عليها الأجيال . ويكفي ان توجد جماعتان حتى تشتبك بينهما المصالح وتضطرهما الى التعامل والتعاقد ، وتقرير قواعد الحرب والسلم . فلذلك نرى الاوضاع الدولية رغم مافيها من ضعف ظاهر ، قليلة

---

(١) محاضرة الاستاذ نجيب الارمنازي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي .

التحول كثيرة التشابه . ولابد لكل جماعة ذات كيان من ان تحرص على توثيق عرى الصلات بمجاوريها ، وان تحافظ بقدر ماتستطيع في علائقها على المبادئ الشريفة والقواعد العادلة ، التي يحترمها في الغالب اهل العصر ، ويوحي بها الوجدان والعقل .

ثم ان الامم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، وميرث العلوم عام مشترك بين الجميع ، والتشابه عظيم بين القواعد التي اخرجت للناس . ولكن ينبغي ان ينظر المرء حينما يقايس بين آراء المتقدمين وآراء المتأخرين الى الفرق بين هذا الزمان وبين تلك الازمان . فقد تغيرت الامم ، وتبدلت قواعد الدول ، وأصبح الانسان اليوم غيره بالامس . ولم تبق شؤون الرجال على ما كانت عليه من قبل وبدلت حالاً بعد حال .

***

والمقصود بالشرع الدولي في هذه الايام مجموع القواعد التي تعين حقوق الدول وواجباتها المختلفة في علاقاتها المتبادلة . ولكنه في المعنى الذي نقصده مجموع القواعد التي يتعين على المسلمين التمسك بها في معاملة غير المسلمين محاربين اومسالمين . سواءاً كانوا اشخاصاً ام كانوا دولاً ، وفي دار الاسلام اوفي خارجها . ويدخل في جملة هذه القواعد احوال المرتدين والبغاة وقطاع الطريق وقد سميت في كتب الفقه بالسير جمع سيرة لانها طريقة معاملة المسلمين لغيرهم . فلانكون مغالين اذا قلنا ان الائمة عنوا منذ البدء في وضع أسس لما نسميه بالشرع الدولي ، وان كانت هذه الاصول تخص شريعة الحرب في اكثرها .

وقد وجد الاسلام منذ نشأته الاولى اعداء مناضلين ، فحارب من حاربه وسالم من سالمه ، ووضع الحدود والقواعد لحربه وسلمه ، ومايعرض له فيهما من المسائل الكثيرة التي تتعلق بالمحاربين والمسالمين ، وأشباه ذلك مما احله الفقه الاسلامي أسنى مكان . وحقيق ان يقال انه عني بماتقدم من القواعد واتسع لها صدره اكثر من احكام العقوبات وسياسة الدولة . لانها نشأت مع الاسلام ونمت بنموه وسايرت الحروب المستمرة والفتوحات العظيمة .

وقد قرر كثير من المؤلفين مثل (هولتزندروف ورينى) ان الفقه الاسلامي يضم جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشريعة الحرب ، ولم تقتصر على الفتح والغنيمة بل تجاوزتها الى فرض الضرائب وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها . مما لايختلف الا اسمه عما

يستعمل في يوم الناس هذا [1] . وأشار (نيس) الى ما في تاريخ الامم الشرقية — يعني الروم والعرب — بين القرن السابع والقرن الثالث عشر من اعمال وأوضاع تتعلق بما يسمى في ايامنا بالشرع الدولي . نعم انه لا يوجد شيءٌ ثابت ، وليس ثم نظام معين ، وان هناك مظاهر غير متسقة ولا مستقرة ، ولكنها مع ذلك جديرة بان تقف عليها الانظار بكل تدبر وامعان [2] .

وجميع كتب الفقه الاسلامي على اختلاف المذاهب ، تفصل على قدرها موضوعات الصلات بين المسلمين وغير المسلمين في باب الجهاد والسير كما ذكرنا . وقد يكون احسن ما الف في هذا الباب كتاب السير الكبير للامام محمد بن حسن الشيباني صاحب ابي حنيفة . وشرحه شمس الائمة السرخسي مؤلف المبسوط وأملاه في السجن على تلاميذه . وهو كتاب غزير المادة ، جم الفوائد ، قد استوعب اصول هذا العلم واستقصى غريب مسائله ، ولم يقتصر فيه على ما ذهب اليه اعلام المذهب الحنفي بل أورد كثيراً من مذاهب الآخرين وناقش أصحابها في حججهم . وطريق محمد في الترجيح في هذا الكتاب ، هو النظر فيما اختلف فيه اهل العراق واهل الشام واهل الحجاز فرجح ما اتفق عليه فريقان وأخذ به دون ما انفرد به فريق واحد .

والف الامام ابو يوسف كتاب الخراج لهرون الرشيد ، وهو يصح ان يكون كتاباً في التشريع المالي ، وقد عالج فيه كثيراً من مسائل الحرب والسلم ، لان الحرب من اعظم المصادر التي تمد بيت المال ، والف في الموضوع نفسه قدامة بن جعفر ويحيى بن آدم .

ومن المؤلفات الفريدة كتاب الاحكام السلطانية للقاضي ابي الحسن الماوردي ، الذي كتب في الغالب على مذهب الامام الشافعي ، جمع كثيراً من الامور التي تتعلق بالشرائع العامة للدولة ومن جملة ذلك شريعة الحرب وقد فصلها في امارة الجهاد وفي مطالب الخراج والجزية والغنائم . ورجع الى هذا الكتاب النفيس اكثر من واحد وعده مؤلفاً على غير مثال . وقد وضع القاضي ابو يعلى كتاباً سماه (الاحكام السلطانية) وعالج فيه نفس

---

(١) تمهيد في حقوق الاشخاص .

(٢) حقوق الاشخاص في معاملات العرب والبيزانطيين .

الابحاث على مذهب الحنابلة . ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق رديئة الخط غير كاملة . وفي هذه المكتبة وجدت كذلك نسخة من كتاب السير الكبير الذي وضعه الامام محمد ، وهي كثيرة التحريف وان كان خطها جميلاً مونقاً . وقد قيل ان الكتاب مطبوع في الهند ، ولم اطلع على نسخة مطبوعة .

* * *

والشرع الدولي فيما نريد ان نقرره جزء من الفقه الاسلامي الذي لا يفرق بين الشرع الخاص والشرع العام ولا بين الشرع الداخلي والشرع الدولي . وهو كذلك شرع مكتوب لا يستثني العرف والعادة وشرع داخلي يحتم تطبيقه في العلاقات الدولية . وكما ان حكمه يجري على الدول فكذلك يجري على الافراد مباشرة وبدون مباشرة اي كونهم من متعلقات احدى الدول . وللافراد حقوقهم وواجباتهم كمقاتلين ومعاقدين ومستأمنين وغير ذلك . والمرأة الغريبة مثلاً اذا دخلت بلاد الاسلام أثارت جملة من مسائل تدرس فيه شؤونها الشرعية بعناية وتدقيق .

فما هو الاساس الذي بني عليه الشرع عند المسلمين ؟

انا نجد انفسنا قبل كل شيء اماما شرع مصدره وحي آلهي ، ولكن هذه الفكرة المستندة على العقيدة والايمان لا تكفي لتعريفنا تماماً بالاوضاع الشرعية الاسلامية . ويرى المستشرق الكبير الكونت استرورغ ان الفقه الاسلامي بقيامه على أسس الوحي وتفرعه من علوم الدين ووقوفه عندما حدده اصحاب المذاهب الاربعة التي لا يصيبها التغيير والتبديل ، يشابه اكثر شيء بين الشرائع شريعة الكنيسة او الشرع القانوني (١) . ولا يخلو ما قال هذا المستشرق من مبالغة في شأن المذاهب الاربعة خصوصاً في نظر الاصلاحيين من المسلمين . وعلى كل حال فان الفقه الاسلامي مزيج مؤلف من شرع ودين يمتان بسبب واحد فالفقهاء من علماء الدين وعلماء الدين من الفقهاء .

وصدور الفقه عن وحي إلهي يجعله ثابتاً لا يتغير . ولكن اي شيء في الدنيا لا يتغير . والمسلمون مأمورون باتباع اوامره والانتهاء عن نواهيه ، وما لأحد منهم ان يتبع في مذهبه

(١) حقوق الخلافة .

خياله ورأيه وادبه وفلسفته فهنالك حدود لايجوز له ان يتعـداها ، على ان الفقه واسع النطاق كثير التفريع للمسائل ، يجمع بين العادات والمعاملات والعقوبات واقامة الحدود وسياسة الحرب وتدبير السلم وسائر صنوف الشريعة وطرائق الحياة السياسية والاجتماعية . فالوحي إذن من الوجهة العملية والنظرية لم يكن وحده مصدر القواعد الشرعيـة كلها . وقد اكتفى المسلمون في اول امرهم بما كان يأتيهم به القرآن من الاحكام وما كان يحدثهم به الرسول (ص) و يبين لهم فيما يعرض من الامور والحوادث . فلما امتدت الفتوحات وطرأت على المسلمين حاجات جديدة واحتكوا بحضارات راقية وعقائد مختلفة ، لم يجدوا بدأ من وضع قواعد الفقه الذي يطابق معني الحكمة عند الرومانيين . وهو كما حدده هؤلاء ، ولكن بمعنى أضيق لمعرفة الشرائع الالهية والبشرية وتعيين حدودها . وقد استعان المسلمون بالاجماع و بالقياس الذي تفرع عن الرأي لسد حاجاتهم الجديدة ولجأوا في اكثر ما يحتاجون اليه الى الاساس العام لجميع الشرائع القديمة : أساس العرف والعادة . اليست القاعدة الاساسية الكبرى هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهل الامر بالمعروف الا التمسك بما تعارف عليه الناس . والنهي عن المنكر الا هجرما أنكروه اوجهلوه . واذا وجدنا في الاسلام قواعد مماثلة لما كان عند الرومان والعبرانيين وسائر الشعوب التي تقادم عليها العهد ، اليس ذلك لان هذه القواعد كانت شرائع متبعة في البلاد التي نشأ بها الاسلام ، ولم يشأ ان يقضي عليها لأن المجتمع كان يستفيد منها ، فإذن نستطيع ان نحكم حكماً لم يذكر بوضوح كاف وهو ان الاسلام لم يعوق سير حضارة الشعوب ولم يعترض في سبيلها ، بل أجل ميراث الامم التي سبقته في ديوان العالم ، وكانت حلقة اتصال كبرى في سلسلة الأوضاع القديمة والأوضاع الحديثة تلك السلسلة التي تمثل لنا جهود الانسانية الدائمة الدائبة في معارج التقدم ، وقد اكتفى الاسلام بحذف ما رآه ضاراً وابقاء ما رآه نافعاً ، اما الزبد فيذهب جفاءً ، واما ماينفع الناس فيمكث في الارض .

ولكن خصيصة الشرع الاسلامي واذا شئت فقل تفوقـه ، قائم بما قرره من المؤاخاة العـامة والتسوية بين أفراد الامة ، وهو لا يعرف حدوداً ولا يقف دون حائل ، يشمل الجميع ولايميز بين احد ، وكل انسان مطلق الحرية في حدود الشرع ، محفوف بالحماية حيثما كان ، هو واهله وماله . وهذا هو السبب الذي جعل الاسلام يمتد امتداده العظيم

على تمادي العصور في آسية وافريقية واوربة بين الملايين الذين يعتقدون به . واذا كانت هذه القواعد لا تزال حتى اليوم مصدراً لشرائع كثير من الشعوب التي اختلفت عناصرها ولغاتها وحضاراتها ، فذلك لان نظام الاسلام الادبي والخلقي لم يكن قاتلاً لصفاتهم وخصائصهم . على اننا لا ننكر ان الرجال الذين وكل اليهم تطبيق هذه المبادئ لم يكونوا أكفاء لها وجديرين بها . فقد وجد الذين سوّدوا صحائف التاريخ بسوء صنعهم وفسادهم الذي عم القريب والبعيد وأصاب العربي والاعجمي والمسلم وغير المسلم فلا ذنب على القواعد والمذاهب . ولكن الذنب على الرجال أنفسهم اذا ظلوا باعتدائهم حدود الله .

ثم ان الاسلام بتوحيده أساس الشرع وتعميمه ، منع في عهد طويل ما يمكن وقوعه من الخلاف بين الديني والمدني وبين الشرع العام والشرع الخاص وبين الشرع الوطني والشرع الدولي . وقد سنّ العقوبات اللازمة حتى لا يكون العمل ناقصاً . والله عند المسلمين مصدر الشرائع الاسمى وهو الحكم العدل في الدار الاولى والدار الاخرى ، وهذا هو المذهب التيوقراطي الذي يعمر قلوب الساميين ، ولكن كيف يكون الحكم وتكون العقوبة في هذه الحياة ، خصوصاً اذا شجر الخلاف بين طوائف مختلفة حتى نشب القتال وسالت الدماء ، فقد قال تعالى : انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم . وقال : وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين . فما أحسن هذه الأسس ، الا تجد فيها نظيراً لما يسعى له الناس اليوم في الصلات الدولية وتعقد لاجله المجامع وتحتفل المؤتمرات ، الاصلاح والتحكيم وبعد ذلك الجزاء وعقوبة الباغين والمعتدين .

غير ان هذه القواعد الشريفة لم تجد في الاسلام (وضعاً) عملياً يقوم بتطبيقها وينظر في امرها ، نعم انهم يذكرون اهل الحل والعقد الذين هم رجال السياسة والتدبير ، ولكن هذا الوضع الذي كان يرجى ان يكون عظيم الفائدة بعيد الأثر ظل في طي الابهام والنسيان غالباً ، ولولا ذلك لما أصيب الاسلام بما أصيب به من أثرة المسيطرين وسوء ملكتهم ، على ان هذه القوة العظمى للامة ، هؤلاء الناس الذين سماهم الشارع باهل الحل والعقد ، ليكون لحكمهم في الجماعة مقام الارادة عند الفرد ، كان لهم جانب عزيز في صدر الاسلام

وان لم تكن لهم صفة معينة ، وقد اضمحلوا رويداً رويداً مع اضمحلال الاسلام وتشتت قواه . وما من تبعة تقع على الدين والشريعة ، فكلاهما قابل للتطور يتسع لمختلف المذاهب ، ولكن الجماعة الحية الكائنة لم تكن لها ارادة او لم تكن لها فئة تملي هذه الارادة .

* * *

وأساس قواعد الشرع الدولي وطرق تطبيقه في الاسلام ، ان الارض تنقسم الى قسمين : دار الاسلام ودار الحرب ، وأراد بعضهم ان يضيف الى هاتين الدارين دار العهد .

فدار الاسلام تشمل البلاد التي يسود بها حكم الاسلام ، سواء أكان سكانها مسلمين ام غير مسلمين . وهي وطن كل مسلم مهما كانت جنسيته وحيثما كان ميلاده ، يتمتع فيها (بحرية المدنية) وحقوق الشريعة كما انه يلزم باداء واجباتها .

والبلاد الخارجة عن سلطان المسلمين تؤلف دار الحرب ، حيث ينبغي ان تتبع قواعد معينة تختلف عن الاولى ، هي أشبه بما يسمونه اليوم بقواعد الشرع الدولي العام والشرع الدولي الخاص .

واما دار العهد او دار الصلح فهي البلاد التي لم يستول عليها المسلمون استيلاء حتى يطبقوا فيها شرائعهم وسننهم ؛ ولكن أهلها دخلوا في عقد المسلمين وعهدهم ، على شرائط اشترطت وقواعد عينت ، فتحتفظ بما فيها من شريعة وأحكام ، وتكون شبيهة بالدول التي لا تتمتع باستقلالها كله ، سواء بحماية مفروضة او معاهدة معقودة . ومثال ذلك ما كان من عهد الرسول (ص) الذي كتبه لنصارى نجران اوالعهد الذي كتبه معاوية لاهل ارمينية فأقر به سيادتهم الداخلية المطلقة وابقى لهم رؤساءهم وأوضاعهم العسكرية وطبقاتهم الدينية . وحالفهم على دفع الروم عنهم وانجادهم بقدر ما يحتاجون اليه من الجنود وان يكون لهم جيش خاص لا يستعين به الخليفة في الشام . ولا يقول كثير من الفقهاء بدار العهد وما هي عندهم الا من قبيل المدنة ومن المعاملات القائمة على المعاقدات المتقابلة ، واذا لم يكن هذا المذهب واضحاً كل الوضوح فانه مع ذلك يتخذ اصلاً للتعامل والتعاقد وضمان المواصلات السلمية .

ويشبه التقسيم الاسلامي من حيث المبدأ على الأقل ، ماقبله البلشفيك في روسية ،

فهذه البلاد هي الوطن العام لكل شيوعي ودارالسلام للقائلين بهذ المذهب والمتحمسين بجبله ، ومابقي من العالم حيث يسود اصحاب الاموال واولياء الجبروت ، يعتبر دار حرب يتعين فيها على كل ثائر يقول بقول الشيوعيين ان يتخذ جميع الوسائل هو وجماعته للانقضاض عليها والاستيلاء على مقاليد السلطة فيها .

ولا نعدم وجوهاً للشبه كذلك بين المسلمين على اختلاف اقطارهم وأجناسهم وبين نصاري الكاثوليك على اختلاف أقطارهم وأجناسهم ونظر الكنيسة لهم نظرها الى مجموعة عامة .

ومن هذا القبيل ماصنعه الاستاذ الشهير (لوريمر) في تقسيمه العالم بالنظر الى الشرائع الدولية وجعله ثلاث طبقات : الاولى تتمتع بجميع الحقوق ، وهي الانسانية المتمدنة التي تشمل الامم النصرانية في الغالب ، والثانية تتمتع بقسم منها ، وهي الانسانية البربرية ، اي التي هي نصف متمدنة ، وتدخل فيها الامم الاسلامية ، والثالثة لاتتمتع الابجزء يسير من معاملة الانسان للانسان وهي الانسانية المتوحشة . وكذلك نجد عند المسلمين درجات مختلفة لتطبيق قواعد الشرع . الاولى تخص المسلمين الذين يتمتعون بكل حق حيثما كانوا في الممالك الاسلامية ، والثانية تخص الذين ينزلون في بلاد الاسلام ويتمتعون بحماية الدولة وصيانتها على حسب قواعد الذمة والامان ، او على حسب المعاهدات والمعاقدات ، والثالثة الحربيون وهم الذين يعاملون بحسب القواعد الاستثنائية التي لايخفف من شدتها غير الرخص المبذولة والعهود المقطوعة ، والمصلحة التي يراها صاحب الامر .

ومما يحسن ذكره ان سيادة الأحكام في عرف الامامين ابي يوسف ومحمد هي فوق سيادة الامير في التمييز بين دار الحرب ودار الاسلام اذ المعتبر في حكم الدار — كما جاء في السير الكبير — هو السلطان وظهور الحكم ، فان كان الحكم حكم الموادعين بظهورهم على الدار الاخرى كانت الدار دار موادعة ، وان كان الحكم حكم غيرالموادعين او سلطان آخر في الدار الاخرى ليس لواحد من أهل الدارين حكم الموادعة .

وتعد الجبال والانهار وسواها مما يفصل دار الاسلام عن دارالحرب من دارالحرب وان لم تكن حقيقة من الواحدة ولا من الثانية ، وهذا الحكم لعدم الامن والطمأنينة .

وليس على غير المسلمين في دار الاسلام ان يراعوا جميع قواعد الشرع الاسلامي

بتحريم مايحرمه وتحليل مايحلله . وتجري أحكام الحدود على الذمي واختلف باقامتها على المستأمن ، فاستحسن ابو يوسف ان يؤخذ بالحدود كلها ، وقال آخرون من الفقهاء لاأقيم عليه الحد لأنه لم يدخل الينا ليكون ذمياً تجري عليه أحكامنا وهذا في الزنى والسرقة ، اما في القذف والشتم فانه يُحدّ ويُعزّر لانهما من حقوق الناس[1] وكذلك فان الاوامر الخاصة بالمسلمين مثل تحريم الخمر لا تطبق على سواهم من الذميين ولا من المستأمنين . وفي بعض المعاهدات التي عقدت في القرن الثاني عشر والثالث عشر بين الدول الاسلامية والدول النصرانية كان المسلمون يستبقون لانفسهم حق العقوبة في بعض الجرائم الكبيرة ، ويتركون للقضاة النصارى حق الحكم بما سواها . وكان القضاء موكولاً الى رؤساء الطوائف في امر ابناء دينهم . وقد جاء في صبح الاعشى كثير من المراسيم في هذا المعنى وفي حض الرؤساء على معاملة مرؤوسيهم بالرفق والحسنى والمؤاساة واجتناب الحيف والاجحاف وكان في الاندلس قضاة من المسلمين يفصلون في دعاوى غير المسلمين ويسمونهم بقضاة الاعاجم على ماجاء في رسالة ابن القوطية في فتح الاندلس .

وقد ذكر الماوردي في الاحكام السلطانية عند كلامه على اهل الذمة (انهم اذا تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه واذا تنازعوا في حق وترافعوا فيه الى حاكمهم لم يمنعوا منه ، فان ترافعوا فيه الى حاكمنا حكم بينهم بما يوجبه دين الاسلام وتقام عليهم الحدود اذا أتوها ، ومن نقض منهم عهده بلغ مأمنه ثم كان حرباً ، ولأهل العهد اذا دخلوا دار الاسلام الأمان على نفوسهم وأموالهم ولهم ان يقيموا فيها أربعة أشهر بغير جزية ولا يقيمون سنة الا بجزية وفيما بين الزمنين خلاف ، ويلزم الكف عنهم كأهل الذمة ، ولا يلزم الدفع عنهم بخلاف اهل الذمة .

ولقضاة المسلمين حق الفصل فيما بين المسلمين وغير المسلمين من الخصومات الا اذا كان منشأها دار الحرب لان سلطان الاسلام لا يبلغها ، والقضاء يعتمد الولاية وما ثمة من ولاية للمسلمين . وهذه القواعد ونظائرها تعد اليوم من مسائل الشرع الدولي الخاص .

وهنالك قواعد أخرى تضاهي ما عند المعاصرين من قواعد الشرع الدولي العام

(١) كتاب الخراج : ص٢٢٤ — ٢٢٥ طبعة المكتبة السلفية .

وتذكرنا بها · فمما يتعلق بالسلام نجد مثلاً وجوب الوفاء بالعهود المقطوعة وحرمة العقائد وعدم الاكراه في الدين والوساطة والتحكيم وصيانة الرسل واجتناب اذى المحايدين وقواعد المعاهدات والمحالفات وشؤون الامارات التابعة · اما شريعة الحرب فهي المجال الواسع لابداع الشارع الاسلامي واتقانه · فقد أفاض في قواعد اعلان الحرب ومقدمات القتال وأساليبه وصيانة الأولاد والنساء والشيوخ والرهبان وحرمة الموتى بوجوب مواراة قتلى الفريقين واجتناب المثلة واصلاح حال الأسرى والسبايا والعطف على الرقيق ·

وقد وجد في العالم المتمدن منذ معاهدة وستفاليا قواعد تتعلق بحرية الدول وتضامنها والتسوية بينها وما أشبه ذلك مما لا يمكن ان يتفق وروح تلك العصور المتقادمة النزاعة الى بسط السلطان في الارض كلها ، هذه الروح التي كانت تخفق في قلوب العرب خفقانها في قلوب الفاتحين العظام قبلهم ، فلم يكن يبحث في حرية الدولة ولا ينظر في قواعد التسوية والتضامن بين الدول · ومع ذلك فقد اعترف المسلمون عملياً بوجود دول أخرى ، وذلك بعقد المعاهدات معها ومشاركتها بالصلات السياسية ، وهذه الصلات اما ان تكون مؤسسة على قاعدة الامان الذي يتفرع عن حق الجوار عند الاقدمين ، او على قاعدة العرف والعادة ، او على قاعدة الوفاء بالعهود والعقود ·

***

استوقف ناظري وانا أتأمل في تطور المعاملات الدولية وقواعدها بين المسلمين وسواهم امور كثيرة أشرت الى بعضها فيما تقدم وخصوصاً الشروط التي عاقد عليها معاوية ابن ابي سفيان ارمينية وكانت وثيقة استقلالها الداخلي ومحالفتها مع الدولة الاسلامية الكبرى التي هي أشبه بمحالفة حماية بين دولة كبيرة وصغيرة على نحو ما نراه اليوم في المعاهدات التي تبذ فيها بريطانيا العظمى شأن سواها وتحرز قصب السبق على غيرها ·

وقد استحسنت كثيراً وتدبرت ملياً وصايا الخلفاء للجيوش في صدر الاسلام · وتذكرت عندها ماعده المحدثون من مفاخر الامة الاميركية في الوصية التي عمل بها قادتها في حرب الانفصال سنة (١٨٦٠) واتخذت أساساً لشريعة الحرب الى يوم الناس هذا ·

اليس حسناً ماقاله ابوبكر : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة

ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة وسوف تمرون باقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ..... » .

اليس حسناً ما كان يقوله عمر بن الخطاب عند عقد الالوية : « لا تجبنوا عند اللقاء ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم وتزهوا الجهاد عن عرض الدنيا » .

وما عسى ان أستثير مثل هذه الدفائن وأبحث عن مثل تلك الذخائر ، إذن لتجاوزت القدر الذي وضعته لهذا المقال . ومها أوجزت فلا بد لي ان أذكر ان فريقاً من أئمة المسلمين في عهدهم الاول كسفيان الثوري أنكروا فريضة القتال ابتداءً ولا يجب القتال عندهم الا دفعاً للعدوان ، وهذا المذهب يذكرنا بتحريم حروب الاعتداء الذي ما برحت عصبة الامم تسعى له منذ عشر سنين وتدعو اليه حتى كان ميثاق كيلوج .

ولا بدّ لي كذلك ان أشير الى حديث ابي عبيدة في اثناء فتوح الشام فقد كان الصلح جرى بين المسلمين واهل الذمة في أداء الجزية وفتح المدن على ان لا يهدم المسلمون بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى ان يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم ويذبوا عنهم وعلى ان عليهم ارشاد الضالّ وبناء القناطر على الانهار واصلاح الطرق وعلى ان يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة .

قال ابو يوسف في كتاب الخراج فلما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيوناً للمسلمين على أعدائهم . فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم ومايريدون ان يصنعوا ، فأتى اهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بان الروم قد جمعوا جمعاً لم ير مثله ، فأتى رؤساء اهل كل مدينة الامير الذي خلفه ابو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك . فكتب والي كل مدينة الى ابي عبيدة يخبره ، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب ابو عبيدة الى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمرهم ان يردوا عليهم ماجبي منهم من الجزية والخراج ، وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا عليكم أموالكم لانه

قد بلغنا ماجمع لنا من الجوع ، وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم ، فلما قالوا ذلك لهم وردّوا عليهم الاموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردّكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردّوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً .

وسيرة عمر بن الخطاب في فتح بيت المقدس (ايلياء) سائرة مشهورة تكفني بالالماع اليها . ولكننا نذكر قليلاً من سيرة امراء المسلمين ايام الحروب الصليبية التي أطلق فيها عقال النفوس فركبت هواها في سفك الدماء واستباحة الحرمات ، وذلك نقلاً عن المسيو (يورغا) المؤرخ الكبير ووزير معارف رومانية في كتابه الموجز في تاريخ الصليبيين . قال : « لما استرد صلاح الدين بيت المقدس بذل الامان للصليبيين ووفى لهم كل الوفاء بالشروط المعقودة ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم ، حتى ان الملك العادل شقيق السلطان أطلق الف رقيق ، ونودي ان كل من يخرج من بيت معين في المدينة يكون آمناً ، ومنّ على جميع الأرمن . وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة . وأبيح للاميرات والملكة في مقدمتهن بزيارة أزواجهن ، وكان الجنود الذين يصحبون اللواتي أمرن بالجلاء يعطفون عليهن أشد عطف ويواسوهن كل المواساة . ولا يمكن ان يظهر فضل صلاح الدين وكمال خلقه باحسن من تهديده السفن الايطالية حتى ترد اولئك البائسين الى ديارهم » .

وكذلك كانت سيرة الملك الكامل لما أخذ بمخنق الصليبيين في واقعة دمياط فاحاط بهم النيل وهددتهم المجاعة . واليك ماوصف المسلمين به احد الذين حضروا الوقعة من مؤرخي النصارى قائلاً : « هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وابناءهم وبناتهم واخوانهم واخواتهم بطرق شتى ... هؤلاء الذين سلبناهم أموالهم وأخرجناهم عراة من منازلهم تداركونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد ان أهلكنا الجوع . ومازالوا يحسنون الينا حتى غمرونا ببرهم واحسانهم لما كنا في ديارهم وفي قبضة أيمانهم . فلو ضاع لاحدنا عير لما ابطأ ان ردّ الى صاحبه » .

***

وقد آن لي بعد ان أوردت طرفاً من قواعد الشرع الدولي في الفقه الاسلامي ان أبين بايجاز ماأراه من اثره في نمو الشرع الدولي عند الاسبانيين . وتاريخ الشرع الدولي يدلنا على انه وجد في بلاد الآخرين نشأته الكبرى وفيها ظهر أكثر المؤسسين لقواعده والمشيدين لاركانه . واذا أثبتنا هذا التأثير استطعنا ان نستنتج منه ان الشرع الدولي الحديث لم يخل من اثر للشرع الاسلامي . وقد بحث كثيراً فيما أبقته فلسفة العرب وحضارتهم من الاثر في الاندلس و بالتالي في اوربة ولكنه قلما عني بالبحث في اثرها من الوجهة الشرعية . على ان مؤلفاً بلجيكياً (المسيو ستوكار) وضع في أوائل هذا العصر كتاباً فيما ابقاه سلطان العرب من الاثر في الشرائع الاسبانية والحالة الاجتماعية .

ولا يمكن تحديد اثر الثقافة العربية في نمو الشرع عند الاسبانيين ، ولكن في اثناء هذه المدة الطويلة التي حكم بها العرب اسبانيا ، عقدت بين الفريقين عرى وثيقة وتمكنت بينهما الصلات المختلفة . وقد أذن العرب للمغلوبين ان يحتفظوا بعاداتهم ويحكموا بسننهم وشرائعهم ، ولكن قواعد العرب وعاداتهم كانت تدخل رويداً رويداً في معاملاتهم مع الاسبانيين او في تعامل هؤلاء بعضهم مع بعض . ومن ذلك الالتجاء الى المحكمين في فصل الخصومات وأشباهه مما الفه الاسبانيون وجروا عليه . فلما جمع الاسبانيون كلمتهم على مناوأة العرب واخرجوهم شيئاً فشيئاً من ديارهم كانت هذه القوانين تؤلف القسم الاكبر من شرائعهم .

ثم ان فلاسفة العرب الذين تعلموا فلسفة اليونان وورثوا علومهم ، نقلوا ما تعلموه وورثوا مادونوه مؤلفي القرون الوسطى ، فشهد الناس الخليفة الحكم الثاني في القرن العاشر يفتتح في عهده المجيد تلك الحلقة الزاهرة من العلوم التي تحل المكان الارفع من الحضارة بما أبقته من الاثر الحميد في اوربة النصرانية[1] وكان العلماء من البلاد الاخرى يؤمون اسبانيا في تلك العصور ليرتووا من مناهل عرفانها ويحملوا من علومها مالا يجدونه يومئذ في فرنسا ولا في ايطاليا . ولم يأت على الفلسفة العربية الا عصران حتى أصابها التوقف فجأة بسبب القلاقل السياسية والغارات الاجنبية وشيء من التعصب الممقوت .

---

(1) Renan, Averroès et l'Averroisme

ويمكن ان يقال ان سلطان العرب في اسبانيا على الرغم من تقهقره لم يزل مؤثراً في أوضاعها السياسية والاجتماعية والشرعية ، وقد احتفظ المسلمون بعد تغلب الاسبانيين بشرائعهم الخاصة حيناً من الدهر فان سياستهم الحميدة التي كانوا اتبعوها في معاملة النصارى جعلت هؤلاء يواسونهم ويحاسنون من بقي منهم قبل زمن الاضطهاد والاكراه في الدين . وكان للعرب وللبهود ايضاً معاهد علم مستقلة وعلماء منهم يعلمون فيها ، فانتهى امرهم بان سادوا وتمكنوا في قشتالة . فظهر حينئذ اثر الشرق اولاً بتأثير فلاسفة العرب ورجال الأخلاق منهم ، ثانياً باذاعة تآليفهم وترجمتها ، ثالثاً بوجود كثير من علماء قشتالة من محتد اسلامي ويهودي ، رابعاً بما كان يبذله علماء العرب واليهود من العون للنهضة العلمية في هذه المملكة الاخيرة [١] .

وعلاوة على ماتقدم فان المجموعة الثمينة المنسوبة الى الفونس العاشر والمسماة بالاجزاء السبعة لم تخل من اثر ظاهر للشرع الاسلامي وهي تحتوي على الشرع الكنسي والمدني والسياسي والعقوبات بتفصيل لا حدّ له من الاحتمالات والفروض . وقد فصلت شرائع الحرب فكانت هذه المجموعة مصدراً عظيماً لما اقرر من قواعدها فسبقت اسبانيا بذلك سبقاً عجيباً في القرون الوسطى بشرائعها وخصوصاً بمجموعة الاجزاء السبعة . فكانت هذه تتقدم ماعند الشعوب الاخرى بقرون . وكأن اسبانيا على ما يقول الاستاذ (نيس) ورثت الرومان مباشرة في وضع الشرائع [٢] .

ثم قال كذلك في مقام آخر : « ان مجموعة الأجزاء السبعة تدلنا دلالة واضحة على صفة المقاتلين وتنظيم توزيع الغنائم . وقد امتازت اسبانيا على سائر اوربة ، انها حافظت على الاختيار في جيشها ، على حين ان سائر الشعوب الغربية في القرون الوسطى كانت تعدل عن الاختيار شيئاً فشيئاً وتجعل المراتب العسكرية مما يرثه الابناء عن الآباء . وبقي في اسبانيا المقدمون والقواد ينتخبون انتخاباً » .

فنحن لا يسعنا بعد ذكر ما تقدم الا ان نشير الى نصيب العرب في تقدم الشرع عند

(١) Bollester : Histoire de l' Espagne .

(٢) Les Origines du droit International .

الاسبانيين ، فالعرب — كما قال (جول مهل) مع شيء من المبالغة — هم والرومان اقدر الشعوب في التشريع [1] . وتقسيم مجموعه الاجزاء السبعة يذكرنا بتقسيم كتب الفقه الاسلامي ، ونحن نقول في الختام بقول الاستاذ (نيس) نفسه . ان شريعة الحرب والأنظمة العسكرية عند الاسبانيين ، تأثرت كثيراً بشريعة الحرب عند المسلمين كما تأثرت فلسفتهم بفلسفتهم وآدابهم بآدابهم .

* * *

وقد وضعت رسالة باللغة الفرنسية في موضوع الشرع الدولي في الاسلام ، قدمتها لمعهد الحقوق في جامعة باريس ، وستنشر عما قريب في اللغة العربية مع تهذيب واضافة وقسمتها الى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة . هذه سياقتها :

المقدمة في تطور المملكة الاسلامية وما يتصل بها من تاريخ العرب وسيرة الرسول والفتوحات والنزاع بين النصرانية والاسلام .

الفصل الاول في الشرع الدولي والشرع الاسلامي وما يضاف الى ذلك .

الفصل الثاني في اوضاع الدولة وشؤون الخلافة وما اليهما .

الفصل الثالث في شريعة الحرب وما يذكر معها من اساليب القتال وسياسته وتوزيع الفيء والمغانم وحروب المصالح .

الفصل الرابع في قواعد السلم وما يلحق بها من الامان وعقد الذمة والجزية والخراج والمهادنات والمعاهدات .

الفصل الخامس في الصلات السياسية والعلاقات التجارية وما يذكر معها .

الخاتمة في تلخيص بعض ماتقدم وايراد وجوه الشبه والتباين بين قواعد المسلمين وقواعد الغربيين في الشرع الدولي .

هذا ولم احفل بالعلاقات الدولية في زمن الترك العثمانيين الا اذا جاءت عن عرض ، لانها تخص في الغالب تاريخ السياسة والشرع الدولي في اوربة ، وقد عولجت في الكتب التي أفردت لهذه الأبحاث .

نجيب الارمنازي
دكتور في الحقوق

(١) ص ٤٣١ Journal Asiatique, 3e Série t. XVII

ادبنا القومي

— ٥ —

في الادب العامي

وقد آن لنا ان نورد عليك صدراً من الادب العامي ونتحرى ، فيه قدراً يسيراً من متخيره . اما تقسيم أنواعه واقامة الحدود لكل منها ، والبحث في اصله ومنجمه ، وكيف درج وكيف سار وكيف تلون ، فذلك كله مما يحتاج الى دراسات طويلة لا احسبها استقرئت او استوفيت بالتمحيص العلمي الى الآن ، على ان موضوعنا الذي نعالجه اليوم عن هذا في غناء . وبحسبنا ان نقرر محقين ان الادب الذي يدركه اكثر من تسعة وتسعين في المائة من سكان هذه البلاد هو هذا الادب العامي ، وهو الذي يتذوقونه وتستريح به نفوسهم وتتحرك له عواطفهم .

واعلم ان الزجل والموالي مشتقة في الاصل من أوزان الشعر ، وان كانت تنحرف عنها بقدر كبير او صغير ، ثم انها مصبوبة في قوالب عامية او أدنى الى العامية . فكتابتها بالعربية الخالصة او النطق بها كذلك فيه افسادها واضاعة لأوزانها واخراجها عن جميع حدودها . قال صاحب السفينة في الكلام على فن الموالي ما نصه : « وهو من الفنون التي لا يلزم فيها مراعاة قوانين العربية بل قال جلال الدين السيوطي انه يجب فيه اللحن ، وعليه فيجوز استعمال الألفاظ الجارية في تخاطب العوام من الناس لفظاً وخطاً معاً ، لانك لو نطقت به حسب التخاطب ، واخذت تكتبه على قوانين الرسم المعتبرة مراعياً للحروف لغيرت وضع ما نطقت به وخالفت حروفه وكسرت وزنه ، وفوّت غرض الناظم عليه من تجنيس او غيره » اهـ .

هذا وللزجل ضروب وأشكال وتقاسيم لا يكاد يدركها الاستقصاء ، وهو على هذا

كل يوم في ازدياد بما تولد قرائح الزجالين . اما المواالي فتنحصر في أنواع معدودة لا تكاد تعدوها . وليس هنا موضع تفصيلها .

والزجل والموالي كلاهما يعمد فيه الى التماس المحسنات البديعية ، ومنهـا التجنيس ، في الموالي بنوع خاص ، ولقد يبالغ في هذا الى حد التعسف والتلفيق واستكراه الألفاظ ولو أدى ذلك الى استهلاك الاغراض والتدلي الى أسخف المعاني .

ولقد يظهر لك وانت تستعرض الموالي ان اكثر ناظميها انما يدورون باذهانهم قبل كل شيء ليتصيدوا الجناسات من مختلف الألفاظ حتى اذا استوت لهم جعلوا ينظمون من الألفاظ مايفضي اليها وينتهي بها واقعة ماوقعت معانيها . من ذلك قول القائل :

ان زارك البدر بالوعد الذي اوفاه   اقبل وقبل خديده ان سمح او فاه
واستغنم الوصل منـه أيسره اوفاه   ولا عليك من عذولك ان وشى اوفاه

وقول غيره :

فكري وسهدي وكتر الدمع وصبيبه   في حب من زاد بالهجران وصي به
والقلب زاد احترافه فيـه ولهيبـه   لولا يجيني حبيب قلبي يسليني
لاحترق في لظي من كتر ولهي به

وقول الآخر :

اصل اشتباكي مع المحبوب أهدابه   لأوهب الروح لمن جابه واهدى به
وحق موسى كليم الله وأصحابه   مالي مؤانس بطول الليـل يؤانسني
إلا خياله أنام به الليل واصحا به

وقول الآخر :

بشراك ياقلب آدي اللي كنت به موعود
زارك حبيبك وطاب أنسك على ما وعود

ولا ننس قبل كل شيء ان تنطق بالألفاظ عامية ، وتبدل القافات همزات حتى يستقيم لك الكلام .

والى جانب هذا لقد ترى في هذا الادب (البلدي) اشياء تهز وتروع . انظر كيف يقول الموال الصعيدي :

يا قلب لا كويك بالنـار وان كنت عاشق لأزيدك
يا قلب حملتني العـار بتريد من لا يريدك ؟

ويتصل بهذا قول الآخر :

مسكين من يطبخ الفاس و يريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس و يريد من لا يريده

ثم تأمل قول القائل :

ما العيش إلا العيش وان كان ناشف بله
والعورة يسترها الخيش فضك من دا كله

أرأيت في شعر الشعراء ونثر النثار ما يعلو على هذا الكلام (فضك من دا كله) ولو قد تعمد أديب ان يشرح هذا المصراع وحده ويدل على ماتحته من دقائق المعاني لاحتاج الى أسطار طويلة ، ثم هيهات له ان يشعرك كل ما فيه من حلاوة .

وانظر قول القائل :

خايف اقول له ، يقول له منيه مرعوب خايف
بالله يا قله قلـه حين توردي عالشفايف

وهذا كلام يحتاج الى تفسير يسير فابدل القافات منه اولاً (جيمات) على منطق اهل الصعيد وسائر ريف مصر على التقريب . والناظم يناجي (قلة) الماء ويتخذها الى هواه رسولاً فهو يقول : « انا خائف من ان أقول له فيقول لا ! فانا منه في رعب وخوف سألتك بالله يا (قله) ان تقولي انت له حين تردين على شفتيه . أرأيت ابداعاً في الطلب كهذا الإبداع ؟ هو يطوي اولاً مقول القول ، فلم يسأل (القلة) الا ان تقول ، ولكن تقول ما ذا ؟ هذا ما اخذ نفسه بالأدب عن التصريح به او تركه للذهن الدقيق يفهمه من قوله في غاية الموالي (حين توردي على الشفايف) ! !

وقول القائل (ويروى للمرحوم محمد سلطان باشا) .

اصل البلاوي ما هو انتم وقول العذول كان صايب
شاورت قلبي ما هنتم فراق الأحبة مصايب

وانظر بعد هذا الى ضروب من البلاغة فيما يدعونه بالغناء (المحلاوي) .

سبع سواقي بتنعي ما طفوا لي نار
يامنية القلب قل لي إزاي عشق الجار
يبقى النظر في النظر والقلب قايد نار

أترى ، بعيشك ، هذا يقل حلاوة او براعة في اعلان الوله عن قول المجنون :

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلي وهاتيك دارها

وانظر الى قول القائل ايضاً :

طليت ياحلو من شباكك العالي ياهل ترى طلتك للناس ولا لي ؟

وقول القائل :

امانة الله في دي الغيبة افتكرتوناش ياللي رضيتم بعادنا واحنا مارضيناش
سنتين نستنظر رسول من عيكم ولا جاش والصبر اهوه فرغ والدمع ما ينحاش

وقول غيره :

سافرت وادي اليمن وبعدت عن عيني مثلك ظريف المعاني ما رأت عيني
وان كان غيرك قمر ما تنظره عيني
ياللي انا الورد وانت الماء تسقيني ان غبت دبلتني وان عدت تحييني

وقول الآخر :

يا شمس قبل ان تغيبي خبري اهلي بي انت سبب غربتي عنهم وتعذيبي
خايف يصادفك غمام ياشمس يخلي بي

ولا شك في ان من أحسن ما اثر من الشعر في بلاغة الاشارة قول الشاعر :

فاستبق عينك لا يودي البكاء بها واكفف بوادر دمع منك تستبق
فما الشؤون وان جادت بباقية ولا الدموع على هذا ولا الحدق

***

فهل تخلف عنه ناظم هذا (المذهب) :

على الملاح انت لأمير وانا على العشاق كده

وهل تخلف عنها الشيخ النجار حين يقول (واني لأرويه ولا حياء في العلم) .

ياأهل البلد شفتوش عيلة بالوصف ده

الأم والبنت تلدع . والواد كده

* * *

والبنت نادت في الجرة يا مسلمين
لا امي ولا أختي حرة واطلع لمين

أرأيت البلاغة البالغة في قوله (والواد كده) ؟ ثم أرأيت كيف أدت كلمة (تلدع) من المعنى ما لا يغني في أدائه لفظ آخر ، وهي لمرأة التي لا هي بالحرة الخالصة ، ولا هي بالبغي الخالصة . بل لقد جرى العرف على انها التي تعيش عيش الحرائر ، ولكنها تنتاب الخني وقتاً بعد وقت Demi Mondaine كما يقول الفرنسيون . ولذلك ترى لها هنا بنتين وولداً .

ثم انظر بعد ذلك كيف كان هذا الكلام سلساً جارياً على الطبع حتى لكأنك تسمع حقيقة بنتاً تدلي الى الناس بعذرها فيما تتورط فيه من الخروج عن الفضيلة والانحراف عما تقضي به آداب الدنيا وآداب الدين معاً !

وأروي لك شيئاً لا يعجبك اوله ولكن سيبهرك آخره :

الحديد لو انطبع لان وانت ما تلين يامعجباني
انا مستحي وانت غضبان طالت علينا الليالي

ولعل (طالت علينا الليالي) تدعو اليك قول العباس بن الأحنف :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم

ثم كيف ترى في قول القائل :

(الليل أهو طال وعرف الجرح ميعاده) الخ

ولا يذهب عنك قول القائل :

ساهي الجفون ما كفاك الهجر يا ساهي سهران بتلعب وعن وصل الشجي ساهي

ثم انظر كيف يقول القائل في (طقطوقة) :

يا ست ليه المكايدة مش بكفي قلبي المناهدة
تكايدني ليه حاينوبك ايه
مفيش من النقل فايدة

وانظر الى قول الآخر في (طقطوقة) ايضاً على لسان جارية تطالع أمها بهواها :

يا حمامه يا أمه عدي المنصورة بجلاجله الفضة وشعور : رة
يا شيلة عيونه ياأمه يا ضـني حالي

وقبل ان أفارق هذا الموضع أذكراني كنت في سياحة نيلية مع شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، وسمع ملاحاً يغني :

والفرش حيران بهم بالليـل ما ناموا

فارتج رجة عنيفة من (الفرش حيران بهم) ورأى من فوره ان هذا المعنى البديع ينبغي ان ينظم في شعر العرب فنظم بيته المأثور :

حار الفراش بنا مما نكابده وضاق صدر الليالي عن تشكينا

وبعد ، فقد نلاحظ وخاصة في المواليا ، ان الكلام كثيراً مايعلو فيها الى حدالفتنة ، ثم مايلبث ان يهوي الى الحضيض حتى لا يصبح بين أجزائه شيء من التجانس والاتساق . وذلك بالضرورة من اثر ضعف النظام ، فان احدهم ليجيش نفسه بالمعنى الكريم فينفثه ثم ينقطع به النفس فلا يستطيع ان يتم المقال الا بالفسل المتهافت الذي لا يتراءى لغرض ولا يتراءى فيه عاطفة ، اما اذا كان الناظم قوياً فانك وان رأيت بعض أجزاء الكلام يعلو على بعض فان السلامة مكفولة له على كل حال ، وهذا تجده فيما نظم صبري في هذا الباب وما ينظم شوقي وأضرابهما من أئمة اهل البيان .

ومن الأدب الشائع في العامة (القصص) واكثرها شيوعاً في المدن والقرى على السواء أمثال قصص ابي زيد الهلالي والزناتي خليفة والبردويل بن راشد الخ . على ان بعض العامة يستريحون بالاستماع الى قصص الف ليلة وليلة ، بل وعنترة بن شداد ، على انه قد شاعت في هذا العصر القصص الجديدة (الروايات) وهي تلقى من الناشئين في التعليم إقبالاً ايما إقبال .

***

ومن الوان الأدب التي لم يعن الخاصة — مع الأسف الكثير — بالتماس وسيلة لكتابتها واثباتها مع انها انما تعنى الخاصة وأشباه الخاصة — التظرف او كما يسميه المصريون (بالقفش) وهو قائم على قوة البديهة وسلامة الذوق وسرعة وثوب الذهن الى ملابسات

المعنى وطبع الكلام في صورة عجيبة تبعث الطرب وتثير الضحك ·

وخير هذا النوع يجري على ألسن سكان المدن ، اما اهل الريف فلهم تطرف ولكنه مليخ لا طعم له ·

وممن أعرف ممن لهم أكبر الحظ في هذا النوع المرحومون الدكتور بكير ، محمد بك البابلي ، محمد رشاد بك ، محمد المويلحي بك ، الدكتور رأفت بك ، خليل خيرالدين بك امام العبد افندي ، وما زال في الاحياء والحمد لله كثير ·

وانما أردت (بالوسيلة) الكتابة هذا الادب وتدوينه ، تلك التي تحفظ له رونقه وبهاءه · فانه اذا أثبت بالعربية حال لونه ونضب ماؤه ·

ومن آداب العامية النكات البلدية المعروفة (بالقافية) وقد أسلفت عليك انها من توليد مخ الحشاش المصري ، وهي قائمة على التلفيق وحده ، ذلك ان يعمد الرجل الى كلمة مأثورة او جملة معروفة في اي غرض من الأغراض فيسبقها باخرى حتى اذا اتصلت بها حرّفتها عن وجهها وأخرجتها الى لون من التطرف مضحك عجيب ·

ولقد كان هذا النوع من التطرف شائعاً في الاعراس ، وله رجال يحفظونه ويحذقونه فكان اذا انقطع المغني للاستراحة قام رجلان فتطارحا النكات في شتى المعاني ، حتى اذا غلب احدهما في باب من القول تحول بصاحبه الى باب آخر و يدعى عندهم (قافية) كذا والناس مما يسمعون في ضحك شديد ، وتصفيق حديد ·

ثم الامثال العامية وما أدراك ما الامثال العامية ! · حقاً لقد تناولت كل شيء وأصابت كل غرض ، وتدسست الى كل معنى ، فما يكاد يعرض لك رأي او يسنح لك خاطر ، وخاصة في تقرير مبدإ ثابت ، او امر عام واقع ، الا تهيأ لك ان تصل به مثلاً عامياً غاية في الدقة وحسن الاداء ·

ولعل العامية في هذا الباب من أغنى لغات العالم ·

وهناك ألوان من الادب العامي آخر مما يتغنى فيه العامة و يتناشدون ، ومما يتملحون به و يتفاكهون واني أدع الكلام فيه لمن يريد ان يتجرد في حصر أنواع الأدب العامي وضبطها ، والابانة عن حدودها واصلها وتصرفها على الزمان ·

و بلغ القول بعد هذا ان من ينفي عن (ادبنا القومي) كل هذ الادب الذي تعيش

به لامة كلها على جهة التقريب ، ويزعم انه محصور في الادب العربي الخالص (الشعر والنثر الفني) وهذا ما لا يدركه الا القليلون ، ولا يتذوقه الا الاقلون — فذلك احد رجلين: رجل لا يعرف الأدب ، او رجل لا يعرف مصر .

« باحث »

رسالة الكرم

— ٩ —

« الحطاب والأجام »

الحطاب ككتاب ان يقطع ما يبس من شكر الكرم حتى ينتهي الى حد ما جرى فيه الماء وزمانه حين يجري الماء في العود .

و يقال أحطب العنب واستحطب اي احتاج الى ان يقطع شيء من أعاليه .

واحطب الكرم حان ان يقطع منه الحطب . وحطبه ، قطعه .

واحطب عنبكم واستحطب حان ان يعنب (١) .

واستحطب عنبكم فاحطبوه حطباً اي اقطعوا حطبه .

ويسمى ما يقطع منه الحطاب والمحطب المنجل الذي يقطع به .

قنب الرجل العنب تقنيباً قطع عنه ما يفسد حمله . وقنب الكرم قطع بعض قضبانه للتخفيف عنه واستيفاء بعض قوته . وقنبوا العنب اذا قطعوا عنه ما ليس يحمل وما قد يؤذي حمله يقطع من اعلاه . قيل هذا حين يقضب عنه شكيره رطباً .

قضب الكرم تقضيباً قطع أغصانه وقضبانه في ايام الربيع . والمقضب والمقضاب

---

(١) هكذا نقله في التاج عن الاساس وقد رأيته في نسخة الاساس ان يُقَنَّب ولعل الصواب ان يُقَنَّب من باب التفعيل .

المنجل الذي يقطع به ٠ وقُضابة الشجر ما يتساقط من أطراف عيدانها اذا قضبت ٠ وقضابة الكرم والشجر ما يأخذه القاضب ٠

أَجمّ الرجل العنبَ اذا قطع كل ما فوق الارض من أغصانه ٠ وفي المخصص فاذا بلغ الكرم ان يقطع فاضل قضبانه للتخفيف عنه واستيفاء قوته قيل قُضِب وقُذِب وقُلِّم [1] ٠

فاما الأجمام فقطع جميع ما على الارض منه يقال اجمّ العنبَ قال ابو حاتم بناس يُجِمّون العنب كل عام ولا يغرسون والجمّ ان يقطع من وجه الارض ثم ينبت قال يقطعونه من وجه الارض عامين ثم يتركونه في الثالثة فلا يقطعونه حتى يكبر شجره فيحمل ٠

وقد تقدم معنى أقطع فلاناً قضباناً من الكرم اذن له في قطعها والقطيع الغصن تقطعه من الشجرة ٠ والقِطْع كالقطيع والجمع أقطاع ٠

وتقدم معنى أغلى الرجل الكرم ومعنى غمله ٠

حبك عروش الكرم قطعها ٠

العَتَلة حديدة يقطع بها فسيل النبات والكرم ٠

ويقال رشّح العنب ترشيحاً قام عليه وأصلحه و في حديث ظبيان يأكلون حصيدها ويرشحون خضيدها اي المقطوع من شجر الثمر قال في اللسان وترشيحهم له قيامهم عليه واصلاحهم له الى ان تعود ثمرته تطلع كما يفعل بشجر الاعناب والنخيل ٠

« أنواع العنب »

— العنب الابيض —

الملاحي كغرابي و يشدد [2] ٠ عنب ابيض طويل الحب قال ابوقيس بن الاسلت :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نورا

وقال الشاعر :

---

(١) في اللسان قلّم الظفر والعود والحافر يقلُمه قلْماً و قلّمه قطعه بالقلمين واسم ماقطع منه القلامة ٠ وقال والقلمان الجلمان لا يفرد له واحد ٠

(٢) في المخصص والتشديد قليل ٠

ومن تعاجيب خلق الله غاطية بمصر منهـا ملاحي وغربيب

والملاحي نوع من التين صغار املح صادق الحلاوة ويزبب ٠

العنب الرازقي : ضرب من عنب الطائف أبيض طويل الحب والرازقيـة والرازقي الخمر المتخذ من هذا العنب ٠ وفي الاصمعي الرازقي أبيض داخلـه زرقة طوال الحب ٠ وفي التهذيب الرازقي هو الملاحي ٠ و يقال له الطاهر والطهار ٠

النُواسي : بالضم[1] عنب أبيض عظيم العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو جيد الزبيب ٠ وفي اللسان مدور الحب متشلشل[2] العناقيد طويلها مضطربها ٠ قال الازهري لا أدري الى اي شيء نسب الا انه يكون مما نسب الى نفسه كدوار ودواري وان لم يسمع النُواس هنا ٠ وفي المخصص ومنه النُوّاسي والنُوّاسي وهو الشامي وهو كأنه أذناب الثعالب وهو عنب أبيض كثير العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو ويزبب ٠

الإقماعي : قال في المخصص الالف منه مكسورة وقيل الأقماعي وهكذا ضبط في اللسان ٠ عنب ابيض واذا انتهى منتهاه اصفر فصار كالورس وحبه مدحرج كبار مكتنز العناقيد كثير الماء يابس وراء عصيره غاية في الجودة وعلى زبيبه المعول ٠ وهو غلة الناس واصل العنب الذي يعتمد عليه ٠ والاقماعي ضربان فارسي وعربي ٠ فالعربي ابيض عظام الحبة كثير الماء والفارسي اعظم حباً من العربي واقل ماء واكثر شحماً ٠

التَبُوكي : ضرب من عنب الطائف أبيض قليل الماء عظيم الحب نحو من عظم الاقماعي ينشق حبه على شجره كذا في اللسان والتاج ٠ زاد ابن عباد كأنه نسب الى تبوك ٠ وفي المخصص والتبوكي وهو عنب احمر كبار كالضروع في المعظم الا ان الضروع أحلى منه واكبر عناقيد ويزبب كأنه التمر الشهريزي في الكبر ٠ وقد ذكر في كتاب الاصمعي : الشوكي : اكثر من مرة وعرفه بنحو ماتقدم عن اللسان والصواب التبوكي كما ذكرناه ٠

---

(١) هكذا ضبطه في التاج وضبط في اللسان بالشكل مثلثة وفي الاصمعي والنُوّاجي والنُوّامي الواو مشددة ثم قال والنُوّامي الشامي ولم اجد النواجي فيما لدي من كتب اللغة ولا من ضبط النوامي بتشديد الواو كما ضبط في كتاب الاصمعي ٠

(٢) كذا في اللسان وفي الاصمعي متسلسل العناقيد ٠

أطراف العذارى : عنب أبيض طوال كأنه البلوط يشبه باصابع العذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع متداحس[1] وقد يزبب كذا قال في المخصص . وفي الاصمعي أجود العنب الأبيض أطراف العذارى والضروع وهما متقاربان كل واحد يشبه صاحبه يقال هذا عنقود من الأطراف . وقال في موضع آخر واما الأطراف فابيض طوال رقاق وفي التاج أطراف العذارى ضرب من العنب ابيض رقاق يكون بالطائف يقال هذا عنقود من الاطراف كذا في الاساس .

وفي اللسان وأطراف العذارى عنب أسود طوال كأنه البلوط يشبه باصابع العذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع . ثم قال وقيل هو ضرب من عنب الطائف أبيض طوال دقاق .

هذه أقوال هؤلاء الائمة في تفسير أطراف العذارى . وهو متقارب وقولهم يشبه باصابع العذارى المخضبة يدل على انه غير ابيض . والذي يظهر لي انه وقع التباس في هذا النوع من العنب فان هناك نوعاً آخر يقال له أصابع العذارى وهو اسود كما يأتي فعلى هذا ينبغي ان يكون الأبيض أطراف العذارى والأسود أصابع العذارى ويؤيد ذلك قول الأصمعي أجود العنب الأبيض أطراف العذارى وقوله : واما الاطراف فأبيض ، وقول الاساس : ابيض رقاق ، فتأمل .

الآء بوزن العاع عنب ابيض يأكله الناس ويتخذون منه رُبّاً وقيل هو ثمر السرح . الناهر والنهر ككنف العنب الأبيض هكذا ذكره في القاموس ولم يحله .

الكُلافي بالضم عنب ابيض فيه خضرة واذا زبب جاء زبيبه اكلف[2] ولذلك سمي الكلافي . وقيل هو منسوب الى كُلاف وهو بلد في شق اليمن معروف كما نسبوا الجرشي والتبوكي والتُّرَبي[3] .

---

(١) يقال دحس الزرع اذا امتلأ حباً ودحس الشيء ملأه ودحس السنبل امتلأت اكمته من الحب ودحس الصفوف زاحمها بالمناكب . (٢) في التاج ادهم أكلف .

(٣) هكذا قال في المخصص ولم ينعته ولعله منسوب الى تربة كهمزة وهو وادٍ بقرب مكة على يومين منها وقيل وادٍ للضباب طوله ثلاث ليالٍ فيه نخل وزروع .

القُبَّر كقُبَّرد عنب ابيض فيه طول وعناقيده متوسطة ويزبب ·

الرَّعْناء عنب بالطائف ابيض طويل الحب هكذا في اللسان والتاج · وفي الاصمعي عنب له حب طويل · ولم ينعته ·

الضروع بالضم عنب ابيض كبير الحب قليل الماء عظيم العناقيد منه[1] الزبيب الذي يسمى الطائفي وعناقيده متراصفة الحب · وفي الاصمعي واما الضروع فأبيض وهو اطول العنب حبًّا واقله حَبَّة وقد تقدم قوله ان الضروع يشبه اطراف المذارى ·

الْوَيْن : العنب الأبيض عن ثعلب عن ابن الاعرابي وانشد :

كأنه الوَيْنُ اذا يُجنى الوين

وقال ابن خالويه الوين العنب الاسود والطاهر والطهار العنب الرازقي وهو الابيض وكذلك الملاحي وقد تقدم هذا ·

الشآمي عنب ابيض فاذا أينع احمار · هكذا قال الاصمعي · وقال في موضع آخر · والنوامي الشامي وقد تقدم عن المخصص نحوه ·

الجُرَشي كقرشي ضرب من العنب ابيض الى الخضرة رقيق صغير الحبة وهو اسرع العنب إدراكاً · وزعم ابو حنيفة ان عناقيده طوال وحبه متفرق قال وزعموا ان العنقود منه يكون ذراعاً كذا في اللسان · ثم قال ومن الاعناب عنب جرشي بالغ جيد ينسب الى جرش[2] · وفي المخصص الجرشي وهو اطيب العنب كله وهو اصحر[3] رقيق يبكر فيلح عليه الناس وقد يزبب وعناقيده طوال وحبه متفرق يكون العنقود منه ذراعاً

(١) في التاج مثل الزبيب الخ ·

(٢) جرش بضم الجيم وفتح الراء مخلاف باليمن من جهة مكة نسب الى جرش وهو لقب منبه ابن أسلم بن زيد بن الغوث بن حمير وجرش بفتح الجيم والراء بلد بالشام وفي التاج بلد بالاردن من فتوح شرحبيل بن حسنة ·

(٣) الصَّحَر والصُّحْرة بياض يعلو السواد يقال بالسين والصاد الا ان السين اكثر ما يستعمل في سحر الصبح والصاد في الالوان يقال حمار اصحر واتان صحراء وقيل الصحرة لون الاصحر وهو الذي في رأسه شقرة وقيل حمرة تضرب الى غبرة ·

وفي الاصمعي فأما الجرشي فأبيض صغار الحب اول العنب إدراكا ·

الجُرَشي كقرشي عنب كجرشي كذا ذكره في التاج ·

الَبيْضَة بالفتح عنب بالطائف أبيض عظيم الحب ·

حَبَلة عمرو بالإضافة ضرب من العنب بالطائف بيضاء محددة الأطراف متداحضة العناقيد كذا في اللسان وفي التاج والمخصص متداخصة وفي الاصمعي متداخشة ·

ولعل متداحضة مأخوذة من الدحض بمعنى الدفع او محرفة عن متداخصة كما جاءت في عبارة التاج والمخصص ولعلهـا من دخصت الجارية من باب منع دُخوصاً · امتلأت لحما[1] · فهي دَخُوص ·

واما متداخشة فلعلها من دخش كفرح اذا امتلأ لحما ·

الشُكَّر بالضم وتشديد الكاف المفتوحة عنب يصيبه المرق فينتثر فلا يبقى في العنقود الا أقله وعناقيده أوساط وهو ابيض رطب صادق الحلاوة عذب وهو من احسن العنب واظرفه[2] ويزبب (والمَرَق آفة تصيب الزرع) ومرقت النخلة كفرح نفضت حملهـا بعد الكثرة · وفي اللسان مرقت النخلة وأمرقت سقط حملها بعد الكبر والاسم المَرَق · ومَرَق حب العنب يمرُق مُرُوقاً انتثر[3] من ريح او غيره ·

الجَوْزة بالجيم ضرب من العنب ليس بكبير[4] ولكنـه يصغر جداً اذا أينع هكذا قال في المخصص واللسان والأصمعي وفي التاج ولكنه يصغر جداً والظاهر انه تحريف ·

الحَوْزة بالحاء عنب ليس بعظيم الحب نقله في التاج عن الصاغاني ولم ينعته ·

سليم الجندي

عضو المجمع العلمي العربي

(١) كذا في اللسان وفي التاج شحماً · (٢) في اللسان والمخصص من طرائف العنب ·
(٣) في اللسان انتشر · (٤) في الاصمعي ليس بعظيم الحب غير انه الخ ·

آراء وافكار

—«»—

التفاؤل والتشاؤم (1)

« بكلمات اللغة »

من الناس من يتشاءم بكلمات اللغة فلا يرضى ان يستعمل منها في كتابته او خطابته الا ما كان لطيف الجرس . لذيذ الوقع في النفس . لكننا اذا أقررناه على تشاؤمه هذا ووافقناه على اطّراح كل كلمة من كلمات اللغة احتكم فيها بذوقه الشخصي — اضطررنا ان نكنس من بين سطور معاجمنا كثيراً من الكلمات في وقت نحن محتاجون فيه الى تنمية اللغة وتكثير سواد كلماتها : فاذا كنا لا نجوز استعمال الكلمات غير القاموسية من مولدة . ودخيلة . معربة . ولا يمكننا ان نضع كلمات وضعاً جديداً ثم بعد ذلك كله أخذنا نتشاءم بالكلمات التي نشعر فيها ببعض الغرابة او الكراهة في السمع ونحكّم ذوقنا الخاص في هذه الغرابة او الكراهة — كيف يتيسر للغتنا ان تجاري اللغات الحية وتتسع دائرتها لمطالب الحياة الجديدة .

فعلينا إذن ان نقاوم هذا التشاؤم اللغوي بتفاؤل لغوي مثله او أشد منه : فنتفاءل بكلمات اللغة . ونعمل على إحيائها مهما احسسنا لأول الامر بكراهتها في السمع . فان تداولها وتكرر استعمالها كفيلان بتهذيبها . وصقل خشونتها . والشرط الاصلي في جواز استعمالها مراعاة المقامات : اي ان يعرف الكاتب او الخطيب كيف يستعمل الكلمة وفي اي المقامات يجلسها .

فاذا أوتي حظاً من الذوق اللغوي وعرف كيف يميز بين الكلمات . وما تصلح كل واحدة له من المقامات . راجت الكلمات التي كنا نعدها غريبة او متنافرة وحسن وقعها في الأذواق . وتعاورتها أقلام الكتاب وألسنة الخطباء : اذا لم يكن ذلك في كل موطن ففي مواطنها الخاصة . بها ولنضرب لذلك المثل الآتي :

---

(1) قرئت في احدى جلسات المجمع .

اذا قال العرب (فلانٌ سَبْطُ الشعر) أرادوا انه مسترسل الشعر غير مجعَّده ٠ و (سَبْطُ القامة) اي ممتدها طويلها ٠ واذا قالوا : (فلان سِبَطْر) كان معناه ايضاً الطويل الممتد القامة ٠ فالراء في (سبطر) هي قطعاً زائدة في آخر كلمة (سبط) لاتحادهما في المعنى ٠ وكما تكون الزيادة في آخر الكلمة تكون احياناً في اولها وهذا نحو اقشعرّ من (قشعر) فان قافها زائدة في اول كلمة (شعر) لان معنى (قشعر) قف شعره وانتصب ٠

ثم ان العرب اذا وصفوا الاسد بكونه (سِبَطْراً) حصل بعض التغيير في معنى الامتداد : ذلك لأنهم يريدون امتداده عند الوثبة على الفريسة ٠ فامتداده في تلك الحالة هو امتداد جسمه او امتداد المسافة التي يقطعها ٠

واذا قالوا (اسبطرّ) فلان على وزن (اقشعرّ) أرادوا معنى الاضطجاع : لان المضطجع يمدُّ بدنه على الارض ٠

ومن الادلة على ان الاسبطرار هو امتداد الجسم وانبساطه ما حكاه علماء اللغة قالوا : حاكمتْ امرأة صاحبتها الى (شُرَيْح) القاضي في هرّة بيدها ٠ ومع المدعية درص هرة ٠ ودرص الهرة ولدها الصغير (وكذلك ولد الأرنب والجرذ ونحوهما في التجم كله يسمى درصاً) ٠ فقالت المدعية : ان الهرة هرتي وهي أمّ هذا الدرص الذي بيدي ٠ وقالت الاخرى كلاّ وانما هي هرتي ٠ ولما جاء دور الكلام للقاضي (شريح) فصل القضية بينهما على هذه الصورة :

أدْنُوا الدرصَ من الهرة فان هي قرّت (اي سكنت) ودرّت (اي سال الدرّ من ثديها) واسبطرت (اي امتدت على الارض متهيأة للارضاع) فالهرة للمدعية ٠ وان هي فرّت وتقبّضت وازبأرّت (اي انتفش شعرها) فليست لها (لان الهرّة لا تهرب من ابنها الصغير عادةً) ٠

هذا هو معنى اسبطرّ الحقيقي اوالأصلي أعني امتداد الجسم ٠ وضد (اسبطر) بهذا المعنى تقبّض وتكمّش وتقاعس واختنأ وتجمّع الخ ٠

ثم توسع العرب في (الاسبطرار) فاستعملوه في معنى السُرعة وأن يمضي السائر أمامه قُدُماً من دون ان يُعَرِّج او ينثني : فقالوا : (اسبطرّت الابل) اذا أسرعت ٠

وإنما سمّوا السرعة اسبطراراً لان المسرع يمتد جسمه بطبيعة الحال ٠

ومن استعمال الاسبطرار بمعنى السرعة قول عمر بن ابي ربيعة :

(قالت لها أختها تعاتبها لتُفسدنّ الطواف في عمر)

(قومي تصدّي له ليُبصرنا ثم اغمزيه يا اخت في خفر)

(قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّت تسعى على اثرى)

فقول عمر (اسبطرّت) يريد انها أسرعت وجدّت في الجري خلفه ٠ ويروى (ثم اسبطرت تشتدّ في اثري) ٠

وليس في قول هاتين الفتاتين مايدعو الى الريبة او سوء الظن في اخلاق عمر وهو نفسه الذي يقول :

(إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظّ لي فيه إلا لذة النظر)

بقي علينا قول عمرو بن معدي كرب الزُبَيْدي وهو من ابيات الحماسة :

(ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرّت)

مامعنى قوله (اسبطرّت) وهل ضميره يرجع الى الخيل ام الى جداول الماء المنسابة بين الزرع ؟ وعلى كل هل (الاسبطرار) هنا بمعناه الاصلي اعني امتداد الجسم ؟ فان الماء يمتدّ على الارض والخيل تمدّ اجسامها وهي مسرعة — او بمعناه الفرعي : وهو الاسراع : فان الماء يسرع والخيل تسرع — كل ذلك جائز ٠

ومن توسع اهل اللسان في الاسبطرار ان نقلوا معناه من الامتداد الحسي الى الامتداد المعنوي من ذلك قول الحريري في احدى مقاماته :

(فدفع الليل الذي اكفهرا الى ذراكم شعثاً مغبرا)

(اخا سفار طال واسبطرّا) الخ

وضمير (اسبطرا) راجع الى السفار اي السفر فهو يقول ان سفره طال امده وامتد ولا يخفى ان امد السفر وزمنه ليس امراً محسوساً بل معقولا ٠

و يقول قائل : ولكن ما الفائدة من تحليل كلمة الاسبطرار وبيان اشتقاقها وطرائق استعمالها اذا كانت غريبة لا يمكن اقتباسها في الكتابة والخطابة ٠

اقول بل ينبغي ان نحييها بالاستعمال بل نحيي ما كان افصح لفظاً منها بشرط ان نعرف

كيف نستعمله ؟ وفي اي المواطن والمقامات ندخله ؟

مثال ذلك كلمة اذا ذكرتها للقارئ استقبحها وأنكر جواز استعمالها . حتى اذا شرحت له طريقة الاستعمال والمقامات التي يجب ان تقع فيها أعجب بها . وعوّل على استعمالها من دون تردّد ولا نكير .

تلك الكلمة هي (المجاحشة) وهي في اللغة بمعنى المزاحمة وهذا المعنى إما ان يكون جاءها من مادة (الجحش) ابن الأتان فان الجحاش اذا أرسلت العراك زاحم بعضها بعضاً . وإما ان يكون جاءها من (الجحش) مصدراً بمعنى السحج اي قشر الجلد : يقال جُحشت فخذه أو ساقه اذا قُشر جلدها : فمن يجاحش الآخر اي يزاحمه في امر من الأمور انما تكون مجاحشته له في أشد حالاتها حتى تصل الى حدّ ان يقشّر احدهما بدن الآخر فهو مبالغة في تصوير المزاحمة وفرط اللزاز .

هذا هو معنى (المجاحشة) في أصل اللغة ثم استُعملت في مطلق مزاحمة : بين الجحاش او غير الجحاش . نتج عنها قشر جلد وخدش بدن او لم ينتج شيء من ذلك . ولهذا لما رأوا ان الذي يدافع غيره عن نفسه تقع منه مزاحمةٌ له سموا المدافعة مجاحشة فقالوا : جاحشَ فلانٌ فلاناً اذا دافعه وقاتله .

ثم توسعوا في الاستعمال فقالوا : جاحشَ فلان عن فلان اذا دافع عنه وحامى عنه . ومنه قولهم (فلان يجاحش عن خيط رقبته) اي انهم يحاولون الحكم عليه بالقتل وقطع العنق وهو يجتهد في المجاحشة والمدافعة عن نفسه بمختلف الوسائل .

نقول : ولكن مهما كان من امر اشتقاق كلمة (المجاحشة) ومهما كان من استعمال بلغاء العرب الأقدمين لها فالواجب في عصرنا هذا ان تموت موتاً ، اذ لا يحسن ان يقال : فلان يجاحش في المحكمة عن فلان . ولا أن فلاناً أحسن المجاحشة في هذه الدعوى . ولا أنه مجاحش بارع كما يقال محام بارع .

نعم لا يجوز ان يقال ذلك جميعه ولا ان تستعمل كلمة (المجاحشة) في هذه المقامات لوجود كلمات غيرها تُغني عنها . وهي أليق بالاستعمال منها .

ولكن ما اقول السادة الفضلاء . في هؤلاء الذين يزاحم بعضهم بعضاً على أبواب الامراء . وكلٌ منهم يريد ان يتقدم على إخوانه . ويتبوأ المكان الأرفع من مجلس الامير وديوانه .

فهذه المزاحمة الممقوتة التي تقع من اولئك البلداء . على هذه الصورة السوآء بمرأى ومسمع من العامة والدهماء . أليست جديرة بان تسمى (محاحشة) لا (مزاحمة) وان يقال عن اصحابها في معرض التهكم بهم والتعبير . انهم كانوا يحاحش بعضهم بعضاً على باب الامير .

لا جرم ان العلم الذي عرّف (البلاغة) بانها مطابقة الكلام لمقتضى الحال يجوّز لنا استعمال كلمة (المحاحشة) وادّخارها لمثل ما ذكرنا من المقامات او المناسبات .

«المغربي»

حول «واسطة السلوك»

قرأت في الجزء الثاني من المجلة (شباط ١٩٣١) ما كتبه السيد محمد السعيد الزاهري عن كتاب ابو حمّو سلطان تلمسان وقال ان الذي ترجمه الى اللغة الاسبانية هو الاستاذ مارينو غاسبار نقلاً عن نسخة عربية مخطوطة موجودة في مكتبة الاسكوريال .

واني استميحكم تصحيح هذا الخطأ اذ المترجم ذكر في مقدمته ص ٧ مانصه :

انه ترجمه عن النسخة العربية المطبوعة في المطبعة الملكية في تونس سنة ١٨٦٢ واسم النص العربي «واسطة السلوك في سياسة الملوك» والكتاب موجود منه نسخة في مكتبة المجمع العلمي التاريخي في مدريد .

مدريد : م . أسين

مطبوعات حديثة

المراح في المزاح

موضوع هذا الكتاب (أعني المزاح والدعابة) من أشهى الموضوعات وانفعها بشرط ان يتجرد مما لاخير فيه من الكلام . وما تنبو عنه أسماع الكرام . ويكون الحال فيه كما قيل عنه صلى الله عليه وسلم (انه كان يمزح ولا يقول الا حقًا) وقد راعى المؤلف العلامة بدر الدين الغزي الدمشقي المتوفى سنة ٩٨٤ هـ هذه الشرائط في كتابه هذا : (المراح في المزاح) اقتصر فيه على ما ورد في كتب السنة وأخبار السلف . فبدأ بما ورد من ذلك عنه صلى الله عليه وسلم ثم عن صحابته والتابعين . فجاء الكتاب في سبعين صفحة . وكل أخباره مروية بالسند على طريقة المحدثين . وقد وقعت مخطوطة هذا الكتاب في يد ناشرها السيد أحمد عبيد (احد اصحاب المكتبة العربية في دمشق) فطبعها بنفقة مكتبتهم المذكورة طبعًا بلغ حد الاتقان . وقد قدمها بكلمة منه ثم بترجمة المؤلف وعني عناية خاصة بتخريج أحاديث الكتاب فردها الى مصادرها او مصادر أخرى معتمدة . ولم يحذف من اصل المخطوطة سوى خبر خوّات ابن جبير المشهور وهناك خبر آخر ذكره في ص ١٥ و يا ليته حذفه كما حذف خبر خوّات . ومن جملة ما استفدناه من هذا الكتاب ان كلمة (الادب) التي يكثر أدباء العصر من البحث عن منشاها وتحقيق امر مدلولها واطلاقها في زمن الجاهلية والاسلام — وجدنا لها معنى مناسبًا لمعناها الذي لا يكاد متأخرو الادباء يفهمون سواه : وهو مستملح الأخبار التي تتضمن شعرًا ولغة وفصاحة قول : ففي ص ١٩ ان السيدة عائشة (رض) عابت (القاسم) مذ لحن في كلامه وفضلت عليه (ابن ابي عتيق) وقالت للقاسم « اما اني علمت من اين أتيت ؟ هذا (تعني ابن ابي العتيق) قد أدبته أمه . وانت أدبتك أمك »

فتقويم اللسان وتعويده الفصاحة في القول كان من الأدب في عرفهم . وجاء (في ص ٣٧) ان ابن ابي عتيق المذكور وهو مشهور باللهو والمطايبة — داعب عبد الله بن عمر رضي الله عنه دعابة فيها شعر وشيء من رفث هاله امره اولاً حتى اذا فهم حقيقته ابتسم وطابت نفسه وقال لابن ابي عتيق (أحسنت فزدنا من هذا الادب) وهو يعني به الشعر وما احتف به من هذه الدعابة المفكهة .

والغلط في الكتاب قليل جداً أهمه غلطة وردت في (ص ٥١) في حكاية الاعمش الذي قدم لجليسه سلة (فيها رغيفان يابسان وسكرجة كامخ شُبِّتَت) هكذا ضبط المصحح كلمة (شبّت) بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول من مادة (شبّ) وتاؤه للتأنيث وقال في تفسيره ان معنى شبت أتيحت وتهيأت .

وصواب الكلمة (شِبِتّ) وهي اسم على زنة (فِلِزّ) اي بكسر اوله وثانيه وتشديد ثالثه وهو بقلة معروفة كما في كتب اللغة وفسره بعضهم بالسنّوت اي الكمون فهو من الكوامخ المشهية للطعام . تارة يعالج كامخاً مستقلاً وتارة يضاف الى الطبيخ . وتارة يطبخ وحده كما يفهم من كلام ابن البيطار في مفرداته وهاك قوله (والكامخ المعمول فيه الشبت أصلح الكوامخ وانفعها للمعدة ... وهو اصلح من كامخ الهندقوقا ... وكامخ الشبت جيد لمن أراد ان يتقايأ ... والشبت لا يصلح للمحرورين فان هم اكلوا من طبيخ فيه شبت كثير فليشربوا عليه من السكنجبين . وقال التجربيون طبيخ الشبت ينفع من وجع الكلى الخ . وبالجملة فان الكتاب مفيد وقد أحسن ناشره في نشره فالشكر له .

« المغربي »

ارشاد الاريب

« الى معرفة الاديب المعروف بمعجم الادباء وطبقات الادباء لياقوت الرومي »
« عني بنسخه وتصحيحه الاستاذ د . س . مرجليوث الجزء السادس الطبعة »
« الثانية بمطبعة هندية بمصر سنة ١٩٣٠ »

صدرت الطبعة الاولى من هذا الجزء في مصر ايضاً وفي نفس تلك المطبعة سنة

١٩١٣ وهو احد الاجزاء التي يتألف منها هذا الكتاب النفيس الذي احياه بالطبع صديقنا الاستاذ مرجليوث الانكليزي فاستحق إعجاب المشتغلين باحياء آثار الامة العربية . وقد نظر الاستاذ في الطبعة الثانية من هذا الجزء نظراً ثانياً وشفع طبعته هذه بفهرس مطول في اسماء الرجال قرّب على الباحثين مناله استغرق ٥٦ صفحة ، ثم ثناه بفهرس في اسماء الكتب الوارد ذكرها في هذا الجزء وقد بلغت ٢٣ صفحة . فنكرر للاستاذ المشار اليه تهانينا على توفيقه لنشر معجم ياقوت وللانتفاع به على هذه الصورة من الاتقان والامانة . م . ك

المعيد في ادب المفيد والمستفيد

« اختصره من الدر النضيد للبدر الغزي — الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد »
« العلوي المتوفى بدمشق سنة ٩٨١ هـ ووقف على طبعه السيد احمد عبيد »
« الطبعة الاولى في مطبعة الترقي سنة ١٣٤٩ هـ ص ١٥٢ »

هذا الكتاب كما قال الاستاذ ناشره يشتمل على ادب العلم والمعلم والمتعلم وادب الفتوى والمفتي والمستفتي وادب المناظرة وشروطها وآفاتها والادب مع الكتب وما يتعلق بها الى غير ذلك من الفوائد ، وقد طبعه منقولاً من مخطوطته بقلم المختصر ، وجدت في حلب وعليها ايضاحات وتعليقات فأبقاها على ما وجدها ولم يعلق من عنده سوى تعليقات طفيفة لكنه بالغ العناية بالتصحيح على عادته في معظم ما طبع من آثار السلف فاستحق شكر الآداب على دؤوبه في خدمة الآداب . م . ك

باجمل مايحفظون . وهناك التفاضل ، وهناك التنافس في اقتناء المحامد ، واستفادة كل طالب وقاصد .

وأعظم بحظ من كانوا يختلفون الى تلك الاندية ، يطبقون مايقرأونه على مايسمعونه . ولغة الكلام المسموع ، أعمل في النفوس من لغة المقروء في المخطوط والمطبوع ، وصوت الحي يحيك في الصدور فيهيء الملكات ، اكثر مما تحيك الرسوم والأشكال من حروف وكلمات . ورب كلمة تتلقفها عن عالم ، تكون أشد تأثيراً في مجرى حياتك من مدارسة الصحف المكتوبة زمناً . ورأينا مجالس الوعظ التي كان يعقدها ابوالفرج ابن الجوزي في بغداد ودمشق يجتمع الناس لفصاحته وخلاصة تجارب في الحياتين الدنيوية والاخروية ، لم تكن في تأثيراتها في عصره اقل بكثير من تأثيرات علم الجاحظ بكتبه وتآليفه ، على مابين الرجلين من تفاوت في العصر وتفاوت في العلم . وشارك النساء الرجال في هذا الباب . هكذا كانت مجالس علية وسكينة وولادة ، وهكذا كانت المجالس التي نقل أخبارها الاصفهاني في الاغاني والتنوخي في نشوار المحاضرة .

والناظر في المجتمع الغربي منذ هب يتلمس الفوائد ، ويتحضر بنور العقل والثقافة يراه على حصة موفورة في عقد مثل هذه المجالس التي كان للملوك والامراء وأعيان الناس الفضل الاول في جمعها ، فقد فتحوا قصورهم وصدورهم لمجالس كان ، من أوتوا العلم ورزقوا الفصاحة من ابنائهم ، بلابلهـا المغردة ، عرفنا منهـا غرام الانكليز والفرنسيس بتلك المجتمعات منذ القرن الرابع عشر والى اليوم . وكل من تلمس أخبار مجالسهم في القرون الخمسة الاخيرة يقول معنا ، ان مجالس الادب الخاصة في كل مدينة من مدنهم ، كانت من العوامل الكبرى في تهذيب الملكات ، وبعث القرائح الكامنة والعبقريات الفائقة ، فكان صاحب المجلس او صاحبته يفاخر بمن قدر له ان يضم شملهم من ارباب المكانة والتجارب ، يجمعهم في اوقات معينة من ايام الاسبوع ، يتذاكرون صنوف العلم والأدب وينصتون لمن ميزتهم الطبيعة عن غيرهم ، فيحمل الصغير عن الكبير ، وينقل الخلف عن السلف من ضروب الآداب ، ماهو مفخرة الاجيال والاحقاب . و يبلغنا لهذا العهد عن الانكليز ان حب البلاغة تمكن من طبقاتهم العليا ، حتى انهم امسوا اذا اجتمعوا في ناد او الى مائدة لا يتكلمون الا بافصح مايعرفون ، فترى أحاديثهم مجموعات ادب ، ودروس

مجالس اناتول فرانس (١)

—«×»—

كان في كل حضارة قامت في الارض ، وكل اجتماع بلغ حد الكمال او كاد ، شأن عظيم لمجالس ارباب العقول والقرائح في تكوين ملكة العقل في تلك الامة ، وتعليم النابهين بالتلقين مافاتهم تلقفه في دراسة الاسفار والآثار . هكذا رأينا المجالس العلمية والفلسفية والادبية والصوفية في العصور العربية الراقية ، ولو دوّنت كلها لصوّرت لنا مجتمعات الأجداد على جليتها ، وعرفنا اكثر مما عرفنا طرق تفكيرهم وخوالج نفوسهم . بيد ان الشيء القليل الذي انتقل الينا في كتب المسامرات والمحاضرات وقفنا به الى حد لا بأس به على روح تلك القرون الزاهية ، ومن أهمها المجالس التي نقلها ، فيما انتهى الينا من تآليفه ، ابو حيان التوحيدي وأشرنا الى اكثرها في هذا المكان منذ اربع سنين . فقد صوّر لنا مجالس الفقهاء والفلاسفة والمتكلمين والادباء في القرن الرابع في بغداد تصويراً يدهش من يقرأوه ، حتى ليكاد يخيل اليه ان بغداد في عصرها الرابع للهجرة لم تكن في طرق البحث والنظر أقل من باريز ولندن و برلين ونيويورك في القرن العشرين للميلاد .

نعم كانت للقوم مجالس او مجتمعات في قصور الخلفاء والملوك والامراء والعلماء والاعيان يختلف اليها المتماثلون من عشاق الآداب والفضائل ، فيتكلم فيها ارباب العقول الراجحة والممتازون من كل رعيل ، بما تمليه عليهم قرائحهم المبدعة ، وعلومهم الناضجة ، فكانت المنافسة على أتمها بين المتصدرين لهذه المطالب . يحفظون احسن ما يقرأون ، ويتكلمون

---

(١) محاضرة للاستاذ السيد محمد كردعلي وزير المعارف في دولة سورية ورئيس المجمع العلمي العربي القاها في ردهة المجمع يومي ٧ و١٤ أيار سنة ١٩٣١ .

فصاحة وبلاغة ، اما الفرنسيس فهم بالاجماع سدنة هذه المقاصد ، ذلك لانهم أمة آداب قبل كل شيء ، وعنهم تحمل ومن لغتهم تنقل .

وآخر من انتهى الينا خبره بل أخباره من هذا القبيل كاتب فرنسا الاكبر (اناتول فرانس) ، فقد كان له صديقات من ارباب اليسار يرين من أعظم مفاخرهن ان يجالسهن في قصورهن في باريز ، يلقي عليهن وعلى جلسائهن ثمار قريحته وتجربته ، فيفيد بها النساء والرجال علماً يأخذ منه كل مستمع على قدر مبلغه من شهوة العلم ، والاستعداد للانطباع بالافكار الناضجة . وما خلت مجالسه في بيته وبيوت صويحباته منذ اشتهر بنبوغه من أناس نقلوا عنه مارواه في ردهاتهم من تصورات ، فنشروها للناس بعد وفاته ، وكانت صورة من بلاغة لسانه وازت بلاغة قلمه التي شهد بها كل عارف قرأها في اصلها او مترجمة الى لغة أخرى .

كان اناتول فرانس مولعاً بالقرن الثامن عشر يحيي آثاره ، وينعم في تقيّل خطى أهله ، ومن زاروه في داره أثبتوا انه لايختلف عن رجال ذاك القرن في المسكن والملبس والرياش والأثاث والعادة والمنزع الا فيما لابال له ، ولم يفترق عن اعاظم ارباب العقول المفكرة من اهل القرن السابق ، الا بما فطرت عليه نفسه من اطلاق الحرية الفكرية في مجالسه الى أقصى حد يصل اليه ابن القرن العشرين ، وفي مدينة مثل باريز وما يحمل اليها من ثمرات الادب الافرنسي خاصة والادب الغربي عامة .

شبهت معلمة لاروس (اناتول فرانس) بفولتير على اختلاف قليل بينهما ، فقد كان لهما ذوق واحد بمباهج الحياة ، ونفرة متحدة من الألم ، وتشابها في قلة الصبر على احترام مايحترمه الناس ، وطال عمرهما كلاهما ، وكان كل منهما في عصره ملكاً على الآداب . وقالت في مكان آخر : ان فرانس اذا كان في كلامه على السيدات صريحاً فانه كان يطرّس على آثار قدماء اليونان واللاتين ومصور بهم في هذا الشأن ، فهو مأخوذ بالقديم ويريد احياءه بما فيه من وثنية ووضوح . واناتول فرانس على ماظهر اخذ ما وضعه فولتير باليمين وقدسه وشرحه ، وكانت صلته برنان كبيرة ، فالأحرى ان يقال ان رنان خلف فولتير ، واناتول خلف رنان ، ورث كل منهم من صاحبه منازعه في الحرية ونقمته على المجتمع ، على أسلوب استطابه من استطابه ، وبعض الناس له منكرون .

وممن نقلوا افكاره وأطواره بعد وفاته امين سره جان جاك بروسون كتب كتاباً سماه (اناتول فرانس في مباذله) اي في بيته ، ونقله الى العربية صديقنا العلاَّمة الامير شكيب أرسلان . وكان نقولا سيغور [1] من ارباب الأقلام الزم لاناتول فرانس من من شعرات نفسه مدة طويلة ، نقل حكايات اناتول في مجلد ، واحاديثه في مجالسه في مجلدين ، وهذه المجلدات الثلاثة لم تنقل الى العربية ، وعليها نعتمد في التحدث اليكم بنموذجات من مجالس نابغة أدباء هذا العصر غير مُدافَع .

وها قد حان الوقت لننقل جملاً مما فاه به أديب الفرنسيس في حياته ، ودوّنوه عنه ونشروه بعد وفاته ، فصح فيه ماقاله الشاعر العربي من بعض الوجود . لان من عرفوا فضل الأديب الكبير في حياته اكثر من شاغبوا عليه ونقموا منه اشياء لم يستطبها مذاقهم ، ولم تدخل او لم يريدوا ان يدخلوها في قلوبهم ويعوها في صدورهم ، وشاعرنا قال :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى لؤماً وخبثاً فاذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب

* * *

قال اناتول فرانس في المجد الباطل : اياك يا صاح ان تثق بالمجد والعبقرية ، فان المرء اذا فكّر فيها تهتز أعصابه . ولا شيءَ في هذه الدنيا كما يقول مونتين ، والدنيا هذه هي الارجوحة المستديمة ، أدعى الى التضعضع والتذرية من شهرة عظماء الرجال ، فقد يوشك .

(1) Nicolas Ségur : Conversations avec Anatole France ou les mélancolies de l,intelligence .

احاديث اناتول فرانس اوصوبداء الذكاء لنقولا سيغور .

Nicolas Ségur : Dernières conversations avec Anatole France.

أحاديث اناتول فرانس الاخيرة لنقولا سيغور .

Nicolas Ségur : Anatol France Anecdotique .

أناتول فرانس القصاص لنقولا سيغور .

بعضهم ان يتنامى امرهم بسوء طالعهم ، وهكذا ترانا نحب الشاعر رونسار الذي دفنا ذكره مع ان دو بارتاس كان هو الشاعر العظيم ومثال العبقرية في ذاك العصر ، وكان كيتي الشاعر يعجب به الى الغاية ، وكان هذا على شيء من الذوق مثلنا . ان من احرزوا شهرة لا يستمتعون بها ابداً ، فان مصافق (بورصات) القيم الأدبية على ما أري اكثر اضطراباً واقل ثباتاً من مصافق المضاربات المالية ، وكل قرن يهزأ بما تعبد به قرن آخر ، والقرون تتعجب بما أعجبت به قرون قبلها ، والاسماء الكبيرة قد تصغر . واذا قدر لنا ان أحيينا ماأحبه الماضي ، فانا نأتي ذلك عرضاً او لأسباب أخرى ، خلافاً لما كان يذهب اليه آباؤنا ، وكل فكر يموت في الحقيقة بموت الزمن الذي ولد فيه .

وليس أدعى الى الهزء والمذلة من تاريخ زعموا انه « اسمى التآليف » على وجه الدهر . مثل لنفسك العجب الذي يأخذ دانتي الشاعر لو قدر له ان يلقي نظرة على هذا الركام من الزيادات التي اثقل بها الشراح روايته الهزلية الالآهية . وانظر هوميروس الشاعر لو عاد الى الارض فنظر الى التحريفات والزيادات والترهات المصنعة بايدي العلماء التي علقت بالالياذة . وتصور شكسبير الشاعر ينتم الى الوف من التأويلات في رواية هملت .

لا جرم ان هؤلاء الشعراء يُجنون اذا شهدوا ما تم لشعرهم بعدهم ، وبعمل المعجبين بانفسهم الذين يتمثلون الاشياء على الاغلب ويحملون من تفاسيرهم الكاذبة مايهيئون به السبل الى تلك التآليف السامية حتى تدوم شهرتها ، فهم ابداً يكهربونها ويجددونها ، فتزيد بهم على الدهر جدةً وصقالا .

وليت شعري كيف نعتقد بحقيقة المجد وقد رأينا القرن العريق في المدنية اي قرن فولتير قد احتقر هوميروس ودانتي ، ووصف شكسبير بانه متوحش خشن ، ولذلك يجب ان لا يكون البحث الا في شهرة زائلة قامت على المصادفات والاوهام ، ونشأت من المهارة في اكتساب الصيت . قال : لما كنت متحفزاً الى الدخول في المجمع العلمي لفت نظري لودفيك هالبفي الى رصفائنا الماهرين قائلاً : ان الواجب يقضي ان ارعاهم باحترام زائد ، لانهم كانوا أدعى الى الإعجاب من غيرهم ، اذ كاثروا الجماعة وهم في الحقيقة لا قرائح لهم . قال : انهم جدُّ اقوياء ، جد اقوياء ، فاياك واياهم . نعم يا صاح ان ستاندال الذي لم يكن على شيء من العبقرية بل على جانب عظيم من صفات الملاحظة والحذاقة ،

قد ظل خاملاً طول حياته لقلة مهارته ، ولضعف في عشرته ، فالمجد يكتب لمن يتطلبونه ، ولا أزال أسائل نفسي كيف استطاعت الوصول الى ماوصلت اليه وانا الى القصور ، في استبطان هذه الامور . ولقد حظني الحظ ببعض الأصحاب فرفعوا من شأن ما كنت اكتب امثال « كانول ماندیس » و « كوبيه » . وكتب في « ليمتر » مقالات نوه فيها عما انشأت ، فجزت القنطرة الصعبة حتى اصبحت في مأمن من نقد البله المغرورين . واذا كنت تعتقد انني اغتررت بفهم المعاصرين لي فقد ضللت ضلالاً بعيداً . ان كتبي وان عريت من المعاني العظيمة لا تستحق هذا الاقبال عليها ، الذي لا يغتبط به الا طابعها ، وهي لاتلابسني الا بما تحوي في مطاويها من المعاني الباطلة ، والاستطرادات التي تتخلل في تضاعيفها وتبدو بين سطورها . . . .

ما من احد فهم احداً حق الفهم ، ومن يفهم كلامهم بعض الفهم في العادة ، هم الذين يتحمس الناس للثناء عليهم ، وهذا سر المجد المؤلم . واعني بقولي المجد الذي ناله سوفقلس ودانتي وشكسبير بقوة التسلسل وبدون تمحيص ، واصاب منه ابسين الشاعر النروجي ، وان كان الى القصور وغير جدير بما بلغه . فهذا هو المجد الذي يرفع الناس به أناساً لم يفهموا ماقالوه وهم يقدسونهم . لان اولئك العظماء قلما يقرأ كلامهم ، وماتتناقله الامم بسرور عظيم حقيقي لا شوب فيه هو ما كتبه في الدهر الغابر أناس منذ عهد المصر بين مثل ساندر يون والبوسة الصغيرة ، والناس يقدرون غير مداجين بعض الكتب المتوسطة الاعتبار ، مدفوعين الى ذلك بما عم هذا العصر من التفاهة . . .

وما يدريك ان المقالة الشديدة التي كتبتها على خلاف عادتي في جورج اوهنه قد كان فيها شيء من الحسد ، بيد انه كان المعياً مجيداً ان انصفنا ، وهو جدير بهذا المجد ، ولم يكن الغرض العمل للحط منه ، فقد كانت القلوب كلها تخفق بالاجماع لما يخفق له قلبه . كان نابهاً متأنلاً واقل مهارة في صناعته من فوليه ، مبجلاً للأدب والمصانعة الاجتماعية ، وهو غاية الكمال للكل ، فكان يعطف على الفضيلة ويشجب الرذيلة ، يؤيد حقوق الاشراف والاغنياء والشعب ، ويسر قراءه ويحسن انتقاء العبارات التي في مكنتهم كلهم ان يكتبوها ، وهي ملك دائم لهم جميعاً . وان العبرات المخلصة لتسيل من مآقي بل على نحور من كن يقرأن رواية « ليمتر دي فورج » ولا يجرح هذا الادب القراء بجديد

يأتيهم به كاتبه ، ولا يقلقهم بحقيقة يحملها اليهم ، ولا يهمهم بشخصية احد، ولا يسقطون في كلامه على خشونة الابداع التي تتعلق بها الافهام على غير رضى ، ولا تسيء الى الجهل الظاهر ، قلما يهتم الناس بالاقاصيص البشرية التي يقصها ارباب العقول الكبيرة ، ولكنهم يهتمون كل الاهتمام بما يطرز به كثير من الكتاب الحاذقين المسائل العالمية والمالية وحوادث الجنايات حيث تبدو الفضيلة والمال والحرمة الممزقة الإرهاب والشهوة المتعذرة او المحققة الحين بعد الآخر . ان واحداً في العشرة الآلاف من القراء يتأثر لمطالعة ويتفهمه ، ولكن سكريب يرضى عنه جميع الاذكياء ، فلا تصعب الإحاطة بكنهه ، بل هو على طرف الثمام من كل قلب ، وقراءته مدعاة اليسر والسرور .

فقال له راويته : ومع هذا فقد قضيتم على شهرة أوهنه بضربانكم الدامية . فأجابه : ليس الامر بقدر ماتقدره فلا تداجيني . وان مات فقد خلفه غيره ممن « دهن بزيت القدامة في زجاجة التفاهة » وهذا الجنس دائم لايفنى . ثم انتقل الى الانحطاط العقلي في اوربا فقال : اذا قلت لك ان العبقرية معدومة فأنا ذاكر لك الماضي ، لان القرائح هي نتيجة التهذيب والثقافة والثمرة المجتناة من القرون البراقة الفائقة ، ولكن ما عم اوربا من الجهل والمادية المسلوفة وحب التسلق والتصلف لا يسمح للمرء ان يتكلم في العبقرية الآن وربما كانت الحال كذلك غداً . أصبحت الكتابة صناعة يسهل على الناس تعلمها ، لانها لاتتطلب الا حذقاً ، والاديب اوالكاتب هو بمثابة مرآة لعصر يخلده ، والعبقرية وهي مرالماضي ، ومنار المستقبل ، لاتلبث ان تزول وتضمحل . فالثقافة تتوارى والرغبة في استقصاء كنه الامور تنقص ، ونحن ننظر الى القرون الماضية كأنها قرون فنيت ، اللهم الا ان يحدث حدث يضرب العقول ويجدد المواد ، فندخل في دور قصير فعلي يشبه دور القرون الوسطى في الادب والفن الخ .

وعاد فرانس في مكان آخر وكرر هذا المعنى من كره التمجد وأبان اشمئزازه من الشهرة مخاطباً رجلاً كان يمتدح اليه آخر كتاب له بقوله : اياك والمبالغة ، فقد قلت مراراً ان الحظ واتاني بان عضدني بعض الاصحاب مثل ليمتر وكوبيه وماندیس فكتبوا في المقالات ونوّهوا بكتبي ، فنبه ذكري بعد خموله وقال : ان اكثر ما كان يشمئز منه رسائل كانت تتوارد عليه وهي تسميه هكتور فرانس ، وكان هذا كاتباً ايضاً يكتب

قصصه في أجرام العبيد ، فكانت نفس اناتول تتألم من نسبة الناس اليه اموراً ليست له ، حتى قال لاحد أصحابه : انه يود ان ينتحر كما فعل روبنستين الموسّر فقتل نفسه ، لكثرة ما وجه الناس اليه من المديح عن القطع الموسيقية التي كان يضعها روبنستين الحقيقي . ثم قال : واني لا أنزل عن هذا المجد كله مقابل قليل من الجمال ، ان إهاجة أجسام النساء أفضل من اثارة أفكار الرجال .

ولأناتول مواقف مع النساء وآراء بشأنهن قد لا تروقهن ، ونحن قد نستعظم صدور مثل هذه الأقوال من رجل عظيم كهذا : ومع هذا ننقل بعض آرائه في هذا الشأن لانها صورة من مجتمعه ، عرضت لخاطره فباح بها بلسانه ، وهي أشبه بما يدعوه الاوربيون الأدب المكشوف . وكان للعرب شيء منه يصرحون به من غير نكير . ولكن من اهل المجتمع الحديث من ينكرونه ، و يعدونه خروجاً عن قواعد الأخلاق واللياقة . ورب كلم يقبل في مجلس او مجمع ، و يعد من البذاءة او السلاطة النفوه به في مجلس او مجتمع آخر . وحرية الغرب اليوم لا تشبه حرية الشرق ، ومصطلح أمة لا يوائم مصطلح أخرى ولكن البشر مهما تكتم لم يبرح بشراً ، وان كان منه من يسرّ ومنه من يعلن .

فقد وقع لأناتول في احد مجالسه ان غنت فيه فتاة بولونية قطعة لشاعر الطليان دانونزيو فعلت الوجوه مؤثرات دلت على التبسط في اللذة ، وأخذت النفوس بما اهتزت له طرباً . وحاول أناتول ان يخلو في زاوية من الردهة بالفتاة يكلمها ، ولكن صاحبة الدار أبت على اناتول الا ان يكون حديثه علنياً ، وشق عليها ان تراه يخرج عن موضوع الجلسة ، فانتحى اناتول جانباً من الغرفة وقال في جملة ما قال : اني اسف ان يودع المرء شبابه ، فان الانسان عندما يصبح حقاً يعرف كيف يحب لا يستطيع الحب ولا يكون محبوباً . يجب ان يكون الحب من عمل الشيخوخة ، هذا ما قلته وأقوله ، ولو كنت أشارك المولى في إرادته ، لوضعت للمرء الحب في أواخر الحياة لا في مباديها ، والخالق تعالى رأى ذلك فجعل من بعض الحشرات ما يحب قبل ان يموت ، ثم بدل هذه الطريقة ، ولو كان لي من الامر شيء لخصصت الاعمال والمشاق للانسان في الوقت الذي يشبه فيه دودة الفراشة حتى اذا وافته الشيخوخة يغدو كالفراشة ، وتكون ايامه سعيدة ووقفاً على الحب ، فاذا قوي ساعده وعلت ثقافته بحسن الحب ومتى كثرت تجاربه يعرف العناق .

وذكر في احد مجالسه ان رجلاً افرنسياً من اهل القرن السابع عشر اشتبه في ان امرأته تخدعه فتكر ودبر مراراً ، وصح عزمه بعد ذلك على ان يفاتحها بالامر ، ويحمل اليها كأساً من السم هيقيها نصفه و يشرب النصف الآخر ليموتا معاً ، فرأت المرأة نفسها بريئة مما نسبه زوجها اليها ، ولكنه اضطرها الى تناول الكأس وقال لها : انني استدعيت اهلي واهلك ليشهدوا مصرعنا ، وجلبت الكاهن لتعترفي له ، وما كادت امرأته تشرب ما ناولها زوجها حتى اتى الكاهن فحلفت له بكل محرجة من الايمان انها ما كانت خائنة في زواجها ، وانها اذا غازلت احدهم او غازلها فما كان ذلك في غير محرّم ، فلما سمع الزوج قولها أيقن ان غيرته كانت في غير محلها ، فقفز من سريره الذي كان اضطجع عليه ، وقبل زوجه ورضي عنها ، وقال لها في الحال : ليس لك ان تخافي فليست الكأس التي شربتها سماً بل هي مادة مرة .

فسأله راويته وكيف شعرت المرأة بالسم وما هو به ، فأجابه بانها توهمت الكأس سماً زعافاً ، فان كل شيء في الوجود وعالم المعنويات عبارة عن أوهام واستهواء ، فرب مريض ينام بحقنة ماء وهو يتوهمها افيوناً ، وكم من امرأة ظنت نفسها حاملاً ولا تزال تعتقد ان في احشائها ولداً الى الشهر التاسع حتى يتجلى لها وهمها . وليت شعري اما كان الشهداء في العصور الاولى يحسون ان الملائكة تمسح وجوههم وهم يحرقون .

* * *

اناتول فرنس ممن شاكسوا الطبقات المتغلبة على المجتمع فأورثوه ذلاً وصغاراً ، فمن أجمل ما وصف به نفسه وعمله ومنزعه قوله : هنالك حقائق مرة المذاق على الطبقات المتأثلة والحكم الحاضر والمفهوم العام ، فمثل هذه الحقائق يجب عرضها على الناس بصورة تدل على عدم الاعتناء ، فاننا قوم نكتب للألاء الذين هم في الواقع وحدهم القراء ، فلا تهتكن ستر الهيكل بيد خشنة . بل اهتكه تدريجاً واخرقه بثقوب صغيرة خفية وبحجة انك تريد ان ترقعه . اقطع من هنا ومن هناك خرقاً واعمل منها ألاعيب صبيان ، وسهل على القاريء ان يفهم هو من نفسه ما لم ترد ان توضحه له .... يظنونني ماجناً و يقولون عني احياناً مشعوذاً وأحياناً سفسطائياً .... والحقيقة اني قضيت حياتي افرق ديناميتاً في قصاصات ورق .

وبينا تجد الامة الافرنسية تجد جان دارك وتحتفل لها كل سنة يقول عنها فرانس انها لو ظهرت هذه الايام لكان نصيبها السجن اوالمستشفى او وضع الماء البارد على رأسها ٠٠٠ وبينا تجد تلك الامة عبقرية نابليون تراه لا يصفه هو بما يخرج عن وصف المؤرخ المنصف ولا ينسب اليه شيئاً من الاعمال ولا سيما العلمية ، كمجموعة قوانينه المدنية ، الا انها من صنع من كانوا حول نابليون ومن عمل حملة غاشيته ٠ وسئل مرة عن غمبتا خطيب فرنسا فقال فيه : قد هاج فرنسا بسيل من جمله الفارغة ، ولقد كان مهذاراً عظيماً على الدهر ، وما أثر عنه انه قرأ كتاباً ، لانه لو قرأ لمنعته قراءته عن الكلام ٠

وذكرت في مجالسه مسألة دريفوس ومدح كليمانسو وجرى ذكر فيكتوريا ملكة الانكليز ٠ فقال هرفيو وكان في المجلس : ان عهد الملكة فيكتوريا يعد من حيث السياسة والآداب من أحسن العهود ، فهو حري بان يشبه عهد الملكة اليصابات ، وان عهود النساء كرينوبيا واليصابات وماري تريز وفيكتوريا وغيرهن قد كانت بالنسبة لعهود الملوك اكثر تعقلاً ، وان عدد الملكات اللائي كانت عهودهن مجيدة كثير ٠ فقال فرانس : النسبة معروفة لاتنافر فيها ، وهلا ادركت شرح ذلك من نفسك ياعزيزي هرفيو ، فان النساء والندميات على عهد الملوك هن الحاكمات فتجري الامور على طريق وسط ٠ ويكون عهد الملكات اكثر مجداً لان الرجال يصبحون فيه اصحاب الشأن فيكون العشاق والمستشارون هم الحاكمون ، فافهم ذلك وفقت الى الخير ٠ فضحك هرفيو من هذا الجواب ٠

تكلم فرانس ذات يوم وحط من قدر العلوم ولا سيما من بعضها كعلم الجنايات (Criminalogie) الذي وضعه لومبروزو الايطالي مدعياً ان المجرمين يعرفون بسيماهم في الماضي والحاضر والمستقبل وقال انه شهد بعض القضايا المهمة من الجنايات في المحاكم ، فكان الجناة على الاكثر من جمال الوجوه على جانب ، ومن الدعة مايشبه دعة الحملان ، ومن المشاشة والبشاشة ماهو موضع الإعجاب ٠ وقال : ان الفرص تخلق اللصوص ، ثم التربية ثم جناية المجتمع على بنيه ٠ وقال انه هو نفسه كان وجهه غير متناسب الاعضاء ، وان سقراط كان مشوه الوجه ايضاً ، وهو ما كان جانياً وكذلك الفيلسوف اليوناني ، وان ما يأتيه المجرمون قد يأتيه بعضهم بسائق عرضي ٠

ورأى العالم اشبه بما يصنعه الفاخوري من الاوعية والاواني وقال : ان منها ما لا يصلح لشيء بل يلقى كما تلقى القمامات للاسمدة ، وان على الارض قلائل جداً من المخلوقات الحية وما عداها ذو نبات موقتة لا تعرف نفسها انها تعيش ، ولا تعيش الا على صورة مضحكة ، وعليهم يطير كثير من الطيور الغريبة ، وهذه الطيور هي اوهامهم ، وان سماء البشر مغشاة برفرفة الاوهام ، فان اوهامنا مؤلفة من كل ضرب من ضروب الألوان ، من الضاحكة كالندى وصوت العندليب الى الألوان القاتمة كالظلمات والحزن ، فاذا جمعت أجنحتها طرفاً الى طرف يظلم العالم من اوهام البشر . اما من يحيون حياة حقيقية وهم الذين يفكرون في ملكوت السموات والارض ، ممن تجردت عقيدتهم عن الاوهام الا قليلاً ونظروا الى السماء مجردة فانهم قلائل يعدون على الاصابع .

وقال مرة (بتعريب شكيب) يعجب الناس بسعة اطلاعي واما انا فما عدت أريد ان اكون واسع الاطلاع الا في مسائل الحب فالحب قد اصبح اليوم هو مجدي الوحيد الخاص ، وعلى الحب أريد ان احبس ما بقي من حرارة قريحة الخمود . ولا ارى في مليّاً بنص كل ما يُقذف في روعي من هذا الموضوع . فروح الطهر والصيانة اصبحت غالبة على آداب الدرس . ان المرأة صارت عندي كتاباً يقرأ وليست كتاباً يفسد كما قلت لك . ولا بد لكثير التصفح فيه ان يسقط على موضع منه يجد فيه مكافأته على اتعابه . فانا اتصفح واتصفح كثيراً يا حبيبي . . ومتى اظفرني الله بمخلوقة من مخلوقات الله فانني أطالع هذا الكتاب البديع سطراً فسطراً ولا أجوز منه نقطة ولا شكلة وقد أضيع فيه احياناً نظاراتي .

و يرى اناتول فرانس ان البدع تؤيد الشريعة وكان يقول : لا يوجد محصنون وانما يوجد مراؤن و يوجد مسلوبو العقل و يوجد مرضى و يوجد مجانين . اعلم انه بدون شهوة لا يوجد شعور وبقدر ما نكون شهوانيين نكون اذكياء . واحسن فصول الحياة هو فصل اللذات . فالحكيم من يجتهد في إطالة هذا الفصل . بعض الناس يسخرون من الشيخ الذي يعشق . فيالحماقة البالغة . فاما انا فأقلب قضية ديكارت فأقول احب اذاً انا موجود . ما عدت احب ما عدت اذاً في الحياة شيئاً .

وتكلم في احد مجالسه متصنعاً في يأسه فقال : ان الاشتراكية متعذر تحقيقها ،

فكونوا على بينة من امركم ، فان التقاليد المالية «الرأسمالية» التي تشرف الثروة هي في الغاية من السلطان ويستحيل علينا ان نغلبها · والفقراء انفسهم يحترمون هذه التقاليد اشد من احترام الاغنياء لها · انظروا ماحدث لي فان منازعي وافكاري اشتراكية ، ولكن اي فائدة من ذلك مادام كل من يحيطون بي معارضين لي في هذه السبيل ، فقد جاءني منذ مدة نجار يرتب خزانة كتبي ، فاجتهد ان يضع المجلدات ذات التجليد النفيس في مكان تأخذه العين ، وان يخفي المجلدات التي كان جلدها ساذجاً في داخل الخزانة على الحائط ، له الويل انه يخجل من الكتب الفقيرة · وكذلك حال الوصيفة فانها تلقي في الحال في سلة سقط المتاع كل كتاب مخرّق حاكّة عليه بمنظره ، حتى ان كلبي اوكلب مدام كاليافيه في الباب يعوي في وجوه الفقراء ويريد ان يمزق باسنانه كل من لا تكون بزتهم حسنة · فكيف والحالة هذه تتوطد أركان الاشتراكية · ولقد أراد تولستوي الفيلسوف الروسي — ان يعيش بحسب قواعد الانجيل اي عيشة اشتراكية فلم يسعه الا الفرار من داره · فالمرء متى ملك داراً اوكلباً وكان له أناس من حوله يصبح مالكاً ، فيشعر بالقوة التي تأتيه من التقاليد الرأسمالية · وثقوا بان روتشيلد هو متفوق علينا ابداً ، هو آخذ بعنان الاموال ، وجالس على عرش الماضي ، وحالته متأصلة واي تأصل بعادات الوف من السنين ، لم تكن تحوي غير الحرمة للغنيمة المستحصلة ، على حين ترانا نحن لانقف على غير ارجلنا صعاليك ولا مال لنا ، ورأسمالنا بعض مقالات في الصحف ، وبعض اوهام مشوشة في رؤوسنا ، فالمنافسة بيننا وبينهم ليست على أتمها · على اننا لايجب ان نفقد قوتنا ، فربما كتب لنا النصر يوماً ، فان غمامة تكون بحجم منديل الجيب تنشر العاصفة ، وشيعة قليلة من الجانين صدرت منها النصرانية القادرة اه ·

وقال في موضع آخر : انا لا أرجو ان تكون الغلبة الدائمة للاشتراكية في عهدنا ، فالاشتراكيون كثير عددهم ، على حين يؤلف ارباب رؤوس الأموال أقلية صغيرة ، وبذلك كانت قوتهم · لانهم يستطيعون ان يحسنوا البحث والاتفاق اكثر من الاشتراكيين وكان من الطبيعي ان يقل فيهم البله المعجزون ، ويستطيعون ان ينفذوا خططهم في الخفاء وبدون ظهور وضجة وبشيء من الصبر · ثم ان المثلاء يدافعون عن حوزتهم وأموالهم فيستميتون في دفاعهم ، وعلى هذا يكونون الى التماسك وتكون صفوفهم متراصة ، على حين

لا يفادي صعاليك الاشتراكيين الا بما لا يملكون ، ولهذا ينقصهم النظام ؛ ولا يحفلون بما يأتون · هم يدافعون بصدورهم ، و باوهام ومقالات في الصحف ، وبآمال لهم في المستقبل اما خصومهم فيدافعون بسندات على المصارف وبأسهم مالية وبيوت وحلي وصاحبات وسيارات · فحماسة الصعاليك ظاهرة · وعبثاً تزداد وتحدث ضجة الخ ·

وذكرته صديقته بمشهد من الاصحاب بقصة الغني الخجول فقال : وهل في العالم غني خجول ، الخجل من شأن الفقراء ، لان الاغنياء سلبوهم نعمتهم ، ومع هذا يلجأون اليهم كأنما يلجأون الى خالقهم والاغنياء لا يخجلون ، فهم لا عمل لهم يطفحون سكراً بالخمور ، وتكتظ معدهم بالمآكل ، ثم تحدثهم انفسهم ن يستولوا على كل ما فيه الجمال ، ويقتنون بدائع الصنائع ، وكان من حقها ان تكون وقفاً على الناس ، وهم لا يعطون شيئاً لمن هم الاصل في غناهم ، وأرى انه كان عليهم ان يخجلوا ، لانهم يتجسد فيهم الظلم وقلة المساواة وجميع شرور المجتمع الانساني · ثم قال : كان رجل انكليزي اسمه دبلي أعجوبة في أطواره ، وذلك قبل عهد الملكة فيكتوريا لا يحلم ليله ونهاره الا في إغاثة المحاويج ويرقب الفقراء في غدوه ورواحه · ولا يستمع الا لأصوات البائسين ، ولا يهتم الا لارباب الاحذية البالية والالبسة الممزقة والسحنات الجائعة ، فيعطي ويطب ويغيث · فبصر ليلة برجلين يتكلمان في احد المنعطفات ، فأنصت الى حديثهما ، وكان فحواه ان احدهما يحتاج الى مائتي جنيه وانه اذا خانه السعد ولم يسدد بها ديونه يفلس لامحالة ، و يكون مصيره الانتحار غرقاً ، وقال له صاحبه انه من المستحيل ان يحرز هذا المبلغ ، فأجابه المحتاج ليس الا دبلي هو الذي يمكنه ان ينجده بالمال المطلوب ، فاقترب منهما دبلي وقال انني سمعت حديثكما · وانا أعرف دبلي شخصياً ، ولكن أريد ان لا يذهب عنكما ان في المدينة أناساً كثيرين على شاكلة دبلي يحبون عمل الخير ، فأواعدكما الى المقهى الفلاني غداً لاعطاء المحتاج مائتي جنيه على ان لا يفوتكما ان الخير في الناس عندنا لا ينقطع · وهكذا كان ·

(البقية للآتي) محمد كرد علي

عصر الجاحظ (١)

— ١ —

« حرية الفكر »

اذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ فلا نستطيع ان نصور هـذا العصر باحسن من تصوير الجاحظ له ، على ان الجاحظ لم يتبسط في هذا التصوير وانما جرت له عبارة في ترغيبه في اصطناع الكتاب ، واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب ، وهذه العبارة على وجازتها وعلى سهولتها قد مثّلت لنا الدهر الذي عاش فيه الجاحظ اكمل تمثيل على ان أبا عثمان قد قذف بها عَرَضًا وأعني بذلك انه نطق بها في مقام وصف غير وصف عصره ، قال (٢) :

« و ينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيد وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم » .

فاذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثّلت لنا كيف تتسلسل آثار العقول فيؤدي كل عصر نتائج ما يجده من العبرة الى العصر الذي يليه ، و يزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجارب ، اذا جاوزنا هذا كله تراءت لنا صفة عصر الجاحظ

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٤٣) .

المجلد الحادي عشر الجزء ٥ و٦

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

أيار — حزيران
١٩٣١

دمشق :
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً { في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل ٥٠٠ من السنة الاولى الى الرابعة كل سنة منها
» ٣٠٠ » الخامسة الى العاشرة » »
في الخارج ٦٠٠ » الاولى الى الرابعة » »
» ٣٥٠ » الخامسة الى العاشرة » »

نقية صافية وبرزت لنا متكاملة متسقة فماهي هذه الصفة بل ماهي هذه الصفات: امكان القول وصلاح الدهر وخواء نجم التقييد وهبوب ريح العلماء وكساد العي والجهل وقيام سوق البيان والعلم .

هذه خصائص عصر الجاحظ أفلا يحق لنا بعد معرفة هذه الخصائص ان نقول في عصر الجاحظ ماقاله احد شعراء فرنسة في عصره : واي عصر أخصب من هذا العصر في المعجزات وكيف لا يكون عصر ابي عثمان خصيباً وقد تهيأت لابنائه حرية الفكر وانبسط فيه سلطان البيان وانفسحت آفاق العلم فان عصراً تقوم فيه سوق البيان وتقوم فيه سوق العلم ويمكن اهله ان يفصحوا عما يوحي اليهم هذا الادب وهذا العلم لعصر ريان الجنبات مخصاب التربة .

فلندقق في هذه الخصائص دون شيء من التطويل .

قلنا : صفات عصر الجاحظ حرية الفكر وانبساط العلم وقيام سوق الادب فلنشرع في الكلام على حرية الفكر . ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا ان نشير الى ناحية من اختلاف الجمهور في امور الدين دون الخوض في النواحي كلها .

يقول المأمون(١) :

« لنا اختلافان : احدهما كاختلافنا في الأذان وتكبير الجنائز وصلاة العيدين والتشهد والتسليم من الصلاة ووجوه القراآت واختلاف وجوه الفتيا وما اشبه ذلك وهذا ليس باختلاف وانما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ومن ربع لم يأثم .

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على اصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر » .

فلنوضح هذا القول بعض التوضيح :

انكم لتعلمون ان علوم الدين قسمان : قسم يتعلق باصل الدين وهو علم الكلام اوالتوحيد وقسم يتعلق باحكام الاعمال وهو الفقه واصوله ومرجع المسلمين في هذه الاحكام القرآن والحديث .

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٢٥٥) .

والمسلمون في هذا كله طائفتان : طائفة ترجع في اصول الفقه واصول الدين الى الكتاب او الى السنّة او الى اثر من آثار السلف متقيدين بهذه المراجع دون ان يعمل الواحد منهم عقله في تفسير آية او تأويل حديث وهم اهل الحديث ٠

وطائفة يستعملون عقولهم في تفسير الآيات او تأويل الاحاديث دون شيء من التقيد وهم المعتزلة او اصحاب الفكر الحر ٠

وبين اهل الحديث وبين المعتزلة اختلاف في امور شتى منها : القضاء والقدر وافعال العباد وصفات الله تعالى وخلق القرآن وغير ذلك ٠

فالمختلفون في اصول الفقه لا يكفّر بعضهم بعضاً وانما المختلفون في التوحيد قد يكفر بعضهم بعضاً فالحديثي يرى ان المعتزلي صاحب بدعة قد نقض بيديه ما أجمع عليه الجمهور وما هدت اليه الآثار والاخبار والمعتزلي يرى ان الحديثي انما هو عامي ٠

هل كان يجرأ احد قبل عصر الجاحظ ممن خالف الجماعة على التصريح برأيه ؟

ان الذي اتصل بنا علمه ان الخلفاء من قبل المأمون كانوا يعاقبون على الزندقة منهم المهدي ومنهم ابنه الهادي ٠

اما المهدي فقد قال يوماً لموسى ، اي لابنه الهادي وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى ان يتوب فضرب عنقه وامر بصلبه : يابني ان صار لك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة (يعني اصحاب ماني) فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من طرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف وتقرّب بامرها الى الله لاشريك له فاني رأيت جدّك العباس في المنام قلّدني سيفين وأمرني بقتل اصحاب الاثنين » ٠

واما الهادي فقد كان في جملة من قتله يزدان بن بازان الكاتب فقد حج هذا فنظر الى الناس في الطواف يهرولون فقال : ما أشبههم الا ببقر تدوس في البيدر ٠

وقد منع الرشيد عن الجدال في الدين وحبس اهل علم الكلام[1] ٠

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص ٣١) ٠

فلما جاء المأمون أطلق القول وفسح في المناظرات وقد كان المأمون نفسه يحاج الفقهاء في كثير من الأمور منها احتجاجه عليهم في فضل علي فكان يأمر قاضي القضاة يحيى بن اكثم ان يحضر معه رجالاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ويحسن الجواب فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه وعليه سواده وطيلسانه والطويلة وعمامته فاذا استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته وما كان يمنعه من خلع خفيه الا العلة ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالسهم ويقول لهم : انما بعثت اليكم معشر القوم في المناظرة ثم يلقي مسائل من الفقه و يرد على كل واحد منهم مقالته ويخطئ بعضهم ويناظرهم في مذهبه الذي هو عليه واذا قال لهم : ان امير المؤمنين يدين الله على أن علي بن ابي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الناس بالخلافة قالوا له دون شيء من التهيب : ان فينا من لا يعرف ما ذكر امير المؤمنين في علي ، وقد دعانا امير المؤمنين للمناظرة . وكان يخيرهم أن يسألوه او ان يسألهم ، وكان يتبين له عنادهم في بعض الاوقات وقد يطول مجلسهم و يرتفع النهار وهم في مناظرة[1] .

وقد كان يرد على الملحدين واهل الاهواء واذا قال لمرتد كان أسلم على يديه : اخبرني ماالذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا وقال له المرتد غيرهياب ولا وجل : أوحشني منكم ما رأيت من الاختلاف في دينكم ، لم يتنكر له المأمون وانما كان يرد عليه فلا يزال يخرج من حجة الى حجة حتى يرجع به الى الاسلام[2] .

واليكم نمطاً من مناظرته ، قال الجاحظ :

« ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بابي علي وذلك عندما رأى من تطويل محمد بن الجهم وعجز العتبي وسوء فهم القاسم بن سيار فقال له المأمون : أسالك عن حرفين فقط خبرني هل ندم مسيء قط على إساءته اونكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط ، قال : بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم ، قال : فخبرني عن الندم

(١) راجع العقد الفريد (الجزء الثالث ص ٤٢) .
(٢) راجع العقد الفريد (الجزء الاول ص ٢٥٥) .

على الإساءة ، إساءة او احسان ، قال : احسان ، قال : فالذي ندم هو الذي أساء او غيره ، قال : الذي ندم هو الذي اساء ، قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر وقد بطل قولكم : ان الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال : فاني أزعم ان الذي اساء غير الذي ندم ، قال : فندم على شيء كان منه ، او على شيء كان من غيره ، فقطعه بمسألته ولم يتب ولم يرجع حتى مات[1] » .

واننا لانستطيع ان نفهم روح هذه المناظرة الا اذا فهمنا روح المذهب الذي ناظر فيه المأمون وهو مذهب ماني ، وسيأتي الكلام عليه .

وقد كان غرض المأمون في هذه المناظرات كلها اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين وكان يكره في المناظرات الشتم والبذاءة لان الاول في نظره عي والثانية لؤم وانما اباح الكلام واظهر المقالات فمن قال بالحق حمده ، ومن جهل ذلك وقفه ، ومن جهل الامرين حكم فيه بما يجب .

غير انه لم يصل في مجامع مناظراته الى ما رمى اليه فلم ير بدا من الاستعانة بسلطانه في اقامة الدين ولاسيما في خلق القرآن واحداثه فعزم على ان لايستعين في عمله ولا يثق فيما قلده الله واستحفظه من امور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده و يقينه .

وادى الامر في هذا كله الى ان الذي كان لا يقول بخلق القرآن يشد في الحديد ولما حضرته الوفاة تقدم الى اخيه المعتصم في ان يبني على اصوله في مناظرة القوم في خلق القرآن فكان المعتصم يجمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة لامثال هذه المناظرات وكان يقول في بعضها :

« ما شيء أحب الي من الستر ولا شيء اولى بي من الاناة والرفق ، وكان يقول لمناظره : لئن استحييك بحق أحب الي من ان اقتلك بحق[2] » .

الا ان من خالفه كان يلقى الضرب والتعذيب . وكذلك الواثق فانه سار سيرة ابيه

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٤١) .

(٢) هامش الكامل — رسائل الجاحظ (الجزء الثاني ص ١٣٤) .

المعتصم وعمه المأمون في المناظرة في خلق القرآن فمن خالفه في رأيه قتله . حتى جاء المتوكل فترك الناس وشأنهم .

فالى هذه الحرية أشار الجاحظ في قوله : وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيد ، واخذ من بعد هذا يستنهض العلماء لاظهار ما عندهم وللقيام بما يلزمهم وكان هو نفسه يُظهر ما عنده غير مبال بالجمهور .

فلنضرب مثلاً لحرية فكره في التفسير وقد خرج عما يعتقده الجمهور ، قال[1] :

« وقد قال الناس في قوله تعالى : انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فزعم الناس ان رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى الا رؤوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم ، فقال اهل الطعن والخلاف : كيف يجوز ان يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته بكتاب ناطق او خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخفيف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى انه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون انسان كذلك والناس لا يفزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، او صوّره لهم واصف صدوق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صوّرها لنا صادق وعلى ان اكثر الناس من هذه الامم لم يعاين اهل الكتائب وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ولا يتوهمون ذلك ، لا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً ؟ قلنا : وان كنا لم نر شيطاناً ولا صوّر رؤوسها لنا صادق بيده ففي اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يصفون ذلك في مكانين احدهما ان يقولوا : لهو أقبح من الشيطان . والوجه الآخر ان يسمي الجميل شيطاناً على جهة التطير به كما تسمي الفرس الكريمة : شوهاء ، والمرأة الجميلة صمّاء ، وقرناء ، وخنساء ، وجرباء ، وأشباه ذلك على جهة التطير به ، ففي اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على انه في الحقيقة

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ٦٤) .

أقبح من كل قبيح والكتاب انما تزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم بغاية التثبت ، وكما يقولون : لهو أفصح من السحر الحلال ، وكذلك يقولون كما قال عمر بن عبدالعزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته : هذا والله السحر الحلال ، وكذلك ايضاً ربما قالوا : ما فلان الا شيطان على معني الشهامة والنفاذ وما أشبه ذلك » .

وقد بلغ من هذه الحرية ان المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، من هذه المعارضات ماروراه الجاحظ فقد قال(١) :

« وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل ايضاً صاحبكم انما توعد أصحابه بالنار لان بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دهن ، وانما هي ناحية الحرور ، والوهج والسموم ، لان ذلك المكروه أزجر لهم فرأى هذا المجوسي انه قد عارضني فقلت له : ان اكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف وشدة البرد في الشتاء لانها بلاد صخور وجبال ، والصخر يقبل الحر والبرد ، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب : كهيان ، والله بالفارسية هو الجبل فمتى أحببت ان تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرها في الصيف فانظر في اشعارهم وكيف قسموا ذلك وكيف وضعوه لتعرف ان الحالتين سواء عندهم في الشدة ، والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج وقلته ، فقد تكون بلدة ابرد وثلجها اقل ، والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها اكثر حكمنا ان نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون . وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في اناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط ولا بد من شرط ومقادير واختلاف جواهر ومقابلات احوال كسرعة البرد في بعض الادهان وابطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المغلي وفي الماء المتروك على حاله وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ وكما يعتري البول من الخثورة والجمود على قدر طبائع الطعام والقلة والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص٢٥) .

فيستحيل من الحرارة الى مقدار لا يستحيل اليه ماهو أحرّ . وحجة أخرى على الجومي وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أبعث الا الى اهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة فأما وأصل نبوّته والذي عليه مخرج امره وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته انه المبعوث الى الأحمر والأسود والى الناس كافةً . وقد قال الله تعالى : قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً . وقد قال تعالى : نذيراً للبشر فلم يبق ان يكون مع ذلك قولهم معارضة وان يعد من باب الموازنة » .

دمشق : ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٣١

عصر الجاحظ

- ٢ -

« الزندقة »

هذا شيء من حرية الفكر التي أشار اليها الجاحظ في عصره الا انها حرية لم يتراخ أمدُها وقد خالطتها الشدة في خاتمة الامر فكانت المناظرات في مجالس الخلفاء لا تخلو من ضرب المخالفين لآراء الجمهور وتعذيبهم وقتلهم الا انه كيف كان الامر فقد اتى على علماء المسلمين حين من الدهر كانوا فيه يعالنون بمعتقداتهم دون ان يخافوا صولة السلطان وقد كان غير المسلمين من المجوس وأضرابهم يعارضون هؤلاء العلماء في امور متعلقها الدينُ من غير ان يتجهمهم احد بما يكرهون وكان لاهل الكتاب من نصارى ويهود حرمة تختلف على اختلافهم في جلالة القدر قبل الاسلام وبعده فكانت النصارى أحبَّ الى المسلمين من غيرهم وأقربَ مودةً وقد فصّل لنا الجاحظ اسباب هذه المحبة وقرب هذه المودة فقال(١)

« جاء الاسلام وملوك العرب رجلان : غساني ولخمي وهما نصرانيان وقد كانت العرب تدين لهما وتؤدي الاتاوة اليهما فكان تعظيم قلوبهم لهما راجع الى تعظيم دينهما وكانت تهامة وان كانت لقاحاً لاتدين ولا تؤدي الاتاوة ولا تدين للملوك الا انها كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظّم الناس وتصغير ما صغروا ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب معروفة عند اهل النسب ولولا ذلك لدللتُ عليها بالاشعار المعروفة والأخبار الصحيحة وقد كانت تتجر الى الشام وتنفذ رجالها الى ملوك الروم ولها رحلة في الشتاء

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٢) .

والصيف في تجارة مرةً الى اليمن ومرةً قبل الشام ومصيفها بالطائف فكانوا أصحاب نعمة، وذلك مشهور مذكور في القرآن وعند اهل المعرفة وقد كانت تهاجر الى الحبشة وتأتي باب النجاشي وافدةً فيحبيهم بالجزيل ويعرف لهم الاقدار ولم يكن يعرف ذلك كسرى ولا يأنس بهم وقيصر والنجاشي نصرانيان فكان ذلك ايضاً للنصارى دون اليهود والآخر من الناس تبع للاول في تعظيم من عظّم وتصغير من صغّر .

وأخرى وهي ان العرب كانت النصرانية فيها فاشيةً وعليها غالبةً الا مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ولم تفش فيها النصرانية الا من كان قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد ، فانهم كانوا نصارى وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل ولم تعرف مضر الا دين العرب ثم الاسلام وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطي في قبائل كثيرة وأحياء معروفة ثم ظهرت ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس واحياء بكر ثم في آل ذي الجدين خاصة وجاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من ناس من اليمانية ونبذ يسير من جميع اياد وربيعة ومعظم اليهودية انما كان بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب فعطف قلوب دهماء العرب على النصاري الملكُ الذي كان فيهم والقرابة التي كانت لهم » .

هذه طائفة من الاسباب التي من أجلها كانت النصرانية ارفع منزلةً من اليهودية في عيون المسلمين وأظهر هذه الاسباب الملك الذي نشأ للنصارى قبل الاسلام . اما اليهود فلم تلن قلوب المسلمين لهم لينها للنصارى ولنرجع الى الجاحظ في معرفة العلل التي غلّظت قلوب المسلمين على اليهود . قال ابو عثمان[1] .

« ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادي الانسان من يعرف ويميل على من يرى ويناقض من يشاكل ويبدو له عيوب من يخالط وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام في سائر الناس وسائر العرب أطول وعداوتهم أشد فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً وقد كانت الانصار متقدمة الجوار مشاركة في الدار

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٥٩) .

حسدتهم اليهود على نعمة الدين والاجتماع بعد الافتراق والتواصل بعد التقاطع وشبهوا على العوام واستمالوا الضعفة ومالؤا الاعداء والحسدة ثم جاوزوا الطعن وادخال الشبهة الى المناجزة والمنابذة بالعداوة فجمعوا كيدهم وبذلوا أنفسهم واموالهم في قتالهم وإخراجهم من ديارهم . وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر وترادف لذلك الغيظ وتضاعف البغض وتمكن الحقد . وكانت النصارى لبعد ديارهم من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره لا يتكلفون طعناً ولا يثيرون كيداً ولا يجمعون على حرب فكان هذا اول أسباب ما غلّظ القلوب على اليهود وليّنها على النصارى . ثم كان من امر المهاجرين الى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حبّبهم الى عوام المسلمين وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود ومن شأن الناس حب من اصطنع اليهم خيراً او جرى على يديه » .

هذا ما كان من مقدار نظر المسلمين الى اهل الكتاب ولما كان المسلمون على النصارى أعطف واليهم أميل كان للنصارى شيء من الميزة ظهرت في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم قال الجاحظ في كلامه عليهم (١) :

« اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحذفوا المدينى ولبسوا الملحم والمطبقة واتخذوا الشاكرية وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع ... فرغب اليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبّوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالهم لا يفعلون ذلك واكثر منه وقضاتنا وعامتهم يرون ان دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة » .

وقد كان منهم كتّاب السلاطين وفراشو الملوك واطباء الاشراف ولم يكن اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً اوقصاباً اوشعاباً (٢) .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٧٠) .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٩) .

وبلغ من استصغار شأن اليهود ان الصبيان كانوا يصيحون بالفهد اذا رأوه : يا يهودي وكانت العامة تزعم ان الفأرة كانت يهودية سحّارة والارضة يهودية ايضاً عندهم والضب يهودي حتى قال بعض القصاص لرجل اكل ضباً : اعلم انك اكلت شيخاً من بني اسرائيل».
وبلغ من إجلالهم للنصرانية انهم كانوا لا يضيفون اليها شيئاً من السباع والحشرات[1]

* * *

الى اي شيء ادّت حرية الفكر التي لمّح اليها الجاحظ .

من جملة عواقب هذه الحرية استفاضة الزندقة في جمهور المسلمين وكثرة الفرق وكما نبّهنا الجاحظ على إمكان القول في عصره فكذلك نبهنا على نتائج إمكان هذا القول فلئن حمد دهره في مبدإ الامر فما لبث ان ذمه حتى قال[2] :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً وأعرضوا عنه صفحاً فليس الا : لا أو نعم الاّ ان قولهم : لا موصول منهم بالغضب وقولهم : نعم موصول منهم بالرضا وقد عزل الحق جانباً ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن قال عمرو بن الحارث : كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ونحن اليوم نتمناها »

واذا أردنا ان نعرف كيف استفاضت الزندقة في عصر الجاحظ فلنرجع الى الجاحظ نفسه فقد كشف لنا ناحية من استفاضتها فقال في اثناء كلامه على فريق من أهل الكتاب[3] :

« يتبعون المناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد من روايتنا والمتشابه من آي كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين وحتى مع ذلك ربما تبرؤا الى علمائنا واهل الأقدار منا ويشغبون على القوي ويلبسون على الضعيف ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى انه متكلم وانه ليس

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٦٢) .
(٢) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٣) .
(٣) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٧٤) .

احد أحق بحاجة الملحدين من احد وبعد فلو لا متكلو النصارى واطباؤهم ومنجموهم ماصار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المانية والديصانية والمرقونية والفلانية ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكانت تلك الكتب مستورة عند اهلها ومخلاة في ايدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في احداثنا واغبيائنا فمن قولهم كان اولها » .

والظاهر ان تزندق القوم بالعراق كان فاشيا بين المسلمين غير العرب فقد روى الأصمعي عن الخليل بن احمد عن ابي عمرو بن العلاء انه قال : اكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية (١) .

الا ان السلطان لم يغفل عن معاقبة الزنادقة فكان منهم من يهرب من وجه السلطان ومنهم من يقتل ومنهم من يستر زندقته حتى ينجو من الشر فقد قال الجاحظ (٢) :

« والزنادقة لم تكن قط أمة ولا كان لها ملك ومملكة ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

* * *

وقد شاعت الزندقة في طبقات الادباء وظهرت على اشعارهم آثارها .

فمن الذين اتهموا بالزندقة حماد الراوية فقد عرّض به حماد بن الزبرقان قال (٣) :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ... ويقيم وقت صلاته حماد

هدلت مشافره الدنان فأنفه ... مثل القدوم يسنها الحداد

وابيض من شرب المدامة وجهه ... فبياضه يوم الحساب سواد

ومنهم ناس ذكرهم حماد عجرد في هجائه لبشار فقال (٤) :

(١) طبقات الادباء للانباري (ص ٣١) .

(٢) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٣٨) .

(٣) « « « ١٤٢

(٤) « « « ١٤٣

لو كنت زنديقاً عمار حبوتني أو كنت اعبد غير رب محمد
او كنت عندك اوتراك عرفتني كالنضر او الفيت كابن المقمد
او كابن حماد ربيئة دينكم جبل وما جبل القوي بمرشد
لكنني وحدت ربي مخلصاً فجفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقها لها لم يمهد
والنجم مثل الزرع ان حصاده منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : وحماد هذا أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الابيات واما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت ... البيت فليس يقول احد ان الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه .

ومنهم يونس بن فروة وفي يونس يقول حماد عجرد[1] :

ماالناس عندك غير نفسك وحدها والخلق عندك ما خلاك بهائم
ان الذي أصبحت مفتوناً به سيزول عنك وانف جارك راغم
فتعض من ندم يديك على الذي فرطت فيه كما يعض النادم
فلقد رضيت بعصبة آخيتهم اوخاهم لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دخلة اني لعرضك في اخائك ظالم

وكان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان و يونس بن هارون وعلي ابن الخليل و يزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وابان بن عبد الحميد وعمارة بن حربية يتواصلون وكأنهم نفس واحدة وكان بشار ينكر عليهم و يونس الذي زعم حماد عجرد انه قد غرّ نفسه بهؤلاء كان أشهر بهذا الرأي منهم وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الاسلام بزعمه[2] .

وذكر ابو نواس أبان بن عبدالحميد اللاحقي وبعض هؤلاء ذكرَ انسان يرى لهم قدراً وخطراً في هجائه لأبان وهو قوله :

---

(١) الحيوان (الجزء السابع ص ١٤٣) .
(٢) « « « « ١٤٣

جالست يوماً ابانا لا درّ درّ ابان
ونحن حضر رواق الامير بالنهروان
حتى اذا ما صلاة الاولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا الى انقضاء الاذان
فقال: كيف شهدتم بذا بغير عيان
لا اشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت: سبحان ربي فقال سبحان ماني
فقلت عيسى رسول فقال: من شيطان
فقلت: موسى كليم المهيمن المنان
فقال: ربك ذو مقلة اذاً ولسان
فنفسه خلقته أم من، فقمت مكاني
عن كافر يتمارى بالكفر بالرحمن
يريد ان يتسوّى بالعصبة المجّان
بعجرد وعباد والوالبي الهجان
وقاسم ومطيع ريحانة الندمان

وتعجبي من ابي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشدّ من تعجبي من حمّاد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لا يقوله احد وهذه قرة عين المهجو والذي يقول:
سبحان ماني يعظم امر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول انه من قبل شيطان واما قوله: فنفسه خلقته أم من فان هذه المسألة نجدها ظاهرة على السن العوام والمتكلمون لا يحكون هذا عن احد. وفي قوله: والوالبي الهجان دليل على انه من شكلهم والعجب انه يقول في ابان انه من يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل واصبغ وابان فوق ملء الارض من هؤلاء. ولقد كان ابان وهو سكران اصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة فاما اعتقاده فلا أدري ما أقول فيه لان الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظير ولكن للناس تأسٍ وعادات وتقليد للآباء والكبراء

ويعملون على الهوى ، على ما يسبق الى القلوب و يستثقلون التحصيل ويهملون النظر حتى يصير في حال متى عاودوه وأرادوه ونظروا بابصار كليلة وأذهان مدخولة مع سوء عادة ، والنفس لاتجيب وهي مستكرهة وكان يقال : الطفل اذا كره عمي ومتى عمي الطباع جسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل ولم يكد يفهم ما عليه وله فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق الى القلب .

ومن الذين اتهموا بالزندقة ابو نواس فقد كان يتعرض للقتل بجهده وقد كانوا يعجبون من قوله :

كيف لا يدنيك من امل   من رسول الله من نفره

فلما قال :

فاحبب قريشاً لحب أحمدها   واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشيء غطى على الاول —

وانكروا عليه قوله :

لو اكثر التسبيح ما نجاه

فلما قال :

يا احمد المرتجى في كل نائبة   قم سيدي نعص جبار السموات

غطى هذا على الاولى وهذا البيت مع كفره مقيت جداً وكان يكثر في هذا الباب[1] واكثر من قتل في الزندقة من كان ينتحل الاسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وامهاتهم نصارى[2] .

وقد صحب هذه الزندقة وهذا الكفر شتات المسلمين و كثرة الفرق فبعد ان كانوا يجمعهم نظام واحد ودين واحد لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم حتى أصبح الانسان يحار في كثرة الفرق ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وبكرية وجبرية وفضلية وشمرية ومرجئة وعثماني وخارجي واباضية ونابتة وحشوية وغالية

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص١٤٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٦٩) .

وسميطية وكيلية وسبابية وديصانية وجهمية وصوفية وناجبة وصفرية والازارقة فضلا عن المارقة والمانية والدهرية واشباهها .

ولا بأس بان اذكر لكم نبذاً من معتقدات الزنادقة مما أورده الجاحظ في كتبه .

فالمانية[1] تزعم ان العالم بما فيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارّة ، وان الانسان مركب من جميعها على قدر مايكون في كل انسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر او رجحان الشر على أجناس الخير وان الانسان وان كان ذا حواس خمسة فان في كل حاسة فنوناً من ضده من الاجناس الخمسة فمتى نظر الانسان نظرة رحمة فتلك النظرة من النور ومن الخير ومتى نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة وكذلك جميع الحواس وان حاسة السمع جنس على حدة وان الذي في حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذي في حاسة السمع من الخير ولكنه لا يضارّه ولا يفاسده ولا يمنعه فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس ولا يعين عليه لانه ليس ضداً وان أجناس الشر خلاف لاجناس الشر ضد لاجناس الخير وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يضاد وان التعاون والتأذي لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادّها وانما يقع بين متفقها .

والدهري[2] ليس يرى ان في الارض ديناً او نحلة او شريعة او ملة ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ولا يتوقع العقاب على الإساءة ولا يتوخى الثواب على الاحسان وانما الصواب عنده والحق في حكمه انه والبهيمة سيان وانه والسبع سيان ليس القبيح عنده الا ماخالف هواه وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والألم وانما الصواب فيما نال من المنفعة وان قتل الف انسان صالح لنالة الدرهم الرديء .

وقال في موطن آخر[3] :

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٤١) .
(٢) « « « « ٦
(٣) « « « « ٣٢

« فان كان الدهري يريد من اصحاب العبادات والرسل ما يريد من الدهري الصرف الذي لا يقر الا بما أوجده العيان وما يجري مجرى العيان فقد ظلم وقد علم الدهري ان لنا رباً يخترع الاجسام اختراعاً وهو حي لا بحياة وعالم لا بعلم وانه شيء لا ينقسم وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق وان الانبياء تحيي الموتى وهكذا كله عند الدهري مستنكر » .

واما الديصانية فقد زعمت - على ما قال ابو اسحق النظّام — ان اصل العالم انما هو من ضياء وظلام وان الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة انما هي نتائج على قدر امتزاجها [1] .

دمشق : ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣١

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٧) .

باب الهمزة والسين (١)

« وما يثلثهما »

(أسف) الهمزة والسين والفاء اصلٌ واحد يدل على الفوت والتلهف وما أشبه ذلك. يقال أَسِفَ على الشيء يأسف أسفاً مثل تلهف. والأَسِفُ الغضبان. قال الله تعالى: (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أَسِفاً). وقال الأعشى (شعر):

اری رجلاً منهم أسيفاً كأنما   يضمّ الى كشحه(٢) كفاً مخضبا

فيقال هو الغضبان. ويقال ان لأسافة الارض التي لاتنبت شيئاً وهذا هو القياس لان النباس(٣) قد فاتها. وكذلك الجمل الأسيف وهو الذي لا يكاد يَسْمَن. واما التابع وتسميتهم اياه أسيفاً فليس من الباب لان الهمزة منقلبة من عين وقد ذكر في بابه.

(أسك) الهمزة والسين والكاف بناؤه في الكتابين. وقال اهل اللغة (الماسوكة) التي اخطأت خافضتها فأصابت غير موضع الخفض.

(اسل) الهمزة والسين واللام تدل على حدّة الشيء وطوله في دقة. وقال الخليل (الأَسَل) الرماح قال وسميت بذلك تشبيهاً لها بأسل النبات وكل نبت له شوك طويل فشوكه أسل، والأسلة مستدق الذراع مالأسلة(٤) مستدق اللسان. قالوا وكل شيء محدّد فهو مؤسّل. قال مزاحم (شعر):

---

(١) نقتبس هذا البحث من كتاب (مقاييس اللغة) الذي كنا نشرنا عنه مقالاً في ص ٦٥ من هذا المجلد ووعدنا باقتبـاس شيء منه — ننشر ما نقتبسه على علاته سوى بعض أغلاط قد نشير الى تصحيحها في ذيل الصفحات. (٢) كشحه صوابه كشحيه.

(٣) النباس صوابه النبات. (٤) ما الأسلة لعل صوابه والأسلة.

يباري سديساها اذا ما تلجّمت شبا مثل ابزيم السلاح المؤسّل

(يباري) يعارض (سديساها) ضرسان في أقصى الفم طالا حتى صارا يعارضان النابين وهما الشبا الذي ذكر . والا (ابزيم) الحديدة التي تراها في المنطقة دقيقة تمسك المنطقة اذا شدت .

(اسم) الهمزة والسين والميم كلمة واحدة وهو أسامة اسم من اسماء الاسد .

(اسن) الهمزة والسين والنون اصلان احدهما تغيّر الشيء والآخر السبب فالاول فيقال[1] أَسَنَ الماء يأسِنُ و يأسُنُ اذا تغير هذا هو المشهور . وقد يقال أَسِنَ قال الله تعالى : من ماء غير آسن . واسِنَ الرجل اذا غُشي عليه من ريح البئر وههنا كلمتان مغلولتان[2] ليستا باصل . (احديها) الأُسُن وهو بقية الشحم وهذه همزة مبدلة من غين . انما هو غُسُن . (والاخرى) قولهم تأسّن تأسناً اذا اعتل وابطأ . وعلة هذه ان ابا زيد قال انما هي تأمّر تأمراً فهذه علتها . والاصل الآخر قولهم ان الاسانَ الجبالُ[3] . قال (شعر) :

وقد كنت أهوى الناقية حقبةً فقد جعلت اسانُ بين تقطّع

واستعير هذا في قولهم هو على اسانٍ من ابيه اي طرائقَ .

(اسو) الهمزة والسين والواو اصل واحد يدل على المداواة والاصلاح . يقال اسوتُ الجُرحَ اذا داويته . ولذلك يسمى الطبيب الآسي . قال الحطيئة (شعر) :

هم الآسون امّ الرأس لما تواكلها الاطبّة والاساه

اي المعالجون كذا قال الأموي . ويقال اسوتُ الجُرح اسواً واساً اذا داويته قال الأعشى (شعر) :

عنده البرّ والتقى واسا الشقّ وحملٌ لمضلع الانفال[4]

ويقال أسوتُ بين القوم اذا أصلحتَ بينهم . ومن هذا الباب: لي في فلانٍ إسوةٌ اي قدوة اي اني اقتدي به . وأسيتُ فلاناً اذا عزيتَه من هذا اي قلت له: ليكن لك

(١) صوابه يقال او اما الاول فيقال . (٢) مغلولتان صوابه معلولتان .
(٣) صوابه الحبال بالمهملة . (٤) لعل صوابه الاثقال .

بفلان اسوة فقد أصيب بمثل ما أصبت به فرضي وسلّم . ومن هذا الباب آسيته بنفسي .

(اسي) الهمزة والسين والياء كلمة واحدة وهو الحزن يقال اسيت على الشيءْ آسى أسىً اي حزنتُ عليه .

(اسد) الهمزة والسين والدال يدل على قوة الشيءْ ولذلك سمي الاسد اسداً لقوته ومنه اشتقاق كل ما اشبهه . يقال استأسد النبتُ قوي . قال الحطيئة (شعر) :

بمستأسد القرنان(1) حوٍّ تلاعه فنوّارُهُ ميل الى الشمس زاهره

و يقال استأسدَ عليه اجترأ . قال ابن الاعرابي : أسدْتُ الرجل مثل سبعْتُه . وأسْدُه بسكون السين الذين يقال لهم الأزْدُ ولعله من الباب . واما الإسادة فليست من الباب لان الهمزة منقلبة من واو . والأسْديّ (2) في قول الحطيئة :

مستهلك الوِرْدِ كالأُسْديّ قدجعلتْ ابدي المطيِّ به عادِيَةً رُغبا

(أسر) الهمزة والسين والراء اصل واحد وقياس مطّرد وهو الحبس وهو الامساك من ذلك الاسير وكانوا يشدونه بالقِدّ وهو الإسار فسمي كل اخيذ وان لم يؤسر اسيراً . قال الأعشى (شعر) :

وقيّدني الشعر في بيته كما قيّد الآسران الحمارَ

اي انا في بيته يريد بذلك بلوغه النهاية فيه . والعرب يقول(3) اسرقتْه(4) اي شدّه . وقال الله تعالى : وشددنا أسرهم . يقال أراد الخلقَ ويقال بل أراد مجرى ما يخرج من السبيلين . وأسرَةُ الرجل رهطه لانه يتقوى بهم . وتقول أسير وأسرى في الجمع وأسارى بالفتح . والأُسْرُ احتباس البول .

***

(1) كذا في الاصل ولعله مصحف او محرف عن مثل كرناف وهو اصول الكرب التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السعف . (2) الأُسْديّ مبتدأ ولم يأت له خبر ففي الكلام نقص . (3) كذا في الاصل والاظهر تقول . (4) صوابه أسر قتبه .

باب الهمزة والشين

« وما بعدهما في الثلاثي »

(اشف) الهمزة والشين والفاء كلمة ليست بالاصلية فلذلك لم نذكرها والذي سمع فيه الإشفى ٠

(أشا) الهمزة والشين والالف الاشاء صغار النحل[1] ٠ الواحدة اشاءة ٠

(أشب) الهمزة والشين والباء يدل على اختلاط والتفاف ٠ يقال عيص إشبٌ اي ملتف ٠ وجاء فلان في عدد أشب ٠ وتأشَّب القوم اختلطوا ٠ ويقال اشَبْتُ فلانا أشبه اذا لمته كأنك لفقت عليه قبيحا فلُمتَه[2] فيه ٠ وقال ابوذويب (شعر)

وياشبُني فيه الذين يلونها ولو علموا لم ياشبوني بطائل

والاشابة الاخلاط من الناس في قوله :

وثقتُ له بالضر[3] اذ قيل قدغزت قبائل من غسان غيرُ اشائب

(اشر) الهمزة والشين والراء اصل واحد يدل على الحدة من ذلك قولهم هو أَشِرٌ اي بطر متسرع ذو حدة ٠ ويقال منه أشِرَ يأشر ٠ ومنه قولهم ناقة مئشير مفعيل من الاشر قال اوس (شعر)

حرف ابوها اخوها من مهجّنة وعمها خالها وجناء مئشير[4]

ورجل أشِرٌ وأشرٌ ٠ والأُشُر رقة واحدة[5] في أطراف الاسنان ٠ قال طرفة (شعر)

بدلته الشمس من منبته بردا ابيض مصقول الأُشُر

واشرتُ الخشبة بالمنشار[6] من هذا ٠

---

(١) صوابه النخل بالمعجمة ٠ (٢) كذا وصوابه فلمته ٠ (٣) او صوابه بالنصر ٠

(٤) هذا البيت توارد فيه أوس مع كعب بن زهير في قصيدته (بانت سعاد) اذ قال :

حرف ابوها اخوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شمليل

(٥) قوله واحدة وصوابه وحدة ٠ (٦) قوله بالمنشار بالنون والأظهر ان يقول (بالمئشار) بالهمزة وهما بمعنى واحد ٠

ادبنا القومي

- ٦ -

صفوة الكلام

خرج لنا مما سلف من القول ان في مصر لونين من الأدب ادب الخاصة ، وادب الجمهور . او الادب العامي . أما ادب الخاصة فقد عرفت انه داثر في فئة قليلة لا تقوم في العدد بشيء اذا أضيفت الى سائر الناس هذا الى انه جد فقير في أداء هذه الماديات التي تتدافع الينا من الغرب في كل يوم . واذا ذكرت ان العربية لا تجن من أسماء الزهر الا الورد والنرجس والبهار والقرنفل والياسمين والآس والنسرين (واكثرها ان لم يكن كلها معرب) وثلاثين او اربعين اسماً أوردها صاحب المخصص للزهر والنبات الشذي ايضاً ، على ان احداً لا يعرف الآن لاكثرها مسمى — اذا ذكرت هذا وذكرت ان العالم ومن بينه مصر نفسها يولد في كل عام آلاف الازهار والانوار ويفيض على كل منها الاسم الذي يعينه ويميزه عما عداه اذا ذكرت هذا قدرت مبلغ فقر العربية في هذا الباب .

على ان الرأي في هذا يجب ان يصير الى مجمع لغوي قوي غني ثابت الاصل باسق الفرع . ولقد كررنا هذا فيما سلف من الكلام .

وقد عرفت ان في مصر انصاراً للقديم وانصاراً للتجديد وعرفت مدى ما بينهما من الخلاف . وعلاج هذا يجب ان يترك للطبيعة فهي وحدها الكفيلة ببقاء الاصلح والقضاء على ما عداه . وهي وحدها التي تنضج ماتدعو اليه حاجة الزمان وحاجة المكان . وعرفت ان هناك اختلافاً في اللهجات : تارة بقدر كبير وتارة بقدر صغير . وهذا يجب ان يترك علاجه للزمن . على ان اللهجات جعلت تتقارب وتتشاكل بتسريح نظر كل اديب فيما يبعث غيره من القول . وتلقط أحاسنه . واحتذاء كرائمه .

واما الادب العامي فهو الشائع المستغرق لسواد الناس خاصتهم وعامتهم في ادراكه وتذوقه بمنزله سواء . وأعلاه الزجل والموالي لانهما ادناه الى الادب العربي . وقد عرفت مبلغ سلطان العامية في هذه البلاد ، فانها الجارية على ألسن الناس حتى الخاصة . فبها يتحاورون وبها يتقاولون في جميع اسبابهم . الا ان يجتمع احدهم لمحاضرة او يتكلف لالقاء خطبة . وعرفت كذلك انها أثبت في النفس والصق بالحس بطول استعمالها وتقليب الألسن بها . كما انها أعظم غنى وأبلغ وفراً بادائها كل جديد . وترجمتها عن كل طريف بالتعريب وتارة بغيره من وسائل الترجمة والاداء .

واذا كانت العربية الخالصة تنتعش الآن وتعلو بما يبعث اهل البيان من شريف الفاظها ورائع صيغها فان العامية من جهة أخرى تنتشر وتستحصد بنشرها وقدرتها على المواتاة . وخاصة فيما يحصينا به الغرب كل يوم من خلق جديد . واذا اظردت هذه الحال ايضاً طائفة من السنين انبتت العربية الخالصة وعاشت عنا بنجوة . الا ان نقتصر على ضئيل من مطالب الحياة . والا ان تستعار للزينة والتبهج الحين بعد الحين .

هذا هو الواقع الذي لا يتداخله الشك ، والمكابرة فيه عبث من العبث لا يستحق المناقشة ولا الحوار .

***

وبعد فحقير ببلد كمصر له تاريخه الضخم . وله حاضره الفخم . وله مطلبه في الحياة وهو جسام — حقير به ان يعيش على العامية في لغته وفي ادبه جميعاً .

والعامية مهما ايسرت في الفاظها ومهما تهيأ لها بعض الحين ان تشك من دقاق المعاني فليست هي اللغة التي تستوي لعظام المطالب ، ولا التي ترضي الذوق الناضج . هذا الى انها لا تكتتب ، فاذا كتبت نصل ماعسى ان يكون لها من رونق وبهاء . اما ماينثبت منها على الكتابة كالزجل والموالي ونحوهما فهيهات ان يؤدي مجرد النظر في نقشه الى صحة النطق به حتى اذا لفظته على حكم ما بين يديك من حروفه اضطرب نظمه واختل وزنه وفسدت معانيه وذوت نواضره .

ثم لا يذهب عنك ان أجود ماخرج في الادب العامي انما هو من صياغة اعيان الادب العربي ، فمنه استمدوا . وبه استعانوا . فاذا اعتلجت اللوعة في نفس العامي فنفث بها

فتمثلت في بعض القول بديعة رائعة ، فسرعان مايسطو به جهله فيرديه في سائر الكلام الى الحضيض . واذا كان في العامة من يجيد لوناً من ألوان هذا الادب ويحذفه كما اجتمع للقول فذلك لان له طبعاً . وهذا الضرب من الناس نادر ، والنادر لا حكم له .

ثم ان بلاغة الكلام ليست حبساً على إصابة المعاني ، بل ان هناك ماهو اجل واعظم . هناك — وخاصة في بلاغة العربية — فحولة القول ، وشرف اللفظ ، وتلاحم النسج ، واشراق الديباجة . وليس للعامية في شيء من هذا حظ كبير او ضئيل . واذا لم تكن تحضرك الامثلة التي سبق لنا ان ضربناها لك في هذا الباب فلنأت اليوم بما يشبهها ليتضح بها المقام .

قال الشاعر :

فقلت لجناد خذ السيف واشتمل عليه برفق وانظر الشمس تغرب
واسرج لي الدهماء واعجل بممطري ولا يعلمن خلق من الناس مذهبي

وقال الشاعر :

يا ليتنا في غير امر فادح طلعت علينا العيس بالرماح

وقال الشاعر :

فقلنا لساقيها زياد يرقها فقد هد بعض القوم سقي زياد

وقال الشاعر :

فسائل بني جرم اذا ما لقيتهم وسعدا اذا ضجت عليك بنو سعد
فان يخبروك الحق عني تجدهموا يقولون أبلى صاحب الفرس الورد

ولا شك في ان هذا الشعر يخلب اللب ويهز النفس ، على انك لو فتشته لرأيته فارغاً من كل معنى شعري ، اوخيال يحلق بك في جو السماء ، او تشبيه يترقرق لنفسك ترقرق السراب على متن الصحراء . ولكنه مري بفحولة اللفظ و براعة التأليف وجودة النسج وسطوة الكلام .

وفي الغاية ، الى اين نصير بكتاب الله العزيز ؟ وهو مجدنا ، وهو ذر بعثنا ، وهو آية ديننا ، وهو ميراثنا التالد ، وهو مجدنا الخالد ، وهو حصننا نعوذ به كلما قهرتنا الاقدار ، وهو مشكاتنا نستصبح بها كلما غم علينا وجه النهار — اين نصير به ؟ وكيف الحيلة يومئذ في تفهمه ؟ وكيف الوسيلة في تأمل نظامه وتعرف احكامه ، وكيف السبيل

الى إمتاع النفس به وتقع الغلة برائع آياته ، ومعجز بلاغاته ؟

في الحق اننا لانستطيع ان نعيش على هذه العامية التي يحدرنا اليها الجهل والغرور والغفلة عما تفعل بنا الايام .

وصدق ابو العتاهية فيما قال :

الليل يعمل والنهار ونحن عمـ ـــا يفعلان باغفل الغفلات

وبعد ، فما كنت لأذهب الى إزالة العامية واستئصال شأفتها من هذه البلاد ، فذلك مما يتصل بالمستحيل ، وقد كانت العامية قائمة في أنضر عصور العربية وأزكاها . ولا سبيل الى إزالة العامية لا بازالة العامة ، وانما أريد ان يعمل العاملون على إشاعة صحيح العربية في سواد الناس وتيسيرها لهم حتى يفهموها و يتذوقوا — ولو بمقدار حلاوتها ، ويلمحوا مالها من روعة وجلال ، وذلك سهل ميسور . فاذا تم هذا أمكن الوصل ، بقدر محدود ، بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وبين أدب هؤلاء وادب هؤلاء ، وذلك لان ما يتروونه من فصيح العربية وناصع بيانها سيهذب أذواقهم ، ويفسح في ملكاتهم ، و يبعث نفوسهم الى الاستشراف كلما أصابوا في العربية قولاً جميلا ، ولا شك في ان هذا سيعلق على تطاول الايام بطباعهم ، فتنضح باثره السنتهم ، وذلك الذي يدفعهم الى الارتفاع بلغتهم وبادبهم حتى يتصلا بصحيح العربية ونصيحها ، وبهذا يصبح للبلد لغة واحدة وادب واحد . وان تفاوتت مراتبه ، وتلونت مذاهبه .

ولقد زعمت لك في بعض الكلام ان السبيل الى هذه الغاية سهل ميسور ، ذلك اننا الآن جاهدون حقا في إشاعة التعليم ، حتى اكتظت الحواضر بدور العلم . وهي بحمد الله كل يوم في ازدياد ، ولا ننسى التعليم الالزامي المفروض الآن على جميع المصريين من بنين وبنات . فالرأي ان يتخير من شعر العربية ونثرها أسهل الكلام وألينه و يروى التلاميذ اثناء نشأتهم . وهكذا يتدرج بهم بما لا يرهقهم ولا يند عن طاقتهم .

ولقد قلت لك "يروى" ولم أقل يحفظ لان كثيراً من أساتيذ البيان عندنا مع الاسف انما يعتمدون في تعليم تلاميذهم على مجرد التحفيظ وتفسير ما عسى ان يقع في الكلام من لفظ غريب ، فلا يعدو ما يتلقاه الطلاب من تخير الشعر ومصطفى النثر ان يحاز الى الحافظة فيختزن فيها اختزاناً ، وما هكذا يكون تعليم البيان . إنما يكون تعليم البيان بان تلقي على الطالب

القطعة المختارة من المنظوم او المنثور وانت توقعها ايقاعاً يتسق لما جرت به من بلاغة ، ثم لا تفتأ تنبه حسه لما أضمرت من سر ، وما نفثت من سحر . ولا تزال خلال ذلك تظهر الافتتان والانبهار بما تلوكه من الكلام ، وبهذا تشتد طبيعته ، ويربو ذوقه ، و يتصل ذوق البلاغة بنفسه حتى ليجري من أعراقه مجرى دمه . ولو قد ختم دروسه على هذا وانطلق لشأنه في الحياة فهيهات ان يسلو الادب . او يقصر في إمتاع النفس بالاكباب على بيان العرب .

ومما يخطئ فيه كثير ان ملكة البيان انشاء او مجرد تذوق لا تستوي للمرء الا اذا درس علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع . نعم انهم ليخطئون في هذا : لان بناء الكلام وتذوقه لا يحتاج شيء منها . في الواقع ، الى هذا كله ، واني اختزل لك الطريق فاؤكد لك ان تسعين في المائة من اعلام البيان في هذه النهضة الحديثة لا يعرفون أكثر من بضع قواعد من قواعد النحو . اما أبنية المفردات وتصرفاتها فقد حصلوها من مراجعة المعاجم . ومذاكرة كتب العربية في الآداب والعلوم . حتى العروض فاكثرهم لا يجيده ، وكثير منهم من لا يعرف من امره شيئاً . واما مايدعونه علوم البلاغة فهي على ما انتهت الينا ، لا تغني في البيان كثيراً ولا قليلا ، لان البيان الى انه طبيعة فان ملكته انما تنفسح بالتروي وترديد النظر والمحاكاة وطول التمرين .

ولقد كان للوزير المصلح المرحوم احمد حشمت باشا في هذا الباب رأي حكيم ، ذلك انه يجب الا يشاع كتاب ، وخاصة كتب التعليم ، الا اذا كان مضبوطاً بالشكل الكامل حتى اذا درج الناس على المنطق الصحيح وداموا بضع سنين يقلبون فيه السنتهم ، استقامت فطرهم ، وصحت ملكاتهم ، فلا يدخل عليهم الخطأ او اللحن الا في النادر القليل .

ولاشك ، بعد هذا ، في انه اذا تهيأ للمصلحين ان يبلغوا بالجيل الناشئ هذا المبلغ ، فان الطبيعة نفسها تأبى ان تنتشر في هذا الجو الا القصص الفصيحة والمنظومات البارعة ، والاناشيد الرائعة ، ادنى ماتكون اتصالاً بالعربية ان لم تنفذ الى صميم العربية .

ولا ننس ان المفردات وهي متن اللغة ومادتها انما يتكفل بها المجمع اللغوي ، ولقد تكرر في هذا الكلام .

* * *

يا رجال الادب ، ويا حماة لغة العرب ، و يا كل مؤمن بالكتاب الكريم ، و يا كل غيور على جلال هذا الذكر الحكيم ، و ياظهراء العلم ، و ياقائمين على شأن التعليم ، و يادعاة الاصلاح و يا قادة النهضة في البلاد — أنشدكم الله والدين والعلم والادب والوطن ان تهبوا بجمعكم للذياد عن لغتكم ، والجهد في شد متنها ، وتدعيم ركنها ، حتى ينبعث في البلاد لسانها ، و يسود كل بيان بيانها ، فما ذلك عليكم بعسير .

***

وبعد فلقد تطوحت في هذا البحث الذي أعلم ، وانا أعلم بنفسي ، انني له غير كفاء وما دفعني اليه ولا اغراني به الا صديقي الاستاذ الجليل محرر المساء . ولعله بهذا انما أراد لي ان أذكي قريحة خامدة ، وان احد فكراً قد صدئ وثلم . ولعلي بالتعرض لهذا الموضوع اكون قد اثرت لمعالجته هم الاكفاء القادرين ، وهذا حسبي ، وهذا عما قصرت فيه نعم العزاء .

وعلى كل حال ، فانني ان كنت قد أصبت في بعض القول فذلك من فضل الله وتوفيقه واذا كنت قد اخطأت ففي عفو الله مفيض وفي حلم القارئين متسع (ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت اليه أنيب) صدق الله العظيم اه .

باحث

الاستاذ جرجس منش (١)

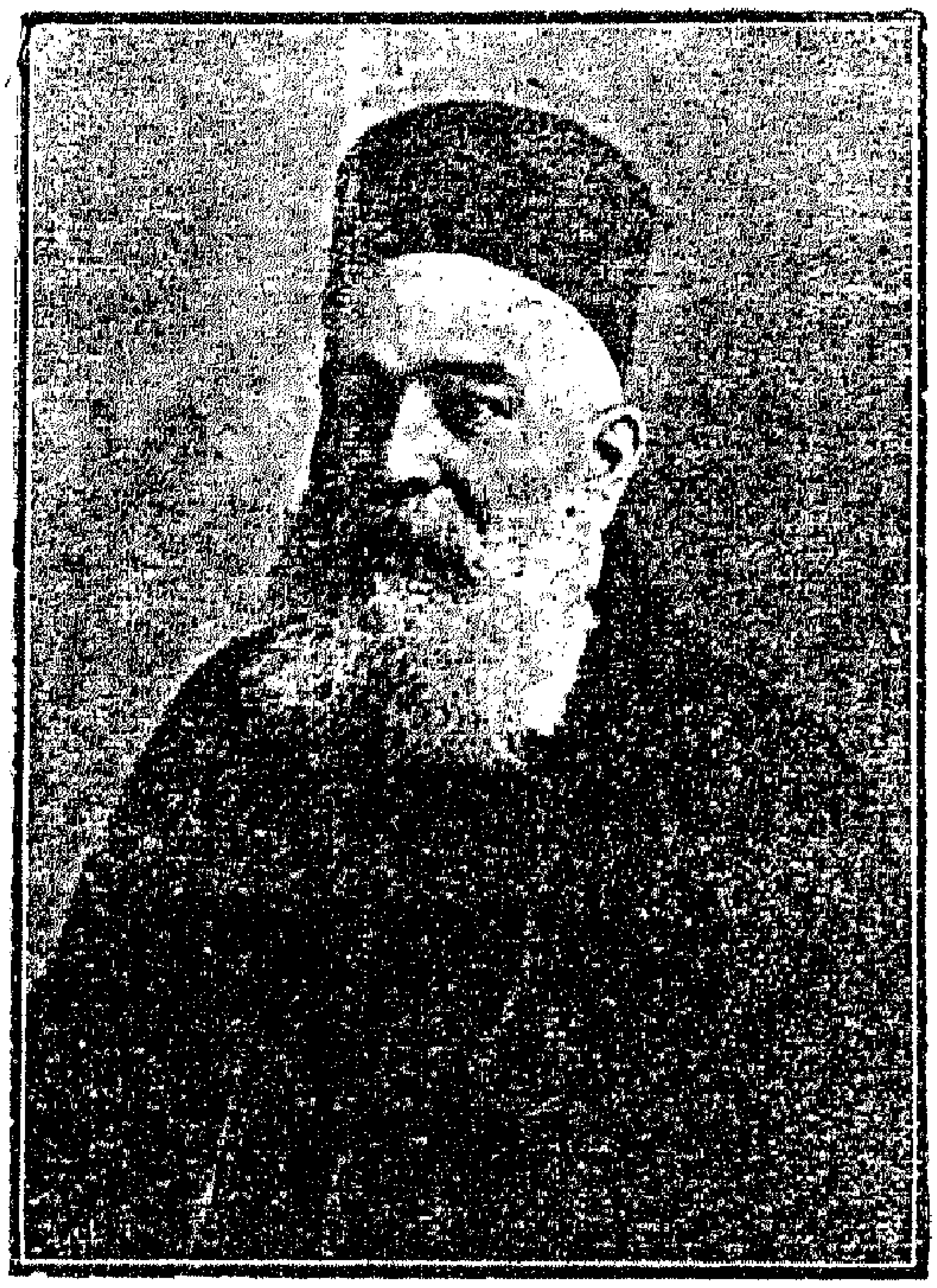

هو رشيد بن فرنسيس ابن يوحنا بن فرنسيس بن شكري بن بولس بن ابراهيم المكنى بابي منش · فهو ينتسب الى ابي منش · و يظهر ان ابراهيم الجد الأعلى المحدّث عنه كان متزوجًا قبل توطنه حلب ورُزق من امرأته الاولى ابنته المسماة مريم المعروفة (بمنش) فكني بها وعُرف (بابي منش) ومن بعده أطلق على أسرته فلقبت (ببيت منش) وهو في لغة العامة مخفَّف (منُّوش) محرف (مروم) الذي هو تصغير (مريم) عليها السلام · وهذا العلَم لايزال شائعًا متداولاً بين الارمن خاصةً فيسمون (بمنش) البنات اللائي يريدون تسميتهن بمريم · وعليه فاما ان يكون ابراهيم الجد الأعلى كني بابي منش من قبيل الاشتراك

(١) عضو المجمع العلمي المتوفى في حلب في شهر كانون الثاني من هذه السنة ·

الاتفاق وإما ان يكون له صلة باصدقاء من الارمن فدعوا ابنته مريم بأالفوه وهو منش فغلب عليه وعلى أسرته من بعده فبقي عليها علماً بالغلبة ·

وقد ولد رشيد بحلب في ١٦ كانون الاول سنة ١٨٧٣ ونصّره نسيبه القس جرجس منش في اول كانون الثاني فاتحة سنة ١٨٧٤ فانصرف والده الى تربيته وتوفر على تعليمه واعداده للدعوة الاكليريكية فكان ينشطه الى الدرس والاستفادة ويصحبه الى الكنيسة يلقنه في الآحاد والأعياد قراءة الفصول النبوية ليتلوها على الشعب حتى اذا بلغ السادسة من عمره ضوى الى مدرسة الارمن الكاثوليكية فأخذ فيها مبادئ اللغة العربية والارمنية وتحوّل الى المدرسة المارونية فواصل درس العربية وتلقى اصول اللغة السريانية والخط والحساب · ولما أدرك الثانية عشرة اختاره المطران بولس حكيم لاتمام دروسه في احدى المدارس الاكليريكية الطائفية · فدخل مدرسة مار عبدا هرهريا الشهيرة واقتبس فيها اللغات العبرية ، العربية والسريانية ومبادي' اللاتينية والايطالية ودرس الفلسفة والخطابة والجدل واللاهوت النظري والأدبي وشروح الكتاب المقدس وقال الشعر وهو في الحادية والعشرين وله عدة قصائد ومقطعات نظمها في سنته المدرسية الأخيرة ·

وبعد الامتحان النهائي رقاه المطران الياس الحويك (وهو غبطة بطريرك الموارنة الحالي) الى درجة الكهنوت في حفلة حافلة في ٣١ تموز سنة ١٨٩٥ فأمره البطريرك يوحنا الحاج بعد كهنوته ان يمارس اعمال الرسالة لاجل زيادة مرانه على الوعظ والخطابة فامتثل الامر وزاولها صحبة المرسلين الكريميين في شمالي لبنان كحصرون وبشرّي واهدن وما اليها نحواً من ثلاثة أشهر ·

وعاد الى حلب في ١٧ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ وتقيّد بخدمة الابرشية الحلبية وتقلّب في خططها الكهنوتية · وانصرف من اول امره الى التثقيف والتوقيف فدرّس اللغة العربية في مدرسة الآباء الفرنسيسيين خمس عشرة سنة ثم في مدرسة الروم الكاثوليك ثم في مدرسة الارمن الكاثوليك فتخرّج عليه عدد عديد من ناشئة حلب وأدبائها ·

وهو على رغم شواغله العديدة كان يرحل في اوقات الفراغ الى نيرب وارفاد وقورش وجرابلس وقنسرين والرقة وجبل سمعان من بلاد سورية الشمالية القديمة للبحث عن آثارها وتقصي أحوالها وله فيها فصول ضافية الذيول في جغرافيتها ووصف آثارها ومرافقها وذكر

وقائعها ومشاهيرها وما أشبه ذلك . نشر بعضها و باقيها لا يزال مطويا .

وفي أواخر الحرب العامة كان رغب عبدالخالق والي حلب في ان يتحدّى زميله اسماعيل حقي بك (متصرف لبنان) في تأليف كتاب في بلاد سورية الشمالية يشتمل على جغرافيتها الطبيعية والسياسية وما ينطوي تحتها من المباحث . فألفت لذلك لجنة من أدباء العرب والترك وضمت اليها المترجم فأخذ على نفسه البحث في النصرانية وأحوالها وتواريخها وآثارها وفنونها وسائر شؤونها الادبية والعمرانية والدينية ووضع في ذلك فصولاً وأبحاثاً عديدة قبل تتمتها كانت وضعت الحرب أوزارها فانفرط عقد اللجنة وحرم عالم العلم من هذا الكتاب الجليل الممتع .

وقد راسل المترجم من الجرائد عدة جرائد شامية وخص الأرز بعنايته لصداقة كانت تربطه بصاحبها فراسلها مدة صدورها . وكاتب من المجلات العلمية الادبية المشرق والزهور وكوكب البرية والآثار والشعلة ورسالة السلام والحارس ، وله صلة بادباء العصر وعلمائه الأفاضل ولديه مطارحات ومراسلات عديدة تبلغ سبعمائة صفحة .

ومن آثاره الأدبية المطبوعة تقويم المطبعة المارونية ، والطرفة الشهية في الرهبانية الفرنسيسية المعروفة بالثالثة ، والتحفة الادبية في المجامع المارونية وعليها حواشٍ ضافية في الطقوس والقوانين والآداب الكنسية ، والمستطرفات في حياة جرمانس فرحات ابي النهضة الادبية الحديثة مذيلة بجدول تصانيفه ومعرباته ومختصراته ، ورحلة علمية الى عاصمة الحثيين نشرها على صفحات مجلة الآثار .

ومن آثاره المخطوطة الحق القانوني عند الموارنة ، وخطط البلاد المارونية ، وحلب على عهد العرب ، وحلية النسب في أسر حلب ، ومفاخر الحقب في آثار حلب . نشر بعضها في مجلة الآثار . ومعين الأدب في وصف مكاتب حلب ، والصلوات القانونية في كنيسة حلب المارونية ، وجامعة البراهين في حكاية زقاق الاربعين وهي حكاية انقراض النصارى من حلب في القرن الرابع عشر او الخامس عشر . والعرف المسكي في اوتيخيوس البعلبكي والطقس الملكي وفيه أبحاث تاريخية انتقادية دقيقة في قضية بعينها ، وضروب الافانين في الخطب والتأبين وهي مجموعة خطبه وتأبينه التي لفظها في أوقات وأغراض متباينة الى غير ذلك مما هو غير تام التأليف .

وفي ٢٣ آذار سنة ١٩٢٣ انتخب عضواً للمجمع العلمي في حلب . وبعد بضعة أشهر تقرر تعيينه عضواً عاملاً في فرع حلب التابع للمجمع العلمي المركزي . ومن جملة آثاره في مجلة المجمع مقال نشره في مجلد السنة السابعة وصف فيه كتاب (تتمة يتيمة الدهر) احدى مخطوطات المكتبة المارونية بحلب . ومقالاً آخر نشره في مجلد السنة التاسعة حقق فيه ان مدينة (ذات الزيتون) التي كان عبدالرحمن الداخل مقيماً فيها وفر منها الى إفريقية — هي الزيتونة على الفرات اوقريبة منه في بادية الشام . ونشر في المجلد نفسه مقالاً حقق فيه ان كلمة (العربة) بمعنى العجلة او المركبة ليس اول من استعملها ابن بطوطة في رحلته بل هي معروفة قبل ذلك ولعل أصلها آرامي سرياني . وقد ناقشه الاب انستاس الكرملي في الموضوع فعاد هو ورد عليه . وكل ذلك نشر في المجلد التاسع .

رسالة الكرم

« العنب الأسود والاحمر والاصفر »

الرَّماديّ ضرب من العنب بالطائف أسود أغبر ·

الكِشْمِش بالكسر : قال في اللسان ضرب من العنب وهو كثير بالسراة ولم يزد على ذلك · وفي المخصص الكشمش وهوالحمنان وعاقيده ببض أمثال أذناب الثعالب وسيأتي عنه انالحمنان أسود الى الحمرة · وفي التاج عنب صغار لاعجم له ويكون أصفر واحمر واسود ألين من العنب واقل قبضاً وأسهل خروجاً قال القطمش يصف امرأته ·

كأن الثآليل في وجهها　　اذا سفرت برد الكشمش

قال في التاج و يقال بالقاف ايضاً اي قشمش ·

الغِرْبيب بالكسر: ضرب من العنب بالطائف شديدالسواد وهو أرق العنب وأجوده وأشدّه سوادا ·

أصابع العذارى : صنف من العنب أسود طوال كالبلوط شبه ببنان العذارى المخضبة وعنقوده متداخس[1] الحب وله زبيب جيد ومنابته السراة كذا في التاج ونحوه في اللسان ·

عيون البقر : قال في اللسان ضرب من العنب ولم يزد على ذلك · وفي التاج وعيون البقر ضرب من العنب أسود كبير مدحرج غير صادق الحلاوة · وفي المخصص وهو عنب أسود ليس بالحالك عظام الحب مدحرج يزبب وليس بصادق الحلاوة ·

الحَمْنان[2] : عنب طائفي اسود الى الحمرة صغيرالحب قليله كذا في التاج وفي اللسان

---

(١) لعله من دَخس اللحم وهو اكتنازه والدَخَس امتلاء العظم من السمن والدَخيس اللحم الصلب المكتنز · (٢) الحَمْن والحَمْنان صغار القردان واحدته حمنة وحمنانة ·

أسود الى الحمرة قليل الحبة وهو اصغر العنب حبًا · وفي الاصمعي واما الحمنان فأسود احمر وهو اصغر العنب حبًا · وقيل الحمنان الحب الصغار بين الحب الكبار وقد تقدم هذا ·

الدَّوَالي[1] : عنب اسود غير حالك وعناقيده اعظم العناقيد كلها تراها كأنها تيوس معلقة وعنبه جاف يتكسر في الفم مدحرج و يزبب هكذا في اللسان والتاج ونحوه في المخصص وفي الاصمعي واما الدوالي فأسود يضرب الى حمرة عظام الحب ·

ام حبيب : قال الاصمعي واما ام حبيب فسوداء زرقاء تعظم عناقيدها ويعظم حبها·

« ما لم ينعت من العنب »

الحبشي ضرب من العنب قال في اللسان · قال ابو حنيفة لم ينعت لنا ومثله في التاج والمخصص ·

الرعثاء عنب له حب طوال سمي بذلك على التشبيه بالزنمتين وفي اللسان ورَعثا الشاة زنمتاها تحت الاذنين · وشاة رعثاء من ذلك · ورعثت العنز من بابي فرح ومنع ابيضت اطراف زنمتيها · وزَنمة الشاة هنة معلقة في حلقها تحت لحيتها · وخص بعضهم به العنز و يقال ازنم الشجر اذا صارله زنمة كزنمة الشاة · والزنمة بالضم شجرة لا ورق لها كأنها زنمة الشاة ·

المُخَتَّم ذكره في المخصص ولم ينعته وقال زنة حبة منه اكثر من اربعة اساتير · والإستار وزن اربعة مثاقيل ونصف ·

القُبُوعي نوع من العنب ذكره الاصمعي ولم ينعته ولم اره لغيره

« تعريش الكرم وعرشه »

العريش ما عُرِّش للكرم من عيدان تجعل كهيئة السقف فتجمل عليها قضبان الكرم جمعه عُرُش كقليب وقُلُب · وفي المصباح وعريش الكرم ما يعمل مرتفعًا يمتد عليه الكرم والجمع عرائش ·

وعَرْش الكرم ما يدعم به من الخشب وجمعه عروش ·

وعرَش الكرم يعرِشه و يعرُشه عَرْشًا وعُرُوشًا وأعرشه إعراشًا · وعرشه

[1] ضبط بالشكل في اللسان والمخصص بكسر اللام فقط وفي الاصمعي بكسر اللام وتشديد الياء ولا اعلم ما يوجب التشديد ·

تعريشاً عمل له عَرْشاً ورفع دواليه على الخشب . وعرشه تعريشاً اذا عطف الميدان التي ترسل عليها قضبان الكرم .

واعترش العنبُ العريشَ اعتراشاً اذا علاه على العراش [1] .

واعترشت القضبان على العريش علت واسترسلت وهو مطاوع عرش كرفع وارتفع .

وقوله تعالى وجنات معروشات ، المعروشات الكروم .

وفي المخصص فان سند بعد ذلك فهو مُدَردس ومُمَرَّح ومعروش وعريش ومعرَّش ثم قال واسم ذلك الخشب العريش والعَرْش والجمع عروش .

المرزح كمنبر الخشب يرفع به الكرم عن الارض وفي التهذيب يرفع بها العنب اذا سقط بعضه على بعض . ورزحَ العنبَ وأرزحه اذا سقط فرفعه والمرزحة الخشبة التي يرفع بها .

الجُزْءة بالضم المرزح وهي خشبة يرفع بها الكرم عن الارض .

القلال ككتاب الخشب المنصوبة للتعريش لانه يقل بها الكرم قال الشاعر :

من خمر عانة ساقطاً افنانها رفع النبيط كرومها بقلال

اراد بالقلال اعمدة ترفع بها الكروم من الارض .

الدعمة والدعامة والدعام بكسرهن الخشب المنصوب للتعريش جمعه دعم بكسر ففتح ودعائم ودعم الشيءَ مال فأقامه كما تدعم عروش الكرم .

الدِّجْران بالكسر الخشب المنصوب للتعريش الواحدة دِجرانة .

الدُّقران بالضم خشب ينصب في الارض يعرش عليه الكرم واحدته دُقرانة .

وفي الاصمعي قد قَيَّع كرمه اذا ماحفر الدقران حفراً يثبته فيه .

الجازع الخشبة التي توضع في العريش عرضاً تطرح عليها قضبان الكرم لترفع عن

---

(١) هذه الجملة مذكورة في اللسان والصحاح ومختاره ونقلها في التاج عن المفردات (ولكني لم ارها في المفردات) وقد ورد لفظ العراش في المخصص ايضاً ولم يذكرها احد منهم في جمع عَرْش او عريش بل ظاهر كلامهم يدل على ان جمع عرش عروش وجمع عريش عُرُش ولعلها جمع عرش لان فعالاً يطرد جمعاً لفَعْل على ما ذكره ابن مالك ككعب وكعاب وثوب وثياب وضيف وضياف وصعب وصعاب فليراجع .

الارض فان نعت تلك الخشبة قلت خشبة جازعة · وكذلك كل خشبة معروضة بين شيئين ليحمل عليها شيء فهي جازعة · وفي اللسان الجازع خشبة معروضة بين خشبتين منصوبتين وقيل بين شيئين يحمل عليها وقيل هي التي توضع بين خشبتين منصوبتين عرضاً لتوضع عليها سروع الكرم وعزوشها وقضبانها لترفعها عن الارض · وفي المخصص ويقال للخشب التي يعرش فوقها العوارض والماطح والجوازع الواحد جازع فاذا وصفت الخشبة فهي جازعة وسيأتي معنى العوارض · واما المعاطح فلم أر من ذكرها ولعلها محرفة عن المساطح ·

المِسطح كمنبر الخشبة المعرّضة على دعامتي الكرم بالأطُر · قال ابن شميل اذا عرش الكرم عمد الى دعائم يحفر لها في الارض لكل دعامة شعبتان ثم تؤخذ شعبة [1] فتعرّض على الدعامتين وتسمى هذه الخشبة المعرّضة المسطح ويجعل على المناطح أطُر من ادناها الى أقصاها ·

والمسطح كمنبر وتفتح ميمه مكان مستو يبسط عليه التمر ويجفف و يسمى الجرين · يمانية · والمسطاح لغة فيه ·

القَمْل بالفتح عود يجعل تحت سروع القطوف لئلا تنعفر ويقال له المِشحَط ·

والمِشحط عويد يوضع عند القضيب من قضبان الكرم يقيه من الارض كالشَحْط والشحطة ·

وقيل الشحط خشبة توضع الى جنب الاغصان الرطاب المتفرقة القصار التي تخرج من الشكر حتى ترتفع عليها · وقيل هو عود ترفع عليه الحبلة حتى تستقل الى العريش ·

والشحطة العود من الرمان وغيره تغرسه الى جنب قضيب الحبلة حتى يعلو فوقه · وفي الاصمعي الشحطة عود ترفع به الحبلة حتى تنتقل الى العريش ويقال شُحِط الكرم · وشحّط الحبلة اذا وضع الى جنبها خشبة حتى ترتفع اليها وقيل حتى تستقل الى العريش ·

الحُرْدِيّة قصبات تضم ملوية بطاقات الكرم تحمل عليها قضبانه ·

(١) هكذا في اللسان والتاج وفي الاصمعي ثم تجيء بخشبة فتعرضها وهو الموافق لقول اللسان وتسمى هذه الخشبة المعرضة الخ ·

والهردية الحردية قال الازهري والذي حفظناه عن أئمتنا الحردي بالحاء ولم يقله بالهاء غير الليث . وفي المصباح والحردي بضم الراء وسكون الحاء حزمة من قصب تلقى على خشب السقف كلمة نبطية والجمع الحرادي . وعن الليث انه يقال هردية قال وهي قصبات تضم ملوية بطاقات الكرم يرسل عليها قضبان الكرم وهذا يقتضي ان تكون الهردية عربية وقد منعها ابن السكيت وقال لا يقال هردية اه . وقد اقتصر صاحب المخصص على الهردية بالهاء ولم يذكرها بالحاء وكذا صاحب اللسان . ولم يذكرها صاحب القاموس في مادة ح ر د وانما قال في مادة ه ر د والهردية الحردية ولم يذكرها صاحب الصحاح بهذا المعنى وانما قال والحردي من القصب نبطي معرب ولا يقال الهردي .

الزَّوافر خشب تقام وتُعرَّض عليها الدِعَم لتجري عليها نوامي الكرم وزافرة البناء ركنه الذي يعتمد عليه . والزفر بالتحريك الذي يدعم[1] به الشجر ويسند .

السِماك ككتاب خشبة يرفع بها العنب والجمع السمك ككتب والسماك ما سمك به الشيء اي رفع حائطاً كان او سقفاً وفي المخصص عن ابي حنيفة . وكل ما رفع به الكرم فهو مِسماك وسماك والجمع سُمُك لانه يسمك بها .

العوارض الخشب التي يعرش فوقها ولعلها مأخوذة من عوارض البيت وهي خشب سقفه المعرَّضة . واحدتها عارضة وفي كتاب الاصمعي والسمك التي يرفع بها العنب من الخشب والواحد السماك والتي تعرَّض فوقها السمك العوارض .

التمريح التمريش قال في التاج وكرم ممرح كمعظم مثمر او معرش على دعائمه .

الإمزاح تمريش الكرم قال في اللسان وأمزح كرمك بقطع الألف بمعنى عرِّشه .

الترجيب ان تدعم الشجرة اذا كثر حملها لئلا تنكسر أغصانها . ورُجِّب الكرمُ سويت سروغة ووضع مواضعه من الدعم والقلال .

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي

---

(١) كذا في التاج وفي اللسان التي يدعم بها الشجر بتأنيث الضمير وفي المخصص التي يدعم بها تحت الشجر وفي كتاب الاصمعي ما يدعم به الشجر .

آراء وافكار

—«»—

معهد مصر العلمي

Institut d'Egypte et Institut Egyptten

في اول سبتمبر سنة ١٧٩٨ وطئت قدما بونابرت مصر وقد عين قائداً عاماً لجيش الشرق وما عتم ان أصدر امره بتاريخ ٣ فريكتدور[1] (Fructidor) من السنة السادسة للجمهورية (سنة ١٧٩٨ م) بتأسيس معهد علمي يكون الغرض منه البحث في مختلف الشؤون للعلوم والفنون الخاصة بمصر . وقد عقد اول جلساته بعد ثلاثة ايام اي في ٦ فريكتدور بمنزل حسن كاشف في قسم الناصرية الحالي بالقاهرة حيث حارة مونج خلف المدرسة السنية للبنات بشارع الناصرية ، فانتخب مونج رئيساً للمعهد وبونابرت وكيلاً وفوريه سكرتيراً دائماً ونرى لليوم بطاقة لجنة حفظ الآثار العربية برقم خاص موضوعة على منزل ابراهيم بك السناري القديم حيث نقلت اليه المجموعة النفيسة التي تعب في التنقيب عليها واقتنائها المرحوم شارل جلياردو بك المتوفى بمصر في سنة ١٩٢٧ وكان قد نقل الى ذلك المنزل مكتبته ومجموعته باسم «متحف بونابارت» وافتتح رسمياً بحضور اللورد اللنبي وغيره من العظماء في ٥ مايو سنة ١٩٢١ .

وقد عين قرار التأسيس الغرض من انشاء هذا المعهد فجاء به ان مهمته تنحصر فيما يأتي :

(اولاً) للرقي ونشر نور الثقافة .

---

(١) يظهر ان هذا اسم من أسماء الأشهر التي وضعها رجال الثورة الافرنسية مكان أسماء الأشهر القديمة .

(ثانياً) للبحث والدرس ونشر الحوادث الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر ·

وحدد ايضاً عدد العلماء أعضاء المعهد فجاء فيه بانه يتألف من خمسين عوضاً يكونون مقيمين كلهم بمصر · وقسم الى اربعة اقسام : الاول للرياضيات والثاني للطبيعيات والثالث للشؤون الاقتصادية والسياسية والرابع للآداب والفنون · وكما انه تأسس بعد ثلاثة ايام من صدور القرار ظل كل عضو فيه يعمل باهتمام ثلاث سنوات وهي مدة الاحتلال الفرنسوي ومع انه انحل كهيأة منظمة واستمر الاعضاء الذين القوه يبذلون جهودهم لتحقيق الغرض من تأسيسه واخيراً جمعوا بحوثهم وطبعوها في المؤلف العظيم المرسوم بوصف مصر (Description de l'Egypte) وقد طبع لاول مرة في سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨١١ في سبعة مجلدات وأعيد طبعه بحجم أصغر للمتون سنة ١٨٢٦ في ٢٦ مجلداً غير الاطالس في احد عشر مجلداً للطبعتين وظاهر ان الطبعة الاولى كانت في عهد الامبراطور نابليون الكبير وبأمره كما هو مكتوب واما الثانية فكانت في عهد لويس الثامن عشر وانه حقاً عمل جليل عمله علماء اختصاصيون ولا يزال الى اليوم اثراً عظيماً جمع بين دفتيه المعلومات الجزيلة النفع ففيه فوائد معها قلت لا يستهان بها وعملاً قام على أصدق البحوث واكملها الى ذلك الوقت (منذ نيف ومئة عام) ومع ذلك فهو الى اليوم المؤلف الجليل والمرجع الذي يرجع اليه في كل موضوع خاص بمصر · وقد قسمت موضوعاته الى ثلاثة اقسام الاول عن الآثار والثاني عن وصف مصر في عهد الفرنسويين والثالث عن التاريخ الطبيعي ·

هذا مجمل مايقال وماتحسن به الاشارة الى المعهد في دوره الاول الذي أراد بونابارت ان ينشئه بمصر على مثال ما كان في فرنسا وكان يفتخر بانه عضو في Institut de France فكأنه أراد ان يفتخر ايضاً بانتسابه الى معهد مصر العلمي الذي امر بتأسيسه وبقي ولكن الى حين · وبعد مضي نصف قرن تماماً اي في ٦ مايو سنة ١٨٥٩ كان الوالي يومئذ محمد سعيد باشا فأصدر امره باعادة المعهد بناء على اقتراح العلماء مثل جونار jonard المستشرق الاشهر الذي يعتبر اكبر صلة بين باريس ومصر وارجست مار بيت بك (باشا فيما بعد) Mariette وكونج بك Konig Bey طبيب الوالي الخاص ودكتور شنب ديريرا Dererira Chinepp وغيرهم فأعيد المعهد في الاسكندرية باسم المعهد المصري العلمي Institut Egyptien وظل الاعضاء يواصلون اجتماعاتهم الى ان نقل الى القاهرة

في سنة ١٨٨٠ وسن له قانون جديد في ١٢ صفحة بالفرنسوية وهكذا وجد بجانب اسماء المشهورين من كبار المؤسسين الاولين وهم بونابارت وموبج ولو بيرو برتوليه وجوفر واسنت هيلر وغيرهم اسماء ماسبرو ونيروتسوس بك وشو ينفورث و بروخش وسيكبترجر ومحمود باشا الفلكي وفيجري بك ودلسبس وغيرهم من العلماء الاجانب والوطنيين الذين اقترنت اسماؤهم بالاستكشافات الحديثة والاعمال والبحوث المهمة الخاصة بمصر .

واخيراً في اول نوفمبر سنة ١٩١٨ صدرت ارادة من مولانا الملك باعادة الاسم الاول Institut d'Egypte وان يكون مؤلفاً من خمسين عضواً كما كان عددهم في بدء تأسيسه وهم الذين يحملون لقب العضوية والانتساب مدة الحياة . اما اختصاص المعهد فمقسم الى اربعة اقسام : (١) في الادب والتاريخ والآثار . (٢) في العلوم الادبية والسياسية . (٣) في العلوم الطبيعية والرياضية . (٤) في الطب والهندسة الزراعية والتاريخ الطبيعي . ويمكن انتخاب خمسين عضواً من اعضاء الشرف او من المكاتبين لكل قسم .

وتعقد الجلسات علناً بعد ظهر الاثنين الاول من كل شهر في المدة من نوفمبر الى مايو وتقوم لجنة ادارة المعهد بطبع (١) نشرة سنوية بالمحاضرات العلمية ومحاضر الجلسات والملحقات وجدول باسماء المشتركين (٢) مذكرات وهذه تصدر في اوقات غير محددة شاملة للبحوث المهمة التي تقدم للمعهد ويقرر قبولها واصدارها .

اما مكتبة المعهد فتعد من أهم مكتبات القطر وتشمل ثلاثين الفاً من المجلدات بعضها منقطع النظير نادر الوجود وفيها كل مايهم الباحث في الشؤون المصرية على الاخص . وأبواب المكتبة مفتوحة طول السنة عدا الأعياد الرسمية سواء للاعضاء العاملين اوللعلماء والجمهور ، و يقضي النظام المتبع بها بعدم اخراج كتب منها الا للاعضاء او لمن يضمنونهم من الاجانب . و يتبادل المعهد مطبوعاته مع مطبوعات المعاهد العلمية في انحاء المعمور .

هذا و يتألف مجلس الادارة لسنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ من الرئيس الدكتور جيور جياديس بك الكيماوي المعروف ومن الوكيلين اودبو بك المهندس ومسيو هور بيه المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية ومن السكرتير العام مسيو هرجو ينيه كاتم أسرار مصلحة الآثار المصرية ومساعده دكتور لبفي سكرتير شركة صناعات القطر وامين

الصندوق مع المكتبة مسيو بيونجالي المهندس والمقاول ۰ ولجنة النشر والمطبوعات مؤلفة من حضرات احمد زكي باشا ومسيو كوفييه والشيخ مصطفى عبد الرازق ومسيو لوكاس ۰

وقام المعهد باصدار المطبوعات بين نشرات ومذكرات من سنة ١٨٥٩ الى الآن على التتابع وقد فقد بعض المطبوعات الاولى كالحلقة الاولى الصادرة من سنة ١٨٥٩ الى ١٨٧٥ فانها اصبحت غير موجودة الا في دور الكتب العامة ۰

والمعهد مركزه بمباني الحكومة بجوار وزارتي الاشغال العمومية والمواصلات وتقوم الحكومة بدفع نفقات الطبع وما يضمن ظهور النشرات والمطبوعات والمذكرات وقد كانت الاعانة اولاً ٦٦٠ جنيهاً مصرياً رفعت الى ١٢٠٠ في سنة ١٩٢٨ لما كان المعهد برئاسة حضرة الاستاذ فيكتور موصيري ثم الى ١٥٠٠ جنيه اخيراً برئاسة جورجيادس بك ۰

عن المقطم باختصار : توفيق اسكاروس

حول كتاب الاعتبار

في ص ٧٧٢ ج١٢ من مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٣٠م ورد كلام لـ (م ك) في كتاب الاعتبار الذي حاول نشره العالم السيد فيليب حتي أستاذ جامعة (برنستون) وعضو المجمع العلمي العربي وقال في ضمنه ان السيد فيليب حتي نشر كتابين من كتب العرب قبل نشره هذا الكتاب وهما مختصر كتاب (الفرق بين الفرق) لمختصره عبد الرزاق الرسعني واصله لابي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ۰

وكلاهما لا يُعدان في كتب الدرجة الاولى التي تشتد حاجة العلم والادب الى احيائهما فمختصر الفرق بين الفرق ضئيل الفائدة لان الاصل مختصر فما بالك بمختصره الخ ۰

ألفت نظر الاستاذ الناقد ان فائدة الكتب ليست بالاختصار والتفصيل بل فائدتها باهمية موضوعها وكتاب مختصر الفرق بين الفرق واصله يُفيدان كثيراً في البحث عن حدوث الآراء والمقالات الدينية وتاريخ ظهورها واسباب نشوئها في الاسلام ۰

ولكن في المختصر الذي نشره الاستاذ فيليب حتي بعض نقصان يحتاج الى التكميل منه ان الاستاذ مع تتبعه لم يظفر بترجمة الرسعني يقول في ص ٤ من مقدمته (المختصر

هو عبد الرزاق الرسعني ولم أظفر له بذكر فيما بيدي من الكتب والمستنتج انه من (رأس عين) بالجزيرة . ومما يدل على انه لم يكن مجرد ناسخ بل انه كان على شيء من الأدب والمقدرة العقلية كونه اعمل ملكة الانتقاء في المادة التي امامه فعرف ما يصح الاستغناء عنه) .

اقول المختصر هو احد محدثي القرن السابع . ذكر بهاء الدين ابو الحسن علي بن عيسى ابن فخر الدين الاربلي[1] المحدث الاديب الشاعر الشيعي من علماء القرن السابع في كتابه (كشف الغمة في معرفة الائمة[2]) الذي فرغ من تأليفه سنة سبع وثمانين وستمائة ٦٨٧ هـ . ما نصه :

« نقلت من أحاديث نقلها صديقنا عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله بن ابي بكر المحدث الحنبلي الرسعني الاصل والموصلي المنشأ وكان رجلاً فاضلاً اديباً حسن المعاشرة حلو الحديث فصيح العبارة جمعت به في الموصل وتجارينا في أحاديث فقلت له يا عز الدين أريد ان اسألك عن شيء وتنصفني فقال نعم : فقلت : هل يجوز ان تلزمونا معشر الشيعة بما في صحاحكم ومن رجالها (عمرو بن العاص) و (معاوية بن ابي سفيان) و (عمران بن حطان) وكان من الخوارج فقال لا والله وكان منصفاً رحمه الله وقتل في سنة اخذ الموصل وهي سنة ستين وستمائة (٦٦٠) انتهى كتبت هذه الكلمة لما فيها من فائدة للقرار وتكميل لمقدمة الاستاذ لكتاب الرسعني » .

وقد وقعت في كتاب البغدادي اوهام في ذكر آراء الفرق وكذا وقعت شبهات قليلة في الحواشي التي ألحقها السيد فيليب حتي بالمختصر نشأت من اعتماده على الكتب التي اخذ موادها منها . عسى ان نشير اليها في مقالة أخرى .

ابو عبد الله الزنجاني
عضو المجمع العلمي العربي

(١) اربل مدينة كبيرة بين الزابين تعد من اعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين معجم البلدان ج ١ ص ١٧٣ طبعة مصر . (٢) كتاب كشف الغمة مطبوع في ايران ولكني نقلت عبارته عن كتاب مخطوط قديم يتضمن بعض اخبار واحاديث وحجج دينية وهو في خزانة كتب العلامة الشيخ فضل الله الزنجاني احد اعلام زنجان .

استدراك

ذكرتُ في وصفي لكتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » المنشور في مجلة المجمع (ج٢ م ١١) انه « لا يزال بدويا مخطوطا لم يُنشر بعد ... » ، والواقع انه طبع في تونس منذ سبعين سنة ، وقد ظفرتُ بنسخة مطبوعة منه ، فاذا هو مطبوع بحروف قديمة دقيقة رديئة جداً . ولم تطبع منه الا كمية قليلة نفدت كلها فيما نظن وعاد الكتاب نادراً لا يكاد يوجد .

في ١ أيار سنة ١٩٣١

تلمسان (الجزائر) : محمد السعيد الزاهري

مطبوعات حديثة

كتاب تهذيب الاخلاق

« للعلامة ابي زكرياء يحيى بن عدي الفيلسوف السرياني ، نشره السيد »
« مارسويريوس افرام برصوم سنة ١٩٢٨ في مجلة اللغات السامية في »
« شيكاغو بالطبع الحجري في ١٢٩ ص »

نشرنا منذ سبع سنين هذا الكتاب عن مخطوط كتب سنة ١٠٤٧ ﻫ منسوباً الى الجاحظ وقد تبين ان الكتاب نسب الى محيي الدين بن عربي والى يحيى بن عدي ثم ثبت من مخطوط حديث في خزانة الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس حداد ان الكتاب ليحيى بن عدي وان في نسبته الى الجاحظ او الى محيي الدين بن عربي نظراً . وها قد نشر السيد أفرام هذا الكتاب ايضاً عن نسخة قديمة كتبت سنة ٦٧٢ ﻫ ١١٧٣ م وجدت في مكتبة دير مارمرقس السريانية في القدس معارضاً لها على نسختنا وقال ان هذه أقرب الى النسخة القدسية وأثبت مع من أثبت ان الكتاب ليحيى بن عدي اليعقوبي لا محالة وقال انه طبعه على علاته ولم ير التعليق عليه وان كان له مايقال في كلامه الخ .

م . ك

مطبعة المعارف واصدقاؤها

١٨٩٠ — ١٩٣١

هذا عنوان رسالة في تراجم طائفة من المؤلفين والكتّاب والشعراء الذين اتصلوا بمطبعة المعارف في مصر من ابتداء أمرها الى يومنا هذا ·

يدخل في هذه الطائفة اليازجي وحافظ ابراهيم وقاسم امين وفتحي زغلول واحمد شوقي وخليل مطران وولي الدين يكن والدكتور منصور فهمي والمنفلوطي ولطفي جمعة وعبدالعزيز البشري والنشاشيبي وطه حسين وحرم منصور فهمي والسيدة دوبوك والسيدة إحسان احمد القوص والآنسة مي وغيرهم من رجال اللغة والأدب والشعر والاجتماع والفلسفة ·

و يدخل فيها بعض المؤلفين من الفرنسيس والانكليز ·

وضع الرسالة أصحاب مطبعة المعارف فأتقنوا طبعها وجوّدوا ورقها و حسنوا صورها فكانت نموذجاً صالحاً يدل على استعداد رجال الشرق ·

قدّم الرسالة الدكتور احمد فريد رفاعي بك فأثنى جميل الثناء على رجال العلم الذين يتعبون في سبيل راحة الناس و يشقون في سعادتهم ، ونوّه بفضل المرحوم نجيب متري وبجهوده في إخراج المؤلفات القيمة وبتقبّل نجليه شفيق وإدوار طريقته ·

تشتمل هذه الرسالة على مقال في تاريخ دور الكتب في الشرق وفي اوّل من ألف في الاسلام أنشأه الاستاذ السيد محمد البلاوي ·

وعلى مقال في العجائب الثلاث : الكلمة والحرف والمطبعة ، أنشأتها الآنسة مي ·

وعلى شذور طريفة من تاريخ الطباعة في الشرق ، وعلى بعض مشاهدات شاهدها الاستاذ انطون الجميل بك في مطبعة المعارف ·

وعلى وصف المطبعة ذاتها وصفه الاستاذ محمد امين لطفي بك ·

اما تراجم المؤلفين والكتّاب والشعراء التي تضمنتها الرسالة فهي وجيزة ·

في بعض الأحوال قد نجد دقة في التعبير ونريد بهذا ان الفكر مفرغ في قالب مهيأ له لا يزيد هذا القالب ولا ينقص فيكاد يكون كالثوب الذي يفصّله الخياط على

مقدار صاحبه لا قصر فيه ولا طول ، ولا سعة ولا ضيق ، من هذا الشكل الكلام على الشيخ ابراهيم اليازجي ·

وفي بعض التراجم قد نجد اشتطاطاً في التعبير من هذا القبيل القول في حافظ ابراهيم بك :

الطائر بجناحين بين الخافقين ، فلست أدري اي تصوير يصوّره هذا الكلام ·

فهل عرفنا الموصوف بهذا اللفظ حق المعرفة ، اننا لانزال نفتقر في بياننا الى دقة في التعبير اي الى إفراغ الفكر في القالب المهيأ لهذا الفكر دون شيء من الزيادة والنقصان ، اننا لانزال ننزع الى الغلو في بعض بياننا ، فهذا البيان محتاج الى يسيرمن صقل الحواشي ·

هذا وقد وقع في الرسالة بعض عجمة من هذا النحو : لعب دوراً بديعاً ، فالعربية لاتعرف هذا الكلام قد وقع بعض خطأ في النحو ، فقد جاء في مقال الاستاذ السيد محمد البيلاوي: فلم يمض عليها خمسة وعشرون سنة بدلاً من خمس وقديكون هذاالخطأ من المطبعة ·

على ان الغاية من وضع الرسالة التلميح الى ماوصلت اليه مطبعة المعارف من الإتقان والتجويد والتحسين والحقيقة ان المطبعة قدبلغت هذا كله، فمابلغته في هذا الباب غيرقليل·

شفيق جبري

امرأتنا في الشريعة والمجتمع

« تأليف الاستاذ الطاهر الحداد التونسي طبع في المطبعة الفنية بتونس »

« سنة ١٩٣٠ م في مئة واربعين صفحة »

ظهور هذا الكتاب في تونس يشبه ظهور كتاب قاسم بك امين في مصر وكتاب الآنسة نظيرة زين الدين في سورية من حيث وحدة الموضوع والجرأة في بسط مباحثه واستنكار الشيوخ له ·

ويمتاز هذا الكتاب بكون مؤلفه (الطاهر الحداد) من شيوخ الدين ومن خريجي جامع الزيتونة · وقد قال المؤلف في خاتمة كتابه مشيراً الى الموضوعات والابحاث التي عالجها فيه:

« لقد أوضحنا ما للمرأة في الاسلام من حق صريح وماادّخر لها في نصوصه الخالدة

من روح العطف والتقدير حتى المساواة . وبينا حالة المرأة التونسية وما في انحطاطها من صور الشقاء الذي يغمرنا في الحياة الزوجية وفي عائلتنا وفي تربية ابنائنا التي تخرجهم عاجزين عن اي عمل منتج في الحياة . وأعطينا صورة عامة عن رأينا في الخروج بامرأتنا من الهوة التي وقعت فيها بحكم أجيال التدلي الطويلة التي حرمتنا معها من بلوغ الحياة السعيدة التي نتخيلها ولا نراها الا في الامم الحية التي حاربت ماضيها وطعنت فيه روح الذبول والموت الذي كان سائداً عليها . وما قصدنا من ذلك كله الا ان ندرك جلياً حقيقة موقفنا قبل ان نذهب طعمة لماضينا السخيف » .

هذه هي المباحث التي خاض المؤلف عبابها وقد صور لنا حالة المرأة التونسية وما هي عليه من الانحطاط تصويراً جلياً . ولم يقتصر على هذا بل شرح في كتابه كل ما له علاقة بالمرأة من مظاهر الاجتماع التونسي حتى انه اطلعنا على رأي علماء تونس في المرأة فسألهم اثني عشر سؤالاً واخذ أجوبتهم عليها ونشرها بنصها في كتابه . ومن جملة جرأته في بحثه انه اعتبر تنصيف ارث المرأة المسلمة وتعدد الزوجات من قبيل التشريع الموقت : أذن بهما النبي صلى الله عليه وسلم ربثما تصل الامة الى طور أكمل فيحظرها المجتهدون بحكم قاعدة (تغير الاحكام بتغير الازمان) . ومما حض عليه المصنف واكد فيه القول تأكيداً إحداث (محاكم طلاق) و (رياض أطفال) لترقية العائلة والتربية الاسلاميتين . وقد وصف حالة العائلة التونسية وصفاً مؤثراً يستدعي العناية والاهتمام باصلاحها . ويمكن ان أقول ان كل ماذكره في هذا الموضوع صورة طبق الاصل عن الحالة النسوية او الاجتماعية في بلادنا المشرقية سوى شيء واحد فانني عجبت منه ويظهر انه خاص بالقطر التونسي ولا عهد لنا به . ولذلك أنقل عبارته نفسها المتعلقة بهذا الأمر . قال المؤلف : « بعد ان وصف ما تلاقيه المرأة التونسية مذ تنتقل من بيت ابيها الى بيت زوجها مكرهة هنا وهناك » ما نصه :

« ان المرأة في هذه الحال قد يقوى فيها عامل السخط فتهمل شؤون بيتها وزوجها او حتى بعض شهواتها التي لا تلزم ولكنهم (لعله يعني ولاة الامور او قضاة الشرع في تونس) أسسوا لها معهداً خاصاً بها لعلاجها - هو ما يسمى (دارجواد) منزل خاص يقيم عليه القاضي رجلاً قيماً يسمى (جيدا) وامرأته وتسمى (جيدة) يضع الرجل زوجته باذن

قاضي الشريعة عندهما في المنزل ويضيق عليها في طعامها وكسائها ونام وحدها ليلاً ولا تباح زيارتها الا باذن ومشقة . كل ذلك لتنزل الوحشة في قلبها فتطلب بنفسها الرجوع الى بيت الزوجية تائبة مستغفرة معلنة الرضى تملصاً من تلك النكايات القاسية عليها وليس بعيداً ان تثور الفتنة مرة بعد أخرى وتتكرر زيارتها الى ذلك المهد الزجري . فأي معنى بقي لهذه الزوجية المضطر بة تكن به حرة » اه . وختم المؤلف كتابه بقوله :

« انني أدعو جميع التونسيين مهما اختلفت آراؤهم وأميالهم لا الى تصديقي فيما أقول — فهذا مايبعد كثيراً عن مثلي — ولكنني أدعوهم الى التأمل معي في ذات الموضوع وخطره على مستقبل حياتنا اذا بقينا مستسلمين للحوادث العابثة بنا ناسبين ذلك الى الاقدار التي لا تغالب الخ » . «المغربي»

—«×»«×»—

فضل الخيل

« تأليف شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي من رجال القرن السابع الهجري »

« و(رشحات المداد) فيما يتعلق بالصافنات الجياد تأليف الشيخ محمد البخشي الحلبي »

« من رجال القرن الحادي عشر الهجري »

وهما مخطوطان طبعها وصححها الاستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ صاحب كتاب اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء فجاء الاول في ١٩٣ صفحة والثاني في ١١٨ صفحة من القطع المتوسط والأحرف الكبيرة .

تطبع المخطوطات القديمة اذا كان من وراء طبعها احدى فوائد ثلاث علمية او ادبية او لغوية . فأما من حيث العلم فالكتابان المذكوران خاليان من كل فائدة علمية الا بحثاً في أدواء الخيل وعلاجاتها جاء في آخر الكتاب الثاني ومعظمه خلط لا يجوز ان يتعلمه ارباب الخيل في أيامنا هذه لأن في تطبيق تلك العلاجات ازدياد الأدواء لا زوالها .

واما من حيث الأدب فالكتابان ليسا من الكتب الأدبية فان نصفها او اكثر أحاديث في الخيل وحكايات يمكن اختصارها بقليل من الصفحات لأن معظمها أسانيد لاتهم الا الفقهاء .

واما من حيث اللغة ففي الكتابين بحث طريف في خلق الخيل وألوانها وشياتها لكن حضرة الناشر لم يمتن بضبط الألفاظ التي وردت في هذا البحث فجاء كثير منها مغلوطاً فمن الأغلاط التي وجدتها في صفحة واحدة وهي الصفحة ٢١ من الكتاب الثاني قوله :

١ً — ونظير الشفر من الانسان الجحافل والصحيح ونظير المشفر من الانسان الجحافل .

٢ً — والشعر النابت عليها القيد والصحيح الفيد بفاء موحدة .

٣ً — ومنبت العنق المعرفة والصحيح ومنبت العرف المعرفة او ومنبت شعر العنق المعرفة .

٤ً — ورؤوس الوركين يقال لها الحجات والصحيح الحجبات .

٥ً — ووعاء الجرذان يقال له القنب والصحيح الجردان بالدال المهملة .

٦ً — وما اكتنفه من خارج كالحلين هو التغروران والصحيح الثعروران .

وجاء في الصفحة التي تليها الداعضة للعظم المتحرك على رأس الركبة والصحيح الداغصة .

وضبط الفسكل بفتح الكاف (ص ٨٢ من الكتاب الاول) للفرس الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة والصحيح بكسر الكاف . قال المؤلف « والعامة تسميه الفُسكُل » قلت وهذا الضبط فصيح .

وجاء في الصفحة الخامسة من المقدمة كتاب الزروقة والصحيح كتاب الزردقة والزرطقة وذكر في الصفحة ٤٥ من الكتاب الاول السلغذ بالذال المعجمة وهي بالدال المهملة .

وهكذا ترى في الكتابين عدداً لا يستهان به من الغلطات المطبعية التي كان يجب على الاستاذ المحقق طابع هذين الكتابين ان يتلافاها .

وقد قدم الناشر الفاضل للكتابين مقدمة أجاد فيها وهي تشتمل على موجز في حياة المؤلفين الدمياطي والحلبي .

مصطفى الشهابي

هدايا كتب

أهدى السيد مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر من مطبوعات مطبعتهم المشهورة بمصر الى مكتبة مجمعنا العلمي الكتب الآتية :

(١) الجزء (١٧ و١٨ و١٩) من كتاب (الجواهر : في تفسير القرآن) وهو التفسير المشهور الذي يضعه الاستاذ طنطاوي جوهري . وهذه الاجزاء الثلاثة هي تتمة أجزاء التفسير التي كان أهداها الى مكتبتنا السيد مصطفى وأولاده الموما اليهم من قبل .

(٢) كتاب السيرة الحلبية وهي من أشهر السير النبوية في مجلدين ضخمين تبلغ صفحاتهما زهاء الف ومائة صفحة .

(٣) كتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) بقلم الاستاذ (محمد ابو زيد) وهو نسخة القرآن نفسه قد طبع طبعاً متقناً وترك حوالي صفحاته بياض أودعه تفسير القرآن بالقرآن اى انه يطبع في الهامش رقم الآية و يقول راجع بمعناها الآية الفلانية رقم كذا في سورة كذا وقد يعلق المفسر على بعض الآيات تعليقاً يوضح المعنى الذي نزلت لاجله الآيتان او الآيات . لكنه في بعض المواطن خالف المشهور من أقوال المفسرين ولذلك منعته الحكومة المصرية كما بلغنا أخيراً .

***

وأهدي الينا ايضاً الجزء (الحادي عشر في الوكالة) من كتاب (درر الحكام شرح مجلة الأحكام) تأليف العلامة (علي حيدر) وتعريب السيد فهمي الحسيني المحامي المشهور وقد طبع على نفقته في مطبعة غزة طبعاً حسناً .

و كتاب (مبادي الاسلام) تأليف السيد عبد الحق منصور من علماء مدينة طرطوس وقد ضمنه مباحث جليلة في فضائل الدين الاسلامي ومكارم الأخلاق التي اتى بها وحض عليها . وقد طبع في المطبعة الوطنية ببيروت .

و كتاب (ذكرى السويدي) وهو الشيخ (يوسف افندي آل السويدي) عليه الرحمة يتضمن طائفة مما قيل في رثائه جمعتها لجنة تأبينه في بغداد .

والجزء الاول من كتاب (دروس الدين الاسلامي) يتضمن بحث العبادات وهو مطابق

للقرن الثلثين السادسة والسابعة اي السادسة والخامسة من المدارس التجهيزية تأليف السيد محمد زهدي الخماش مدرس العلوم الدينية في المدارس التجهيزية سابقاً وقد طبع بنفقة المكتبة الهاشمية بدمشق ·

وكتاب (بديعية العميان) في فن البديع احد فنون البلاغة الثلاثة عني بنشرها الاستاذ عبدالله مخلص احد أعضاء مجمعنا العلمي وطبعها طبعاً حسناً في المطبعة السلفية وهي تقع في ٥٢ صفحة مع تقريظ وملاحظات ملحقة بها بقلم احمد تيمور باشا رحمه الله ·

وكتاب (تلقي علم الدين) وهو رسالة صغيرة الحجم تتضمن البحث في تقصيرنا في علم الدين وطرق تلافي ذلك — بقلم الاستاذ عبد الحميد الجابري من علماء حلب واحد أعضاء مجمعنا العلمي ·

وكتاب (تعليم المرأة) وهو كتاب اجتماعي تدور مباحثه حول المرأة لمؤلفه الاستاذ جعفر حسين احد علماء الشيعة في العراق وقد طبع بمطبعة الشعب ببغداد ·

و كتاب (الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري) من مصنفات الشيخ عبد الغني النابلسي وهي رسالة صغيرة في (٢٤ ص) عني بنشرها غب تصحيحها ومقابلتها على نسختين خطيتين في حلب — الشيخ راغب الطباخ احد أعضاء مجمعنا العلمي · وموضوع هذه الرسالة بحث من مباحث العقائد الاسلامية ينبغي درسه درساً عميقاً لنتوصل به الى تعيين موقف الانسان بالنسبة الى العمل الذي كلفه الشارع اياه وهل هو مجبر عليه او حر مختار فيه والى اي حد تنتهي هذه الحرية ·

وكتاب (مسهل الآداب) ألفه السيد جميل سلطان وتدور مباحثه حول (المفردات · المشتقات · المحفوظات · الانشاء) وهو كما يرى القارئ كتاب مدرسي طبق المنهاج المقرر تدريسه لطلاب الصف الخامس وقد نشرته مكتبة عرفة بدمشق ·

« المغربي »

Bibliotheca Alexandrina
0652779